



الأنبياء في العراق

دراسة مقارنة
بين القرآن والتوراة والآثار
الدكتور
رعد شمس الدين الكيلاني



الأسياء في العراق

وزارة الثقافة



دار اللؤلؤون الثقافية العامة

بغداد - ٢٠٠١



دار الشؤون الثقافية العامة - افاق عربية - شركة عامة
حقوق الطبع محفوظة
تتمون جميع المراسلات الى :
رئيس مجلس ادارة دار الشؤون الثقافية العامة : عادل ابراهيم
المشؤون :

المراتب - بغداد - اعظمية

ص . پ . ٤٠٣٢ - فاكس ٤٤٤٨٧٦ - هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

البريد الالكتروني dar@arablink.net

الموقع على شبكة الانترنت www.arablink.net/raqa/raqa-arab-info.htm

سلسلة رسائل جامعة

الانبياء في العراق

دراسة مقارنة
بين القرآن والتوراة والأنبار

الدكتور

رعد شمس الدين الكيلاني

الطبعة الاولى - بغداد ٢٠٠٦

المقدمة |

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
اجمعين ويعد :

فان الكتابة في تاريخ قبل الاسلام ترتبط بالاسلام عن طريق الانبياء ولذلك
تعرض مؤرخو الاسلام لاحداث هذا التاريخ من خلال هذا المنظور فكتب الطبري وغيره
من رواد المؤرخين عن الملوك والامم والانبياء واخبارهم . وكانوا بذلك يمهون لمرحلة
الرسالة الاخيرة وهي رسالة محمد (ص) . ولكن كانت هذه الكتابات تستقي جل
معلوماتها عن طريق اهل الكتب السماوية والانبياء التي سبقت الاسلام وخصوصا
التوراة واخبار اهل الكتاب . واعتمدت كذلك في جزء من مانتها التاريخية على
اخباريين كانوا قد عمروا وعاشوا في ظروف اكتسبوا خلالها المعلومات والاخبار عن
سبقهم . وكانت . الفاية من نقل هذه الاخبار هي الاعتراز بتاريخ الاقوام والقبائل
وتمجيد تاريخ تلك القبائل ، ولذلك غلب عليها التضخيم والاسطورة وافتقدت في كثير
من مانتها الى المنهجية والعلمية . وعندما نشأ علم التاريخ في امة الاسلام كانت
نواعي نشأته مرتبطة بخدمة الشريعة وكتاب الله تعالى وسنة نبيه الكريم ولذلك
(كان الغرض الاول من تدوين العلوم في الاسلام هو حفظ الشريعة فكل علم يخدم

نلك الفرض فهو واجب الدراسة ، حتى يكون الاشتغال به وسيلة الى قصد سام . ومن هنا كان الاشتغال بعلم المغازي والسير مكملاً لمعلم الفقهاء (١) والكتابة في التاريخ بصورة عامة محفوظة بالصعوبات والتأثر والانفعال وذلك لصعوبة تجرد المؤرخ عن الانحياز لاهداف مسبقة او الاستدراج نحو الاهواء والشغف بالتضخيم او الاهدال والكتب ولذلك قال ديورانت : (معظم التاريخ ظن وبقية من املاء الهوى) (٢) .

وعندما وضع المسلمون قواعد الرواية للحديث النبوي الشريف كان هدفهم الاول صيانة السنة من الوضع والتحريف ثم انتقلت هذه القواعد والضوابط الى العلوم الاخرى واثرت فيها مثل علوم التفسير والسيرة والتاريخ وكان التاريخ اقرب العلوم واكثرها تأثراً « بقواعد المحدثين ولكنه لم يسلم من الوضع والتحريف والتزييف في بعض رواياته بل ان معظم المحدثين لا يعترفون بروايات المغازي والسير والتفسير – ولكن يمكن القول بصورة عامة ان الحركة الفكرية العلمية الاسلامية انقذت التاريخ الاسلامي من الضياع عن طريق اختبار الرواية التاريخية تأثراً بالحديث والرواية الحديثية – وقد حاول الغربيون ولكن بعد مدة متأخرة ان يحاكيوا المنهجية الاسلامية في نقد الرواية فكتبوا عن نقد الوثائق التاريخية ظاهرياً وباطنياً ولكن تبقى الفجوة كبيرة بين ما حققه المسلمون وبين الضوابط التي وضعها المؤرخون الغربيون لكتابة التاريخ . ولكن هذا الكلام يمكن قبوله اذ كان موضوعه تاريخ الاسلام اما اذ كان الموضوع تاريخ قبل الاسلام فالمسألة تزيد تعقيداً بالنسبة لمؤرخي الاسلام حيث كتبوا تاريخ قبل الاسلام بطريقة تختلف عن كتابتهم لتاريخ الاسلام . ولذلك عندما بدأت في البحث من اجل الكتابة عن الانبياء في العراق وجدت الرواية الاسلامية قد اختلفت منهجيتها لتتوحد مع الرواية التوراتية واخبار اهل الكتاب توحداً يكاد يكون متطابقاً . ولهذا السبب كانت المهمة ليست يسيرة في عملية غربلة الرواية الاسلامية والبحث عن الروايات الصحيحة او الروايات التي يمكن الاعتماد بها . فكان تخليص الرواية الاسلامية من الاثر الاسرائيلي والثقافة الاسرائيلية المشوهة يعد من اهم نواحي الرسالة . وكان النص القرآني

(١) المنخل الى التاريخ / نورالدين حاطوم وجماعته / ص ١٦٥ / مطبعة الانشاء / دمشق . ١٩٦٥ .

(٢) ديورانت / هول / قصة الحضارة / ١٦ ج ١ ص ٢٣ / ط٤ / مطابع الديوري / القاهرة . ١٩٧٣ .

والحديث الصحيح هو الفرصة الوحيدة للخروج بصورة ايجابية لتاريخ هؤلاء الانبياء عليهم السلام . ولكنني وجدت ان الدراسات الاثرية قد وصلت الى مرحلة متطورة وغطت مساحات واسعة من التاريخ وان هذه الدراسات وان كانت تنتمي الى خلفية علمانية لا تؤمن بالدين غير اني قد وصلت الى حقيقة مهمة وهي ان معظم نتائج هذه الدراسات قد وظف لخدمة التوراة والدراسات اللاهوتية . فشجعتني تلك الى ادخال الآثار كمصدر لتفسير النصوص القرآنية واستكمال الصورة التاريخية للرواية التاريخية المذكورة في النص القرآني والنص التوراتي والوثيقة الآثارية . فكانت هذه الدراسة وبحسب علمي الاولى من نوعها في العالم الاسلامي ادخلت الآثار بصورة رئيسة ومهمة في اسناد الرواية التاريخية الاسلامية - وقد اقتصر الرسالة على الانبياء الذين ظهوروا في العراق او الانبياء الذين مروا بالعراق . وانا اذ يسر لي رب العالمين اتمام هذه الدراسة اقدم شكرتي وتقديري لاستاذي الدكتور محمد جاسم المشهداني الذي اعانني على اختيار الموضوع وارشدني اليه ، ومع شيخ المؤرخين في العراق اطال الله عمره ونفع بعلمه استاذي الدكتور حسين امين الذي تكرم فقمزني برعايته وتوجيهاته عندما كان يقرأ لي ما كتبه اثناء الاشراف على الرسالة ولساني يلهج بالدعاء له وشكري لا يكافئه صنيعه فلعل الدعاء بان يجازيه الله خيراً علي افضل ما اقدمه له من ثمرة لهذه الدراسة التي واكبها خطوة خطوة ، فنسال الله تعالى ان يكتب له مشاركة في الاجر . ولا يفوتني ان اتقدم بالشكر والدعاء للدكتور عامر سليمان استاذ التاريخ القديم في جامعة الموصل الذي استقبلني وناقشني وارشدني الى بعض القضايا التي كنت بعيداً عنها في مجال الآثار والتاريخ القديم . وشكري وتقديري لاستاذي الدكتور عمادالدين خليل المفكر الاسلامي والمؤرخ الكبير الذي شجعتني وابدى توجيهاته القيمة حول الدراسة . كما واشكر الدكتور محمد طه الاعظمي المتخصص بالتاريخ القديم الذي اعانني ببعض المصادر . وفي الختام اسعو الله ان يجازي خيراً كل من اعانني على انجاز هذا العمل من المشورة الفكرية الى الطباعة وان يتقبل الله منا ، وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين —

الفصل الاول

ظهور الانبياء
وأثره
في حضارات وادي الرافدين

المبحث الاول

لبداية الواسية او فجر الوسي

ان تحديد نقطة البداية بالنسبة لتاريخ التاريخ او ما قبل التاريخ كما سماها دانيال ولسن وجاء بعده جون لويوك الذي نشر كتاباً سماها أزمنة ما قبل التاريخ (Prehistoric Times) وكان ذلك سنة ١٨٦٥ ، ان تحديد نقطة البداية لهذه المساحة ، التاريخية الهائلة تبدو غير منطقية وغير علمية ، ولكن دأب باحثو التاريخ في وقت متأخر على التعرض اليها وشدت اهتمام العلماء في تخصصات الانثروبولوجي (العلم الذي يبحث في وصف الانسان) وتأسست فلسفات ووضعت نظريات تقوم على نتائج متابعة التطور التاريخي لأشكال الحياة . انسحب هذا التأثير على مجالات ثقافية واجتماعية ودينية ، وانقسمت الآراء واحتتمت ساحات الحوار والنقاش وحدثت معارك طال امدها ، ولكن هذه المعارك كانت في مختبرات البحوث ومراكز الدراسات وطباعة الكلمة ، ولذلك اكتسب هذا الموضوع أهمية قصوى بالنسبة لمجالات عديدة في التخصصات العلمية الكل كان يبحث عن الحقيقة كيف كانت ؟ وحاول بعض العلماء الذين كانوا يملكون حساً فلسفياً ان يصوغ هذه المعطيات التي تبلورت نتيجة هذه الابحاث صياغة محبوبة تروي قصة متكاملة في فصولها منذ البداية حتى عصرنا الحالي^(١) ، كما فعل بيورانت في قصة الحضارة

(١) وقد كانت محاولة تونبي في كتابة تاريخ البشرية الذي نشره بجزاين تعتبر أحسن مثال على ما نكرنا وغيره كثير .

والدكتور رالف لنتون في كتابه شجرة الحضارة^(٢) .
 ان البحث عن أصل الحياة ومن ثم أصل الانسان وعن نوره في الحياة وعن بداياته الاولى على الارض وهو يخطو خطواته الاولى تاركاً وراءه آثاره ومخلفاته وهو يمارس الحياة . ليس يسيراً والبحث عن أشكال تطور هذا الانسان وتطور وسائل عيشه ابتداءً من الانسان الاول الى إقامة المجتمعات المدنية الاولى حيث اقيم اول مجتمع وظهور اول المفاهيم الدينية التي تمد « الاهداف الرئيسية في دراسة الحضارة^(٣) . ومن ثم متابعة تطور التكوين الاجتماعي الاول الى تنظيم العلاقة الاجتماعية وضبطها بمركز اداري يتمثل بالسلطة والدولة حتى بداية تكون نول المدن (City States) ، واستمرار تصعيد الفعالية للنشاط الانساني حتى يبلغ الذروة عندما يتمثل في حضارة . ان البحث عن القصة من خلال هذا المسار حتى تنتهي الى الصورة التي في وعينا المعاصر التي نرى من خلالها سيطرة الانسان على مقدرات هذا الكوكب ، كل هذه الامور تضع أمامنا معضلات قد تصل في بعض نقاطها الى الغاز يستحيل فهمها وتحليلها ، كما سماها بذلك توينبي وهو يتابع فصول هذه القصة ويحاول ان يتعامل مع البداية المعقدة^(٤) . لقد ذكر لنا العلماء ان « الحياة بدأت تظهر على سطح الارض منذ أكثر من ١٥٠٠ مليون سنة ، بلليل وجود آثار كاربونية من أصل عضوي بين طبقات الصخور الرسوبية ، وكانت عضويات هذا الزمن الابتدائي (Primary Age) هي الاصل المشترك لجميع الاحياء ، وكان هذا الاصل المشترك عبارة عن كتلة مجهورية هلامية شفافة نصف نباتية ونصف حيوانية تسمى بالمعصية ، وهي ذات خلية واحدة تفرعت الى فرعين اصبحا فيما بعد اصل إحياء المملكة النباتية والمملكة الحيوانية^(٥) .

ان هذه الفرضية لبداية الحياة لا يوجد دليل مادي على صحتها وان المشكلة

(٢) انظر : لنتون / د . رالف / شجرة الحضارة، قصة الانسان منذ فجر ما قبل التاريخ حتى بداية العصر الحديث / ترجمة - د . أحمد فخري / نشر من مكتبة الانجلو مصرية ه . ت .

(٣) لنتون / د . رالف / شجرة الحضارة / م . س / ص ٢٣ .

(٤) انظر توينبي / ارولد / تاريخ البشرية / ج ١ ص ٢٠ وما بعدها / الاهلية ، بيروت سنة ١٩٨٨ .

(٥) الدباغ / د . تقي ود . وليد الجادر / عصر ما قبل التاريخ / ص ٩ / مطبعة جامعة بغداد سنة ١٩٨٣ .

تزداد تعقيداً ولا يمكن النظر اليها بهذه الطريقة الافتراضية لان هذا الفرض يقودنا الى فروض أخرى تبدو أكثر غرابة ويصعب تقبلها تلقائياً ونحن نقراً عن العصر الصليوبي الذي بدأ قبل ٣٦٠ مليون سنة واستمر مدة ٣٥ مليون سنة « وفي اواخر هذا العصر بدأت الحياة تزحف نحو اليابس ببطء في اول الامر ثم بسرعة وفي العصر الديفوني الذي بدأ ٣٢٥ مليون سنة واستمر ٤٥ مليون سنة وفي نهاية هذا العصر تطورت مجموعة من الاسماك الفلرية التي كانت تعيش في المستنقعات واستطاعت ان تلمي في نفسها جهازاً تنفسياً يلائم فصل الجفاف فاكتملت المقدرة على التنفس بواسطة رئة وهي مستلقية في الطين وفي مجموعة اخرى من الاسماك نمت الزعانف بحيث أصبحت تستطيع ان تنتقل بها في هيئة اقدام من مستنقع الى آخر وهكذا ظهرت البرمائيات^(٦) . اننا نستطيع قبول تقدير المدد الزمنية والحقب الجيولوجية وكذلك تقدير عصور ظهور أنواع الكائنات الحية ولكن لا يمكن ان نتقبل تبسيط رواية التغيرات الخلقية بالصورة المذكورة . على الرغم من ان اصل الحياة لا يزال حالة من حالات المجهول الذي يستحيل الاجابة عليه ، يضاف اليه التعقيد الحاصل في اشكال الحياة وهي تطور نفسها ، ومن المعلوم « ان كل خلية على حدة والخلايا جميعاً انما هي نوع من الحاسب الآلي (Computer) مكون من أنظمة تبادلية تجل عن الحصر . كيف تسلي لمثل هذا النظام المعقد ان يتكون ؟ على الرغم من كل ما بين ايدينا من معارف فان العلم لم يتوصل الى الاجابة على هذا السؤال^(٧) . ان النظريات الموجوبة لن تفسر لنا كيف تكونت الاشكال المعقدة بدرجة عظيمة كما انها لم تمننا بالمعطيات البيانية التي تحكم أداها وتكاثرها . كما أنها لم تبصرنا بخصوص تعقد النظام الذي يحكم كل صغيرة وكبيرة من سلوك الكائن ككل^(٨) . ان مشكلة التطور العام لاشكال الحياة قضية معقدة متشعبة ، تتطلب البحث في ميادين متباينة منها العلوم الطبيعية (علم النبات والحيوان) والتشريح المقارن وعلم الاحاث (Paleontology) الذي يبحث عن المتحجرات المتبقية في الطبقات الرسوبية . وكذلك علم الاجنة والكيمياء . ومع ذلك فقد نشر باحثون على

(٦) المصدر نفسه ، ص ١٠ .

(٧) بوكاي / موريس / أصل الانسان ترجمة مكتب التربية العربي لدول الخليج / ص ٣١ / الرياض سنة ١٩٨٥ .

(٨) بوكاي / موريس / أصل الانسان / ص ٩٢ .

درجة كبيرة من العلم نتاج أبحاثهم بصورة تتسم بالتعميم نون ان يكون لديهم اي معلومات تفصيلية عما يمكن ان يكون لدى سواهم من الخبراء في الميادين الاخرى ذات الصلة بنفس الموضوع^(٩).

آخر نظريات التطور هي نظرية (التطور الخلاق)^(١٠) التي تعد منطقية كما يقول جراسيه وأوضح صلاحيتها في كتابه مختصر علم البيولوجي العام . ان هذه النظرية ادعى للتقبل والمناقشة العلمية لانها ادخلت أثر الجينات بخلاف دارون ولامارك . ان وجود الجينات ووظيفتها في النقل والتعبير يدفعنا الى الاقتناع بهذه النظرية ، وهذه الجينات هي التي تعطينا التفسيرات للحالات الغامضة في مراحل التطور والتكيف ضمن البيئة والغاء دور الجينات في عملية التطور الخلاق سوف يدفعنا الى الاعتقاد باثر المصادفة الذي يتعارض مع المنهجية العلمية والاعتبارات المنطقية « ان مسألة الجينات هي المطلب المطلق المسبق للتطور ونحن لا يمكننا ان نتحاشى هذه الامكانية لان ادراكنا العام الكلي للتطور وآلياته المركزة في أعماقه تتوقف عليه »^(١١) . ومع ادخال أثر الجينات تبقى المشكلة بالغة التعقيد .

ان نظرة الى المحيط الحيوي وهو المحيط الذي يتكون من الارض اليابسة والماء والهواء والايوكومين وهو الجزء المسكون من المحيط الحيوي وهذا الايوكومين الشامل - اصغر بكثير من المحيط الحيوي^(١٢) .

ان نظرة الى عمق المشكلة وهي تتبدى الى الباحث بصورة تشكل في معظمها لفزاً معقداً لا يمكن استيعابه الا من زاوية واحدة نستطيع من خلالها التقلب علم الاشكاليات التي تعترض القناعة واليقين ، هذه الزاوية هي الاستناد في جميع احكامنا الى رؤية عميقة تتشكل عن طريق الخبرة العلمية المتخصصة « تلك الخبرة التي تشكل مصدر النظرة الجديدة »^(١٣) ، ومن خلال النظرة الجديدة العلمية المنهجية

(٩) أنهر ، بوكاي / ت . م . ص ٣٨ .

(١٠) (التطور الخلاق Creative Valuation) وهي نظرية تبناها ب . ب . جراسيه رئيس قسم التطور في جامعة الصوريون وسياتي معالمها في الصفحات القادمة .

(١١) بوكاي / ق . م . ص ٩٦ .

(١٢) أنهر : تبليبي / أردوليد / تاريخ البشرية / ج ١ ص ٢٠ .

(١٣) أغريوس / روبرت م . مع جورج ستانيسو / العلم في منظوره الجديد ، ترجمة د . كمال خلابي / ص ١٤٦ / سلسلة عالم المعرفة / الكويت / سنة ١٩٨٩ .

المتجاوزة للمادية التي أثبتت قصورها لتعذر الموامة ما بين منهجها وبين الحقائق التي كشفتها نظرية النسبية ، وميكانيكا الكم ، ومبحث الأعصاب والفيزياء الفلكية ، هذه العلوم والكشوف التي قادت الى التطلع نحو الافاق الواسعة في الكون والوجود كما يصرح يوجين فيندر على انه في فيزياء القرن العشرين « قادت دراسة العالم الخارجي ناتها الى ما يفيد ان مضمون الوعي هو حقيقة مطلقة » ، وكل ما في الامر هو ان المادية بعد أن اختبرت على اوسع نطاق ممكن في جميع فروع العلم قد اخفقت في اجتياز امتحان التجربة ، اما فيما يتعلق بالدين فالظاهر ان مستقبل النظرة الجديدة يوحى بالعودة بتقافتنا الى الايمان بوجود الله الواحد وبإعادة التأكيد على الجانب الروحي من طبيعة الانسان^(١٤) .

ان هذه النظرة الجديدة تمنح الانسان نوعاً من الاستقرار وتحدد عنده الاطار العام الذي يمكن ان يدرك من خلاله طبيعة وجوده ووعيه وتشكل عنده القناعة بضرورة الالتزام بحدود المعرفة على وفق مدى الطاقة العقلية التي يمتلكها ويستطيع ان يحيط بها عقل الانسان ان الايمان بالله وبالدين كمنهج واضح المعالم يحدد للانسان طبيعة مسيرته وحدود المساحات المسموح بها لكي يلجأ عقل الانسان . هذه القناعات ستفرض نفسها على الانسان ضمن المؤثرات الواضحة الان والتي لم يستطع الانسان التخلي عنها او التخلص منها كما يقول توينبي : « ومن ثم يبدو من المحتمل ان الحياة ستزغم الكائنات البشرية في المستقبل كما أرغمتها في الماضي على ان تصيغ اجوبتها بالنسبة للقضايا الدهالية في عبارات حتمية دينية لا يمكن التثبت منها - فالدين في الحقيقة هو صفة ذاتية ومميزة للطبيعة البشرية فهي الاستجابة الحتمية لتحدي غموض الظواهر الطبيعية^(١٥) . ولكن ونحن نتكلم على هذه النظرة وهي عملية تعميم القناعات بالرؤيا الدينية ينبغي الا نستخرج الى المساحات الاسطورية والخرافية التي تملكت بالدين ووضعت ضمن اشكال وقوالب امتزجت بالدين حتى عاد من الصعب الفصل بينهما وبين الحقيقة الدينية ولذلك سنوظف كل القراءات العلمية لاشكال التاريخ المتروك على الارض بوصف هذه الاتار وثائق راقية وأئلة مادية تبرز القناعات المنطقية للتفسيرات الدينية للتاريخ . ان هذا

(١٤) أهريس / روبرت / العلم في منظوره التجديد / م . ص / ص ١٤٦ - ١٤٧ بتصرف .

(١٥) توينبي / أرنولد / تاريخ البشرية / ج ١ ص ١٩٤ .

العملية تعد مغامرة كما سماها شبلنجر^(١٦) ، ولكن شبلنجر وغيره من المؤرخين الغربيين مثل توينبي وآخرين حاولوا رسم خارطة التاريخ من خلال الحضارة الغربية وعثوها مركز الحضارة الانسانية ، وقد نكر شبلنجر ذلك بقوله « واعني على وجه التحديد الحضارة الغربية من اوروبية وأمريكية^(١٧) . ويحاول هؤلاء المؤرخون والفلاسفة الغربيون ان يتخلصوا من هذه العقدة لئون جدوى ويشير شبلنجر الى ان منهجية المؤرخين أسيرة لهذه الرؤية وانهم يعالجون « رقعة اوريا الغربية بوصفها قطباً ثابتاً وبقعة فريدة من نوعها اختيرت على سطح الكرة الارضية لئون ما سبب مفضل الا لاننا نعيش عليها ونعتقد بان التواريخ الهندية والبابلية والمصرية أقل جوهرية وأقل كثافة وأكثر تخفيفاً^(١٨) ، ويعتقد توينبي كذلك هذه النظرة الى التاريخ التي تُعرّفه « بأنه سلسلة من الاحداث التي أدت الى سيطرة الغرب^(١٩) . ان هؤلاء المؤرخين قد يكونون أكثر انصافاً من غيرهم بحيث تمت أكبر عملية تعميم على معظم اعمدة التاريخ الانساني وسلط الضوء على الحضارة الهيلينية ثم الرومانية وتجاهل هؤلاء عن عمد الصفحات الحضارية التي التي التفتت من ارض الرافدين وبلاد النيل ، وسدحاول في لراستنا هذه على اعادة تركيز الضوء على آثار هذه الحضارة التي تدعينا لها الانسانية جمعاء . وسدحلل النتائج والمكتشفات الآتية ونقارن مع النتائج التي توصل اليها المؤرخون الغربيون انفسهم . ونحاول ان نضع هذه الحضارة في مكانها الطبيعي من حيث السبق الزمني والاهمية التاريخية وآثارها على الانسانية في حاضرها ومستقبلها ، ولكننا ونحن نتأمل هذه الحضارة ونحاول ان نتقصى بداياتها وفجر البتائقها والتعرف على جذورها ونشوتها سوف يقوينا هذا المصار الى ان ندرك حقيقة مهمة وهي ان الصورة المفقودة هي الجزء الأكبر من التاريخ من حيث المساحة والبعد الزمني حتى اذا نظرنا الى ما قبل التاريخ وجدنا ان الجزء المفقود هو الجزء الذي ضاعت ملامحه يمثل ٩٩٪ من التاريخ^(٢٠) وان التاريخ المدون بكامله هو في الواقع تاريخ معاصر بالمعنى الحرفي وهو كذلك

-
- (١٦) انظر : شبلنجر / أرولد / تدمير الحضارة الغربية / ج ١ ص ٣٩ حيث يقول (نحاول لأول مرة المغامرة في وضع تقرير مسبق للتاريخ) .
 (١٧) شبلنجر / أرولد / تدمير الغرب / ج ١ ص ٣٩ .
 (١٨) شبلنجر / ت . م . / ج ١ ص ٦١ .
 (١٩) توينبي / أرولد / تاريخ البشرية / ج ١ ص ١٠ .

بالمعنى الذاتي كما نعب بدنتو كروتشي - إن الحادثة المهمة في التاريخ هي ظهور فجر الوعي في المحيط الحيوي^(٢٠).

كيف نفهم ونتعرف على فجر الوعي ؟

أنا عندما نصف بدايات تخليق الحياة لا نريد ان نبتعد عن الموضوع الذي نحن بصدده ولكن معظم الذين يتصدون الى ما قبل التاريخ لا بد لهم من المرور على البدايات التي شكلت حركة الحياة والتاريخ ، وقد بدأت الدراسات الحديثة تنحى هذا المنحى . لقد نشأ علم الاحاث (Paleontology) في وقت متأخر ولكنه أحدث أثراً عظيماً في مسار الابحاث العلمية التي تبحث عن اصل الحياة والانسان (Anthropology) السلوك الانساني . ولذلك جاء علم الاحاث ليعزز الدراسات الأثرية وشكل مع علم الآثار (Archeology) وحدة متصلة لخدمة الدراسات التاريخية كذلك . فكان لا بد من المرور سريعاً على أهم النتائج والاستنتاجات حول نشأة الحياة وتطورها . وعندما نتابع هذا الموضوع لا نريد ان نحض نظرية معينة ولا ندافع عنها وانما سنوظف بتجرد النتائج التي لا تتعارض مع نصوص القرآن وقواعد الدين . ولأن التطرق الى هذه المواضيع بشكل تحمساً وهاجساً يدفع القارئ الذي يتابع الموضوع الى الرفض المطلق الذي يحكمه الاقتناع المسبق الذي يستند الى الخوف من قبول فكرة « التطور - حتى في دائرة مملكة الحيوان - خشية ان يمتد هذا الرأي الى الانسان مما يؤدي الى مخالفة ما جاءت به التعاليم الدينية التي تملئهم الرغبة في تأييدها^(٢١) وقد فات هؤلاء ان جوانب عديدة من الاكتشافات العلمية التي يستخدمها الماديون تصلح ان تكلم كبراهين قاطعة لمصلحة الاتجاه المعاكس للمادية . والفريق الآخر الذي يندفع في غمرة الحماسة ونشوة الانتصارات العلمية الى ممارسة الارهاب الفكري ومحاولة توظيف كل صغيرة وكبيرة للانتصار للفكرة المادية وقد يقع التصويب وأهداف أخرى الى إختفاء معلومات وتشويش وبلبلة العقائد التي آمن بها كثير من البشر وهم يؤمنون بالدين وأجروته لزاء المعضلات القديمة ومنها الأصل الحيلة وأصل اللسان . « لقد كان للهجة ملكاً وكناً من لوان

(٢٠) تروشي / أرنولد / تزيين البهجة // ١٤ ص ٤٤٠ -

(٢١) بيوكاي / د موريس / السبل الاستدلالية / ص ٢٦ -

الترسانة الاحادية وكان دائم الاستعداد لدعم اية افكار تدعم ما يذهبون اليه . ولكننا نرى ان وقوع التطور حتى حين ينسحب على الانسان لم يعد بشكل تهديداً للمعتقد الديني فقد اثارت الدراسات الاخيرة نقاطاً - فيما يختص بنظام الحياة ونشاطاتها - انت بالفعل الى توجيهنا كلية الى عكس اتجاه الموضوع الرئيس للخلافات السابقة»^(٢٢) .

كيف نصف بداية الحياة ؟ لقد توصل العلماء في القرن الحالي الى نتائج غيرت نظرتنا الى الحياة والكون ! « والقضية كلها نظرة »^(٢٣) ، كما يقول الميرخ توماس بري . والبداية يصفها العلماء بأنها كانت عبارة عن جزيء هلامي يمثل انبثاق الحياة الاولى وكان ذلك قبل مئات الملايين من السنين كما نكرنا سابقاً ، وما زالت القضية غير محسومة بالنسبة الى ما وراء هذا الحدث وكيفية ظهور الخلية الى مسرح الوجود ثم اعقب هذا الظهور عمليات ازديت تعقيداً في تطوير وتوزيع هذه الحياة ، هل تلك هذه الحياة وعياً كان وراء التغيرات التي طرأت عليها ؟ والمشكلة يمكن ان ينظر اليها من زاوية الانسان وعقله وعلاقة العقل بالوجود البيولوجي للدماغ ، يقول بنفيلد : « يبدو من المراد ان تفسير العقل على أساس النشاط العصبي فتحل الدماغ شيئاً لمرأ مستحيل كل الاستحالة ... ومن نواعي السخرية ان بنفيلد بدأ ابحاثه بهدف إثبات العكس تماماً فيقول : طول حياتي العلمية سمعت جاهداً كثير من العلماء الى اثبات ان الدماغ يفسر العقل غير ان الالة حملته آخر الامر على الاقرار بان العقل البشري والارادة البشرية حقيقتان غير ماديتين . ويعلم بنفيلد : « يا له من أمر مثير ان نكتشف ان العالم يستطيع بدوره ان يؤمن عن حق بوجود الروح . « واذا كان العقل والارادة غير ماديتين فلا شك ان هاتين الطلكتين على حد تعبير الكس « لا تخضعان بالموت للتحلل الذي يطأ على الجسم والدماغ كليهما »^(٢٤) .

ان بداية الحياة على الصورة التي رسمها علماء الاحاث والاحياء الدقيقة

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ٤٥ .

(٢٣) أغريس / روبرت م . وجورج ن . ستانيسو / العلم في منظوره الجديد / ص ١٥ ترجمة كمال الخلايلي / سلسلة عالم المعرفة / الكويت / ١٩٨٩ .

(٢٤) المصدر نفسه ، ص ٤٣ .

(٢٥) بيكاي / موريس / أصل الانسان / ص ٩٤ .

وغيرهم من العلماء الذين يعملون بجد لا ينقطع ولا يتوقف ، هذه الصورة كما ذكرنا لا تبديل عنها ولكن مع الصورة يبرز على السطح تطور هذه الصورة البدائية للخلايا الحياتية نباتية وحيوانية والعلماء حتى الوقت الحاضر لم يصلوا الى نتيجة مجمع عليها حول تطور أشكال الحياة عبر ملايين السنين وما زال هؤلاء ينقض بعضهم بعضاً وفرضياتهم ونظرياتهم لا تتوقف . ان التغييرات التي تحصل في الخلية تتم عبر سلسلة معقدة من الاوامر والبرامج يصعب ايجاد تفسير منطقي لها بخاصة عندما تكون هذه التغييرات كبيرة تؤثر في طبيعة وظيفة الخلية وشكلها ونوعها . ان العلماء حددوا الجينات الموجودة في الخلية وجعلوا هذه الجينات هي التي تحكم الاستجابات للمنبهات والتغييرات التي تحدث في الخلية . والغريب « أن التطور بدأ في التضائل بتقدم العالم في العمر »^(٢٥) ، ولا يوجد تفسير علمي لهذه الظاهرة كما انه لا يوجد تفسير علمي لمعم حصول تطور على بعض الانواع من الكائنات الحية منذ ملايين السنين ، فقد حافظت انواع من البكتريا على وجودها ملايين السنين^(٢٦) ومن أمثلتها كذلك العرصور وحشرات بحرية لها خياشيم تسمى ملوك السرطين (King Carbo) فضلاً عن نباتات مختلفة لم تتأثر اي منها بالطفرات^(٢٧) .

وقد أكد العلماء ان أي تغيير في الخلية لايد ان يركز على الجينات وعلى « معلومات محددة مودعة في داخل كل خلية ومسجلة على شريط الـ (DNA) فيها ومتضمنة الشفرة الوراثية . ان الادراك الذي يتمتع به النوع كله الذي يعبر عنه في تلك الشكل المصغر الى أقصى درجة وهو ايضاً الابرak المودع في السلسلة . سلسلة النسب ولكن ما هي القوة المحركة لهذه العمليات يقول جراسيه قد تكون نبضات استجابة من المحيط الخارجي »^(٢٨) . يسميها جراسيه نظرية التطور الخلاق (Creative Evaluation) وهي خلق جينات جديدة تقويم بمهمة التطور والتغيير ونحن نسميها الاوامر الربانية الخلاقة المقدره بقدرها كما يقول تعالى ﴿ انا كل شيء خلقناه بقدر وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر ﴾^(٢٩) .

نريد ان نخرج برؤية الى الاحداث من خلال نصوص القرآن الكريم الذي قدم لنا

(٢٦) الطور ١ م . ص ٨٠ .

(٢٧) الطور ١ م . ص ٨٠ .

(٢٨) بوكاي / موريس / أصل الانسان م . ص / ص ٩٦ .

(٢٩) سورة القمر الايات ٤٩ / ٥٠ .

صورة فيها من الاعتبار ما ينفخ الانسان ليعتمز الايمان بالله وقدرته التي تتجلى في المدى الواسع من تنوع الحياة فهذه الانواع الكثيرة والاصناف التي لا حصر لها في مملكتي الحيوان والنبات كلها تؤدي الى الحقيقة الكبرى التي لا مراء فيها وهي ﴿ الله الخالق البارئ المصور ﴾ (٢٠) ان هذه الحياة تيسر على وفق سنن ونواميس خلقية تخضع لهداية الله ﴿ الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ (٢١) . الله يعطي المادة السماء الخلق ويمنحها الحياة ويرسم لها طريق التخليق ويهديها للتطور والتغيير والتكيف مع البيئة والزمن . العلماء جميعاً لا يجيبون عن التغيير الواعي المطرد نحو تحسين النوع وحمايته . فلا يمكن للمصاغة ان تجد لها مكاناً يستحق ان يكون جواباً لهذا التساؤل ولا الطفرة كذلك التي عبر عنها علماء التطور (Mutation) وجعلوها متناً منخوراً اثار امام الحياة في صورها من اصفر جزء الخلية الى اكبر جزء مادي وهو الكون الذي يدور على وفق ناموس التخليق الالهي .

قال تعالى ﴿ لو لم ير الذين كفروا ان السماوات والارض كانتا رتقاً لفتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ (٢٢) . لقد جعل القرآن الكريم اصل الحياة الماء ثم كان القرآن الكريم دائماً يربط الماء بالشجر « ان لا يذك الماء والشجر يتلازمان في اكثر الايات القرآنية بوضوح فحيثما نكر الماء فالغالب ان يذكر الشجر معه والمكس صحيح . مثل قوله تعالى ﴿ امن خلق السموات والارض واتزل لكم من السماء ماء فأتبنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم ان تنبتوا شجرها إلا مع الله بل هم قوم خصمون ﴾ (٢٣) و (٢٤) .

ولامر ما حث رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين ان يتذكروا في آية من كتاب الله وقال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿ ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل من السماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسفر

(٢٠) سورة الحشر / ٢٤ .

(٢١) سورة طه / ٥٠ .

(٢٢) الانبياء / ٣٠ .

(٢٣) سورة النمل / ٦٠ .

(٢٤) الزيدى / د. كاسد ياسر / الطبقة في القرآن الكريم / ص ٨٥ .

بين السماء والأرض لأيات لقوم يعقلون ﴿٣٦﴾ . هي دعوة للتفكير في رحاب الكون وأفاق العقل وحيد أدراكه وسديات البصر في السموات والأرض والليل والنهار وتهياة الماء وتنظيره لجريان الفلك في آية من آيات الله ونزول الماء سبب الحياة على الأرض والنباتات التي تنشق الأرض لتعبر عن حركة الحياة . وإيجاد الحياة الحيوانية وما ينبئ على الأرض من الخلق الحيواني وسريان الرياح على وفق مقتضى خدمة الحياة وكل ذلك ينطق بأن الله تعالى قد سخر للانسان تلك المخلوق المكرم كل ما في الوجود وكل ذلك من غير قوة ذاتية للانسان بل نعم الله التي أسبغها على الانسان حتى نكر القرآن الكريم عجز الانسان عن الاحاطة بنعم الله ومجرد عد هذه النعم واحصائها مما يتمرن على الانسان ﴿وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ ابراهيم / ٣٤ .

(٣٥) سورة البقرة / ١٦٤ .

(٣٦) من حديث طويل رواه ابن حبان في صحيحه عن عطاء النظر : ابن حجر الهيتمي / ابو العباس احمد بن محمد ت ٩٧٤ هـ الزواجر عن القتل الكبار / ج ١ ص ٣٢ / دار الكتب العلمية / ١٩٨٧ ط ١ .

المبحث الثاني ادم (عليه السلام) أبو البشر

ان دراسة آدم (عليه السلام) وحياته من ضمن أنبياء العراق كان بسبب وجود رقم طينية تؤكد قصة خلقه من الطين ، وهذه الرقم الطينية وجدت في التراث المقيدي لحضارة وادي الرافدين وكذلك اكد قصة جنة آدم رقيم طيني على شكل ختم محفوظ في المتحف البريطاني يصور قصة آدم مع حواء في الجنة وخلف حواء صورة حية وبين آدم وحواء شجرة وتمثل النخلة وهي تؤكد قدم هذه الشجرة في وادي الرافدين ، والصورة تمثل الرجل والمرأة قد مدا يديهما لتناول الثمرة . وفي رقم طينية وصفت جنة عدن او جنة آدم . كل هذه الشواهد تؤكد ارتباط قصة آدم (عليه السلام) بارض الرافدين ، وقصة آدم (عليه السلام) تمثل قصة الانسان الاول الذي كرمه الله تعالى وكانت بداية تاريخ البشرية المكرمة تنطلق من نقطة ارتباطها بابيها آدم (عليه السلام) النبي الانسان فلا غرابة ان تقوم على ارض الرافدين اول الحضارات وأول البدايات المكرمة كانت على أرضها . وقد حاولت بعض الفلاسفة المعاصرة أن تبحث عن أصل الانسان وتأسست علوم في ميدان البحث عن أصل الانسان وتاريخ وجوده على الأرض من هذه العلوم علم الانثروبولوجي . ومنذ أكثر من قرن من الزمان تواصلت النظريات والبحوث ولم يتوصل العلماء الى وضع صورة مقبولة حول أصل الانسان ووجوده على الأرض . لذلك نرى انه من غير المفيد البحث عن قضية خلق الانسان من خلال هذه الميادين وان دراسة القضية من خلال التاريخ الديني والرواية الدينية يمكن ان تمنح الدارسين العبوة والغاية من وجود الانسان على الأرض ، وان البحث عن خلفية القصة قبل الغاية الدينية من خلق الانسان لا تشكل أهمية في حياة الانسان على الأرض لذلك سنقوم بدراسة قصة آدم في الرواية الاسلامية ونقارنها مع الرواية التوراتية ورواية الرقم الطينية .

ادم (عليه السلام) في الرواية الاسلامية :

كانت الرواية الاسلامية خالية من المفاهيم الاسطورية ومستعملية على التصورات البشرية فاعطت لقصة ادم ابعادها الاخلاقية والاعتقادية من نون أن تلبس باهواء البشر وتصوراتهم المحدودة فقد جاء في الحديث الذي رواه مسلم ونكره البخاري (من طريق سعيد وهشام عن قتادة عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى عليه وسلم قال : يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا الى ربنا فيأتون ادم فيقولون أنت أبو البشر خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته وعلمك اسماء كل شيء ، ونكر تمام الحديث)^(٢٧) . هذا الحديث يؤكد الآيات القرآنية ودلالاتها على حقائق أهمها :

- ١ - إن ادم (عليه السلام) ابو البشر .
- ٢ - ان الله تعالى خلقه بيده وهو أمر غيبي له دلالة معلوبة تدل على ان الله سبحانه وتعالى قد تعهد خلق ادم بعنايته ورعايته وتكريمه .
- ٣ - ان الله تعالى علم ادم الالسنه واللغات ونطق اسماء الاشياء مما يدل على بداية اللغة واسسها كانت عند ادم عليه السلام .
- ٤ - ان الله تعالى كرم هذا المخلوق واسجد له ملائكته وقد اختلف في معنى هذا السجود (قال قتادة في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ لَنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ فكانت الطاعة لله والمسجدة لادم اكرم الله ادم أن أسجد له ملائكته) وقال بعض الناس كان هذا سجود تحية وسلام واکرام كما قال تعالى ﴿ ورفع ابويه على العرش وحرخوا له سجدا ﴾ وقد كان هذا مشروعاً في الاسم الماضية ولكنه نسخ في ملتنا)^(٢٨) .

لقد اكدت هذه الحقائق جميع الآيات التي تعرضت لقصة ادم في القرآن الكريم منها قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، فَاذْبَعُوا لَهَا مِنْ يَمِينِهَا وَيَسَارِهَا وَاسْجُدُوا لِلنَّاسِ لَكَ فَالْتَبَسَ لَكَ قَالَ تَبَيَّنَتْ لَكُمْ الْأَسْمَاءُ كُلُّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالُوا تَبَيَّنَتْ لَكُمْ الْأَسْمَاءُ كُلُّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

(٢٧) ابن كثير / ابو الفداء لسليمان ج ٧٧٤ هـ / تفسير التبيين / ص ١٠ .

(٢٨) ابن كثير / ابو الفداء لسليمان / تفسير القرآن الكريم / ج ١٤ ص ٧٧ .

قال يا آدم أتيتهم بأسمائهم • فلما أتياهم بأسمائهم قال أم اللل لكم أتى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبون وما كنتم تكتمون • وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين • فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه • وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين • فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه • انه هو التواب الرحيم • قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون • والذين كفروا وكنوا يأتينا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿٣٩﴾ وقال تعالى في سورة ص ﴿ إذ قال ربك للملائكة اني خالق بشراً من طين فلما سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين • فسجد الملائكة كلهم أجمعون • الا إبليس استكبر وكان من الكافرين • قال يا إبليس ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدي • استكبرت أم كنت من العالين • قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين • قال فاخرج منها فانك رجيم • ولن عليك لعنتي إلى يوم الدين ﴿٤٠﴾ وهذه الآيات تدل على دحض نظرية التطور لماورن وما أفزرتة المذاهب المادية من نظريات حول تطور الانسان من الحيوان والقرود وان هذه الآيات تدل على انه « تعالى لما نفخ الروح في أمم وجب على الملائكة ان يسجدوا له ، لان قوله تعالى ﴿ فلما سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ منكر بـ (فاء) التعميق وبذلك يمنع التراخي ومعلوم ان أمم عندما أمر الله تعالى الملائكة بالسجود له كان (عليه السلام) بكامل صورته البشرية ولم يكن على هيئة أخرى . وفي الحديث النبوي الشريف (خلق الله أمم على صورته) فخلق أمم جاء كاملاً من جهة هيئته وصورته الانسانية . وقال الامام الرازي في تفسيره : ان الله تعالى خلق أمم على صورة الانسان ﴿٤١﴾ . لقد شكلت قصة أمم (عليه السلام) في الرواية الاسلامية اساساً لفهم الوجود الانساني على الأرض ، فقد بدأت القصة بفكر عناصرها وهي كما تدل عليها الآيات والاحاديث الصحيحة يمكن ايجازها وتحديدها بالمعاصر الآتية :

(٣٩) سورة البقرة / ٣٠ - ٣٩ .

(٤٠) سورة ص / ٧٦ - ٧٨ .

(٤١) زيمان / د . عبدالكريم / المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة / ج ١ ص ٢٦ /

مؤسسة الرسالة بيروت / ١٩٩٧ .

١ - ان أم (عليه السلام) اشترك معه منذ البداية زوجها ، فاعطى وجود الزوجة معنى الاسرة وبدايات المجتمع البشري وهذا يدل على اجتماعية الانسان وضرورة الاجتماع لاستمرارية الحياة . فكانت بداية الاسرة ارتباط هذه الاسرة بنظام بيئي قائم على طاعة اوامر الله تعالى حيث تدل الآيات على بداية التوجيهات الربانية للانسان ضمن تربية وتدريب لضبط النفس بموجب الاوامر والنواهي ، وكذلك اصطفى أم (عليه السلام) ووضعت فيه الملكات والاستعدادات فقد جاء خلق أم « متمماً لخلق الارض وتهيأتها ومساحات واسعة من السماء الدنيا لاستقبال هذا المخلوق الفاعل الذي اتبع له أن يتخذ مكانه في الارض خليفة لله رب العالمين . لذلك كان أم يمثل أمراً اراده الله فكانت ارادة الله تتقي مع العناصر الاولى الطبيعية فكان الخلق الالهي او الفعل الالهي يتخذ شكلين لخلق الحدث او الفعل . الاول : مباشرة الفعل التاريخي المتساقى ضمن سلسلة مضبوطة بالنواميس ويأخذ هذا الحدث التاريخي امداه الزمنية المقدره له يخرج بصورته النهائية وهذا الشكل يمكن أن ينتظم من خلاله التاريخ من البداية السحيقة المقدره بملايين السنين الى النهاية المحسوبة ضمن المقاييس العلمية المتفقة مع منطق الدين وقدره الخالق . والشكل الاخر لخلق الحدث هو تجاوز النواميس الطبيعية ومن خلال الكلمة النافذة في الكون والعالم ﴿ انا قضى امرأ فإما يقول له كن فيكون ﴾^(٤٢) وهذا هو شكل المعجزات^(٤٣) .

٢ - ظهر في صورة الحدث عنصر آخر وهو الشيطان الذي جعله الله تعالى مادة الابتلاء في حياة الانسان وقد نكرت الآيات الكريمة ان الشيطان مخلوق من نار يأخذ شكلاً من أشكال الطاقة في حين كان أم قد خلق من طين الذي يأخذ شكلاً من أشكال المادة وكان أصل خلق الشيطان سبباً من أسباب غروره وتكبره واستملاءه على أمر الله . فكان الشيطان لا ينفك عن غواية الانسان واستنراجه الى المعاصي منذ أن أعلن عداوته للانسان الاول أم عليه السلام . (وفي صحيح مسلم عن عائشة عن رسول الله صلى عليه وسلم قال

(٤٢) سورة مريم / ٣٥ .

(٤٣) خليل / د. عماد الدين / التفسير الاسلامي للتاريخ / ص ١١٨ - ١١٩ .

خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم (١١) .
 الشيطان الذي أعلن تمرده ودخل في لمة الله كان أصله من الجن وهم
 المخلوقات التي تشارك الانسان الحياة في صورة غير مرئية لأن تكوينها
 الطافي يسمح لها أن تعيش وفق حياة روحانية غير مادية . ويؤثر هذا
 المخلوق على الانسان عن طريق الوسوسة كما نكرت آيات قصة آدم . وقد
 حذر الرب جلّت قدرته آدم من إبليس وأمره ونهاه عن طاعة إبليس الشقي لللا
 يشقى كما شقى إبليس .

٣ - المنصر الآخر من عناصر قصة آدم (عليه السلام) (الملائكة) الملائكة
 التي كانت طائعة لأمر ربهما وسجدت لآدم وقد عبرت هذه المخلوقات عن
 عبادتها للخالق بالطاعة والامتثال ومر الله . الملائكة خلقها الله من نور كما
 بين الحديث . وقد أعطى الله لها نوراً في حياة الانسان ووظائف أخرى
 أناطها الله بها مثل حفظ الانسان والمروج الى السموات ورفع الاعمال التي
 يقوم بها البشر وكتابتها وغيرها من الامور الغيبية التي لا يستطيع العقل
 البشري أن يدركها لانها خارج حدود طاقة عقل الانسان ولكن النص أخبر بها
 فوجب الايمان بها والتصديق بها . وينهب البعض استناداً الى قول الملائكة
 ﴿ لتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ ويقول : « ان الملائكة لم
 يقولوا ذلك الا لرؤيتهم من تقدموا آدم من الخلق الذين على صورته قد فعلوا
 ذلك ، وان آدم كان خليفة عن بشر كانوا من جنسه وبادوا . وكل هذه الاقوال
 لا تستند الى نص قطعي الثبوت والدلالة والمسألة لا يترتب عليها نفع
 ولا ضرر والله لم يخلص على شيء منها في الكتب السماوية فوجب السكوت
 عنها (١٢) .

(٤٤) ابن كثير / ابو الفداء / قصص الانبياء / ص ١٢ .
 (٤٥) النجار / عبدالرحمن / قصص الانبياء / ص ١٢ / دار احياء التراث العربي بيروت ط ٣

آدم (عليه السلام) في الرواية التوراتية :

ورد في الكتاب المقدس العهد القديم سفر التكوين / ١ / ٢٦ ، ثم قال الله :
لنصنع الانسان على صورتنا كمثلنا فيتسلط على سمك البحر وعلى طير
السماء فخلق الله الانسان على صورته على صورة الله خلقه نكراً وانثى
خلقهم وباركهم الله واخذ الرب الاله آدم ووضع في جنة عدن ليفلحها
ويعتني بها وأمر الرب الاله آدم قائلاً : كل ما تشاء من جميع اشجار الجنة ولكن اياك
ان تأكل من شجرة معرفة الخير والشر لانك حين تأكل منها حتماً تموت . . . ثم قال
الرب الاله : ليس مستحسنأ أن يبقى آدم وحيداً فاصنع له معيناً مشابهاً . . .
فلوَقع الرب الاله آدم في نوم عميق ثم تناول ضلعاً من أضلاعه وسد مكانه
باللحم . . . وكانت الحية أكر وحوش البرية التي صنعها الرب الاله فصالت
المرأة : أحقأ أمركما الله الا تأكلا من جميع شجر الجنة ؟ فاجابت المرأة : يمكننا أن
ناكل من ثمر الجنة كلها ما عدا ثمر الشجرة التي في وسطها فقد قال الاله : لا تأكلا
منه ولا تمسأ لكي لا تموتا . فقالت الحية للمرأة : لن تموتا بل ان الله يعرف انه حين
تأكلان من ثمر هذه الشجرة تفتتح اعينكما فتصيران مثله قادرين على التمييز بين
الخير والشر . وعندما شاهدت المرأة ان الشجرة لذينة للمآكل وشهية للعيون ومثيرة
للنظر قطفت من ثمرها واكلت ثم أعطت زوجها ايضاً فاكل معها . فانفتحت للحال
اعينهما وأدركا انهما عريانان فخاطبا لانفسهما مأزر من أوراق التين «^(١٦) .

الطرد من الجنة :

« وبعا آدم اسم امرأته حواء لانها أم كل حي وصنع الله لآدم وامرأته اقمصة
جدد والبسهما وقال الله لقد أصبح آدم كواحد منا يعرف الخير والشر فلعله يأكل ايضاً
من شجرة الحياة فيحيا الى الابد فاخرجه الله من جنة عدن ليعمل في الارض التي
خلق منها وأقام الله شرطي جنة عدن الكروبيم (الملائكة) ولهيب سيف متقلب
لحراسة طريق شجرة الحياة »^(١٧) .

(٤٦) الكتاب المقدس / العهد القديم / تك ١ - ٣ .

(٤٧) عن محمد / محمد قاسم / التناقض في تواريخ واحداث التوراة من آدم حتى سبي بابل /

مقارنة بين الرواية الإسلامية والرواية التوراتية :

ان مقارنة بسيطة بين الرواية الإسلامية والرواية التوراتية توضح لنا أهمية الرواية الإسلامية وخلوها من الأخطاء والإرباكات التي في الرواية التوراتية . ان الرواية التوراتية تتلق مع الرواية الإسلامية في شخصية آدم (عليه السلام) وبعض النقاط التي تلتقي فيها القصة في الروايتين . ولكن الخلافات بين الروايتين توضح لنا عظمة الرواية القرآنية والحديثية الصحيحة من الخطأ بينما وقعت التوراة في أخطاء لا يمكن تمييزها إلا بارجاع سبب هذه الأخطاء إلى الآثار البشرية في صياغة القصة وتأثرها بالتراث الرافديني كما سنرى لاحقاً ويمكن إيجاز اختلاف الروايتين في النقاط الآتية :

- ١ - الرواية التوراتية خالية من اعلان الاستخلاف الذي كرم الله به آدم والبشرية جمعاء . وخالية من ذكر أي اشارة لسجود الملائكة للمخلوق المكرم .
- ٢ - الرواية التوراتية خالية من ذكر الشيطان وبوره وان هذا الاغفال للشيطان يفقد القصة عنصراً مهماً من عناصر الحكمة والغاية التي وضعت للاعتبار لبني آدم حيث سيقوم الشيطان بدور الفواية والافساد ومشاركة بني الانسان في حياتهم وهو ما يقتضي بلورة الوعي والاستعداد لمواجهة وسوسة الشيطان في حياة الانسان .
- ٣ - الرواية التوراتية وصفت الرب جلّت قدرته وتعالى علواً كبيراً بالكذب حيث بررت منع آدم وزوجه من أكل الشجرة بقول الرب (لانك حين تأكل منها حتماً ستموت) ولكن آدم وحواء عندما أكلا من الشجرة لم يموتا . وقد صورت التوراة الرب جلّت قدرته بأنه انما منع آدم وحواء من أكل الشجرة خوفاً من أن يكونا خالدين مثله وهذا يتنافى مع تزييه الرب جلّت قدرته عن مثل هذه الامور .
- ٤ - وريت في الرواية التوراتية عبارة تدل على معنى شركي ووثني كما في روايات الرقم الطينية وهي تصور خطاب الالهة المتمدة للبشر وذلك في النص التوراتي (وقال الله لقد أصبح آدم كواحد منا) وهذا يدل على تأثر الرواية التوراتية بالتراث الرافديني وحضارة وادي الرافدين .
- ٥ - فقدت الرواية التوراتية أي معنى تربيوي أخلاقي وعقائدي يضع الانسان أمام حقيقة وجوده وهي العبودية للخالق وعدم مخالفة اوامره الامر الذي توضحت

معالمه في الرواية القرآنية .

٦ - الرواية القرآنية خالية من ذكر الحية وحديثها مع حواء الذي نكرته التوراة ويبدو ان الحية كانت البديل عن الشيطان في الرواية القرآنية لان الغواية كانت بسببها في الرواية التوراتية .

آدم (عليه السلام) في الرقم الطينينة :

وردت قصة خلق آدم والخليقة والكون في التراث اليرافديني فقد « ألف السومريون والبابليون من بينهم أساطير وقصصاً عديدة تتناول بصورة مباشرة او غير مباشرة موضوع خلق الكون وخلق الانسان وجاءوا بهذا الخصوص بافكار مهمة اعتمتها كثير من الشعوب المعاصرة واللاحقة لهم كلاً او جزءاً وتكرر من هذه الاساطير في سبيل المثال الاسطورة الخاصة بجلجامش ورفيقه أنكيو حيث تحتوي مقدمتها رغم قصرها على معلومات غاية في الاهمية عن انفصال السماء عن الارض على يد الاله ائليل بعد أن كانتا كتلة واحدة . وقد كان خلق الانسان واحداً من المواضيع التي تناولتها الاساطير السومرية والبابلية على حد سواء والتوراة ايضاً^(٤٨) وقد ذكرت اسطورة سومرية يعود زمن تدوينها الى الالف الثالث قبل الميلاد^(٤٩) تذكر هذه الاسطورة ان الالهة ارادت ان تخلق عبداً من الطين الذي يؤخذ من وسط مياه العمق وتخلق منه الانسان وفي النص البابلي ان الالهة خلقت الانسان الذي عبر عنه النص البابلي بكلمة (لولو uالل) هذه الكلمة مستعارة من السومرية وتعني حرفياً الانسان الاول^(٥٠) . وقصة أبا اليبابلية تتلقي مع قصة آدم التوراتية في كثير من النقاط فقد صورت الاسطورة المخلوق أبا الذي خلقته الالهة ومنحته الحكمة ولكنه خالف اوامر الرب عندما حاول الحصول على الخلود وفي النهاية يفشل في الحصول على الخلود وتعيده الالهة الى الارض . كما ان الختم الذي عثر عليه في آثار وادي اليرافدين يعبر تمبيراً واضحاً على قصة جنة آدم . وهو محفوظ حالياً في المتحف البريطاني الذي سمي (ختم الاغراء) (فانه ينقل بصفة وافية جو الفريوس الذي ورد في التوراة « سفر التكوين ٣ » لان عناصر

(٤٨) علي / د- فاضل عبدالواحد / من الواح سومر الى التوراة / ص ٢٤٥ - ٢٤٧ . بتصريف .

(٤٩) المصدر نفسه . ص ٢٤٧ / ياخذ عن (Kramer, O.P.Cit pp68) .

(٥٠) المصدر نفسه . ص ٢٥٣ .

تصميمه تتألف من اله وشجرة وامرأة وثعبان جنباً الى جنب) (١١) ولكن هذه الرقم الطينية والاختام التي تحدثت عن قصة أم حائل كل الذين تعرضوا لها أن يثبتوا من خلالها تأثير حضارة وادي الرافدين في التوراة وقد جعلوا كل تطابق في القصة يعني ان التوراة قد اقتبست هذه القصة من تراث حضارة وادي الرافدين وهذا الامر لا يمكن تصميمه ولا بد من التفصيل . فان اشتراك عناصر القصة بين الرقم الطينية والتوراة يمكن ان ينظر اليه من جهة أخرى وهي إن هذا الاشتراك مصدره تأثير الديوات على حضارة وادي الرافدين ومن ثم انعكس هذا التأثير على التوراة وتكوينها ، وقد تكون التوراة قد استعادت القصة وعناصرها عن طريق الوحي لان التوراة الاصلية مصدرها الوحي والنبوة . وعليه فان تكرار الحدث وعناصره قد يكون عن طريق انتقال المعلومة من السابق الى اللاحق وهذا الغالب حيث ان حضارة وادي الرافدين سابقة للتوراة وقد يكون مصدره الوحي والنبوة وقد تعرضت للتحريف والتضخيم ويميز هذا الجانب وهو تأثير النبوة في حالات الاخبار عن أمور صكفها القرآن الكريم وأثبت العلم الحديث حقيقتها مثل ان الكون كان كتلة واحدة ثم انفصل وان الانسان خلق من طين . اذ لا يمكن ان يعقل ان يتوصل العقل البشري ضمن حدود المعرفة للمصور القديمة الى هذه الحقائق ما لم تكن هذه الحقائق قد نطق بها انبياء ومن ثم اضاف اليها البشر تحريفاً وتضخيماً وتحولت الى روايات اسطورية تعبر عن معتقدات وثنية . وهكذا نجد من خلال هذه المقارنة ان شخصية أم (عليه السلام) حقيقة تصافرت لتأكيدها الرقم الطينية مع الرواية التوراتية ثم جاءت الرواية الاسلامية من القرآن والسنة النبوية الصحيحة لتوضح هذه الحقيقة من دون التعرض لملايسات القصة التي لا قيمة تاريخية لها من حيث الاعتبار والفائدة وكذلك نجد ان الرواية القرآنية لم تحدد اعماراً ولا ازماناً ولا أسماء غير أم (عليه السلام) وانما وضحت القصة وعناصرها وما ارتبط بها لتؤدي هذه القصة نورها في تعليم الانسانية قيمة وجودها واسباب صلاح حياتها وكل العناصر التي نكرتها الرواية الاسلامية وأغفلتها الرواية التوراتية كانت تشكل تأثيراً واضحاً ينسجم مع الغاية من القصة مثل الشيطان والملائكة والسجود لام (عليه السلام) بينما نجد ان كل العناصر التي اغفلتها الرواية الاسلامية ولكرتها الرواية التوراتية او الرقم الطينية كانت تعبر عن

(٥١) بارو / اندريه / سومر فلونها وحضارتها / ترجمة د . عيسى سلمان وسليم طه التكريتي /

عصمة الرواية الاسلامية وريادية مصدرها لان نكرها كان يعطي صورة خاطئة او اسطورية لا قيمة لها مثل الحية او مفهوماً كظرياً او شركياً مثل اسناد الكذب الى الرب جلّت قدرته عندما منع آدم من الاكل من الشجرة تعالى الله علواً كبيراً .

اذا عدنا الان الى موضوع خلق آدم (عليه السلام) وجدنا ان نصوص القرآن الكريم قد اوضحت بان الله تعالى قد أسكنه الجنة . وقد اختلف العلماء حول حقيقة هذه الجنة ، هل هي جنة الخلد ؟ أم جنة في الارض هياها الله تعالى لسكن هذا المخلوق الجديد ؟ جمهور العلماء قال : أنها هي التي في السماء ، وهي جنة المأوى وأملتهم من القرآن والسنة كثيرة . وقال آخرون انها لم تكن جنة الخلد بل هي جنة اعدها الله لايتلاء آدم في الارض ووفر له فيها حاجاته من طعام وشراب وسكن ولباس ، وهذا القول محكي عن أبي بن كعب وعبدالله بن عباس وهب بن منبه وسفيان بن عيينه واختاره ابن تقيية في المعارف^(٥٢) ، ونكر القرطبي هذا الرأي عن المعتزلة والقبورية^(٥٣) (وهي فرق اسلامية لها آراء في الاعتقاد) . وكذلك نكر ابن القيم خلاف العلماء حول الجنة ونكر انلة الفريقين ومن طريف ما نكر من أنلة القائلين بان الجنة في الارض قولهم : « أين الليل على اصعاد مادة آدم (العادة التي خلق منها آدم) واصعاده بعد خلقه الى فوق السموات هذا مما لا دليل لكم عليه اصلاً ولا هو لازم من لوازم ما أخبر الله به . ومن المعلوم ان ما فوق السموات ليس بمكان للطين الارضي المتكثير الرائحة الذي قد أنتن وانما محله الارض »^(٥٤) . وقد أسهب ابن القيم في كتابه وتعقب الفريقين وأملتهم حتى نقل رأياً ثالثاً للرازي قال : المسألة يتوقف فيها لامكان الجميع وعدم القطع . الى ان قال ابن القيم في ختام نقله لآئلة الفريقين « فهذا هو موقف الفريقين ونهاية اقدام الطالفتين فمن كان له فضل علم في هذه المسألة فليجد به فهذا وقت الحاجة اليه^(٥٥) .

والمسألة تحتل ان تكون الجنة في الارض بل ان النصوص القرآنية تنسجم

-
- (٥٢) انظر : ابن كثير / ابو الفداء اسماعيل / قصص الانبياء / ص ١٦ وما بعدها .
(٥٣) انظر : القرطبي / الجامع لاحكام القرآن / ج ١٤ ص ٣٠٢ .
(٥٤) ابن القيم / ابو عبدالله محمد بن ابي بكر النمشلي ص ٧٥١ هـ / مفتاح دار السمانا
وسنن ولاية العلم والارادة / ص ٢٧ / دار الكتب العلمية بيروت / د . ت .
(٥٥) انظر : ابن القيم / محمد بن ابي بكر النمشلي / مفتاح السمانا / م . م . ص /
ص ١٤ - ٣٢ .

دلالتها مع هذا الرأي ، فلو تأملنا قوله تعالى ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾^(٥٦)، وقوله تعالى ﴿ والله أثبتكم من الأرض نباتاً ﴾^(٥٧) ، فالنص يشير الى ارتباط الانسان بالأرض في جميع مراحل وجوده . وإذا كانت هذه الجنة في الأرض أين تكون . لقد تطرقت التوراة الى جنة الأرض التي أسكن الله آدم فيها وسميت جنة عدن ، وقد ذكر ابن كثير ان جنة آدم جنة في الأرض « هذا القول نص التوراة التي بأيدي أهل الكتاب »^(٥٨) .

ويذكر ويلكوكس حول جنة عدن المذكورة في التوراة في التكرير الذي أعده وتوصل الى نتائج أثبتتها في هذا التكرير وقد استفرق بحثه سنياً طوال يقول عنها « لقد قضيت أربعة وثلاثين عاماً في دراسة كل ما ورد في العهد القديم مما له صلة بالرّي وبالاقطار التي يشملها نظام الرّي وهذه الدراسة مضفوعة بتحرّ عظمي دقيق لتلك الاقطار (يعني مصر والمراق) والذي ساعدني على هذا اختصاصي بهندسة الرّي ومعرفتي الجيدة باللغة العاصية »^(٥٩) وحول جنة عدن يذكر « الحوانات التي ورد ذكرها في الفصول الاولى من سفر التكوين وقعت في أرض لا توجد سماؤها بالامطار . ولما كانت مصر والعراق وهما اقدم البلاد المتقدمة في العالم . فمن المظنون جداً ان تكون اقدم الاقوام التي استوطنت هذين القطرين انما نزحت اليها من بلاد العرب »^(٦٠) استهدفت أثناء اقامتي في العراق مدة ثلاث سنوات دراسة نهر الفرات من منبعه الى مصبه لاصل الى معرفة مكان الجنة التي يمكن تأمين وصول المياه السحيحة اليها خلال الاثني عشر شهراً من السنة فظهر لي انه لا يوجد في المنطقة الواقعة جنوب هيت مكان يمكن ان تتوفر فيه الشروط المذكورة سوى الاراضي المستصلحة في منطقة الاهوار قرب الخليج ، جنوب الناصرية بجوار مدينة اربو القديمة حيث كانت عدن السومريين^(٦١) . « وكانت هذه الجنة حديقة غناء مليئة

(٥٦) سورة طه / ٥٥ .

(٥٧) سورة نوح / ١٧ .

(٥٨) ابن كثير / ابو الفداء / قصص الانبياء ص ١٧ .

(٥٩) ويلكوكس / سير ولهم / من جنة عدن الى عبيد نهر الارمن / تعريب د. محمد الهامسي / المعلمة ص ١ / بغداد سنة ١٩٢٩ .

(٦٠) المصدر نفسه ، ص ٨ .

(٦١) ويلكوكس / ن . م . / ص ١١ .

بالنخل الذي لا يزال يعتبر حتى يومنا هذا شجر الحياة كما إنها مليئة بأشجار الكروم أشجار المعرفة التي حرم أكل ثمرها^(٦٢) . لقد حاول ويلكوكس ان يثبت من خلال بحثه هذا ان جنة عدن في مفهوم التوراة او جنة آدم في المفهوم الاسلامي هي منطقة على شاطئ الفرات وفرت العناية الالهية فيها أنواع الثمار والأشجار وهيا الله سبحانه ظروفاً مناخياً وماء دائماً وتضافرت هذه الاسباب لتكون بيئة صالحة لعيش اول انسان أو بداية الجنس البشري حيث انطلق في تكوين أول تجمعات حضارية .

« وقد عثر على فخاريات في موقع جرمو (وهي أقدم القرى الزراعية المكتشفة في شمال العراق) ومنذ الطبقة الخامسة تثير تساؤلات عديدة وهامة^(٦٣) . ان التعرف على ظهور الانسان الاول أو بداية العصر الذي تتحدث عنه الروايات الدينية وهو عصر آدم عليه السلام ليس أمراً سهلاً ولكن اجمع علماء الطبقة وعلماء الاديان على ضرورة الايمان بوجود حدث مهم ظهر فيه الانسان يمثل النوع الانساني الحالي ، ولكن الخلاف حول التفاصيل . وهذا يدعو الى ضرورة تقبل آراء الطرفين وعدم اللجوء الى التكذيب والتهمك وانكار امور يطرحها النص الديني ، ولا يوجد دليل على عدم صحتها ، كما ذهب لنتون الى ذلك بقوله « لسنا نعرف أين ظهر أول من يمكن التعرف عليه كممثل لنوعنا البشري ولكننا متأكدون من انه لم يظهر في مساحة صغيرة محددة المعالم وبعبارة أخرى لم تكن هناك جنة عدن »^(٦٤) . لقد اثبتت البحوث المختصة بتاريخ الحضارات ومتابعتها والدراسات الجيولوجية والمكتشفات الأثرية ان وادي الرافدين هو مهد الجنس البشري « وأطلق عليه هذا الاسم مع ان الانسان عاش وأصاب حظاً من التقدم قبل ان يتكون هذا الوادي بعصور عديدة وبالرغم من ان الباحث قد يمتدح على بعض الأدوات والأسلحة التي تعود الى العصر الحجري القديم في الهضبة الصحراوية الممتدة بين حوض الفرات وغور الاردن ، الا ان لهذه التسمية ما يبررها ، اذ ان هذا الوادي من البقاع التي يمكننا ان نتبع في

(٦٢) المصدر نفسه ، ص ١١ .

(٦٣) الدباغ / د. تقي مع وليد الجابر / عصور ما قبل التاريخ / ص ١٣٨ .

(٦٤) لنتون / د. والف / شجرة الحضارة ترجمة د. احمد فخري / ج ١ ص ٤٢ / القاهرة /

تاريخه السحيق أصول حضارتنا الحالية»^(٦٥) . ولكننا ونحن نبحث عن تاريخ الانسان نبحت عنه من حيث انسانيته لا من حيث حيوانيته ، وقد « وصف هربر التاريخ على انه تربية الجنس البشري وتهذيبه . ونعته كنت بأنه تطور فكرة الحرية وارتقاؤها . وعرفه هيجل بأنه امتداد ذات لروح العالم »^(٦٦) . وهذا المفهوم يتطابق مع اهداف القرآن في سرد الحدث التاريخي الذي حافظ على العبرة وطالب الانسان باعتبار احوال الامم ومصائرهما وسلط الضوء على الحدث من خلال ارتباطه بالقضية التي يدعو اليها القرآن وهاجم القرآن العقل الذي لا يتمظ بالتاريخ ﴿ فاتها لا تعصى الابصار ولكن تعصى القلوب التي في الصدور ﴾^(٦٧) . لقد ذكر الطبري رواية تحدثنا عن لحظات موت آدم كما يلي : « لما كتب آدم وصيته مات صلوات الله عليه واجتمعت عليه الملائكة من اجل انه كان صفي الرحمن فقبرته الملائكة وشيت واخوته في مشارق الفردوس عند قرية هي اول قرية كانت في الارض »^(٦٨) .

وفي رواية عن عبدالله بن الامام احمد يروي حديثاً عن ابي بن كعب « ان آدم لما حضره الموت قال لبنيه : أي بني أني أشتهي من ثمار الجنة قال : فذهبوا يطلبون له ، فاستقبلتهم الملائكة ومعهم اكفانه وحلوطه ، ومعهم الفلوس والمساحي والمكاتل ، فقالوا لهم : يا بني آدم ما تريدون وما تطلبون ؟ قالوا : أبونا مريض واشتهى من ثمار الجنة فقالوا لهم : ارجعوا فقد قضى أبوكم . فجاءوا فلما رأتهم حواء عرفتهم فلانت بأدم ، فقال : اليك عني فاني انما أتيت من قبلك ، فخلي بيني وبين ملائكة ربي عز وجل فقبضوه وغسلوه وكفلوه وحلطوه وحفروا له ولحدوه ، وصلوا عليه ثم أدخلوه قبره فوضعوه في قبره ثم حثوا عليه ، ثم قالوا : يا بني آدم ... هذه سننكم »^(٦٩) . وقد ذكر ابن القيم حديث ابي هذا في الاستدلال على ان الجنة التي

(٦٥) بوطي / سيرليونارد / وادي الرافدين مهد الحضارة تعريب احمد عبدالباقي / ص ١٥ / مكتبة المثلي د . ت .

(٦٦) شبلندر / أرلوند / تدمير الحضارة الغربية / ج ٢ ص ٦٥ .

(٦٧) سورة الحج أية / ٤٦ .

(٦٨) الطبري / ابن جريرت ٣١٠ هـ / تاريخ الرسل والملوك / ج ١ ص ١٥٩ . والرواية تناقض ان ايريس اول من خط بالقلم . رواية ابي بن كعب اقرب للقبول والفهم .

(٦٩) ابن كثير / ابو الفداء إسماعيل / تاريخ الانبياء / ص ٥٦ وقال عنه اسناد صحيح .

أسكن فيها آدم هي في الأرض لان اولاده نهبوا لقطف النمر الذي اشتهاه منها^(٧٠) .
والاثار المروية توضح لنا بدايات تشكيل التجمعات السكانية بعد آدم ، حيث أوضحت
الاحاديث اول قرية كانت في الأرض متصلة بمصر آدم .

جنة آدم التي تحدثت عنها النصوص في آيات قرآنية وأحاديث نبوية والتي نكر
الملماء الاختلاف حولها هل هي في الأرض ؟ او في السماء ؟ المنطق وتسلسل
الاحداث لا يمنع من القول بوجود هذه الجنة في الأرض لكي تتسق قصة الخلق مع
جميع عناصرها فتشكل فهماً متماسكاً لا توجد في تكوينه ثغرة او فجوة يصعب على
العقل استيعابها .

آدم النبي الرسول اصطفاه الله وكرمه ورفع في نبوته وأسكنه جنته التي هيهاها
له لكي تكون اول مرحلة من مراحل الامتحان والابتلاء . وبعد ان استدرج الشيطان
هذا المخلوق الكريم وزين له مخالفة تعاليم الرب اخبره الله من هذه الجنة الى ارض
فيها من المعاناة والتمب والشقاء مما أراهه الله للانسان لابتلاءه وتمييز الطيب من
الخبث من معان البشر . وقد زين الشيطان لآدم مخالفة الرب بفكرة الخلود « هل
أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » فكيف يكون في جنة الخلد ويبحث عن
خلود ؟ وان هذا النص القرآني يؤكد ان آدم عليه السلام كان يعرف الموت ويخافه
وربما قد شاهد حالات موت امامه فكان اغراء ابليس له بالخلود يمبر عن معاناة آدم
عليه السلام . فكان إخراج آدم هو هجرة عكسية باتجاه ارض مجدية لحكمة أراها
الله تعالى ، فكانت مكة وفي أثر مروى عن النبي ﷺ ان الله أمر آدم أن يبني الكعبة
في مكة ويطوف حولها كما تطوف الملائكة^(٧١) . وحديث آخر ان الأرض بحيث من
مكة^(٧٢) . فهي لذلك تسمى ام القرى . ومنها بدأ تكوير الأرض فهي مركز الأرض .

إن قبول فكرة وجود آدم في جنته في وادي الرافدين فكرة منطقية ولا يسبب
تبدليها اي تعارض مع نصوص صحيحة وبتقينة من أحاديث او معاني آيات قرآنية وقد
عثر في وادي الرافدين على رقيم على شكل ختم اسطواني يعتقد انه يمثل فكرة جنة

(٧٠) انظر: ابن القيم / مفتاح السعادة / ص ١٩ .

(٧١) انظر: السيوطي / جلال الدين ت ٩١١ هـ / الدر المنثور في التفسير بالمأثور / ج

ص ١٣٩ / دار الفكر بيروت ١٩٨٢ .

(٧٢) انظر: القرطبي / الجامع لاحكام القرآن / ج ١ ص ٢٦٣ .

ألم ومحفوظ حالياً في البريطاني باسم « ختم الاغراء »^(٧٣) وهذا يعزز القناعة بجنون تداخل حضارة وادي الرافدين مع القصة الدينية ويدايتها على ارض الرافدين ، ومن ثم كان إخراج آدم من هذه الجنة بعد الخطيئة واتجاهه نحو مكة أمر تعززه أحاديث كثيرة وآراء علماء مسلمين ، وكذلك لا يتعارض مع الاستنتاج الطبيمي والمنطقي . ولقد وردت روايات حول أقرب الانبياء لآدم هو شيت ، وهناك معلومات ضئيلة حوله وأحاديث قليلة لا نستطيع الجزم بصحتها منها حديث أبي نر « ان الله أنزل مائة صحيفة وأربع صحف ، على شيت خمسين صحيفة . ومنها ما رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي نر أيضاً مرفوعاً « ان شيت كان نبياً وأنزل عليه خمسين صحيفة »^(٧٤) ، وبعد شيت وردت أخبار يرويها علماء التاريخ معظمها أو كلها مستقاة من أهل الكتاب وأخبار الفرس ولا سبيل الى تصديقها أو نفيها ويذكرها ابن كثير في قصص الانبياء والمسمودي في مروج الذهب^(٧٥) . اما أدريس فقد ورد ذكره في القرآن في قوله تعالى ﴿ والذكر في الكتاب ادريس انه كان صديقاً نبياً ورفعناه مكاناً علياً ﴾^(٧٦) . واختلف في عصره ومكانه وقيل اسم ادريس « اخنوخ ، والصابئة تزعم انه هو هرمس ، ومعنى هرمس عطارد »^(٧٧) - إشارة الى قوله تعالى ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ اي رفعه الى السماء - وقال بعض العلماء : « إن ادريس ولد ببابل ، وقد اخذ في اول عمره يعلم شيت بن آدم ولما كبر آتاه الله النبوة فهنئ المفسدين من بني آدم عن مخالفتهم شريعة آدم وشيت فاطاعه نفر قليل وخالفه جم غفير فامر اتباعه بالهجرة فقتل عليهم ترك بابل فقال لهم : اذا هاجرنا رزقنا الله غيره ، فخرجوا حتى وصلوا مصر ورأى النيل فدعا الله وسبح ، وهو أول من رسم قواعد تمدين المدن »^(٧٨) .

(٧٣) انظر : بارو / اندريه / سور فلديها وحضارتها ترجمة د . عيسى سلمان وسليم طه التكريتي / ص ٨٥ ، بغداد / ١٩٧٨ .

(٧٤) انظر : ابن كثير / ابو الفداء / قصص الانبياء / ص ٥٧ - ٥٨ .

(٧٥) انظر : ابن كثير / قصص الانبياء / ص ٥٨ والمسمودي / ابو الحسن علي بن الحسين ٢٤٦٥ / مروج الذهب وصانن الجوهري / ج ١ ص ٢٨ وما بعدها / تحقيق محيي الدين عبدالحميد .

(٧٦) سورة مريم آية ٥٦ / ٥٧ .

(٧٧) المسمودي / مروج الذهب / ج ١ ص ٢٩ .

(٧٨) الصابوني / محمد علي / النبوة والانبياء / ص ٢٣٦ .

وقد وبرت روايات بأن إريص أول من خط بالقلم^(٧٩) ، وإذا صحت هذه الروايات فيمكن عد عصر اريص عصر بداية الكتابة . والحقيقة ان الكتابة كالفن حيث تعتبر اعظم حدث بعد اللغة تعلمه واكتسبه الانسان . وأقدم وثائق تتعلق بصور فجر التاريخ تعود الى المجتمع السومري « وقد أظهر التنقيب الاثري الحديث التطور التدريجي في ما يتعلق بناحيتين متميزتين من المدينة السومرية : الكتابة والمعمار الديني (اي المتملق بالهيكل) والعمل الخلاق كان اختراع الرموز^(٨٠) (اي الإشارات الكتابية) . ان اي محاولة لمعرفة جنور التكون الحضاري وحل الاشكاليات العالقة في نهج الباحثين حول نقطة البداية او فجر حضارة وادي الرافدين ، تعتبر هذه المحاولة ميئوس منها حتى وصل الحال ان أحد الباحثين نكر : « ان سئل اي سومري أو أي أكدي عن ميلاد حضارته فلمه يجيب بكل بساطة : (انها نشأت هكذا) »^(٨١) . ونكر فرنكفورت نك بقوله : « لن نتناول مسألة كيف أصبحت الحضارة في المطلق ممكنة ؟ لانني لا اعتقد ان هناك جواباً أكيداً عن هذا السؤال . ويقول في موضع آخر : اعتقد انه على المؤرخ ان يعتبر هنا السؤال تستحيل الاجابة عليه »^(٨٢) .

طبقاً للنصوص القرآنية والحديثية وتفسيرات العلماء لها نخلص الى مفهوم حول المعرفة التي مدحها الله الخالق الى أمم المخلوق استناداً الى قوله تعالى ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾^(٨٣) ، ما هو العلم الذ تعلمه آدم ؟ وما هي الاسماء التي تعلمها ؟ المسألة ليست سهلة التحليل والمعرفة . بل ان المعلومات المضغوطة في النص تكاد تحولها الى رمز للاسس المرفقية والاستعدادات والملكات العلمية التي مدحها الله سبحانه وتعالى لآدم . « فقد ذهب هذا الكائن الجديد من الطاقات الكامنة والاستعدادات المدخزة كفاء ما في هذه الارض من قوى وطاقات ، وكنوز وخامات ، ووهب من القوى الخفية ما يحقق المشيئة الالهية ، وقد أودعه الله سر القدرة على

(٧٩) انظر : الصابوني / محمد علي / النبوة والانبياء / ص ٢٣٥ رواية عن ابن اسحاق .

(٨٠) توينبي / أرنولد / تاريخ الحضرة / ج ١ ص ٧٧ .

(٨١) انظر : بيلفيلد وجوان اوتيس / نشوء الحضارة ترجمة لطفي الخوري / ص ٢٩٤ / دار الشؤون الثقافية ببيداد ١٩٨٨ .

(٨٢) فرانكفورت / هنري / فجر الحضارة في الشرق الاقصى ترجمة ميخائيل خوري / ص ٩-١٣ .

(٨٣) سورة البقرة ٣١ .

الرمز بالاسماء للمسميات ، وهي قدرة ذات قيمة كبرى في حياة الانسان على الارض^(٨٤) . لقد اعطى الله تعالى الانسان القدرة على الكلام ، وهذه القدرة لا يملكها غير الانسان من المخلوقات الحية . فكانت وسيلة الاتصال والتخاطب هذه هي السبب الاول في ربط الانسان مع أفراد مجتمعه ومثلت بداية الصفة الاجتماعية التي يمتاز بها الانسان عن باقي الحيوانات ، وكانت اللغة العامل المشترك بين البشر في كل زمان ومكان ولولاها لتعذرت إقامة مجتمعات مدنية وبناء الحضارات ثم تلت هذه القدرة كخطوة متقدمة الكتابة فقد استطاع الانسان بما منحه الله من استعداد للترقي وبما أهله للاستخلاف ان يرمز الى الاصوات بصور كتابية طورها الى حروف فكانت الكتابة واستناداً للبحوث الآثارية والدراسات الانثروبولوجية للسلوك الاجتماعي للانسان فقد توصل العلماء الى ان السومريين وهم سكان العراق القدامى اول من ابتدع الكتابة . واستناداً الى وثائق وجدت على شكل رقم طينية نستطيع ان نقول بان العراقيين القدامى قد سبقوا غيرهم الى هذا الانجاز العظيم . ويذكر ماير بان « ارض سومر كان يسكنها قوم يدعون بالسومريين وهم جنس غير سامي ولكنهم وجدوا على هذه الارض وامتزجوا بالاكديين (الساميين) وكانوا يمتلكون نظاماً للكتابة وفتوناً أخرى وثقافة متطورة ، وقد استوطنوا في حوض نهر الفرات وكونوا نواة الحضارة »^(٨٥) . وقد كان هؤلاء السومريون يكتبون على الواح طينية وهي رطبة ثم تجفف على أشعة الشمس لعدة أيام ومن ثم يحتفظ بها كالواح تشبه الألواح الخشبية وكانت هذه الألواح تتضمن خطابات ومراسلات ملكية ونصوص دينية ومعاملات تجارية ، وقد شاع استعمالها قبل ٣٠٠٠ ق . م . وقد استطاع العلماء ان يتابعوا تطور نظام الكتابة السومري من الكتابة الصورية اذ كانت تكتب الكلمات على شكل صور تعبر عن المعنى ثم تطورت الى إشارات رمزية ترمز الى معنى الكلمة . والتي يمبر عنها (برسم الفكرة) او (الفكرة المرسومة ideograph) . وتبقى بداية الكتابة مجهولة التاريخ^(٨٦) ، ولكن المؤكد إنها بدأت على أرض الرافدين وانهم

(٨٤) قطب / سيد / في هلال القرآن / ج ١ ص ٥٦ - ٥٧ / دار الشروق بيروت ط ١١ ١٩٨٥ .

(٨٥) MYERS/ Philip Van ness/ Ancient history/ p. 50 Boston, USA 1916/ Second

Ed. 2-

C.E. Van Sickle/ Apolitical and cultural history/ of the Ancient world V. 1 p. (٨٦)

43/ Houghton MIFFLIN Company USA 1947.

نقلوها الى وادي النيل ، ولا خلاف بين المؤرخين على ذلك الا ان الدكتور احمد فخري ينفي هذا التأثير ويؤكد بان الكتابة في مصر مستقلة عن الكتابة السومرية ونشأت موازية لها ومستقلة عنها^(٨٧) . ولكن توينبي يقول « ان أقوى دليل على التأثير السومري على الكتابة المصرية هو ظهورها المفاجيء عكس الكتابة السومرية وما عرفناه عنها من تطور تدريجي من السابقة السورية . وهذا أقوى دليل منفرد يشير الى ان التأثير السومري كان أحد العوامل التي أدت الى ولادة المدنية المصرية الفرعونية^(٨٨) . ان اللغة والكتابة أمران معقدان لا سبيل الى معرفة جنورها بصورة دقيقة وقد نهب بعض العلماء المسلمين الى ان اللغة توقيفية اي بتعليم من الله والهام . وكذلك الكتابة فقد جاء في القرآن الكريم ﴿ اقرأ وربك الاكرم ﴿ الذي علم بالقلم ﴿ علم الانسان ما لم يعلم ﴿^(٨٩) ، هذا النص القرآني ربط بين القراءة وهي نطق يعبر عن اللغة والكتابة بالقلم وجعل مصدرها من الله تعالى واذا كان أمم عليه السلام قد علمه الله تعالى القابلية على النطق بأسماء الاشياء تطورت هذه القابلية حتى وصلت الى عصر اديس عليه السلام بعد شيث الى الكتابة ورسم الفكرة (ideograph) وقد ورت روايات تذكر بان اديس عليه السلام هاجر من بابل الى مصر^(٩٠) ، وليس من المستبعد ان يكون اديس عليه السلام هو الذي نقل أسلوب الكتابة الى مصر . وقد وجدت أختام أسطوانية في مصر مستوية من بلاد ما بين النهرين^(٩١) كليل مادي على انتقال الكتابة من العراق الى مصر . ويبدو ان الكتابة على الألواح بقيت حتى عصر موسى عليه السلام بحدود القرن ١٥ ق م ، فقد ورد نص في القرآن الكريم يذكر هذه الحقيقة وهو قوله تعالى حكاية عن موسى ﴿ واخذ الألواح في نسطها هنى ورحمة ﴿^(٩٢) .

(٨٧) انظر : كريم / سامويل / الواح سوسر ترجمة طه بالقر / المقدمة ص ٤١ .

(٨٨) توينبي / ارتولد / تاريخ البشرية / ج ١ ص ٨٢ .

(٨٩) سورة الملق / ٣ / ٥ .

(٩٠) انظر : النجار / قصص الانبياء / ص ٢٦ عن النبوة والانبياء للصابوني ص ٢٣٦ .

(٩١) فرانكفورت / هنري / فجر الحضارة في الشرق الاقصى / ص ١٠٣ .

(٩٢) سورة الاعراف آية ١٥٤ .

أهمية الملابس في قصة آدم :

ورد في قصة آدم نكر الملابس وارتباطها بالحياة الانسانية وقد نكرت الرواية القرآنية إن إبليس أغرى آدم وزوجه بنزع اللباس الامر الذي يعطي انطباعاً بأن الفطرة الاسلامية التي فطر الله الانسان عليها مرتبطة بالملابس التي تستر العورة وقد وضحت الرواية القرآنية ان الملابس مظهر من مظاهر الانسان المكرم .

وقد وجدت آثار وصور تؤكد ارتباط الانسان بالملابس في حضارة وادي الرافدين حيث وجد الانسان العراقي القديم (السومريون) وهو يرتدي الملابس وفي أقدم صور ونقوش للانسان القديم أكدت ارتباط الانسان بالملابس وستر العورة ويقول يرستد حول السومريين « وجل ما لدينا عنهم هو وجدنا صورهم على الآثار القديمة محلوقى الرؤوس وعليهم نقب (تنورات) من الصوف الخشن . ومنذ عهد عريق في القدم حين كانوا لا يزالون يستعملون الانوات الحجرية »^(٩٣) ، وكذلك نكر سيكل السومريون لانعرف عنهم أكثر من انهم حالقي رؤوسهم يلتفون بتنورات صوفية^(٩٤) . حسب نتائج البحوث الأثرية ان القدماء كانوا يرتدون الملابس ، ولكن متى بدأ الانسان يلبس الملابس ؟ القرآن الكريم تصدى لهذه القضية وربط بينها وبين حال الانسان مع الله وقد عرض القرآن كذلك ان انكشاف السوءة كان بوحى الشيطان وقد ربط القرآن بين قضية اللباس وستر العورة والخطيئة الاولى عندما أكل آدم وزوجه من الشجرة وبذلك كانت الملابس مظهر من مظاهر الاستخلاف الحضاري ، قال تعالى ﴿ فلما بفرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يطصفان عليهما من ورق الجنة ... ﴾^(٩٥) ، هذا النص يعلمنا بأن فطرة الانسان مجبولة على ستر العورة فانهما بعد المعصية أحسا وشعرا بما يملكان من سوءات قد انكشفت « فراحا يجمعان من ورق الجنة ويشبكانه بمضه في بعض (يخصفان) ويضعان هذا الورق المشبك على سوءاتهما ، مما يوحي بأنها العورات الجسدية التي يخجل الانسان فطرة من تعريها »^(٩٦) .

(٩٣) براستد / ١ : جايمس هنري / المصدر القديمة ، ترجمة داود قريان / ص ٨١ .

(٩٤) C. E. Van Sickle/ History of the ancient world/ p. 40 .

(٩٥) سورة الاعراف : ٢٢ .

(٩٦) قطب / سيد / في هلال القرآن / ج ٣ ص ١٢٦٩ .

وفي نص قرآني آخر ﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ﴾ يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم انا جعلنا الشياطين اولياء للذين لا يؤمنون ﴿^(٩٧)﴾ ، النص القرآني واضح لا يقبل اللبس حين يعلن بان الله عندما خلق الانسان خلقه مكرماً مميّزاً عن الحيوان فكانت الفطرة تتفق مع طبيعة الوظيفة التي فُيأ لها الانسان وكان الاصل والبداية ستر العورة والانحراف هو المرءي « ان المرءي فطرة حيوانية ولا يميل الانسان اليه الا وهو يتركس الى مرتبة أدنى من مرتبة الانسان وان رؤية المرءي جمالاً هو النكاس في النوق البشري قطعاً . والاسلام حين يدخل بحضارته الى هذه المناطق يكون اول مظاهر الحضارة اكتساء المرأة^(٩٨) ، ولذلك نحن على يقين بان الصور التي وجدت في حليريات السومريين ومخلفاتهم وهم يسترون عوراتهم انما كان من تأثير النبوات ودعوات الانبياء ويؤكد لنا كذلك هذا الامر بان الوظيفة الحضارية للانسان كان مصدرها التكريم الرباني واتساق هذا الكائن مع ارادة الله لكي يؤدي وظيفة الخلافة على الارض وان ارتداد البشرية نحو الحيوانية كان بإغراء الشيطان عندما نزع لباس الانسان ورغب لهم الانتكاس نحو الوظيفة البيولوجية الحيوانية والتخلي عن الوظيفة الروحية لارتداء لباس التقوى فكان المرءي والوثنية مرتبطين ارتباطاً وثيقاً وكان الحياء والتقوى من مظاهر الحضارة . وقد أثبتت الدراسات الاتارية ان الانسان العاقل في العصور الحجرية قد ارتدى الملابس (ولا ريب في ان ملابسه كانت من الجلود والياف النباتات لا من المنسوجات وان اوعيته كانت من الحجارة والمظام لا من الفخار والمعادن)^(٩٩) .

ان نبوة آدم كانت الانطلاقة الاولى نحو بناء حضاري انساني مرتبط بالسماء وكانت البداية التي أتاحت للانسان الانطلاق نحو تسخير الموجودات التي حوله . واذا كان العلم الحديث عاجز عن معرفة أصل الانسان الواعي ومتى بدأت رحلة وجوده على الارض فإننا نجد الاجابة عن أصل الانسان في القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . لقد كانت البداية منذ الاعلان الرباني في

(٩٧) سورة الاعراف ، ٢٦ - ٢٧ .

(٩٨) قطب / سيد / في هلال القرآن / ج ٣ ص ١٢٧٥ .

(٩٩) البياح / د تقي / الوطن العربي في العصور الحجرية / ص ١٤ .

الملا الاعلى عن استخلاف الانسان ﴿ قال ربك لللائكة اني جاعل في الارض خليفة ﴾ (١٠٠) ، وبعد الاستخلاف وضع القرآن الكريم الاساس الصحيح للبناء الحضاري وأكد ان الحضارة الحقيقية والقيم الحقيقية هي الحضارة المستمدة من تعاليم السماء لضمان مسيرة الانسان على الارض بسلام ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً لئلا يتبينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكتبوا باياتنا اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (١٠١) . اذاً نبوة آدم الاصل الانساني لهذا الكائن المتفرد . وعلى الارض كانت التجربة الاولى للانسان مع السماء واستمرت المصيرة ترعاها السماء من خلال الانبياء والرسول . وكانت الاستجابات الطبيعية للظفرة التي فُطر عليها الانسان تمثل نقاط انطلاق نحو تطوير الواقع وما يملك الانسان من استعدادات أوجدها الله فيه كانت الحياة تتطور نحو الاستقلال والتسخير الامثل للارض وما عليها . التي تمثل البيئة التي يعيش فيها الانسان لقد كانت أولى الخطوات التي خطاها الانسان على الارض والتي تمثل استعداده لتسخير ما حوله عبر عنها بالصيد الذي كان يمثل المرحلة الاولى من حياة الانسان الذي استخدم عقله وطوّره وسائله للصيد والدفاع عن نفسه ثم تطورت فعالياته نحو الزراعة وتسخير الارض ثم تدجين الحيوانات كالفم والماعز ثم تطورت الى صناعة الفخاريات وغيرها .

لقد كانت طبيعة الخلق التي امتاز بها الانسان تؤهله للقيام بدور عظيم على الارض . وقد ميز الخالق هذا المخلوق عن باقي المخلوقات في نقاط عديدة لعل ابسطها اختلافه عن الحيوانات في تكوينه الحيواني (البيولوجي) فقد امتازت منذ اللحظات الاولى عن باقي الحيوانات بكبر حجم الجسممة وشكل العمود الفقري بل حتى عظامه كلها تختلف عن عظام الحيوانات الاخرى وكذلك القوس في باطن القدم الذي يؤوله للمشي على القدمين . ثم امتاز الانسان بطاقات وملكات اودعها الخالق فيه مكنته لأن يقفز في الخط الاول للسيادة على الارض وما عليها من موجودات اول هذه الطاقات هي اللغة الوسيلة التي امتاز بها الانسان على جميع الحيوانات وتفرده بكونه الحيوان الناطق الوحيد . ثم تطورت اللغة الى الكتابة التي تعبر عن عمل ابداعي راقي لعقل الانسان .

(١٠٠) سورة البقرة ، ٣٠ .

(١٠١) سورة البقرة ، ٣٨ - ٣٩ .

ولعل أهم امتياز وأرقاه هو العقل أو الوعي وهو غير الدماغ كما اثبت العلم ذلك هو جوهر الانسان وسماه القرآن الكريم الفؤاد ﴿ قل هو الذي جعل لكم السمع والابصار والالفة ﴾ (١٠٦) ، وسماه القلب ﴿ ألمم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴾ (١٠٦) ، قلب الانسان وعيه بذاته وهو الطاقة التي منحها الله للانسان وبها استطاع الانسان ان يطور قابلياته ويزداد تمكيناً في السيطرة على مقدرات الارض . هذه الطاقات التي ميزت الانسان لا يزال العلم على ما بلغه من تطور يقف عاجزاً لان يجد تفسيراً لها وكيفية تكوينها وظهورها الى عالم الانسان . فاللغة لا يوجد تفسير علمي لتمييز الانسان بها ولكن القرآن الكريم وضع لنا اساسها ﴿ وعلم آدم الاسماء كلها ﴾ (١٠٦) . يجهل التاريخ كيف استطاع الانسان أن يصل في ابداعه الى الكتابة والقرآن الكريم وضع لنا بانها استمداد يملكه الانسان لتطوير معلوماته ﴿ علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ... ﴾ (١٠٦) .

لقد تطورت الحياة وتعمقت صورها بمر السنين ولكن الله سبحانه وتعالى لم يترك الانسان ﴿ وان من أمة الا خلا فيها نذير ﴾ (١٠٦) ، وشهدت ارض العراق اقدم المدينيات والحضارات وسبق المجتمع العراقي القديم كل مجتمعات الارض من تمكنه من ترويض الطبيعة والسيطرة على مياه الانهار (دجلة والفرات) : « والمدنية السومرية هي اقدم المدينيات الاقليمية التي نملك وثائق تتعلق بها . وهي أيضاً الوحيدة التي من المؤكد انها تطورت عن مجتمع او مجتمعات ما قبل المدنية والتي لم تنقل عن اي مجتمع شبيه بها كان قائماً قبل ذلك . بل ولم تكن نتيجة ايحاء من اي مجتمع من هذا النوع » (١٠٧) . لقد حفظ السومريون لنا انعكاسات وأصداء ما

(١٠٢) سورة تبارك : ٢٣ . (هناك تحليلات ودراسات تقول ان للانسان جسماً اخر مكوناً من مادة امكن تصويرها بواسطة اهمة خاصة اظهرتها مضيفة وهي ما تسمى بالهالة (Aura) ومركزها القلب) . انظر كتاب الانسان تلك المخلوق المجيب / د . سمير يحيى جمال / ص ٤١ .

(١٠٣) سورة الحج : ٤٦ .

(١٠٤) سورة البقرة / ٣١ .

(١٠٥) سورة الملق : ٤ - ٥ .

(١٠٦) سورة طاهر : ٢٤ .

(١٠٧) تولدي / أرلوند / تاريخ البشرية / ج١ ص ٧٧ .

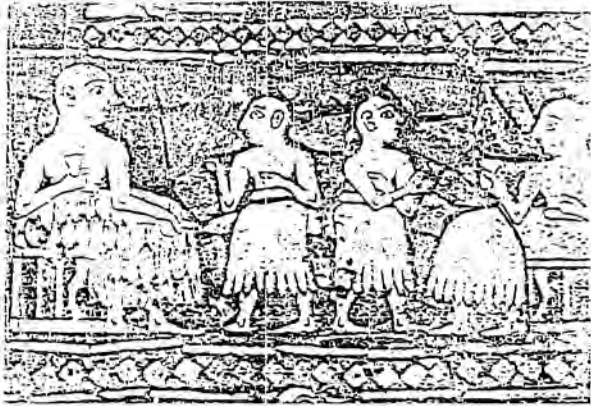
قبل التاريخ من خلال الرقم الطينية التي تعد من اعظم الوثائق التي ساعدتنا على التعرف على طبيعة حياة المجتمعات القديمة وعلى معتقدات الانسان القديم ومستوى تفكيره . كذلك لقد ساعدتنا مخلفات السومريين على النجاح في ربط النقاط الفاضة في التاريخ القديم واستطلعنا من خلال تحليل هذه الآثار والمخلفات من ايجاد تصورات منطقية مترابطة حول كثير من النقاط التي كانت غامضة بخاصة فيما يتعلق بنصوص القرآن الكريم التي تعرضت لفترات التاريخ القديم والاشكاليات المتولدة من المقارنة بين روايات القرآن الكريم وروايات الرقم الطينية ورواية العهد القديم (التوراة) .

وقامت في الغرب دراسات عديدة مقارنة بين التوراة والآثار . فكانت الحاجة ملحة لإخجال القرآن الكريم مصدراً من المصادر المهمة التي تعيننا على التعرف على نشاط الانسان على الارض في المصور القديمة وفجر التاريخ وحتى ما قبل التاريخ وخصوصاً فيما يتعلق بالانبياء وعصورهم وبداية الخليقة وتكون السماوات والارض وتخليقها بأمر الله سبحانه وتعالى ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ (١٠٨) .

ان اصل العراقيين القماء وما يسمون بالسومريين لا يزال مثار جنل وقضية تعدت حولها الآراء « لقد اصبح السومريون مسألة عويصة حتى ان المعنيين بحضارة العراق القديم صاروا يسمونها بـ (المشكلة السومرية) ومنذ الثلاثينيات والنقاش محتدم بين المستشرقين الصختصين بالكتابات المصمارية وأتاريين حول هذه المشكلة بون التوصل الى نتيجة حاسمة تحظى بقبول الغالبية » (١٠٩)

(١٠٨) سورة المصحة / ٧ - ٨ .

(١٠٩) علي / د . فاضل عبدالواحد / من الواح سومر في التوراة / ص ٢٦ .



١٧٨ - اورو، الرابية السلام تفصيلية منظر لتقديم الماء المنقوس (النصف الاول من
الالف الثالث المتحف البريطاني .

بارو / اندريه / سومر لغونها حضارتها ص

شكل يمثل السومريين وهم يرتدون القنورات وهو ما يؤكد ان الانسان قد ارتبط
بالملايس منذ بداية مسيرة الوعي والتكريم التي بدأها آدم عليه السلام وقد نلت
التفقيبات والمكتشفات الاترية على قدم استخدام الملايس وسفر العميرة بالنصبة
للانسان القديم



شكل يمثل رجل وأمامه امرأة وبينهما نخلة والمرأة والرجل قد مآ يديهما لتناول
الثمرة من الشجرة وخلف المرأة الحية . ويعتقد ان هذا الرسم يعبر عن جنة آدم
(المتحف البريطاني)

بارو / اندويه / سومر لتولها حضارتها ص ٨٥



خارطة تمثل القسم الشمالي من بلاد وادي الرافدين
موضحاً فيها قرية جرمو وموقعها التي يمتد أنها أقدم قرية

بارد / اندريه / سومر لدولها حضارتها من

المبحث الثالث

قاييل وهابيل

بقيت حادثة لها دلالتها وقرينة الصلة بمصر أم عليه السلام ووقعت أحداثها كما تشير الروايات التاريخية على ارض العراق هذه الحادثة نكرها القرآن الكريم ولها دلالتها وأثارها في حياة الانسان على الارض . وهي حادثة اول جريمة ارتكبت على الارض بعد الاستخلاف وتلقي المنهج الالهي وهي الحادثة التي قتل فيها أحد ابني أم أخاه نتيجة لحقد تولد في قلبه من مرض نفسي وانحراف عن الفطرة بسبب الحسد . وقد تكررت هذه القصة في العهد القديم وقد غلب على رواية التوراة اسلوب قصصي مبسط غير هائل وانما يفلب عليه أسلوب الرواية وتدخل هذه الرواية في تفاصيل وتشمعات في أسماء ومصميات الشخصيات بون التركيز على الحدث ومن يتأملها يجد شخصية الراوي قد انطبعت على صياغة القصة . على عكس الرواية القرآنية فهي رواية تربوية هائلة ركزت على جوهر قضية وهي العبادة وتقديمة القران وقبوله من الله تعالى فقد وضحت العلاقة بين الانسان والاله ، بين العبد والمعبود . ثم عكست سلوكيات الانسان تجاه الانسان في قضية الصراع بين الخير والشر ، وقد أعطى القرآن مفهوماً تربوياً للانسان وهو يتعامل مع الانسان في علاقاته الاجتماعية كلها . ان هذا الحدث ورد في العهد القديم في جوهر الحدث التاريخي كواقعة حصلت بين ابني أم ، ولكن القرآن الكريم اختلف مع العهد القديم في التفاصيل والصياغة اي ان القرآن الكريم اختلف اسلوباً وهدفاً . وقد فسّر-السير ويلكوكس هذا الحدث تفسيراً مادياً بعميداً عن القيم الدينية في معرض حديثه عن رواية العهد القديم . فقد ذكر ان سبب الحدث هو الصراع على الماء بين الفلاحين والرعاة ، ويدل على استمرار

تلك الخصومة بسبب تخريب السدود من حين الى آخر ، وما ورد في العهد القديم من ان الله كان يقبل قربابين هابيل ويزنري بقابيل وقرباينه ويظهر ذلك ان النضال بين الاخوين بلغ شدته فظن قابيل مرة ان اخاه قام بكسر السدود فعدا عليه وندس يده فقتله^(١١٠) .

نذكر اثناء نصوص القصة كما وردت في العهد القديم والقرآن الكريم وسنقارن بين النصين . ورد في العهد القديم سفر التكوين الاصحاح (٤) ما يأتي : « أما قابيل فقد عمل في فلاحه الارض ، وحدث بعد مرور ايام ان قدم قابيل من ثمار الارض قرباناً للرب ، و قدم هابيل ايضاً من خيرة أبقار غنمه وأسمها ، فتقبل الرب قربان هابيل ورضي عنه فاغتاظ قابيل جداً وتجهم وجهه كمدأ ، فسأل الرب قابيل : (لماذا اغتظت ؟ لماذا تجهم وجهك ؟ لو أحسنت في تصرفك ألا يشرق وجهك فرحاً ؟ وان لم تحسن التصرف فعند الباب خطيئة تنتظرك تتشوق ان تتسلط عليك ، لكن يجب ان تتحكم فيها . وعاد قابيل يتظاهر بالود لآخيه هابيل وحدث ان كانا معاً في الحقل أن قابيل هجم على أخيه هابيل فقتله »^(١١١) .

ولنقرأ النص في القرآن الكريم ﴿ وَقَتْلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ لَنْ يَسْمَعُوا إِلَىٰ يَدِكَ فَتَنَّتْهُمَا مَا أَنَا بِيَاسُ إِلَهِكَ أَتَىٰ لَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِذْنِي وَالمَلِكِ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَذَمَّهُ اللَّهُ عَرَابًا يَبْعَثُ فِي الْأَرْضِ لِرِيبِهِ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعْبَيْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ الظُّرَابِ أَلَا وَارِي سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾^(١١٢) .

لو قارنا بين النصين سنجد ما يأتي :-

١ - نكر العهد القديم اسمي ابني آدم ولم يذكر النص القرآني الاسمين ، وعدم ذكر الاسماء يدل على تركيز القرآن على الفعل لا على الشخص ، ولذلك رتب القرآن المسؤولية على الفعل وكذلك القرب من الله وترقي الانسان مرتب على العمل ايضاً وإخلاص النية . وقد يور النص القرآني قبول العمل على التقوى

(١١٠) (بيلكوكس / للسيد وليم / من جنة عدن / ص ١٧ -

(١١١) (الكتاب المصحف / العهد القديم / التكوين / ٤ / ص ٥ .

(١١٢) سورة المائدة : ٢٧ - ٣١ .

- ﴿ إنما يتقبل الله من الصّالحين ﴾ ولم يتطرق نص التوراة الى هذا المعنى .
- ٢ - ركز النص القرآني على الحوار بين الاخوين وأعطى للموقف الصحيح تأثيراً يدفع الانسان للتطلع نحو التسامح وحب الخير مما يدفع الحياة نحو الحالة الايجابية رغم سطوة الظلم وقسوته ، ويبقى الظلم مستعطباً أسود لا يمنح الحياة إشعاعاً ونوراً بل يحفزها نحو الانكماش والتوقف عن الابداع . ولم يركز النص التوراتي على هذه القضية .
- ٣ - دل النص القرآني من خلال تركيزه على الحوار على وجود معاني الايمان بالآخرة والجنة والنار والأثم المتولد من الخطيئة وعاقبة الظالمين . كل هذه المعاني كلها تؤكد أثر نبوة آمم عليه السلام في الحياة والمجتمع ويقالها تؤثر على الناس في فجر الانسانية . وتؤكد الآيات القرآنية كذلك ان هذه الجريمة اول خروج وتمرد على تعاليم الانبياء التي حملوها الى البشر وأوحاها الله اليهم . في حين غابت هذه المعاني عن نص العهد القديم .
- ٤ - يشترك النص القرآني مع نص العهد القديم في إثبات أول انواع العبادات التي شرعها الله للبشر ، وهي تقديم القرابين تعبيراً عن ارتباط الانسان بالخالق من خلال ممارسة هذه العبادة . ويبدو ان هذه العبادة قد أصابها التشويه والتحريف والتكبير شأن الانسان دائماً في إيمانه الذي يتحول بمرور الزمن من التوحيد الى الاشرارك مع الخالق بسبب الضعف والجهل وغواية الشيطان ومرار الزمن يتحول الناس بالاتجاه الخاطيء فيرسل الله تعالى من الانبياء والرسل يصححون مسيرة الانسان . وقد نلت الآثار على وجود مذابح في جميع المعابد المكتشفة .
- ٥ - نص العهد القديم يعكس وجود إصرار على الخطيئة ، وان هذه الخطيئة موجودة . وجعل النص من قابيل يحتال ويتظاهر بالود لكي يظهر بفرصة يقتل فيها أخاه ، وهذا المعنى يدفع القارئ للاعتقاد بالجبرية وان الشر متاصل في الانسان ، في حين ان النص القرآني يصور انفعالاً أدنياً ولحظة حقد وحسد سيطرت على الاخ لم يستطع معها ان يقاوم الفجور الكامن في النفس وارتكب الجريمة على أثرها بسبب فشله في الابتلاء وعجزه عن كبت الحقد . وهنا يعكس لنا أن صراعاً حدث في داخل النفس يدل عليه صيغة التهديد ﴿ لا تقتله ﴾ ويصور لنا النص نفسية المؤمن المسلم الذي يمتلك ايماناً

٦ - وخوفاً من الله يجعله يرتفع عن المستوى الحيواني الذي سيطر على الآخر .
 لم يذكر النص التوراتي قصة الغراب بينما ذكر النص القرآني حادثة الغراب
 هذه وفي هذا إشارة الى ان هذه الحادثة كانت قبل أن يشيع الدفن ويتعلم
 الانسان كيف يدفن موته ، وكذلك تؤكد لنا قصة الغراب قضية قم الحادثة
 وقربها من فجر التاريخ (اي قبل التاريخ) . وكذلك اكد لنا النص القرآني
 بأن الانسان كان يتعلم ويقلد الحيوانات سواء في السلوك أم في الاصوات
 وغيرها . وكذلك عانة دفن الموتى التي بدأت على أرض العراق كانت تمثل
 استجابة قابيل الاولى في دفن جثة أخيه وكان الغرض منها دفن الجثة
 والتخلص من التحلل الذي يصيب الجسد وعبر عنها القرآن الكريم بقوله
 ﴿ كيف يواري سوءة أخيه ﴾^(١١٢) ثم تحولت هذه الطريقة الى ان يدفن مع
 الميت من الطعام والكنوز بل قد يدفن معه أحياء من نساء وعبيد ، هذا
 التغيير في طريقة الدفن ليس بمستغرب لأن الانسان الذي يتنم عن تعاليم
 الدين يستسلم لمواظفه واهوائه كما نرى في طريقة دفن الموتى اليوم .
 ولذلك عندما كان العراقيون القدامى يدفنون موتاهم لم يكونوا يدفنون معهم
 من الحلبي والكنوز كما كان يفعل المصريون القدامى ، نكر تلك برستد^(١١٣) .
 ينكر الآثاريون أن انسان نيااندرتال أول من دفن الموتى^(١١٤) وقد وجدت في
 كهف شانيدر في قبر بنور أزهار برية مما يشير بأن المدفون شخص عزيز
 وضع دافنه في قبره بعض الازهار البرية تعبيراً عن الود^(١١٥) .

لا بد ان ننكر ونحن بصدد تحليل هذه القصة والمقارنة بين العهد القديم والقرآن
 الكريم ، ان هذه القصة وبفواصل قريبة قد وجدت على رقم طينية تحكي تراثاً سومرياً
 في أدب المناظرة بين الفلاح والراعي ، وقضية تقديم القرابين والصراع بين
 الاخوة^(١١٦) . إن التغييرات في بعض التفاصيل لا تؤثر على حقيقة تفرض نفسها وهي

- (١١٣) سورة المائدة / ٢٦
 (١١٤) انظر براستد / د . جايمس هنري / المصور القديمة ، ترجمة داود
 قريان / ص ٨٥ .
 (١١٥) النبأغ / د تكي / الوطن العربي في المصور الحجرية / ص ١٢
 (١١٦) Solecky. R.: Shanidar "Ice Flower people".
 (١١٧) انظر علي / د . فاضل عبدالواحد / من الواح سومر / ص ٢٨١ - ٢٩١ ، وكذلك كريبور /

أن الإيمان بوقوع هذه الحادثة في فجر تاريخ البشرية قد أصبح حقيقة و يقيناً بالنسبة لكل دارس للتاريخ القديم ، ولكن بالنسبة لنا كمسلمين ونحن نتطلع الى النص القرآني عند قوله تعالى ﴿ وَاَقْل عَلَيْهِمْ نَبأِ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ ﴾ نعلم انه الحق المبين وبذلك يزداد ايمان المؤمنين . ويزداد يقيناً بأهمية القرآن الكريم كمصدر لمعرفة التاريخ القديم . آخر قضية يمكن إثارتها ونحن نسير من عمق التاريخ وتتحرك من عصور ما قبل التاريخ باتجاه عصر فجر التاريخ مع الانسان الواعي الذي توقفنا عنده وحللنا نتائج بحوث العلماء المتخصصين في مجالات البحث عن أصل الانسان والتاريخ القديم ، وكذلك درسنا نصوص القرآن ومعطياتها حول بداية عصر الانسان الواعي منذ آدم عليه السلام .

المبحث الرابع

أثر النبوات في حضارة وادي الرافدين

إن أصل الحضارة متوافق مع منهج الله ثم يحدث التراجع ومما يؤكد هذا الاستنتاج ما اكتشفه الآثاريون من رقم طينية توضح عقائد الانسان القديم وافكاره وكيف كان مستوى تفكيره ونظراته الى الكون والحياة ، لقد وجد في مخلفات السومريين من الرقم الطينية ما يؤكد ان عقيدة العراقيين القدماء أساسها تراث الانبياء وسنعمد مقارنة بين ما استطاع علماء الآثار والتوصل اليه ممن استطاع ان يقرأ ما كتبه العراقيون القدامى (علماء المسمايات) وبين ما قرره القرآن الكريم من مسائل عقائدية وحقائق تاريخية . وبذلك نستطيع ان نقول بان حضارة وادي الرافدين وأي حضارة قامت على الارض لم تكن وليدة الفراغ او الانقطاع بل كانت نتاج تفاعل المجتمع مع الرسائل السماوية واننا حينما نذكر الحضارة العراقية بسبب اجماع علماء الآثار والمؤرخين على انها أقدم حضارة عرفتها البشرية وامتازت بشموليتها وعالميتها ، وقد كشفت التنقيبات عن تأثير هذه الحضارة على حضارات عديدة فقد انتقلت تأثيرات حضارة وادي الرافدين في كل الاتجاهات الى « ايران وبلاد اورارتو (أرمينيا) في الشرق والشمال الشرقي والى بلدان الخليج العربي في الجنوب والى سوريا وفلسطين ومصر في الغرب والى بلاد الاناضول واليونان باتجاه الشمال والشمال الغربي»^(١١٨) . ان تحليلنا لمقائد سكان وادي الرافدين القدماء يؤكد لنا بان هذه المقائد بقايا نبوات لان العقل البشري لا يستطيع ان يبتدع عقيدة . وهذه

(١١٨) علي / د. فاضل عبدالواحد / من الواح سومر الى التوراة / ص ١٧٣

المقيدة موجودة في الكتب المقدسة والقرآن الكريم على الخصوص . لقد غلب على ظن كثير من الباحثين ان المصالة معكوسة اذ فرضوا بان الكتب المقدسة قد تأثرت بالموروث السومري ولو كانت هذه العقائد اسطورية الممضى لكان هذا الامر مقبولاً ولكن بعد تقدم العلم الحديث تأكد بان هذه العقائد حقيقية ويقين لا سبيل الى إنكاره^(١١٩) .

ولعل أهم العقائد السومرية التي كانت سائلة وتؤثر على الحياة في وادي الرافدين وعالمياً ، هذه العقائد هي :-

- ١ - الاعتقاد بان المياة الاثلية (في السومرية AbZu) كانت أصلاً للوجود .
 - ٢ - الاعتقاد بان الكون (An-Ki) كان في الاصل كتلة واحدة وانه شطر فيما بعد الى شطرين هما السماء (an) والارض (ki) .
 - ٣ - ان الانسان خلق من طين (حسب الرواية السومرية) ومن طين ممزوج بدم أحد الالهة (حسب الرواية البابلية) وان خلقه كان على صورة نكر وأنثى مطب البده .
 - ٤ - ان الانسان خلق من أجل ان يعبد الالهة ويقيم معابدها ويخصها بالنور والقربان .
 - ٥ - ان الموت مصير كل انسان ولا يخلد سوى الالهة .
 - ٦ - خلق البابليون على كبير اربابهم مروخ أسماء عديدة للتمظيم والتمجيد بلغ عددها خمسين اسماً .
 - ٧ - اعتقد البابليون بانه كان له (كلمة) كبير الهتهم مروخ قنرة على فعل كل شيء سواء في الخلق أم في الفناء^(١٢٠) .
- هذه خلاصة لاهم معتقدات المراتبين القدماء ، ولو وضعنا امام كل فقرة اعلاه آية من القرآن الكريم توافق معناها لم نجد عناء في ذلك .
فلو تأملنا هذه المعتقدات لوجدنا ان لها أصلاً مع معاني آيات في القرآن الكريم وكما يأتي :-

(١١٩) انظر موريس بوكاي وكتبه (١) أصل الانسان ، (٢) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة . هذه الكتب تؤكد ما ذهبنا اليه ، وانظر كذلك موريس وكتابه العلم يدعو للايمان وكتب غيرهه كثيرة تؤكد هذه الحقيقة .

(١٢٠) علي / د فاضل عبدالواحد / من الواج سوسر الى التوراة / ١٠٨

- ١ - الماء أصل الحياة في القرآن الكريم نكر في الآية الآتية وهي الآية التي تؤكد أصل الكون الواحد ﴿ لو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففلقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾^(١٢١).
- ٢ - خلق الانسان من طين نكر في أكثر من آية ﴿ وبما خلق الانسان من طين ﴾ ، ﴿ اتى خالق بشراً من طين ﴾ . وكذلك يمكن تعديل التصور البابلي مع قوله تعالى ﴿ ولما سويته ونفطت فيه من روحي ﴾ تعديل مزج دم الالهة بنفخة الروح الالهية . وكذلك بداية الخلق كان من نكر وانثى ولبليل الزوجية هذا أحد الالفة على حاجة الحياة لزوج (نكر وانثى) للاستمرار وهذا لبليل على ان الانسان خلقه الله وفق نظام الزوجية . فهو خلق مقصود لا مكان للصدفة ولا للمبتدأ والمضوائية في وجوده . ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً ولقبائل تتعارفوا ﴾^(١٢٢) . قال المفسرون (نكر وانثى) هما أم وحواء^(١٢٣) .
- ٣ - العقيدة الرابعة (ان الانسان خلق من أجل أن يعبد الالهة) نكره القرآن الكريم بصيغة التوحيد وليس الاشراف مع الله بألهاة أخرى كما كان يشرك القدماء ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ﴾^(١٢٤) .
- ٤ - الموت مصير البشر ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ ، ﴿ كل شيء هالك الا وجهه ﴾ .
- ٥ - وجود الاسماء الحسنی لله عقيدة قديمة نجدها عند السومريين والبابليين القدماء ﴿ والله الاسماء الحسنی فادعوه بها ﴾ .
- ٦ - الكلمة الكونية الربانية ليست غائبة في عقيدة البشر ولم تقب يوماً ﴿ انا لقي امرأاً فإتيا يقول له كن فيكون ﴾^(١٢٥) .
- لقد حوى تراب الرافدين بنور النبوة والانبياء فمنه يتطلع الانسان الى قصة الانسان

(١٢١) سورة الانبياء / ٣٠ .

(١٢٢) سورة الحجرات ، ١٢٣ -

(١٢٣) ابن كثير / ابو القاسم اسماعيل بن ٧٧٤هـ / ٤٤٤ ص ٢١٧ / دار المعرفة بيروت ١٩٦٦ -

(١٢٤) سورة الفتح : ٥٦ -

(١٢٥) سورة مريم / ٢٥ .

الاول والمجتمع الاول والحضارة الاولى والمدنية الاولى اذ رسم الحق تعالى خطوات المصيبة الاولى وتركت آثارها وبصماتها على الحياة الانسانية على الارض . وعلى أرضه نسجت قصة الطوفان الاول حيث البداية الثانية لمسيرة الانسان مع نبي الله نوح عليه السلام وقد ترينت قبله أصداء الانبياء والصالحين من شيت ابن آدم وانريس وما نكر من أسماء الصالحين ود ويقوت ويعوق ونسرا . على هذه الارض أسرار تاريخ الانسان كما نكر مالوان في مذكراته عندما كان ينقب في العراق « كانت الرفوف في غرفة الجلوس تضم مكتبة صغيرة . ولكننا كنا آنذاك نصنع التاريخ ولذا لم نكن بحاجة إلا الى مصادر قليلة »^(١٢٦) . إننا لا بد ان ندرك ان تحت تراب الرافدين كنوز التاريخ وقصة الحضارة للانسانية جمعاء ومراحل تطورها ولكن مما يؤسف له ان هذه الكنوز وقعت بأيدي غرباء حرصوا على التمتع على نتائج الابحاث والحفريات والكشوفات التي توصلوا اليها حتى نكر الاستاذ طه باقر هذه الحقيقة بقوله « من الامور التي عابها غير واحد على الحضارة الفريية الحاضرة وأخضوه على أهل الاختصاص فيها متهمين إياهم بأنهم يسلكون في اخفاء نتائج بحوثهم ما كان عليه القدماء من أهل المعرفة في حرصهم على معرفتهم والرضن بها على الجماهير بحيث كانت من الاسرار المقدسة »^(١٢٧) .

ولكننا لو قارنا ما نشره الفرييون من تراجم الرقم الطينية التي وجدت في أرض العراق لامكننا بسهولة معرفة أصول هذه الحضارة وجنورها التي لا يمكن ان نصفها الا انها حضارة كانت معتلة بالآثر الديني وسمات الدين الذي اوحاه الله تعالى الى أنبيائه ورسله وكل ما وجد من مفاهيم أسطورية أو وثنية أو شركية كان نتيجة طبيعية لكل تفاعل زمني مع الرسالة السماوية والانحراف المجتمع عنها بعد مدة من الزمن ، لو تأملنا حال الرسائل السماوية الثلاثة فنسجد ان نفس المفهوم يسري عليها ، اذ كان الله سبحانه وتعالى في كل مرة يرسل رسولاً او نبياً ثم تبعه مجموعة من بني قومه ويعارضه آخرون ثم ينتصر النبي واتباعه وتستقيم الحياة الانسانية بمقتضى الرسالة ثم بعد مدة من الزمن يبدأ الانحراف وتتمطل الرسالة حتى يبعث الله تعالى نبياً آخر ليصحح المسار ويمالج الانحراف وهكذا حتى محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء ، ولذلك « ان المدنية لا تدبني لأي طائفة من طوائف البشر كما تدبني

(١٢٦) مالوان / ماكس / مذكرات مالوان ، ترجمة سمير الجليبي / ص ٣٦ .

(١٢٧) كرومر / سامويل / من الواح سومر ، ترجمة د. طه باقر / انظر مقدمة المترجم ص ٥ .

لهذه الطائفة الرائدة (الانبياء) . إنها تدبّر لها في حياتها ويقائنها وفي شرفها وكرامتها وفي اعتدالها وسدانها فلولاها صلى الله عليهم وسلم لفرقت سفينة الانسانية بما فيها من علوم وتراث حضاري وفلسفة وحكمة ولتحولت البشرية الى قطعان من السائمة والوحوش لا تعرف رثاً ولا تعرف ديناً ولا خلقاً ولا تعرف رحمة ولا محبة ولا تعرف من معنى اسمى وغاية أعلى من العلف والرتع . ان كل ما يوجد في هذا العالم من المعاني الانسانية الكريمة والاحاسيس الرقيقة اللطيفة والاخلاق العالية الفاضلة والعلوم الصحيحة النافعة من القوة والعزم على محاربة الباطل والفساد انما يرجع فضله وينتهي تاريخه الى وحي السماء وتعليمات الانبياء وتبليغهم^(١٢٨) .

إن أهم سمة من سمات النبوة والانبياء إن دعوتهم لا تمتل أفكارهم وليست انعكاس لمعاناتهم وانما النبوة حدث طارىء في حياتهم يختارهم الله لها وليس لهم أدنى سبب ذاتي في اختيار الملهج او الوسيلة او الزمن وإنما هو فضل من الله لحكمة يعلمها وظروف يختارها بحكمته وعقله ، ولكن هذه السمة لا تكون عديمة المناسبة مناقضة للواقع والسبب والمسبب ، ولكن عادة تتناسب الحكمة مع الظروف الموضوعية والاعتبارات البيئية ﴿ قل إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشاً قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً إلا بطلاً من الله ورسالاته ﴾^(١٢٩) ، ولكن رعاية الله كانت تحيط الانبياء وإرادة الله كانت ترسم لأقوامهم الخير في طريق الابتلاء الذي اختاره الله لهم وهو طريق الانبياء . وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة وهي عدم وجود استعداد مسبق او تطلع للنبوة من قبل شخص النبي الكريم بقوله تعالى ﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراك به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله ألا تعلمون ﴾^(١٣٠) . لذلك فان العقائد التي يبلغها الانبياء لم تتطور في مفاهيمها عن عقائد سابقة كما يؤمن الماديون بتطور الدين من الطوطم الى تجريد الاله المعبود ، ولكن الحاجة والفطرة الموجودة داخل الانسان هي التي تنعكس في لحظات بعد عن نبوة وضعف الانسان الفطري أمام الظواهر الطبيعية هذه هي التي تنعكس في صورة

(١٢٨) (الندوي / ابو الحسن على الحسنی / النبوة والانبياء في ضوء القرآن / ص ٣١ / مكتبة

وعبة القاهرة ط ٢ سنة ١٩٦٥

(١٢٩) سورة الجن / ٢١ - ٢٣

(١٣٠) سورة يونس / ١٦

عبادة بدائية ليس لها علاقة بوضع الانسان المدني والثقافي ولتلك نجد صورة سانحة للعبادة موجودة حتى في عصرنا الحالي على الرغم من التطور الحاصل في وسائل عيش الانسان .

ومن السمات الاخرى لدعوات الانبياء الدعوة الى عبادة الاله الواحد والتوحيد « والسمة الثالثة من سمات النبوة وملامح دعوتهم وشعائرها هي التشديد على جانب الآخرة والهج بها أو الاشارة بذكرها والتنويه بشانها تنويهاً يجمعها من النقاط الاساسية في دعوتهم ويشمر كل من يعيش في أخبارهم وأحاديثهم ويتنوق كلامهم أن الآخرة هي دائماً نصب أعينهم »^(١٣١) ، وقد انعكس هذا الايمان على المجتمعات وحياة الناس حتى المنوك والامراء الذين انحرفوا عن الايمان بعقيدة الانبياء كانوا يؤمنون بالآخرة وما المقابر الملكية وما فيها من متاع وكنوز الا تجسيدا للايمان بالآخرة وبالعقيدة البعث بعد الموت التي لا يمكن ان تفسر على أساس التحليل العقلي للانسان والتفكير الذاتي للعقل البشري ما لم يكن هناك من أثر للنبوة والانبياء وما معاني الايمان بالغييب والجنة والنار وجنة عدن وغيرها من الافكار والمفاهيم الممزوجة بالاسطورة الاصورة من صور الايمان بالغييب الذي دعا اليه الانبياء . وأرى من المناسب ان ننقل تراجم لبعض الرقم الطينية التي نكرها او ترجمها كريم في كتابه ألواح سومر لدرى وحدة المصدر وأثر النبوة والانبياء والعقيدة الواحدة التي أخذت صوراً مختلفة بحسب التحريف او التفسير الذي يحدثه البشر ، يقول كريم « ان المفكر السومري الكثير التأمل كانت له القدرة العقلية على ان يفكر تفكيراً منطقياً مترابطاً ومفهوماً في أي قضايا فكرية بما ذلك أصل الكون ونظام سيره »^(١٣٢) ، وإذ كانت اليهودية تمثل طفولة البشرية بما فيها من تشديد ومحرمات كانها أوامر ونواهٍ يجب عليها الاطفال محدودي التفكير فان الشعب السومري لم يختلف عن الصور التي حفظها القرآن الكريم عن الشعوب الاولى في فجر الانسانية ، بل ان السمات الاساسية لعقل الانسان لم تتبدل ولذلك كانت العقيدة التي جاء بها الانبياء واحدة في أسسها وقواعدها وانما كان الذي يتطور ويتغير هو التشريعات التي تنظم حياتهم فكان القرآن الكريم يصور حالات من تفسير التشريعات مثل ان يحل بعض المحرمات على الامم السابقة ويخفف عنهم الاغلال والقيود بتوسيع دائرة

(١٣١) الندوي / ابو الحسن / النبوة والانبياء . م . س / ص ٤٧ .

(١٣٢) كريم / سامونيل / الواح سومر / ص ١٥٩

المباحات وتقليل المحرمات من الاطعمة والاشربة وغيرها من القيود الاجتماعية
وهنا نص رقمي يؤكد تأميم النين يتجاوزون الحدود ويتجراون على المحرمات اذ
يقول هذا النص :

« من نظر نظرة رضى الى مواطن الشر

من بدل الوزن الكبير بالوزن الصغير

من بدل الكيل الكبير بالكيل الصغير

من أكل ما ليس له ولم يقل أكلته

من قال أكلن ما حُرّم

ومن قال لأشرين ما حُرّم » (١٣٣)

وفي هذا النص دلالة على عدم تغير المعايير الاخلاقية وقيم الانبياء .
ويحدثنا كريم عن أهم نتيجة توصل اليها من خلال تحليله قصيدة سومرية
وجدت على رقيم طيني مع حقيقة موجودة في التوراة والديانات الاخرى وهذه
الحقيقة هي « إن حواء خلقت من ضلع آدم » تماماً كما في الاحاديث النبوية
الصحيحة و اشاراتها الواضحة الى هذه المعاني التي قد تعطي إشارة الى معنى
رمزي مستعار وهذه الاستعارة نجدها لدى السومريين وانه لامر غريب حقاً « نص
القصيدة السومرية : كان أحد أعضاء الاله انكي الذي أصابه المرض هو الضلع
والكلمة السومرية للضلع هي تي : Ti وبعيت الالهة التي خلقت من أجل أن تشفي
(ضلع انكي) بإسم « نن - تي » . اي (سيدة الضلع) ولكن تي في السومرية
تعني ايضاً تحيي - فنن - تي) تعني (سيدة الضلع) وتعني كذلك (السيدة
التي تحيي) (١٣٤) . ونعتقد بأنه ليس من الصعوبة معرفة جنس هذه الحقيقة وكيف
عرف السومريون أصل خلق حواء ؟ التي بدأ خلقها من ضلع آدم « خلق منها
زوجها » فعندما خلقت حواء من ضلع آدم أكملت غاية خلقه وتكاملت معه فحققت
له شفاءً من حالة النقص التي كان يفتقر اليها والى تكاملها معه من خلال حالة

(١٣٣) كريم / م . س / ص ١٧٨ وما بعدها .

(١٣٤) كريم / صامويل / م . س / ص ٢٤٤ وينكر كريم حول هذه الاستعارة والتورية في اللغة

السومرية « وهكذا صارت « سيدة الضلع » في الالب السومري تعني او تطابق بطريق
التورية او التلاعب بالالفاظ ايضاً « السيدة تحيي » فكانت هذه التورية التي تعد آدم
تورية ابيية من نوعها قد قالت وخلدت في قصة الفريوس التوراتية . . انظر كريم

الزوجية^(١٢٥) . وفي ترتيبه سومرية نجد حالات من التقارب مع بعض نصوص آيات من القرآن الكريم انا جربت هذه الترتيلة من شواذب الشرك والمفاهيم الخاطئة التي دخلت الى العقيدة السومرية نتيجة التبديل الطبيعي للبشر بعد الانبياء . فقد نكر القرآن الكريم هذه الظاهرة ﴿ يعرفون الكلم عن مواضعه ﴾ لتقرأ هذه الترتيلة الموجودة على رقيم طيني :

الدليل لو الامر الواسع المدى الذي كلمته مقنسة
 الرب الذي لا يبذل كلامه الذي يقدر المصائر الى الابد
 الذي تبصر عيناه المتفرستان جميع الاقاليم
 الذي نوره المتعالي في دخائل قلب جميع البلدان
 اثليل الذي يجلس مائلاً « المنصة » البيضاء الذي يتبوا المنصة السامية
 الذي يحكم ارادات القوة والسيادة والامارة
 آهة الارض تسجد له خشية ورهبة
 وتتخلل آهة السماء أمامه
 مدينة نقر ذات مظهر يبعث الخوف والرعب
 والضالون والاشرار والظالمون والظالمون والمتجربون والناكثون للمعهد كل
 اولئك لا يقر شرهم في المدينة^(١٢٦) .
 ورقيم آخر كتب عليه
 « سبحان الاب اذليل والحمد له »^(١٢٧) .

لو اردنا أن نضع أمام هذه الترتيلات آيات من القرآن الكريم لن نجد صعوبة في وضع هذه المرادفات القرآنية التي تؤكد ان هذه الترتيلات لا يمكن ان تكون من نتاج عقل البشر في تلك العصور الصحيحة .

(١٢٥) ولم يرد اسم حواء في نص قرآني او حديث صحيح يقول بان حواء من ضلع أمم ولكن الحقيقة التي تؤكدتها نصوص القرآن الكريم والاحاديث أن النساء أصل خلقهن من الرجال أي بداية خلق الانسان من نكر وانثى وهذا يعزز ما نهبنا اليه من ان أمم لم يكن اول مخلوق لان النص لم يقل بان خلق أمم من طين ولكن « بدأ خلق الانسان من طين » .

(١٢٦) كريمة / صامويل / م . س / ص ١٧٥

(١٢٧) كريمة / صامويل / م . س / ص ٢٣٠

الليل ذو الامر الواسع المدى : ﴿ وسع كرسيه السموات والارض ﴾ (١٣٨) .
كلمته المقننة : ﴿ يدع السموات والارض وإذا قضى امراً ايتما يقول له كن
فيكون ﴾ (١٣٩) .

الرب الذي لا يبدل كلامه : ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ (١٤٠) .
الذي يقدر المصائر الى الابد : ﴿ ويهلككم الله نفسه والى الله
المصير ﴾ (١٤١) .

الذي تبصر عيناه المتفرستان جميع الاقاليم : ﴿ يعلم ما يلج في الارض وما
يخرج منها وما ينزل من السماء وما يحرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما
تعملون بصير ﴾ (١٤٢) .

الذي نوره المتعالي في بخائل قلب جميع البلدان : ﴿ الله نور السموات
والارض ﴾ (١٤٣) .

الليل الذي يجلس مائلاً المنصة البيضاء الذي يتبوأ المنصة السامية :
﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ (١٤٤) ، ﴿ خلق السموات والارض في ستة
ايام ثم استوى على العرش ﴾ (١٤٥) .

(١٣٨) سورة البقرة : ١١٥

(١٣٩) سورة البقرة : ١١٧

(١٤٠) سورة يونس : ٦٤ .

(١٤١) سورة آل عمران : ٢٨ .

(١٤٢) سورة الحديد : ٤

(١٤٣) سورة النور : ٣٥

(١٤٤) سورة طه : ٥ .

(١٤٥) سورة الحديد : ٤ .

قصة أيوب (عليه السلام)

التي كريمة بحثاً في جمعية الآداب التراثية في ١٩٥٤/١٢/٢٩ بعنوان (الإنسان وربه) وهي رواية سومرية لفكرة قصة أيوب . وقد عثر عليها على شكل ستة الواح من الطين (١٣٥) سطرأ جمعت في مقالة شعرية سومرية عثرت عليها بعثة التلقيات الأثرية لجامعة بنسلفانيا في مدينة نُفَر التي تبعد زهاء ميل إلى الجنوب من بغداد الآن . أرفع قطع في متحف الجامعة وقطعتان في متحف الشرق القديم في استانبول^(١١٦) ، ويقول كريم : « ولكي نوضح روح القصيدة ومزاجها نقتبس هنا أهم المواطن وأحسنها فهماً ووضوحاً وينبغي للقارئ أن يتنكر على الدوام ما سبق أن نوهنا به من أن معرفتنا باللغة السومرية لا تزال غير كاملة وأن بعض المواطن المترجمة سيحورّ فيها ويحسّن بمرور الزمن^(١١٧) . وهذه أجزاء من القصيدة :-

يا الهي أريد أن أقف بين يديك
أريد أن أكلّمك وكلمتي أنين وحسرات
على رأسي التي ولدتني الا تنقطع عن بث شكاتي إليك
لتصرح زوجتي بالرتاء لعذابي
يحق بي العذاب . والالم كذلك لأنني لم يقدر له سوى الدموع
يمسكني الحظ السيء بقبضته ويسلبني حتى نفس الحياة
المرض الخبيث يعم جسمي
لقد قالوا - أي الحكماء البارعون - كلمة صدق وحق

(١٤٦) كريم / صامويل / م . ص / ص ٢٠٧ .

(١٤٧) كريم / صامويل / م . ص / ص ٢١٠ . (وأيوب ورد ذكره في التوراة ويبدو سفر أيوب قريباً في وضعه وموضوعه بين أسفار العهد القديم لأنه أول من نص على الإيمان بالبعث في كتب العهد القديم وهو نبي ليس من بني إسرائيل ويختلف في عصره ويبدو أنه أقدم من إبراهيم انظر المقاد / عباس محمود / أبو اللباب / ص ١٩٦ . ويبدو أن قصة أيوب دخلت العهد القديم من وادي الرافدين . انظر ما سيأتي حول أيوب (عليه السلام) فقد ألفردنا له صيحتاً خاصاً يمد إبراهيم ويطع عليهما السلام .

لم يولد لام طفل بلا خطيئة
ان الطفل البريء لم يكن في الوجود منذ القدم
لقد طرد شيطان المرض - والمرض الذي ضربه مثل - قد أزاله ويده ويدل
مصير السوء .

ويذل عذاب الرجل فرحاً وحبوراً^(١٤٨) .

وهذا رقيم طيني مقتطع يصف قدرة الاله

« والانهار لولاه ما جبلت مياهها الفيض والارواء

ولولاه ما وضع السمك بيضة في الاهوار

ولما بنت أطيار السماء أعشاشها في الارض الواسعة

وفي السماء لولاه ما جاءت بمائها السحب السائرة

ولولاه ما نمت النباتات والاعشاب التي يزهر بها السهل

ولما نتجت الاشجار النابتة في غابة الجبل أثمارها^(١٤٩) .

ويقول كريم : هناك عقيدة سومرية كانت تطفى على ميادين السلوك والمثل العليا

عند السومريين تلك هي « ان الانسان صنع من طين ليخدم الالهة »^(١٥٠) .

نص يصف جنة عدن او الجنة

« في ليمون لا ينمق الغراب الاسود

ولا يفترس الاسد والذئب لا يفترس الحمل - ولم توجد الارملة - وما من أرمد يشتكي

ويقول (عيني مريضة) وعجوز ليمون لا تقول أنا عجوز - ولا يقول الشيخ (أنا

شيخ طاعن في السن) والعزراء لا تستحم - ومن عبر نهر الموت لا يتفوه ويقول -

(النص مذخرم »^(١٥١) .

إن هذه النصوص تؤكد لنا حقيقة واحدة وهي أن كل الوجود ينطلق بالايمان بدءاً
منذ فجر الانسانية حتى عصرنا الحالي وان الدين يمثل الخطاب الالهي للانسان
ايضا وجد ومتى كان كما يقول كريم « وأذا كنت في ريب من الاخوة البشرية
والانسانية المشتركة بين جميع الاقوام والاجناس فارجع الى اقوالهم السائدة

(١٤٨) كريم / م . ص / ص ٢١٣ .

(١٤٩) كريم / م . ص / ص ١٧٨ .

(١٥٠) كريم / م . ص / ص ١٩٧ .

(١٥١) كريم / م . ص / ص ٢٤٥ .

وأمثالهم وحكمهم ووصاياهم ونصائحهم فإنها أكثر من نتاج أدبي تخفرت قشره
الاختلافات الحضارية وفروق البيئة وتكشف أمام أعيننا طبيعة البشر الأساسية
حيثما وأنى عاشوا . وقد جمعت الامثال السومرية وبنوت قبل نيف وخمسة وتلاثين
قرناً . وهذه نصوص بعض أمثالهم :

« لو وضعت في الماء لفسد »

« كتب علينا الموت فلنتفق »

« من ملك الغضة الكثيرة فقد يكون سعيداً ومن ملك شعيراً كثيراً فقد يكون
سعيداً ؛ لكن من لا يملك شيئاً في وسمه أن ينام ١١ »^(١٢٢) .

ان نظرة السومريين للدين وعقيدهم حول الالهة تعبر تعبيراً قوياً حول تاثر هذه
العقيدة بالنبوات اذ ليس من المعقول ان يمتلك العقل البشري في تلك الفترة هذه
التصورات وينسجها خياله من العدم لو لم تكن هناك محاولات لانبياء حاولوا
تصحيح عقيدة التوحيد والايمان أو التبليغ بوجود اله خالق مبدع هو الذي خلق
الانسان والسماوات والارض وكل ما في الوجود .

ان التقارب في التصورات الاساسية للعقيدة الدينية ابتداءً من التصورات
البشرية حول الإله الخالق ومروراً بتصوراتهم حول خلق الانسان الهائف وتحديد هذا
الخلق ومكوناته وكذلك التصورات التي تجمع بين عقيدة القدر والابتلاء والصبر على
البلاء والخطايا والذنوب كل هذه الامور تضع أمام الباحثين نسيجاً متقارياً من
الصورة حتى بين المراحل المختلفة والاقوام والاصم المختلفة وهو ما يؤكد وحدة
الاصل والمصدر .

لقد كان المجتمع السومري ينظر الى قوى الطبيعة على انها انعكاس لقدرة
الالهة « وقد استمرت الالهة السومرية بوصفها ممثلة لقوى الطبيعة على القيام
بدورها جزءاً من التراث الحضاري المشترك للمجتمع السومري ككل »^(١٢٣) . ولذلك
كانت الحضارة السومرية تمثل المحاولات الاولى للارتقاء الانساني على سلم
الحضارة ، وكانت النبوات قد وضعت خطأ الانسان باتجاه تحقيق هذا الانجاز ، وقد
انعكس هذا الاثر على صور الحياة وطبيعتها المدنية والفكرية والادبية والمعمارية في
المجتمع السومري وكما تساعل توينبي « ما هو التجديد الجوهري في هذا النوع من

(١٥٢) كريسبر / الواح سومر / ص ٢١٧ - ٢١٩ .

(١٥٣) توينبي / أرنبند / تاريخ البشرية / ط ١ ص ٨١ .

المجتمع الذي اوجده السومريون ؟ فائض في الانتاج وتباين في الطبقات ، والكتابة ،
والمعمارة الضخمة والمستقرات المدنية والحرب ، كانت جميعها مظاهر جديدة ومميزة
ولكن التفسير الجذري كان في صفة الالهة ووظيفتها^(١٠٤) .

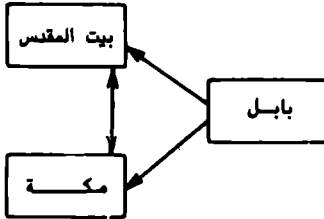
إن أعظم أثر نلاحظه على الحضارة السومرية هو أثرها العالمي الامر الذي
يؤكد هيمنة هذه الحضارة على عقل الانسان المعاصر لها وتأثره بها حيثما كان . ان
ظهور الحضارة في هذا المكان من وادي الرافدين في عصر يصعب فيه الاتصال
وينعدم وجود إمكانية امتلاك وسائل صناعية للسيطرة على الظروف البيئية يثير
تساؤلاً عن سر هذا الظهور المفاجيء ، وانه يمس لنا ان الامركان يمثل استجابة لامر
إلهي . إراد الله لهذه البلاد ان تكون مركزاً روحانياً وحضارياً حيث شاعت ارادته ان
تستقبل هذه الارض المهاجرين القادمين من الجزيرة وتمدم حضارياً فينطلقون منها
الى الارض ليبلغون رسالات الله . فعلى أرضها انطلق أبو البشر الثاني نوح (عليه
السلام) يعلم الانسانية بروساً في التحمل والمواجهة ومن هذه الارض اندفع أبو
الانبياء إبراهيم يعلم الانسانية الحكمة ويقيم عليها الحجة . ولذلك لو استحضرننا
هذه المعاني والاحداث سوف ندرك أن أرض الرافدين قد هيات بامر الله لامر عظيم
حتى إن بعض الباحثين يتمجبون من قيام الحضارة على هذه الرقعة بون غيرها
ويتسألون عن خصوصية هذا الاختيار حيث يقول توينبي « وانه أمر يدعو الى
العجب ان تظهر أقدم المدن القائمة اقتصادياً على ترويض المستنقعات لا في
مصر العليا بل في الحوض الابنئ لدجلة والفرات ، فالسومريون لم يسبقوا المصريين
فقط في مفاخرتهم بل تفوقوا عليهم ، فالسومريون جازفوا بمستقبلهم اعتماداً على
استغلال مادة واحدة فقط من المواد الخام وهي الفرين وقاموا باستيراد معظم
احتياجاتهم من أحجار التماثيل والنحاس وان استيراد الحجر الصالح للنحاس في
سومر كانت كلفته ككلفة استيراد الذهب او الفضة . وفاق السومريون المصريين
بالتجارة ايضاً وكانوا اكثر نشاطاً منهم توسعوا تجارياً الى نهر السند وتوسعوا
تجارياً في الخليج العربي ولكن أهم عمل كبير في النقل والمتاجرة كان توسع
السومريين التجاري في الاتجاه الشمالي الغربي^(١٠٥) . لقد أثرت المدنية السومرية

(١٠٤) توينبي / أرنولد / تاريخ البشرية / ط ١ ص ٨٠ .

(١٠٥) توينبي / أرنولد / تاريخ البشرية / ج ١ ص ٨٧ . وهذا يلاذ تهيلة هذه المنطقة لكي تؤدي

في المدنيات المعاصرة لها جميعاً ، فقد ثبت أثرها على الطرونية وعلى العيلامية التي كانت مقتبسة من المومرية في كثير من ملاحها ، وعلى السندية وتسمى مدينة (الشرهيسوختا) التي قامت في حوض المسند في النصف الثاني للالف الثالث قبل الميلاد ، وهو الوقت الذي قامت فيه مدينة في أسيا الصغرى كانت تدور في فلك المومرية (١٥٦) .

ويعد أن توضحت لنا معالم صورة العالم القديم يمكننا أن نرسم مخطط يوضح ظهور الانبياء وارتباطه بالرقعة الجغرافية . حيث شكلت ارض الرافدين رأس المثلث الروحي للانطلاق نحو النقاط الأخرى . ويوضح كذلك التفاعل بين مهد الجنس البشري والانبياء ، ويمكن التعرف على الروابط الوثيقة والعلاقة الروحية التي كانت قائمة بين مدن الشرق الأدنى .



المثلث الروحي الذي يمثل العلاقة التاريخية بين المدن الثلاث ،
المدينتان المقدستان مكة وبيت المقدس مع بابل

→ بورها التاريخي وتتواصل مع فلسطين لتحتضن الدبوات حتى يحين نور مكة ومعها

() .

(١٥٦) تولبي / م . س / ج / ص ١١٠ .

- ١ - قال تعالى ﴿ وما أنزل على الطكين ببابل هاروت وماروت ﴾ (١٧٧) ، نكر بابل يدل على انها كانت مركز القوة والسلطة الى عصر سليمان (عليه السلام) قبل الميلاد بحدود عشرة قرون ، وفي عصر سليمان بني بيت المقدس ، أراه سليمان ان يكون اعظم مسجد على الارض حتى سال ربه ثلاث خصال « أيا رجل خرج من بيته لا يريد الا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه » رواه احمد والنسائي . وقال ابن كثير بعد ان أورد الثالثة : « فرجع ان تكون الثالثة لنا وان الله قد أعطانا إياها » (١٧٨) ، يعني مكة . وأقام سليمان سوراً حول القدس (مدينة أورشليم) ويبدو ان تسمية أورشليم متأثرة بأسماء المدينة العراقية القديمة أور ، أو أن بابل كانت (باب ايل) اي باب الاله (١٧٩) ، فكانت أورشليم وتعني أور السلام .
- ٢ - قال تعالى ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة ﴾ (١٨٠) أول رمز للتوحيد كان مكة ، وفي روايات ان الله أمر آدم ببنائها والطواف حولها ، وروايات ان الارض بحيث من مكة ، وقد ذكرت هذه الروايات وتخريجها .
- ٣ - قال تعالى ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ﴾ (١٨١) .
- قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اختتن ابراهيم (عليه السلام) وهو ابن ثمانين سنة بالحنوم » ..
- رواه البخاري ، والقدم اسم مكان كما نكر ذلك شراح الحديث .

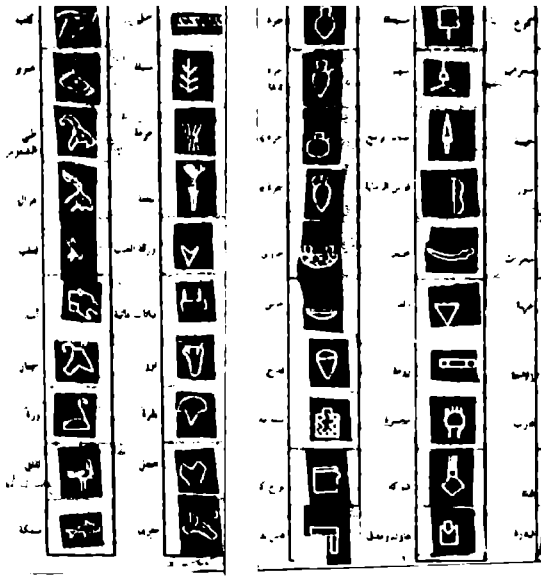
(١٥٧) سورة البقرة / ١٠٢

(١٥٨) الصابوني / محمد علي / النبوة والانبياء / ص ٢٧٠ .

(١٥٩) الطبري / علي / الاساطير / ص ١٢١

(١٦٠) سورة آل عمران / ٩٦ .

(١٦١) سورة الاسراء / ١ .



بارو / اندرييه / سومر فنونها وحضارتها

الكتابة الصورية التي كانت تعبر عن الفكرة بالصورة

وهي تمثل المرحلة السابقة للكتابة ويلاحظ أمام صورة القضيبي (cex) عبرت عن الختان مما يرجح ان الختان قد عرف في المجتمع المراقي القديم وهذه دلائل اثر النبوات في المجتمع المراقي القديم إذ إن الختان يمثل أول تكليف مماناة ونسوة لا يستجيب له الانسان ما لم يكن تحت وازع الدين



٨٦ - الوركاء المعبد الابيض (النصف الثاني من الالف الرابع ق . م .)
ارو / اندريه / سومر فنونها حضارتها من

- لوح صغير خمبابا (اوائل الالف الثاني ق . م .) المتحف البريه
شكل يمثل الشيطان الذي عُرف بملاحمة جلجامش خمبابا
في المتحف البريطاني ويمبر عن قبح صورة الشيطان في ذهن الفنان
القديم
بارو / اندريه / سومر فنونها حفا

صورة لرقيم طيني فيه تمرين هندسي
القديم نحو ١٨٠٠ ق.م. في حساب مساحة اجزاء اا
بوستيفيت / نيكولاس / حضارة العراق

متعمدون (النصف الاول من الالف الثالث ق . م .) (أ) و (ب) تماثيل
خفاجي . (ج) و (د) تماثيل من تل اسمر

متعمدون متحف دمشق



في الحديث قال النبي ()
« إنا معشر الانبياء أ
نمسك بإيماننا على ش
رواه الطبراني في الكبير وقال إسناده

لشكال لتماثيل من مواقع أثرية مختلفة تمثل حال التعمد
ت الالهة اليمنى على اليسرى مما يؤكد حالة العبادة الذي ذكرها اا

(續) من سنن الططرة وضع اليمنى على اليسرى

/ نيكولاس / حضارة العراق وآثاره

رو / اندريه / سومر فنونها وحضارتها

ان كل تماثيل او نقوش يصور حالة عبادة او يرتبط بعبادة بصور حالة وض

اليمنى على اليسرى

٨١ - النسخة الافضل حالاً من قائمة اله

الجاتب اسماء الملوك قبل ال

٨٢ - تظهر الاحتام الطينية التجارة في ة

يستعمل في ختم الاكياس

نيوكلاس / حضارة اله

الفصل الثاني

النبي نوح (عليه السلام)
أبو البشرية الثاني

المبحث الاول

متابعة تاريخية للتعرف على عصر النبي نوح (عليه السلام)

ان القرآن الكريم سجل لنا أهم الاحداث التي مرت على البشرية وقد أكد القرآن الكريم على معنى واحد وبرزه نكك هو مدى ارتباط الحدث بالهدف الذي أراه الله للانسان وهو تحقيق العبودية لله على الارض . ولعل أهم الاحداث التي كانت تمر على البشرية هي زمان إرسال الرسل وعلان هؤلاء الرسل هذا النبا او الحدث على ملاهم ودعوتهم الى التخلي عن الانحرافات التي دعت الى إرسال الرسول . وكان تواصل السماء غير منقطع عن الارض وما ترك الله أمة الا وارسل اليها رسولا او نبيا ولم يحدث انقطاع في حياة البشر ولكن منهم قص علينا القرآن قصته مع قومه ومنهم من لم يتقصص كما قال تعالى مخاطباً نبيه محمد (ﷺ) ﴿ ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً ﴾^(١) . فكان الانبياء يتواصلون في النسب ذرية بعضها من بعض قال تعالى ﴿ اولئك الذين أنعم الله عليهم من التبیین من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح ومن ذرية ابراهيم وإسرائيل ومنم هدینا واجتیینا ﴾^(٢) . فتواصلت بعد آدم في ذريته النبوة ولكن القرآن الكريم سلط الضوء

(١) النساء / ١٦٤

(٢) مريم / ٥٨ .

على النبوات والرسالات التي كانت تمثل أهمية قصوى في حياة البشرية ونكرهم كان يعطي البشرية نبوءاً في الاحساس بالمسؤولية التي كان يتمتع بها هؤلاء الامانة . وينوع الاساليب التي عرضها القرآن والتي استخدمها هؤلاء الانبياء في دعوة القوامهم فكانت حصيلة دعواتهم تتركز في نهاية المطاف عند خاتمتهم وأفضلهم محمد (ﷺ) فقد مثل محمد (ﷺ) الانموذج المتكامل للرسالة التي تستوفي شروط البقاء حتى آخر يوم من أيام عمر الانسان على الارض فكان أمم الاول ومحمد الخاتم عليه صلوات الله وسلامه . وبين أمم ومحمد (ﷺ) أنبياء ورسول ، والرسول هو الذي يوحي اليه ويحمل رسالة الى قومه ويكلف بتبليغها والنبى هو الذي يوحي اليه بشرع ولم يكلف بالتبليغ^(٣) . فالرسالة أعلى من النبوة وكل رسول نبى ولا عكس .

إن ظهور الانبياء صفة ملازمة للانسانية وهبة ربانية حبا الله الانسان بها فكان الانبياء والرسول يملعون الناس الخير ويحذرونهم من الشر ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ . لفسكن عدد الانبياء كثيراً جداً « وقد وردت روايات بان عندهم يزيد على مائة وعشرين ألفاً اما الرسل منهم فقلّة والذين نكروا في القرآن الكريم يجب الايمان بهم تفضيلاً وهم (٢٥) خمسة وعشرون^(٤) .

إن أهم صفة تميزت بها دعوة الانبياء هي تثبيت عقيدة التوحيد في حياة البشر ونبذ الشرك وعبادة غير الله قال تعالى ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾^(٥) .

لقد أرسل الله تعالى الانبياء والرسول بصورة متعاقبة ومعقيدة واحدة مع شريعة تتناسب مع عصر الرسول المبعوث . وكان كل رسول يذكر قومه بالتجربة التي سبقته وعاقبة الاقوام الاخرى التي كذبت او عاندت . قال تعالى ﴿ وإلى عاد اخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾^(٦) الى ان نكرهم بمن قبلهم ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الضلوك بصطة فاذكروا آلاء الله

(٣) الصابوني / محمد علي / النبوة والانبياء / ص ١٣

(٤) الصابوني م . ص / ص ١٤ / يذكر رواية عند الانبياء والرسول عن الامام احمد .

(٥) النحل / ٣٦ .

(٦) الاعراف / ٦٥ .

لكنهم قائلون ﴿٧٦﴾ . ثم جاءت بعد عاد ثمود وانطلق نبيهم ينكرهم بمن قبلهم ﴿٧٧﴾ ولذكروا لا جحتم خلفاء من بعد عاد ويواكم في الأرض كقطون من سهولها قصوراً وتحتون الجبال بيوتاً . فاذكروا لآله الله ولا تطوا في الأرض مسلمين ﴿٧٨﴾ .

لقد وضع القرآن الكريم الحدث التاريخي ضمن إطار المعيرة واستخلاص التجربة لبناء موقف جديد يتسم بالتميز والقدرة على الثبات في مواجهة الصراع الذي يحصل بين المجتمع الجاهلي والانبياء واتباعهم من جهة أخرى . ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لينا ذكراً ﴾ من عرض عنه فإنه يحصل يوم القيامة وزناً ﴾ خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملاً ﴿^(٧٩) ومن خلال لقاء الضوء على هذه المساحات الهائلة من التاريخ القديم وضمن هذه التجارب التي خاضها الانبياء تتميز القدرة على تحمل أعباء المسؤولية ضمن العصر الأخير للإنسان على الأرض فقد كانت هذه القصص التي قصها القرآن وسيلة تربوية لاعادة المجتمع المسلم وبناء الأمة التي اكتسبت الفضيلة الشهود على الامم ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾^(٨٠) فكان محمد (ﷺ) سميماً وهو يتلقى تلك الشحنات من الطاقة الهائلة التي تحملها آيات القرآن وهي تنص عليه أبناء أخوته الانبياء من قبله .

لقد أثبت القرآن الكريم في ثنايا آياته التي كانت تمرض مواقف الانبياء وتكشف النقاب عن جنود الاحداث والوقائع « بان التاريخ لا يتحرك فوضى وعلى غير هدف وإنما تحكمه سنن ونواميس كتلك التي تحكم الكون والعالم والحياة والاشياء . سواء بسواء . وإن الوقائع التاريخية لا تخلق بالصدفة . والقانون هو الذي يحكم التاريخ تلك هي المقولة التي لم يكن قد كشف النقاب عنها قبل نزول القرآن الكريم »^(٨١) . ان القرآن الكريم عندما عالج الوقائع من الجانب التاريخي تجايز تفاصيل ووقائع كثيرة وعرض الواقعة من خلال وحدة الزمن وأزال حواجز الاختلافات العصرية لعلها كان يعرض القرآن الكريم قضية إعلان استقلال أمم نجده ينتقل

(٧) الاعراف / ٦٩ .

(٨) الاعراف / ٧٤ .

(٩) طه / ٩٩ - ١٠١ .

(١٠) البقرة / ١٤٣ .

(١١) خليل / ١ - صمامدين / حول إعادة تشكيل الطال المسلم / ص ٢ / بغداد مطبعة مطير /

الى بني اسرائيل^(١٢) فيضع امام المتأمل احداثاً جربت من أزمنتها لكي يعطي خلاصة العبرة من الحدث التاريخي ولكن عندما كانت العبرة تحتاج في ابرازها الى عنصر الزمن وتأسيس مقياس حسي فقد نكر القرآن الكريم بصورة تواصل العصر السابق مع اللاحق بالنسبة الى عاد الذين نكّروهم بمصر نوح (عليه السلام) وثمود الذين نكّروهم بمصر عاد . إن هذا التذكير وظف التاريخ لهدف عرض التجارب البشرية والاعتبار بعواقبها « وإثارة الفكر البشري وإزاحة ستار الغفلة والندسيان في نفس الانسان »^(١٣) .

وإذا عدنا الى محاولة تحديد عصر نوح (عليه السلام) لا بد ان ندرك حقيقة وهي ان المسألة ليست بالسهولة بحيث تعالج بطريقة سطحية تلقائية بل ان الاضطراب الحاصل في رؤية كثير من دارسي التاريخ القديم يجعل الصورة فاقدة الملامح يتعذر معها تحديد او ربط او استنتاج علمي يكتسب القدرة على إقناع القارئ بوجود معلومة موثقة في تحديد عصره او مكانه . لذلك نجد ان معظم قراءات التاريخ القديم مشوشة وإذا كان القديما غلبت على طروحاتهم الخرافات والاساطير فان المعاصرين غلبت عروضهم للتاريخ القديم الاوهام والاهواء والظنون كما يقول هيرانت « معظم التاريخ ظن وبقية من املاء الهوى »^(١٤) .

والقضية ليست عصر نوح او مكانه مما يمجز متخصصو التاريخ القديم ان يبتوا فيه ولكن معظم قضايا التاريخ القديم هي قضايا معلقة مفتوح فيها الباب أمام الافتراضات والنظريات التي لا تنتهي ، ولا يمكن تصديقها او تكذيبها بحال . ومن أمثلة معضلات التاريخ القديم أصل الانسان او اللغة وكيفية ارتباطها بالانسان او الكتابة ! واستخدام الوسائل او تطويرها عند الانسان ابتداءً من الزراعة وتخزين الطعام والثار واستخدامها والمعادن . ثم أول تجمع سكاني متى وأين ! وهكذا كل القضايا التي تبرز امام الباحثين عن طريق الحفريات والآثار تبدأ معها اوهام

(١٢) يمكن متابعة هذه الحالة في سورة البقرة بعد عرض قصة أم ينثقل القرآن الكريم الى بني اسرائيل ولي أحداث كثيرة في القرآن يمزج القرآن الكريم الطالع ويمرضها في مستوى واحد لبيان وحدة الاصل في المعلومة لانها من الله الخالق ووحدة العنصر المتلقي وهو الانسان في كل زمان ومكان . (فعبرت القضية عن ارتباط المخلوق بالخالق) .

(١٣) خليل / د عمادالدين / التفسير الاسلامي التاريخي / ص ١٠٦ .

(١٤) هيرانت / بول / قصة الحضارة / ج ١ ص ٢٣ سبق ان أشير الى هذه العبارة .

المؤرخين واستنتاجاتهم وما قضية أصل السومريين او المراقبين القدامى عنا ببعية .
لقد كان القرآن واضحاً في عرضه اسس التعامل مع القضايا الحاسمة والتي
تمد نقاط مفترق الطرق بين المناهج البشرية التي وضعها الفلاسفة والمفكرون مثل
المادية والمثالية التي حاولت حل الاشكاليات على وفق مستوى النظر للعقل
البشري . لقد اعطى القرآن مزيجاً متوازناً بين الايمان بقدرة الخالق اللامحدودة
وقدرة الانسان المستمدة من القابليات والاستعدادات التي اوجدها الله سبحانه
وتعالى عند الانسان فكانت النظرة القرآنية للحدث التاريخي تعطي الانسان
احساساً بالواقعية وانسجاماً مع نوااميس الوجود وسننه .

وبذلك ابتمت القراءة الاسلامية عن الخرافة وعن الوهم وعن الهوى
والتعصب . فكان تركيز المؤثرات لايجاد الحالة الفعالة في أقصى مدها يحصل عند
تأمل النص القرآني وتحليله بدون ان يحدث تقاطع مع المنهج العقلي والعلمي
المتجرد .

ومنذ اللحظة الاولى لالتقاء الطين مع الارادة الالهية كانت القضية واضحة بكل
أبعادها وشموليتها وواقعيتهما . فكان الايمان بالغييب يضع الاطار المتناسق للمانة
الطيدية وينتهي من صياغتها وفق أحسن تقويم فيكون الابداع الإلهي غير محدد
بالاشكال الطيدية التي عبرت عن الحياة في اروع مثال فتبارك الله أحسن الخالقين .
فكان أم الانسان يعيش على الارض ولا تدري مقدار السنين التي عاشها الانسان
المقوم على صورته^(١١) البشرية وهو يعيش حياته ويتدرب على الاستعداد لتلقي
الوظيفة الربانية وهي الخلافة على الارض كم كانت هذه السنين ؟ عشرات الالاف !
مئات الالاف ! ملايين أمر في عالم الغيب^(١٢) .

وفي حديث يرويهِ ابن عباس ان (بين أم ونوح عشرة قرون)^(١٣) ورواية ابن

(١٥) في الحديث (خلق الله أم على صورته وعبوة الضمير على الخالق او على أم وفي كل
الحالات في الاولى المعنى الرمزي يتلف مع الثانية في تكريم الانسان .

(١٦) هناك اتفاق بين العلماء المحقرات (الاتارية) والاثريولوجي على ان الانسان المائل ههر
بحدود ٤٠ ألف سنة ق . م . ولكن الانواع البشرية التي قبل المائل لا يوجد تحديد دقيق
لعملية ظهورها على الارض .

(١٧) الصابوني / محمد علي / النبوة والانبياء / ص ١٤٢ والحديث عن ابن عباس لم ينكر
رواية البخاري موقوفة أم مرفوعة والراجح أنها موقوفة .

عباس هذه في البخاري وفيها زيادة (عشرة الفون كلهم على الاسلام) وحديث ابي امامه الذي رواه ابن حبان في صحيحه ، إن رجلاً قال : يا رسول الله أنبي كان أم ؟ قال : نعم مكمم ، قال : فكم كان بينه وبين نوح ؟ قال : عشرة فون (١٨) . وقد اختلف العلماء في القرون للملكة هل القرن مائة عام ؟ وقال بعض العلماء أن القرن يعني جيلاً كما في قوله (ﷺ) (خير القرون قرني) وقوله تعالى . حكاية عن فرعون ﴿ قال لعا هل القرون الاولى ﴾ (١٩) .

وفي القرآن الكريم آية حددت المدة التي قضاه نوح يدعو قومه للتوحيد وهي قوله تعالى ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه فلبث معهم الف سنة الاخصمين علماء فأخلفهم الطوفان وهم ظالمون ﴾ (٢٠) . هذه الآية سلطت الضوء على قضية غريبة وهي طول المدة . إن ألف عام إلا خمسين تعد تجاوزاً للمقاييس الطبيعية لعمر البشر . ويبدو أن بقاء نوح لم يكن بصيغة معزولة وغير متجانسة عن المجتمع الذي يعيش فيه بل أن سياق الآية يؤكد أن الامر لم يكن غريباً أو خصوصية للنبي نوح تميز بها عن قومه لكي يتحداهم عن طريق بقاءه ومكثه الطويل بل جاءت الآية لتؤكد اصرار قومه على موقفهم وصبر نوح على التبليغ ومن المعلوم ان القنماء كانوا يعتقدون بأطوال غير منطقية لاعمار المظماء من البشر (٢١) .

وهناك طريقة اتبعها السومريون الاوائل في تكوين مدد حكم ملوكهم ه لسن جملة مدوناتهم ان ثمانية من ملوكهم حكماً قبل الطوفان (٣٤١٢٠٠) وفي جدول آخر يرتفع هذا الرقم الى (٤٥٦٠٠٠) سنة وهذه الارقام الخيالية في تكوين اعمار الاشخاص مازالت لغزاً لم يتوصل الي حلّه حتى الان (٢٢) . لقد حاول بعض العلماء أن يحل هذا الاشكال وأن يفسر هذه الارقام الخيالية على أساس أن

(١٨) الصابوني / م . ج / ص ١٤٢ .

(١٩) سورة طه / ٥١ .

(٢٠) سورة المنكوت / ١٤ .

(٢١) انظر محمد / محمد قاسم / التفاضل في تاريخ واحداث القرون من قم حتى السبي الهادي / ٥٤٩ ويلكر (ان هذه الاعمار مازالت لغز يحير العلماء لانها كانت قائمة في المدونات القديمة سواء في بلاد ما بين النهرين أو في مصر .

(٢٢) سورة / د احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٤١٥ / دار الرشيد بغداد

القدماء كانوا يمدون الشهور سنيناً ويمضهم نهب الى ان بعضه ايام تعدل سنة وقد فسر عالم الآثار انوارد كبيراً هذه الظاهرة وهي « ان مؤرخي اليهود الذين حاولوا ملء الفراغ ، الواقع بين ما اعتقدوا انه التاريخ الصحيح لخلق العالم والفترات التاريخية التي اعتمدوا في تعيينها على ما عندهم من توينات موثوق بها بعض الثقة فوجدوا عنداً من الاسماء ليستعينوا بها في ملء الفراغ وبدلاً من أن يبتكروا اسماءً جديدة ملوا في حياة الاشخاص الذين عندهم ليسوا هذا الفراغ في السنين^(٢٢) ، وهذا التحليل غير سليم ولا يخلو من تعميم غير دقيق اذ ان هذا الكلام قد ينطبق على مدوني التوراة ولكن كيف نفسر قائمة إثبات الملوك السومرية وهي اقدم من التوراة وتاريخ تدوين التوراة . بل انا اردنا ان نكون منطقيين لابد ان نمرؤ أثر هذه الظاهرة وانتقالها من السومريين الى مدوني التوراة . ولكن لابد ان نعلم بان هذه الظاهرة موجودة في الحضارة العراقية القديمة ولا بد ان نبحت عن أصل هذه الظاهرة . انا نعلم من متابعة قصة الحضارة وما توصل اليه علماء الآثار بان المجتمع البشري كان محدوداً في بداياته الاولى . وكان المحيط الحيوي للانسان في العصر الجليدي الرابع (١٠٠,٠٠٠ - ١٥,٠٠٠) ق . م . ويسمى عصر ورم كان المحيط الحيوي محدود وليس بالسمعة الحالية . وكان العراق وبلاد الشام مع شبه الجزيرة العربية ثم أجزاء من افريقيا . كانت هذه المساحة تشكل . محيطاً حيوياً يوفر للانسان وسائل الاستقرار الحياتي . وانا كان احمد سوسة يؤيد انوارد كبيراً فيما نهب اليه فنحن لا نتفق معهما اذ إن القضية لم تقتصر على التوراة ولا على قائمة إثبات الملوك السومرية بل ان القرآن الكريم نكر بوضوح العدة التي قضاها نوح (عليه السلام) يدعو قومه الى عقيدة التوحيد . كما استشهدنا بالآية من سورة العنكبوت بان بقاء نوح يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة . وهذا يدل على ان عمره (عليه السلام) اكثر من هذه العدة المذكورة للدعوة . ويبدو ان اعمار البشرية في مراحلها الاولى كانت تتماز بالطول اذ ان عمر نوح النبي لم يكن غريباً على قومه بل ان القرآن الكريم نكر في مواضع اخرى بان إطالة العمر على سبيل الاعجاز واردة ولكنها تبقى ضمن حدود الحكمة التي ارادها الله وهي اطالة العمر للتحدي للكافرين ثم ينتهي دور الانسان الذي أجرى الله عليه هذا الاعجاز كما حصل بالنسبة لفتية أهل الكهف حيث نكر

(٢٢) انظر سوسة / - احمد / تاريخ حضارة وادي الرافدين في ضوء مشاريع الري والمكتشفات الأثرية والمصادر التاريخية / ص ٢٠٢ .

القرآن الكريم ان الله اناهم ثلثمائة وتسع سنين وبعد يقظتهم تغيرت مظاهر الحياة بالنسبة اليهم والى مجتمعهم فاصبحوا غرباء لا نور لهم فاماتهم الله . وكذلك بالنسبة لعزير المنكور بدون اسمه في سورة البقرة حينما ااماته الله مائة عام ثم بعثه فإن القرآن الكريم عندما أجرى هذه الخوارق ركز على حالة التحدي وتغير نواميس الحياة . فكيف لا يذكر هذا الأمر عندما ينكر مدة مكوث نوح في قومه ولم ينبه القرآن على هذه المسألة وهي طول الفترة . فنل نلك على ان الاعمار كانت في تلك العصور تمتاز بطول السنين وقد عقب سيد قطب حول هذه الظاهرة بقوله « وهو عمر طويل مديد ، يبدو لنا الآن غير طبيعي ولا مألوف في أعمار الافراد ولكننا نقلناه من أصلق مصدر في هذا الوجود - وهذا وحده برهان صدقه - فإذا اردنا تفسيراً فإننا نستطيع ان نقول : ان عدد البشرية يومذاك كان قليلاً ومحدوداً ، فليس بعيداً ان يموض الله هذه الاجيال عن كثرة العدد طول العمر . لعمارة الارض وامتداد الحياة . حتى إذا تكاثرت الناس وعمرت الارض لم يعد هناك داع لطول الاعمار . وهذ الظاهرة ملحوظة في أعمار كثير من الاحياء . فكلما قل المدد وقل النسل طالت الاعمار كما في النسر ويمض الزواحف كالسلفاة حتى ليبلغ عمر بعضها مئات الاعوام . بينما الذباب الذي يتوالد بالملايين لا تعيش الواحدة منه اكثر من اسبوعين » (٢٤) .

وهذا يؤكد لنا ان الاعمار القديمة للانسان امتازت بهذه الصفة وقد ورد اثر عن ابن عمر (رضي الله عنهما) عن مجاهد قال : قال لي ابن عمر (رضي الله عنهما) كم لبث نوح (عليه السلام) في قومه ؟ قلت : ألف سنة الا خمسين عاماً . قال : فإن من كان قبلكم كانوا أطول أعماراً ، ثم لم يزل الناس ينقصون في الاخلاق والاجال والاحلام والاجسام الى يومهم هذا) (٢٥) .

ويبدو ان نوح (عليه السلام) قد عمّر أكثر من جيله ضمن الحدود الطبيعية للمعمرين حتى أنه شهد أولاد جيله وكيف تواصلوا على تكثيره والإعراض عنه وإشارة الى هذا جاء قوله تعالى حكاية عن نوح (عليه السلام) ﴿ رب لا تفر على الارض من الكافرين دياراً ﴾ . إنك إن تفرهم يضلوا عبادك ولا يفلتوا إلا فاجراً كفاراً ﴿ (٢٦) .

(٢٤) قطب / سيد / في هلال القرآن / ج ٥ ص ٢٧٢٧ .

(٢٥) السوطي / عبدالرحمن جلال الدين / الدر المنتور في التفسير بالماتور / مجلة ص ٤٥٦ / دار الفكر سنة ١٩٨٣

(٢٦) سورة نوح / ٢٦ - ٢٧

فان نوح (عليه السلام) عانى/وشهد هذه الحالة وكان يرى الاب يوصي ابنه بان يتخلص من نوح ومن دعوته .

وعلى هذا الاساس فان حديث ابن عباس يمكن حمله على ان القرن قد يصل الى الف عام اعتباراً بمعدلات أعمار البشر في تلك المصور فيكون بين أم ونوح (١٠,٠٠٠) عشرة آلاف سنة . وفي ذلك يقول ابن كثير « وان كان المراد بالقرن الجيل من الناس كما في قوله تعالى ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ﴾^(٢٧) وقوله ﴿ لم نخلقنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾^(٢٨) وقوله ﴿ وفرونا بعد ذلك كثيراً ﴾^(٢٩) . فقد كان الجيل قبل نوح يعمرون الدهور الطويلة . فعلى هذا يكون بين أم ونوح الوفا من السنين والله اعلم^(٣٠) . اما رواية ابن عباس بانهم كانوا على الاسلام فانه يدل على ان الاغلب كانوا على الاسلام او ان الاسلام كان هو الغالب ولا يمنع من وجود كافرين أو أن من القرون المتأخرة التي سبقت نوح لم يكونوا على الاسلام^(٣١) . ولقد مثل عصر النبي نوح (عليه السلام) تكاملاً في استقرار المجتمع البشري ومرحلة من مراحل تمكين الانسان في الارض وتقاوم في الزمن على بعثة آخر نبي الهم أو من كان يدعو البشرية الى طريق الحق . وهذه الحالة تمكس ان غروباً أصاب المجتمع البشري ونسياناً لقدرة الله وتذكراً للقيم والعقائد الصحيحة التي آمن بها من قبلهم ومن خلال الايات المنكورة في القرآن الكريم تثل على تطبع المجتمع بالعادية وإصرارهم على الموقف الخاطيء ونظرة طبقية كانت تحكم المجتمع بحيث عيروه باتباعه الارائل^(٣٢) (الفقراء) .

لقد مثلت رسالة نوح مرحلة جديدة من مراحل البشرية حتى عُذ نبي الله نوح (عليه السلام) (ابو البشرية الثاني) بعد أم (عليه السلام) وإذا كانت ملامح البشرية منذ أم حتى نوح يكتنفها الفموض ولم يتحدث القرآن الكريم عن أسماء أنبياء او مجتمعات بعد أم حتى نوح . وذلك بتقديرنا لأن البشرية كانت تسيير ببطه

(٢٧) سورة الاسراء / ١٧

(٢٨) سورة الفرقان / ٣٨ .

(٢٩) سورة المؤمنون / ٣١

(٣٠) ابن كثير / ابو الفداء / إسماعيل / قصص الانبياء / ص ٦٨ - ٦٢ .

(٣١) انظر ابن كثير / م . س / ص ٦١

(٣٢) انظر الايات حول نوح في سورة هود .

وتتغير بصورة متباعدة وكانت اعداد المجتمعات البشرية ضئيلة وأقدم تجمع سكاني اكتشف ضمن المكتشفات الأثار هو موقع جرمو في شمال العراق وقد سبق هذا الحدث بداية العصر الحجري الحديث او بالتحديد عصر توسط العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث وقد امتاز هذا العصر بميزات بسبب اعتدال المناخ « وهو عصر تمهيد بين الاقتصاد المستهلك للطعام والمعتمد على صيد الحيوانات والاسماك وجمع الفواكه وبين الاقتصاد المنتج للطعام بالزراعة والرعي . ويسبب الندفء الحاصل والاعتدال بالمناخ ظهرت مجالات جديدة للاستيطان في مواقع مفتوحة على شواطئ الانهار ومصباتها وعند العيون . بعد ان انتفت الحاجة الى الكهوف والملاجئ الصخرية والقبليات وحصل تقدم كبير في صناعة الآلات والابوات الحجرية . وفي موقع كريمة شهر الذي يبعد قليلاً عن هضبة السليمانية استخرجت مناجل وبرحي وعظام حيوانات وتبين ان نصف تلك المظام يعود الى حيوانات مدجنة^(٣٣) وقد قدرت تواريخ هذا العصر قياساً على المواد المكتشفة في مواقعه حسب كاربون ١٤ الاشعاعي ان تاريخ هذا العصر ١٠٥٦٠ + ٦١٠ سنة وفي مصر وجدت آثار تعود الى نفس العصر^(٣٤) وقد لاحظ علماء الآثار ان نسبة عظام الحيوانات المدجنة كلما تأخرنا في الزمن تزيد « حيث تم احصاء بقايا عظام الحيوانات المستخرجة من موقع بالي كورا يعود تاريخه الى اواخر العصر الحجري القديم الاعلى ومن موقع كريمة شهر يعود تاريخه الى العصر الحجري المتوسط ومن قرية جرمو التي يعود تاريخها الى العصر الحجري الحديث وتتل الارقام على تغيير نسبة عظام المعز والاعناب المدجنة من ٣٠٪ الى ٥٠٪ الى ٩٥٪ على التوالي^(٣٥) . ان الثورة الزراعية مثلت اعظم حدث حياتي يرتبط بطبيعة حياة الانسان وانتقاله الى مرحلة جديدة من مراحل وجوده على الارض « واقدم القرى الزراعية المكتشفة لأول مرة كانت جرمو هذه القرية حدد تاريخ بقايا انتاجاتها الحضارية باكثر من ٦٧٠٠ ق . م . وتقع القرية في ثنايا تل مرتفع مساحته خمسين كيلومتر شرق مدينة ججمال . وتبعد اربعين كيلومتراً الى الشرق من مدينة كركوك . نقب فيها

(٣٣) النباض / د تقي مع د ولید الجادر / عصر ما قبل التاريخ / ص ١٢٦ / مطبعة جامعة

بغداد ١٩٨٢

(٣٤) النباض / د تقي مع ولید الجادر / ص ١٢٨

(٣٥) النباض / د تقي م . س / ص ١٢٤

بريد وود وكشف عن بيوت سكن يقدر عددها خمسة وعشرين بيتاً ويقدر بريد وود عدد سكان التجمع السكاني في هذه القرية الزراعية بحوالي (١٥٠) نسمة واستمر هؤلاء في السكن بالقرية نحو الاربعة قرون^(٢٦) .

لقد عثر في الطبقة الخامسة من موقع جرمو على فخاريات تتميز بكونها سمجة الصناعة سميكة الجدران هشة بفعل شبيها في درجات حرارة منخفضة نسبياً وطينتها غير نقية وغير مزخرفة . الا ان بعض الاواني كانت ملونة باللون الاسود^(٢٧) . ان طبيعة هذا العصر امتازت بثقله نوعية بعد ان خرج الانسان من الكهوف واستقر في السهول وعند مصبات الانهار ودجن الحيوانات وطور صناعات بسيطة كالاواني والحلي والآلات الزراعية تتكامل مع طبيعة المجتمع الزراعي . وان هذا العصر يمكن حصره بين ١٠,٠٠٠ - ٧,٠٠٠ ق . م . كانت فيه طبيعة الحياة زراعية بسيطة تتطور ببطء كما نذكرنا .

إذا عدنا الى النصوص القرآنية التي تحدثت عن المجتمع الذي عاصر نوح (عليه السلام) نجدها تؤكد على النعم الزراعية وارتباط الماء بالزرع والنباتات والجنان وهو ما يؤكد بان عصر نوح كان عصراً زراعياً بحيث حاول نوح (عليه السلام) ان ينكرهم بنعم الله عليهم ليربهم الى طريق الحق ﴿ قلت استغفروا ربكم انه كان ظالماً ﴾ يرسل السماء عليكم مدراراً ﴿ ويمسككم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾^(٢٨) . نكرهم بنعمة المطر والاموال المنكورة هي الانعام والحيوانات المدجنة اذ لم يكن في عصره مفهوم للمال غير هذا المفهوم ونكرهم بالانهار والجنان التي تزدهم بخضرتها على أطراف الانهار . وهذا وصف للطبيعة التي يمكن أن تكون مرسومة في ذهن الانسان المعاصر لنبي الله نوح (عليه السلام) . نستطيع بعد هذه الملاحظات ان نؤكد بان أول استقرار للانسان كان يقترن بالزراعة و لقد اتفق العلماء بهبه اجماع على ان الحضارة البهرية ومدنية الانسان

(٢٦) البياغ / د تقي / م . م / ١٢٤ .

(٢٧) البياغ / د تقي / ن . م . م / ص ١٢٨ .

(٢٨) سورة نوح / ١٠ - ١٢ وهذه ما لعبنا اليه حول مفهوم المال ما نذكره جواد علي : و قد كان للجميل مقام (الكفر) اي مقام الدينار والدرهم فسمند من الابل يقدر -ير الفلتاة ويعدد من الابل لكفر الميتات وكفى الضمومات / المتصل في تاريخ العرب قبل الاسلام / ج١ ص ١٩٧ .

القديم بدأت اول ما بدأتا مقترنة باختراع الزراعة ان بلاد العرب وبخاصة شبه جزيرة العرب هي الزراعة التي تعتمد على الري اول مرة في تاريخ مدة الثورة الجليدية الرابعة التي دامت أكثر الجيولوجيون عمر الارض الى فترات أحدثها بليد اربع دورات جليدية مع مراحلها الدفينة ، الجليدية (٤٠) :-

اسم الدورة	
١ - دورة كلز (Gunz) الفترة الدفينة الاولى (كلز - مندل)	
٢ - دورة مندل (Mindl) الفترة الدفينة الثانية (مندل - رس)	
٣ - دوري رس Riss الفترة الدفينة الثالثة (رس - ورم)	
٤ - دورة ورم (Wurm) الفترة الدفينة الرابعة	

ان الذي يهمنا هو الثورة الرابعة عصر ورم ظهورها في مجتمعات متمدنة ومارسوا دعوتهم تأسست عند الاسس الاولى للحياة الانسانية

- (٣٩) سوسة / د. احمد / م . س / ص ١١٤
 (٤٠) سوسة / د. احمد / م . س / ص ١٢١ وكذلك
 وادي الرافدين .
 (٤١) انظر سوسة / د. احمد / م . س / ص ١٢١ و
 د. وليد الجابر .

وبدأت التطلعات الروحية والماطفية والفكرية تصطبغ بها الحياة الانسانية علماً ان النورة الرابعة معظمها مغطى بما يسمى بالمصور الحجرية وقد دعت بالمصور الحجرية لان الانسان الذي عاش تلك المصور كانت معظم (أدوات من الحجارة) وسميت أحياناً ب (عصور ما قبل التاريخ) «^(١٦) وهذه المصور الحجرية قسمت كذلك وأهم عصر يمتدنا هو العصر الحجري الحديث نيوليثيك (Neolithic) ويبدأ هذا العصر في حدود الألف الثامنة او السابعة الى سنة ٥٦٠٠ ق . م . ومن مظاهر النهضة الحضارية في هذا العصر :-

- ١ - الزراعة .
- ٢ - استئناس الحيوان .
- ٣ - تطور في صناعة الخزف (الفخار) .
- ٤ - الآلات الحجرية المصقولة بدلاً من المشطاة^(١٧) وقد قسم هذا العصر الى أقسام يمكن تحديدها كما يلي :-

- ١ - نور جرمو تاريخها ٦٠٠٠ - ٥٠٠٠ ق . م .
 - ٢ - نور حسونة تاريخها ٤٨٠٠ ق . م .
 - ٣ - نور سامراء تاريخها ٥٥٠٠ - ٤١٠٠ ق . م .
- ثم يبدأ العصر الحجري الممدني او البرونزي (الكالكوليثيك Calcolithic)
- ٥٦٠٠ - ٣٥٠٠ ق . م . وقسم هذا العصر الى اربعة أنوار :-
 - ١ - نور حلف تاريخه الى ما قبل ٥٠٠٠ ق . م .
 - ٢ - نور العبيد تاريخه ٥٠٠٠ - ٤٥٠٠ ق . م .
 - ٣ - نور الوركاء ٣٨٠٠ - ٣٥٠٠ ق . م .
 - ٤ - نور جمدة نصر ٣٥٠٠ - ٣٠٠٠ ق . م .

عصر روم المرحلة الدقيقة الرابعة الواقعة ضمن حدود ١٥٠٠٠ ق . م . وفي نور جرمو بالتحديد في حدود الألف السابعة ق . م . يمكن ان نضع عصر النبي نوح (عليه السلام) ، لان ميزات نور جرمو يمكن ان نجدها في عصر نوح حيث الزراعة كما نكرنا نكرها نوح (عليه السلام) لقومه وكذلك تدجين الحيوانات والانعام وقد

(٤٢) سورة / د . احمد / تاريخ وادي الرافدين / ص ١٢٣

(٤٣) سورة / ن . م / ص ١٢٧

نكرها نوح لقومه (باموال) اي انعام وقد ذكر القرآن الكريم نعمة امتلاك الانعام بقوله ﴿ لولم يروا انا خلقنا لهم مما جعلت ليهيئنا قطعاً فهم لها مالكون ﴾ (٤٤) . فدل ذلك على أن الاموال المنكورة في سورة نوح هي من صنف تلك الانعام . والصفة الثالثة الفخار وفي آية (٤٥) إشارة الى الطوفان كانت فوران التنوير والتطور مكان النار والنار قرينة على صناعة الفخار قال ابن كثير « نبتت الارض من سائر ارجائها حتى نبتت التناوير التي هي محال النار (٤٦) » وصناعة الطلح تمل على استعداد وبدائيات لتطوير قابليات الانسان نحو الصناعة فجاء أمر الله ببناء السفينة ضمن امكانية واستعداد الجماعة التي كانت مؤمنة مع نوح (عليه السلام) ، وحول السفينة هناك إشارة وردت حول استعمال القار الاسود فقد ورد في الاثر عن الثوري : « أمره أن يطلي ظاهرها وياطنها بالقار » (٤٧) واذا قارنا بالفخاريات التي عثر عليها في موقع جرمو فقد كان قسم منها مطلي باللون السوداء وان القار قد شاع استخدامه في ذلك العصر . كما سنتمعرف على ذلك من خلال الدراسات الاثرية .

مكان النبي نوح (عليه السلام) ومجتمعه

(دراسة تحليلية ومقارنة)

ليس من السهولة ان نحدد المكان الذي ظهر فيه النبي نوح (عليه السلام) ولكننا سنحاول ان نحلل النصوص القرآنية ونمزج التحليل ونقارنه مع الحفريات والمكتشفات الاثرية لكي نجمع صورة حول عصره ونسلط الضوء على دعوته والمجتمع الذي بعث فيه والمكان الذي كان مسرحاً لأحداث رسالته وبذلك تتكامل العبارة وتتعزيز أدلة الايمان بأن دعوات الانبياء هي أصل المدينيات والحضارات ويزداد المؤمنون ايماناً ويتوقف الراضون ل طرح القرآن حول نشأة الانسان ومستقبل وجوهه

(٤٤) سورة يس / ٧١ .

(٤٥) وهي قوله تعالى ﴿ فلما جعل لهما فلاحاً وتور... ﴾ سورة المؤمنون / ٢٢ .

(٤٦) ابن كثير / ابو الداء اسماعيل / قصص الانبياء / ص ٧٨ .

(٤٧) ابن كثير / ن . م / ص ٧٧ .

في رحلته على الارض ويتميز نور القرآن بوصفه مصدراً مهماً لدراسة التاريخ القديم كذلك نجد هذا العمل يغطي طموح الانسان وحاجته لمعرفة تاريخه كما يقول فولتير « احب ان أعلم الخطوات التي سارها الانسان من الهمجية الى المدنية »^(١٨) .
 لقد كان نوح يمثل اول الرسل الى المجتمع البشري ولا يهمننا مصير المجتمعات التي كانت موجودة في عصره ولم نعرف خبرها لاننا نحاول ان نتابع جهود الانبياء في تغيير المجتمع البشري وآثاره فيما بعد . ونحن نعلم ان التوراة تصدت لذكر النبي نوح وبعوته وفصلت عملية الطوفان الذي حل في عصره وهذا يعد أقوى دليل على بقاء اثر النبي نوح على البشرية فنقل اليهود عبر توراتهم جزءاً من اخبار النبي نوح (عليه السلام) وانتقل هذا الاثر الى المسيحية ثم جاء القرآن وتصدى وفضل دعوة النبي نوح (عليه السلام) وموقف قومه معه ومصيرهم فما من مسلم اليوم الا وهو يعلم بان نوح (عليه السلام) أحد أهم خمسة من الرسل الذين بعثهم الله وسماههم القرآن الكريم (اولي العزم) وما من مسيحي الا ويعلم نور النبي نوح (عليه السلام) وكذلك اليهود . انن بيانات التوحيد الثلاثة تعرف شخصية النبي نوح (عليه السلام) وأثره في حياة البشر .

وقد سلط القرآن الكريم الضوء على مجتمع نوح وأعطى بعض الملامح التي تساعدنا على رسم صورة لا تقدم مجتمع بشري استشرى فيه الانحراف العقائدي والاخلاقي بعد آدم (عليه السلام) وأنبياء ادوا دورهم لا تعرف عنهم شيئاً ولكن القرآن الكريم يتوقف في أكثر من موضع يعرض علينا صوراً لانحراف المجتمع في عصر نوح ويعرض لنا المحاولات العديدة التي مارسها نوح مع قومه لكي يغيرهم ويعيدهم الى اصل اعتقادهم ويضع خطاهم على الطريق المستقيم الذي علمه الانبياء للبشر . ولكنهم كانوا يرفضون كل المحاولات ويصدون عن النبي بشتى الوسائل ﴿ قال رب اني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزداهم دعائي الا فراراً واني كلما دعوتهم لتخفر لهم جعلوا اصابعهم في اذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ﴾^(١٩) .

إصرار عجيب يوضحه لنا القرآن الكريم من خلال صور من الصد والإعراض جعل الاصابع في الاذان وتغطية الوجوه والعيون بالثياب وقتلنا بان مسالة الملابس

(٤٨) هنا القول يستشهد به بيورانت في قصة الحضارة م ١ ص ١

(٤٩) سورة نوح / ٥ - ٧ .

منذ أم جعل الله الفطرة والملابس والانحراف عن الفطرة هو التمري وكشف السوءات وفي هذه الآية نستدل على ان عصر نوح كان متميزاً بالملابس والمنسوجات . وقلنا انه عصر زراعي مع بداية تشكلت نحو الصناعة مثل الآلات والفخاريات وما أن حل عصر العبيد نحو ٥٠٠٠ ق . م . الا وقد عم المحيط الحيوي القديم نماذج من القرى وبيدات المدن الصغيرة ومنذ بداية الالف السابع حتى الالف السادس كانت تتكامل نحو أشكال أكثر تعبيراً عن المجتمع والسلوك الاجتماعي . ولقد اكتشفت آثار وفخاريات تعود الى عصر العبيد على مدى شبه الجزيرة العربية والمراق وسوريا ومصر وقلسطين^(٥٠) .

ومنذ عصر أم الذي مثل البداية ورمز الى العوامل والاسس التي بنى عليها المجتمع البشري وأراد الله أن يجعل من أم النموذج الانساني الذي سيمثل الارادة الالهية على الارض بضعفه وقوته بخطاه وصوابه بالخير والشر الذي فيه . والأم لا يمكن ان يوضع في موقعه الا من خلال هذه الصورة التي رسمتها الارادة الالهية . وليست القضية ميتولوجيا كما يتصورها البعض بل هي حقيقة كبرى قام عليها الوجود واذا كانت هذه ميتولوجيا فانهم يقفون عاجزين عن اعطاء الانسان التفسير المنطقي لوجوده ومسيرته وتتحول إجاباتهم الى ميتولوجيا من نوع آخر غير منطقية قد تصل الى حد الخرافة كما عرفنا نك في الفصل الاول من هذه الدراسة عندما كان علماء الانثروبولوجي يتابعون مسألة تطور الحياة .

وكما أختار الله جلت قدرته أم واصطفاه وكرمه بالنبوة ومنحه شرف مسؤولية الخلافة أختار الله نوحاً كذلك . وشخصية نوح القرآنية هي غير نوح التوراتية المشوهة وقد صور اليهود هذا النبي الكريم وصورته توراتهم شارباً للخمره ويشربها حتى يشل ويتحول كالقرد يترنح ويفقد اتزانه وعقله ويكفر بالله^(٥١) . ان اليهود يريدون ان يملكوا تاريخ العالم لكي يسيطروا على الامم . ومن خلال تشويه الانبياء وشخصياتهم والافتراء عليهم بالبهتان والنور واتهامهم بشرب الخمر^(٥٢) والشذوذ

(٥٠) انظر الدباع / د. تقي مع . د. وليد الجابر / عصور ما قبل التاريخ / الفصل الخامس الشرق الابني في مصر الحجري الحديث . وكذلك سوسة / د. احمد تاريخ حضارة وادي الرافدين .

(٥١) الشوك / علي الاساطير بين المعتقدات الدينية / ص ١١٢

(٥٢) نص المهدي القديم (واشتغل نوح بالفلاحة وغرس كرمأ وشرب من الخمر فسكر وتمري داخل

والفواحش لكي يقولوا للعالم ان الرذيلة هي أصل الوجود الانساني ولا وجود للفضيلة في عالم البشر بل هو عالم حيواني تحركه الشهوة وقد استطاعوا ان يمتلكوا القدرة على وضع الانسانية في موضع الشك والارتياب والاثام من خلال استهداف الانبياء وطمس حقائق دعواتهم وتشويه اكثر شخصياتهم وبذلك استطاعوا ان يغيبوا المعالم الواضحة والتي ارادها الله أن تكون القوة للانسانية بشخصيات الانبياء . وحولوا حياتهم الى خمرة وجنس وبحت عن شهوة التسلط وصراع مع الله سبحانه وتعالى . وترأكت في نفوس البشر معاني الحقد والسواد . وهي محاولة لتغيير الفطرة باتجاه هدف الشيطان في زرع العداوة والبغضاء محل الاخوة والتسامح والسلام والمحبة .

لقد رسم القرآن الكريم شخصية النبي نوح (عليه السلام) بالقوة والمزيمة والطاعة لله والارتباط به وامتك نوح صفات اجتمعت فيه الشجاعة والصبر قال تعالى ﴿ كُنْتُ لِبَلْغَمِهِ لَوْمٌ لَّكِن بَعَثَ نُوْحٌ لِّكُلِّ بَلْغَمٍ مِّمَّنْ وَآلُوْهُ مُجْرِمُوْنَ وَاذْكُرْ ﴿٢٦٧﴾ وَقَالَ تَعَالَى عَنْهُ ﴿ سَلَامٌ عَلٰى نُوْحٍ فِي الْمَآءِئِنِ اَنَا كُنْتُكَ نَجْوٰى الْمُحْسِنِيْنَ ۝ اِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِيْنَ ۝ ثُمَّ اَغْرَقْنَا الْاٰخَرِيْنَ ﴿٢٦٨﴾ .

ولا يوجد في القرآن الكريم اي معلومة حول آباء نوح وأبنائه على عكس التوراة التي تفضل أخباراً صيغت بأسلوب اسطوري حول آباء ونسب النبي نوح وعن ذرية نوح . وإنه ولد له سام وحام ويافت وإنه كان لحام ولد اسمه كنعان « وهو الذي أبصر جده نوح في حالة سكر وعري وقام باخضاع جده . وان حام هو جدّ الجنس الاسود لأن نوح دعا عليه وعلى ذريته بالسواد وأن تكون ذرية حام خدم لذرية سام ويافت . وان الفرض من هذه السطور كما يقول (غريغز وياتاي) هو لتبرير استعباد العبريين للكنعانيين . وفي أحد المقاطع المدراشية أضيفت خطيئة الشذوذ الجنسي الى خطايا حام وفي سفر اللاويين يرد تعداد طويل للخطايا الجنسية الكنعانية « (٢٦٩) .

في القرآن الكريم إشارات مقتضبة حول ذرية نوح ﴿ ولقد نالنا نوح فلنعم

→ خيمته . فشاهد حام ابو الكنعانيين عرى ابيه « الكتاب المقدس / المهد القديم / التكوين

المعجبون ونجيناه وأهله من الكرب العظيم . وجمعنا ذريته هم البالين ﴿٥٦﴾ .
﴿ فأوحينا اليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فلذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من
كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ﴾ ﴿٥٧﴾ . وقال تعالى ﴿ فكنبوه
فأتجينا الذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عاصين ﴾ ﴿٥٨﴾ .
﴿ فكنبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجمعناهم خلجانف وأغرقنا الذين كذبوا
بآياتنا ﴾ ﴿٥٩﴾ وقال تعالى ﴿ وأوحى إلى نوح إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا
تبتس بما كانوا يفعلون ... حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور فلتنا حمل فيها من كل
زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن ﴾ وما آمن معه إلا قليل ﴿ الآيات
من سورة هود . وتعرض آيات في سورة هود حول ابن نوح الذي كفر وأعرض عن دعوة
أبيه فأغرقه الله مع القوم الظالمين ﴾ ونادى نوح ربه فقال ربي إن ابني من أهلي وإن
وعيك العق وأنت أحكم الحاكمين قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا
تسأل ما ليس لك به علم إنني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ قال رب إنني أعوذ بك أن
أسألك ما ليس لي به علم ﴾ وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين ﴾ ﴿٦٠﴾ وفي نص
آخر ﴿ فأتجينا ومن معه في الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد البالين ﴾ إن في ذلك
لاية ﴿٦١﴾ . ﴿ فأتجينا وأصحاب السفينة وجمعناهم آية للعالمين ﴾ ﴿٦٢﴾ . ﴿ وجمعنا
ذريته هم البالين ﴾ ﴿٦٣﴾ . وفي إشارة واحدة الى والدي نوح (عليه السلام) وهي آخر
آية في سورة نوح ﴿ رب اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا ﴾ ﴿٦٤﴾ هذه معظم النصوص التي تحدثت عن ذرية نوح وشملت
الآيات القرآنية مع ذريته من آمن من قوم نوح واتبعوه وأشارت الآيات الى إنهم كانوا
قليل . ولم يوجد في القرآن الكريم ما يوجب له منظروا النظرية السامية وأن الساميين

(٥٦) سورة الصافات / ٧٥ - ٧٨ .

(٥٧) سورة المؤمنون / ٢٦ - ٢٧ .

(٥٨) سورة الاعراف / ٦٤ .

(٥٩) سورة يونس / ٧٢ .

(٦٠) سورة هود / ٤٧ .

(٦١) سورة الشعراء / ١٩ - ١٢١ .

(٦٢) سورة المنكوبت / ١٥ .

(٦٣) سورة الصافات / ٧٧ .

(٦٤) سورة نوح / ٢٨ .

يملكون العقل المبدع والجنس الصالح الذي كان مصدر الالهام والابداع في حياة البشرية . لكي يورث اليهود عقيدتهم التي تصحهم حق الاستعلاء واستعباد الشعوب على أساس إنهم الجنس السامي الوحيد الذي لم تختلط نemale بدماء ملوثة نقلت الخطيئة من حام وكنعان .

ان البيئـة التي عاشها نوح وقومه يمكن تصورها بأنها بيئـة زراعية وفيها بساتين وعلى مقربة من ضفاف الانهار لان الله عندما أمره بصناعة الفلك انما كان هذا العمل ضمن حدود الامكانية المتاحة له ولقومه لان الله سبحانه وتعالى لم يأمر خارج حدود طاقة الانسان . فاقضى ان يكون نوح ومن معه يملكون تصوراً حول السفن والقوارب ويتعاملون بالنقل المائي ولا يمكن ان يكون هذا المكان عند البطائح والاهوار لأنها ارض مسطحة لا مرتفعات فيها وقد أشار القرآن الكريم الى البيئـة التي كان فيها قوم نوح فيها من المرتفعات او الهضاب مع السهول بحيث نكر تعالى حكاية عن نوح عندما بدأ الطوفان وأشار نوح الى ابنه ان يركب معهم في السفينة ﴿ قال سأوي الى جبل يعصني من الماء ﴾ . ويذكر السيد ويلكوكس ان العرب يطلقون لفظة الجبل على كل مرتفع حتى لو كان تلاً فيقول : « فلما اقتربنا من الشنافية لاحت لنا من بعيد اراض صحراوية واطلة فسالت الفلاحين عنها فقالوا في الحال : إنها الجبل . وفي الحقيقة لم تكن تلك الاراضي اكثر من تل بسيط وربما كانت لا تشبه الجبل اكثر من شبه تل » (٦٥) . ونحن لا نتفق مع هذا التعميم لان النص القرآني يذكر بان نوح عندما طلب من ابنه الصعود الى السفينة كان جواب ابنه بأنه سوف ينجو من هذا الماء بالصعود على جبل عالٍ فاللجوء الى تل بسيط لم يكن يعطي شعوراً بالامان في اجواء الفيضان العارم الذي جرف الموجودات من مساكن وأشجار .

ويذكر السيد ويلكوكس أن سفينة نوح « ظهرت عائمة على سطح الماء اول مرة في احدى المدن التي كانت موجودة في تلك الايام في الفرات الاثني (في فرع كوش المدرس اليوم) فسارت الى جهة الجنوب الشرقي مدفوعة بقوتي تيار الماء والرياح المنفطعتين من الشمال والشمال الغربي . وكانت مياه دجلة القديم تأتي من الشمال مدفوعة بقوة التيارات فتلقتي بمياه الفرات في اور الكلدانيين فلا بد ان يكون التيار قد جرف الفلك بعد أن وصلت الى هذا المكان فدفعها الى المنطقة الصحراوية الواقعة

(٦٥) ويلكوكس / ولهم / من جنة عدن الى عبور نهر الاربن / ص ٢٢ / ترميز د. محمد الهاسمي

في جنوب مدينة أور القديمة»^(٦٦) .

وهذه المعلومات على ما فيها من تحليلات ومتابعة من قبل خبير آثار متخصص بالرّي ويمك رؤية علمية، يحاول من خلالها ان يوفق بين ما موجود في التوراة والمعلومات المتولدة من نتائج الحفريات . الا انه كان يسترسل مع ما موجود في مخيلته نتيجة لقراءة التوراة ولذلك من المجازفة قبول هذه الآراء مباشرة . ان المساحة التي كانت من المحتمل أن تكون مسرحاً لعصر نوح (عليه السلام) لا يمكن حصرها بسهولة لان الفيضان قد أتى على كل المخلفات التي كان من الممكن ان نعثر عليها ونحللها ونقارنها مع نصوص القرآن الكريم ولكن حدوث الفيضان او الطوفان كأكبر حدث في عصر النبي نوح أعطانا فرصة نهيبة لتحديد مقياس لعصر ومكان النبي نوح وقومه . لان الطوفان قد ترك آثاره على هذه البقعة وعلى العصر الذي حدث فيه والعصور التي تلتها وهي تنقل حدوث طوفان هائل هز العالم الذي كان موجوداً في تلك العصر .

وكما نكرنا سابقاً فإن العراق كان يمثل وحدة جغرافية مع شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام . ولذلك يمكننا ان نعد إن وجود النبي نوح في العراق كان يعني ان تأثيره قد وصل الى شبه الجزيرة والى الشام وتشكلت وحدة فكرية وعقائدية في المنطقة وهو ما يجعل الحديث عن العراق يعني الحديث عن هذه المنطقة .

وهذه المسألة يمكن التعرف عليها بصورة أكثر تفصيلاً عندما نقرأ وصف نوح لمجتمعه وعقائده في قوله تعالى ﴿ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْني وَاتَّبَعُوا من لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وولده الا خساراً ومكروا مكراً كَثِيراً وقاتلوا لا تُلَهِكُمُ اهلُكُم ولا تُلَظِرُون وذاً ولا سواعاً ولا يَفُوت وَيَعْقِبُون وناصراً ﴾^(٦٧) . هذه الالهة التي ذكر ابن عباس أنها أسماء لرجال صالحين ويعد موتهم استدراج الشيطان قوم نوح وقذف في فكرهم طريقة تعظيمهم بان يصوروا تماثيل لهؤلاء الاشخاص ويعد جيل او جيلين تحول المجتمع الى عبادتهم^(٦٨) ولكننا نجد نكر لاسماء هؤلاء الاصنام في الشعر الجاهلي . فنجد (وذاً) (بفتح الواو وضمتها) الذي نكر الاخباريون « إن هنيئاً عبده مع كلب بن ويره وعبده قريش

(٦٦) ويلكوكس / ولم / من جنة عدن الى عبور نهر الاردن / ٢٢

(٦٧) سورة نوح / ٢١ - ٢٤

(٦٨) انظر ابن كثير / ابو الفداء اسماعيل / تفسير القرآن العظيم / م ٤ ص ٤٢٦ . وكذلك

ابن كثير / قصص الانبياء / ص ٦٩

ويبدو من أسماء الرجال (أي الذين تسموا به مثل عبود) ومن الشعر الجاهلي انه كان معبوداً عند كثير من القبائل . قال الحطيئة المبسي :

فحيماك وُدُّ ما هُداك لفتيه

وخصوصي بأعلى ذي طواله فُجِدِ

ويبدو هذا الصم ضارباً في أعماق التاريخ فنجد عند الآراميين باسم هند وهو عندهم (اله البرق) ونجده باسم أد Aded عند البابليين والاشوريين . وهو عندهم قوة مدمرة سخية معا . وود معبود ثمود كما تدل النقوش النمرودية ومن معبودات الحيثيين والمعينين «^(٦٩)» « فعبادة ود أعم مما ذكره ابن الكلبي وأشمل ، وأقدم في تاريخ الشرق وأوغل وقد صنق رب العزة - وكل ما قاله حق - إذ رد عباتته بدءاً إلى قوم نوح (عليه السلام)^(٧٠) . أما سواع فقد ذكر الشهرستاني ان هنيلاً عبثته فقال « وسواع لهليل وكانوا يحجون إليه وينحرون إليه »^(٧١)

وهكذا كانت أصنام عصر نوح (عليه السلام) تفرض سطوتها وتأثيرها على بلاد العرب وقد ذكر زيدان في انساب العرب عن هذه الأصنام : « (بأن ود كان على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة أسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر) وقد عرف الأخير بصيغته الآرامية (نشرا) عنده التلمود وبعض الوثائق السريانية إلهاً عريباً »^(٧٢) . ونجد ان هذه الآلهة قد انتشرت وعمت شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام كما ذكر المؤرخون بأن القبائل العربية في شبه الجزيرة قد أخذت هذه الأصنام وعبثتها فكان ود لكعب في دومة الجندل وهي بالشام شمال الجزيرة . وهكذا أخذت باقي القبائل هذه الأصنام^(٧٣) . وقد وجدنا ان هذه الآلهة قد حوتها كتابات أوغاريت اللبنانية فقد وجدت نصوص تذكر الآلهة التي كانت

(٦٩) عبدالرحمن / د. نصرت / الواقع والاسطورة في شعر نذيب الهنلي الجاهلي / ص ١٢٩ - ١٣٠

(٧٠) عبدالرحمن / د. نصرت / الواقع والاسطورة في شعر نذيب الهنلي الجاهلي / ص ١٢٩ - ١٣٠

(٧١) عبدالرحمن / د. نصرت / الواقع والاسطورة عن الطل والنحل / ص ١٢٧

(٧٢) الحوت / محمود سليم / في طريق الميثولوجيا عند العرب / ص ٥٧ / دار النهار بيروت ط ٢ سنة ١٩٧٩

(٧٣) انظر ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / ج ٤ ص ٤٢٦ .

منتشرة في بلاد أوغاريت الكنعانية التي كانت في أوج حضارتها المادية ونشاطها الاقتصادي كانت عقيدتها الوثنية قد أخذتها من الاقوام القريبة منهم . لهم اتصالات معهم وكان الالف الثالث قبل الميلاد الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد يمثل سطوة النفوذ السياسي والتجاري لبلاد الكنعانيين والتي كانت تشمل أوغاريت ضمن حدود مملكتها الى غزة وبين الصحراء السورية ومن سهول ادله في جنوبي آسيا الصغرى الى صحراء النقب . وشيدت مدن حول الخلجان فكانت موانئ ذات شأن . وقد اكتشفت في أوغاريت رأس الشمرا (١٢ كم شمال اللانقية) لوحات عليها كتابات مسمارية (بالخط البابلي) . وقد ورد في هذه النصوص ذكر الاله (م ت) وهو (موت) ويلقب بـ (مند . إل) أو (ي د د . إل) ولفظه (مند) أو (يند) تعني شيئاً واحداً : الحبيب ، من جنس سامي مشترك : ود فهو حبيب الاله إيل أو الذي يحبه إيل^(٧٤) .

وإيل هو أعظم الآلهة وقد يكون هذا اللفظ يقصد به الله وهو الأرجح وإيل لفظه قديمة استخدمت عند البابليين بكثرة واستخدمها العبرانيون أو اليهود وقد سمي يعقوب (عليه السلام) بـ (اسرائيل) أي (عبدالله) و (صموئيل) تعني اسماعيل . وتعني (المنذور الى الاله إيل)^(٧٥) . فإذا كان (ود) هو (ود . إل) في الأوغاريتية فهذا يؤكد ما ذهب اليه علماء التفسير وما ذهب اليه ابن عباس رضي الله عنه وآخرون بأن هذه المسميات هي لاناس صالحين . ونكر ابن كثير رواية عن الباقر « أن وداً كان رجلاً صالحاً وكان محبباً في قومه . فلما مات عكفوا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه . فلما رأى ابليس جزعهم عليه تشبه في صورة انسان ثم قال : إني أرى جزعكم على هذا الرجل ، فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون في ناديكم فتذكرونه به ؟ قالوا نعم ، فصور لهم مثله ، قال : فوضوه في نادبهم وجعلوا يذكرونه . فلما رأى ما بهم من نكره قال : هل لكم أن أجعل في منزل كل واحد منكم تمثالاً مثله

(٧٤) انظر فريشه / النيس / ملاحم واساطير من أوغاريت (رأس الشمرا) / ص ١٨ - ٥٢ يتصرف / دار النهار بيروت ١٩٨٠ .

(٧٥) انظر سوسة / د احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٩٢ . ولكن د سوسة يقول معنى اسماعيل (اسمع ايها الاله ايل) ويلحق بينه وبين صموئيل ولكننا نرجح ان صموئيل هو نفسه اسماعيل ثم حدث التفسير في اللفظ لاحقاً . لان اسماعيل هو النبيح او المنذور الى الله .

ليكون له في بيته فتتكونه ؟ قالوا : نعم . قال : فمثل لكل أهل بيت تمتالاً مثله فاقبلوا ففعلوا ينكرون به . قال : وأدرك أبنائهم ففعلوا يرون ما يصنعون به . قال : فتناسلوا ودرس أمر نكرهم إياه حتى اتخذهوا إلهاً يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم . فكان أول ما عبد غير الله (ود) الصنم الذي سموه (ودأ) (٣٦) .

ان انتشار الثقافة الوثنية او العقائد الوثنية على هذا المدى الواسع يؤكد لنا هيمنة ثقافة وادي الرافدين على منطقة الشرق الاقصى في المصور القديمة فقد اثبت لنا الشعر الجاهلي أن الميثولوجيا التي كان يتفنى بها الشعراء كانت مستقاة من بلاد الرافدين كما وردت روايات نكرناها في كتب التفسير والتاريخ تؤكد هذا المعنى . وكذلك الرقم الحجرية التي اكتشفت في أوماريت أكدت انتشار الثقافة البابلية في العالم القديم كله . إن بقاء هذه المعتقدات بعد الطوفان يؤكد إن حدث الطوفان قد حدث في مساحة محددة شملت حدود الارض والرقعة الجغرافية التي كانت تمثل العالم كله بالنسبة للمجتمع النبي نوح وعصره وذلك لصعوبة المواصلات والاتصال البطيء مع العالم الخارجي . ولذلك بعد الطوفان استمرت بعض الاقوام على وثنياتها التي أخذتها من قوم نوح قبل الطوفان لقد أثبتت الابحاث الآتية بأن العراق شهد طوفاناً عظيماً أثر على العصر الذي حدث فيه وامتد تأثيره خارج حدود وادي الرافدين وتناقلت البشرية وامتد الى عصور لاحقة وتحول الى أسطورة ضخمتها أخيلة الاباء والقصاصين وتحول الى قصائد ملحمية وأشعار جكمية تعبر عن علاقة الانسان بالخالق وتضع التفسيرات التي عكسها الطوفان على نهضة الانسان القديم الذي نُقلت اليه رواية الطوفان عبر الاجيال فتحول الطوفان من حقيقة جاءت لتحقق اعجاز الله سبحانه وتعالى ولتنقل للاجيال اللاحقة صورة الفضب الإلهي على المجتمعات الكافرة . تحول ملحمة شعرية تعبر عن معاناة الانسان الذي يبحث عن الحقيقة وسط ركاب من الافكار الجاهلية قال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم الف سنة الا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾ فاتحيناه وأصحاب السفينة وجعلناهم آية للعالمين ﴿ (٣٧) . فكانت نجاة نوح (عليه السلام) ومن معه آية للعالمين وبهذا تتصافر الأدلة لتؤكد حقيقة واحدة وهي ان العراق كان

(٧٦) ابن كثير / ابو الغداء / قصص الانبياء / ص ٧١ . وانظر تفسير القران العظيم / ج ٤

ص ٤٢٧ بيورد لمس الرواية .

(٧٧) سورة المنكبوت / ١٤ - ١٥ .

يمثل المكان المناسب للنبي نوح (عليه السلام) واحداث عصره وبعوته ورسالته كانت على أرض الرافدين . وقد أكد الجيولوجيون والاثاريون إن أرض الرافدين قد شهدت اول الاستيطانات البشرية المرتبطة بالزراعة التي تعتمد على سقي الانهار وقد أكد الباحث الاثاري الجيولوجي نوزل « إن أعرق وأبعد مدى لجنور الحضارة أو ما يصطلح عليه (Up to) كان يشكل نواة جنود حضارة وادي الرافدين . وقد كانت المستوطنات البشرية تتجمع في الاماكن المرتفعة لتجنب الفيضانات ، وقد نجد آثار أقدم المستوطنات في وادي الرافدين قد تركزت في ثلاثة انواع من المناطق المرتفعة وهي : (١) في بداية تشكل الانهار كانت المستقرات على ضفاف هذه الانهار . (٢) ثم نجدها على قمم الجبال الموازية لسلسلة جبال زاغروس التي تغطيها في العصر الحالي السهول الفرينية . (٣) ونجدها كذلك على أعلى التلال ضمن سلاسل من الجبال او التلال او الكثب التي تشكلت خلال العشرات الالاف من السنين بسبب الرياح . ومن المعقول جداً أن الاستقرار البشري قبل الالف الرابع (ق . م .) قد أخذ موضعه في المناطق الأكثر ارتفاعاً لكي تكون هذه المستقرات في مأمن من الفيضانات » (٧٨) .

W. Nutzel: To which depths are (prehistorical civilizations) to be found breath (٧٨)
the present alluvial plains of Mesopotamia: Sumer. Vol. 34. 1978 - p. 17-25.

المبحث الثاني

دعوة النبي نوح (عليه السلام)

دراسة اجتماعية مقارنة بين نصوص القرآن الكريم والآثار

كان عصر النبي نوح (عليه السلام) يمثل تكاملاً منطقياً وعقلياً ونضجاً في المجتمع البشري بحيث أصبح الانسان فيه كامل الوعي وتخلص الانسان عبر آلاف السنين من امور بدائية كثيرة واستجمع في ذاكرته تراكم المنجزات التي احدثها عقل الانسان وهو يتعامل مع الطبيعة ويواجه أنواع شتى من التحديات ، استطاع ان يدجن كثيراً من الحيوانات التي هياها الله سبحانه وتعالى لتتألف مع الانسان وتمنحه جزءاً من حاجاته التي اوجد الله من خلال توافق تكوين هذه الحيوانات في خلقها ووظيفتها لكي تؤدي خدمة لحياة الانسان على الارض فأحس الانسان بقرب الحيوانات المخلوقة خصيصاً لتتوافق مع حاجاته وكان حواراً حصل بين الانسان وهذه الحيوانات فوجد الانسان أن الامر مهياً لتقليل هذه الحيوانات . وكذلك اكتشف هذا الانسان من خلال المخزون المعرفي الذي اودعه الله فيه الزراعة واستطاع ان يزرع انواعاً من الحبوب . التي وجدها تلبي حاجته وتوفر له أمناً غذائياً . واستطاع ان يطور بعض الانوات وأن يتأمل فيما حوله من حياة واشكالها ومن خلال المحاكاة والتطوير اكتشف النار وبدأت مرحلة الصناعة . وكانت التغيرات التي تحدث في حياة الانسان تسير ببطء . وكان التغيير يسير بخطى بطيئة الحركة . ولكن « نحن نعرف من دراستنا للتاريخ والآثار انه قد حدث في حضارات كثيرة أن مدداً طويلة من التغيير

البطيء والهواء النسبي قد اعقبتها مدد تتميز بالتغير السريع المصاحب بالتطور . وقد ارتبطت بفترات التغير السريع عمليات تكنولوجية جديدة مثل الزراعة . أو على نطاق اصغر تصنيع الحديد التي خلقت إمكانات حضارية جديدة واضحة سرعان ما استفلها الانسان^(٨٧) .

وكانت حركة التطور السريع التي تحدث نقله في حياة المجتمعات كانت تمثل مراحل فاصلة في العصور القديمة . وهذه من الامور الملفتة لنظر الباحثين وكان دورة الحياة على الأرض محددة بصعود مستويات لتغيير طبيعة الحياة على الأرض بحيث تسير المجتمعات بصورة بطيئة وفجأة تتسارع خطوات التغيير لترسم صورة جديدة من الحياة بعد سبات طويل^(٨٨) .

لقد كانت البشرية في عصر نوح قد وصلت الى عهد من الرخاء والاسترخاء وابتعدت عن عوامل شنها الى السماء بسبب هذا الواقع الجديد الذي طفى على حياة المجتمع حيث الانحراف العقائدي وانتشار الوثنية وعبادة الاصنام واتباع الشهوات والاهواء وعبادة المال كما حدد القرآن هذا المفهوم بقوله تعالى حكاية عن نوح : ﴿ وتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا خساراً ﴾^(٨٩) واستعملت طبيعة المترفين واصابها الفرور بحيث عثوا ان دعوة النبي نوح تمثل حرباً عليهم ومحاولةً لتجريدهم من مراكزهم الاجتماعية والاقتصادية . وقد نكر القرآن الكريم الوضع النفسي الذي كان يماي منه الكافرون واسباب صدمهم وإعراضهم وحريهم لنوح (عليه السلام) كما في قوله تعالى ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومهم ما نراك الا بشراً مثنا وما نراك تبعلك إلا الذين هم أراذلنا باهي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نهنكم كالنبيين ﴾^(٩٠) .

هذه النقاط التي حددها النص القرآني تؤكد رفض هذه الطبقة لنبوة نوح بوصفه انساناً عادياً مثلهم وهذا يثير فيهم حسداً وحقداً . وكذلك العقلية التي كانت سائدة ، تكوينها الثقافي والايديولوجي يعيش في أوام وميتولوجيا تتوقع أن يكون النبي فوق البشر وهذا المرض يمود عند كثير من الناس عند كل نبوة ونبي . وكذلك اتباع الفقراء

(٧٩) لنتون / رالف / حجرة الحضارة / ص ٩١ .

(٨٠) لنتون / رالف / حجرة الحضارة / ص ٩١ وما بعدها .

(٨١) سورة نوح / ٢١ .

(٨٢) سورة هود / ٢٧ .

والمحرومين للذبي يؤكد وجود ظلم اجتماعي وطبقي يعبر عن نفسه في رفض لكل قيم وعقل تؤمن بمساواة البشر ولا فضل لأحد على أحد . لأن هذه القيم سوف تحرم المترفين من الاستمتاع بخدمة الفقراء والمستضعفين وامتثالهم وتسخيرهم لتحقيق شهواتهم ومتمهم .

لقد وضع القرآن الكريم مقياس التكريم للمعمل الذي يؤميه الانسان وقد أشارت الايات التي تحدثت عن أحد أبناء نوح الذي رفض الهدى الذي جاء به نوح واختار لنفسه طريقاً آخر . وقد أكدت هذه الايات بطلان سيادة الدم وتفاضل الاجناس منذ بداية البشرية وان سيادة العالم مسخرة لمن يستجيب لنا موس الله الذي أودعه في المجتمع البشري . وعندما تحركت عاطفة الابوة في نوح قال : رب إن ابني من أهلي . حسم القرآن هذه القضية وتجاوز الرب جلّت قدرته المواظف التي من شأنها ان تفسد الحياة اذا كانت هي الفاعلة والمؤثرة في المقاييس الانسانية فحدد الله جلّت قدرته بأيات وكلمات قليلة أساس العلاقة معه من بني الانسان ﴿ انه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ﴾ هكذا بكل وضوح وضعت القضية ضمن مسارها الصحيح . المعمل الصالح هو نسب الانسان . ان القرآن الكريم في تعاليمه كان يؤسس قواعد ويضع الموازين لمحاصرة الباطل وفتح المجال امام الانسان لكي يتحرك لعمارة الارض بوحى القيم السماوية الخالدة . ولا يوجد تفضيل لانسان على انسان ولا مجتمع على مجتمع الا بمقتضى المقاييس التي وضعها الله سبحانه . وقد الفت هذه الايات الاعتبارات التي تشبث بها اليهود ليدروا سيطرتهم على العالم من خلال إرهاب الفكر الذي يعادي السامية ولذلك جاءت نظريات الحتمية البيولوجية^(٨٢) رد فعل ضد السامية فصدت « الاسيويين والافريقيين واليهود منحطين وراثياً »^(٨٤) . ان هذه النظريات تدور في فلك الصراع على التاريخ وهذا يعني الصراع على المستقبل وكلها يحكمها الهوى والتعصب والاستعلاء على الانسانية « لأن التحكم الاجتماعي بمعناه الوراثي

(٨٢) الحتمية البيولوجية آخر صرخة في الحضارة الغربية المعاصرة وهي نظرية تمسبة تؤكد على ان الضموب المتخلفة تخلقها وراثي ولا جدوى من محاولة اصلاحها انظر المصدر ابناء .

(٨٤) دلا / ستين / وآخرين / علم الاحياء والابنولوجيا والطبعية البشرية / ص ٣٤ / سلسلة عالم المعرفة ترجمة د . مصطفى ابراهيم فهمي .

النهائي يعني سلب انسانية الانسان «^(٨٥) وحتى لو سلمنا بوجود تأثير وراثي للسلوك « لكن اتصال الجماعات الانسانية القديمة ببعضها والتنافس بينها عمليتان استمرتتا منذ أقدم العصور «^(٨٦) وهو ما أدى الى تمازج النماء الى حد يجعل نقاء الجنس أشبه بالاسطورة^(٨٧) .

لقد بعث الله نوحاً الى مجتمع يعرف كيف يراوغ واستمراً الحياة الدنيا وركن اليها . وكان هذا المجتمع قد وصل مستوى نقله الى المرحلة الثانية لانطلاقه البشرية بعد آدم الذي مثل عصره نواة الانطلاق الاولى للانسانية فكان نوح (عليه السلام) يسمى (أبا البشرية الثاني) وكانت البشرية قد نست أباهما الاول وانقطع التاريخ وطوت صفحات النسيان الاسس التي وضعها آدم (عليه السلام) لذريته من بعده . فطال الزمان آلاف السنين انفصلت البشرية عن عبوديتها للخالق بفعل مؤثرات كثيرة جعلها الله أسباباً يختبر بها عباده الذين يثبتون على الحق ولا يغيرون ولا يبدلون . وكان الشيطان يراقب الانسان ويبحث له عن فرصة لكي يزين للناس عبادة غير الله من الاشياء التي يوهمهم بها بأن لها أثر على الحياة . تارة يدخل عن طريق غير مباشر كما دخل على قوم نوح (عليه السلام) عندما أغراهم بنصب ينكرون بها صالحهم ثم انحرفوا من الذكرى الى العبادة وتارة يوهمهم بآثار الكواكب والشمس والقمر وقد يصل الامر الى حيوانات واحجار يظنها الانسان لكي يشبع غريزة التدين وفطرته التي قذفها الله في أعماقه . فكانت الرسالة في عصر نوح تمثل احتياج الجسد الى الروح . وتمتل الماء من السماء الى الارض اليابسة العطشى . لقد كانت ضرورة أكثر من ضرورة الهواء الى الحياة لأنها وضعت المعلم العظيم لحياة الانسان على الارض فكان الدين المتكامل في العقيدة والمنهج بحيث يلائم ما وصل اليه المستوى التصوري للانسان حول إحساسه بذاته ووجوده ووظيفته على الارض وعمقت رسالة نوح الاحساس بضرورة الدين للحياة وأصلت الطريق الذي وضعه الله للانسان على الارض . لقد عبرت رسالة نوح عن قضيتين في حياة البشر الاولى المقيدة وهي الايمان بالاله الواحد والثانية تشريع يتلام مع طبيعة العصر عبر عنها

(٨٥) رظ / ستيفن / م . ن / ص ١٠٦

(٨٦) لنتون / رالف / شجرة الحضارة / ج ١ ص ٦٤ .

(٨٧) انظر علي / د فاضل عبدالواحد / من الواح سومر الى التوراة / ص ٤٩ وما بعدها .

القرآن الكريم بقوله تعالى ﴿ اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ﴾ (٨٨) .
ولقد أسست قصة نوح (عليه السلام) القرآنية مبدأ ومقاساً للقيمة الانسانية وهو الايمان والعمل الصالح والفت اي تأثير للاعتبارات العرقية والمنصرية وقد تمثل هذا المعنى في قضية ابن نوح الكافر وزوجه الكافرة . ويعد هذا المبدأ من اعظم المبادئ التي عرفتها البشرية ومازالت الانسانية تحاول وتكافح من اجل هذا المبدأ العظيم الذي الفى المنصرية والعرقية والعصبية والبشرية وما تزال تعاني من هذه الامراض وتحتاج الى استعادة هذه المعاني العظيمة التي أصلتها وثبتتها رسالة نوح (عليه السلام) . ومما يؤسف له ان اليهودية بتوراتها وتلمودها وفكرها شكلت محوراً لتدمير هذه الاسس والمعاني والقيم وذلك من خلال السامية والمناداة بها وصحارة من يرفض هذه الفكرة المزيفة . وان من رحمة الله وأثر رسالة نوح (عليه السلام) ان هذه القيم أصبحت معلماً لا سبيل الى محوه من عقل الانسانية . او من رصيها الواعي .

وقد عبرت دعوة نوح (عليه السلام) عن نظام بنيي متكامل من خلال عبادة الله الواحد مع قيم ونظام اخلاقي (يعبر عنه بالتقوى) وشرعية تتمثل بطاعة النبي والتزام توجيهاته بوصفه موجهاً للمجتمع الذي يعيش عصره ويعبر عن الدين بواقعية الحياة . لا شك ان تطور وسائل الحياة والمعيش مر بمراحل طويلة منذ أتم الى نوح وقد تمثلت توجيهات أتم الاسس التي يقوم عليها المجتمع البشري ووضعت الانسان ضمن مستوى التكريم الإلهي . ونحن نابعنا المظاهر الاولى التي عبر عنها القرآن بكلمات مقتضبة تتلام مع بدايات بسيطة فكانت استجابة أتم وزوجه الى توجيهات الرب جلت قدرته هي المحور الاساسي وفي المخالفة الشقاء والمعاناة وقد طبقت التجربة بكل بقائلها عارضة نموذج الانسان الذي يخطأ ويعود وقد نجح فيها أتم وعبر عن النموذج البشري الانساني الكامل ، ثم كانت الايات القليلة تضع ملامح الصورة الصحيحة للانسانية من خلال التأكيد على الملابس واستبشاح العري وتبجيحه لتؤكد ان أسس الحضارة الحقيقية تقوم على قيم ومبادئ اخلاقية وقد أحسن نيورانت عندما وصف شروط قيام الحضارة عندما قال : « والحضارة مشروطة بطائفة من العوامل هي التي تستحث خطاها او تعوق مسراها أولها العوامل الجيولوجية والعوامل الجغرافية والعوامل الاقتصادية وما هذه العوامل الصانية

والبيولوجية الا شروط لازمة لنشأة المدنية لكن تلك العوامل نفسها لا تكون مدنية ولا تنشأها من العدم . إذ لا بد ان يضاف اليها العوامل النفسية الفعيلة فلا بد ان يسود الناس نظام سياسي ولا مندوحة كذلك من وحدة لغوية الى حد ما لتكون بين الناس وسيلة لتبادل الافكار ثم لا مندوحة ايضاً عن قانون خلقي يربط بينهم عن طريق الكنيسة او الاسرة او المدرسة او غيرها حتى تكون هناك في لعبة الحياة قاعدة يربعاها اللاعبون ويمترف بها الخارجون عليها^(٨٩) .

ثم نقلنا القرآن الكريم الى الجيل الذي بعد آدم ومنذ البداية الاولى حيث قصة ابني آدم وكيف عرض القرآن الكريم العلاقة بين الانسان في مجتمع بدائي يحمل خصائص الارتقاء وقد عبر القرآن الكريم عن نوعين من الانسان الاول يمثل الاستجابة للخير وكبت نوازع النفس المرضية كالهوى والحسد والثاني يمثل النوع الاخر الذي أحبط في الارتقاء واستجاب لغواية الشيطان فكانت اول جريمة على الارض وبينت هذه القصة ان الانسان لا يتغير في باطنه فهو انسان بما يحمل من خير وشر فهو يعيش في صراع مستمر في حياته ﴿ ونفس وما سواها فالههوها فجورها وتقاها . لقد أطلع من ركازها ولقد خاب من ناصها ﴾^(٩٠) . ولكن في ثنايا القصة عرضت لنا الايات مشهداً عرفنا من خلاله ان الانسان البدائي لم يكن يعرف الدفن ورسم لنا القرآن الكريم صورة من صور تطور التصور الانساني للحياة من خلال دفن الجثث والموتى . وكيف بدأ يتخلص الانسان من الصور الوحشية البدائية ويهذب في تصورات ووسائل عيشه من خلال ازالة المناظر المستقبحة وتنظيف البيئة . والانسان الهمجي متحضر ايضاً كما ينكر بيورانت ضمن مفهوم واقعه وتكيفه لذلك الواقع . فهو يرى ان الانسان عندما بدأ يخزن طعامه بدأت معاناته « تلك ان الانسان اذا ما بدأ يفكر في غده فقد خرج بذلك من جنة عدن الى وادي الهموم ، وحلت به صفة الغم . وما هنا يشتد فيه الجشع وتبدأ الملكية^(٩١) والاثانية » ولكن مع تطور أساليب إسخار القوت كان يتبلور نظام سياسي واجتماع الناس لتحصيل

(٨٩) بيورانت / اول / قصة الحضارة / ١٣ ج ١ ص ٣ - ٧ .

(٩٠) سورة القصص / ٧ - ١٠

(٩١) بيورانت / اول / قصة الحضارة / ١٣ ج ١ ص ١١ وينكر بيورانت مثل عند قبيلة البيهمن في افريقيا (اما وليمة او مجاعة) ويقول ان في قصر الدهر هنا لحكمة صامتة .

القوت أعان على قيام الدولة»^(٩٢) .

لقد علمنا القرآن من خلال قصة إبني آدم أن الانسان البدائي (الذي كان يعيش عصر الهوموسابينز في بداياته الاولى) لم يكن يعرف كيف يدفن موته ولذلك ندرت الهياكل القديمة كحفريات (Fossils) لأن عدم دفن الموتى كان يعني « ترك الجسد ملقى في العراء الذي يصبح بدوره عنصراً اقتصادياً يضاف الى ما تقدمه الطبيعة . اذ تتولى امر تلك الجسد الجوارح من الصقور وابناء آوى وجميع أنواع أكلة الرمم ، حتى البكتريا التي تتغذى على الدم وعلى نخاع العظام والقوارض التي تأتي في النهاية على تلك العظام لاجل ما تحويه من الهلام (الجيلاتين) والجير»^(٩٣) . فكان دفن الموتى من أقدم الاشياء التي اكتسبها الانسان من مظاهر التحضر والتخلص من التوحش . عندما وصلت البشرية الى عصر نوح كانت البشرية قد تأسست في تصوراتها قواعد المدنية وبناء المجتمعات ونواة الاستقرار والقرى والمدن حيث استطاع الانسان ان يشكل هاهرة « التمدين (Urbanisation) التي يمكن أن تعد بحق أرقى انجاز توصل اليه الانسان في استقراره على الأرض . فالمدنية ولبية الحضارة أو انها في الواقع هي الحضارة وهي الانسان متموضعا ضمن اطار جغرافي اجتماعي محدد يعبر عن نظرتة الى العالم . وعن تطلعاته وهمومه»^(٩٤) لقد وصل الانسان في عصر نوح الى مستوى من الوعي الثقافي وكان يملك تصورات حول الله سبحانه وتعالى والآخرة وعكست لنا الايات القرآنية مستوى ثقافي وحجج عقلية كان يجادل بها قوم نوح نبيهم حيث قال تعالى : ﴿ لَقَالَ الصّٰلِیْنَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هٰذَا اِلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ یُرِیدُ اَنْ یُفَضِّلَ عَلَیْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللّٰهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِی اٰبَائِنَا الْاَوَّلِینَ ؕ اِنْ هُوَ اِلاّ رَجُلٌ بِهٖ جَنۡةٌ فَرۡیَصُوۡا بِهٖ حَتّٰی حَیۡنَ ﴿ ٩٥ 〉 . لقد كان هؤلاء يعرفون ان هناك خالقاً هو الله وكانوا يعرفون هناك ملائكة وصرحوا بان ثقافتهم الدينية التي تلقوها من آبائهم لم تذكر لهم أن الله كان يرسل بشراً رسلاً ولذلك برروا رفضهم لدعوة نوح (عليه السلام) . وقد وصفوا نبيهم

(٩٢) انظر ديورانت / ن . م / ص ١٢

(٩٣) انتون / رالف / شجرة الحضارة / ج ١ ص ٢٨ .

(٩٤) مصطفى / شاكر / المدن في الاسلام حتى العصر العثماني / ص ١٠ / ط الكويت

١٩٨٨

(٩٥) سورة المؤمنون / ٢٤ - ٢٥

بانه مجنون أصابه مس من الجنون فعليهم الانتظار ومراقبة احواله لعله يهلك فيتخلص المجتمع من هذه المنفصات التي أظهرها هذا النبي ودعا اليها . ونحن نعلم أن المترفين هم الذين تصدوا لنوح (عليه السلام) وحاربوا دعوته لانهم وجدوا هذه الدعوة تعني الغاء الامتيازات التي حصلوا عليها في الطبقة التي كانت سائدة في تلك العصر . وعندما صرح هؤلاء بانهم ما سمعوا بما يدعيه نبيهم من آجالهم الاولين ولم ينقل لهم من الاجيال السابقة لهم ما جاء به نوح (عليه السلام) . وهذا يؤكد لنا أن الدين أصل وفطرة فطر الانسان عليها ولم يتطور هذا الدين حسب تطور عقل الانسان وحاجته ولم تتبدعه افكار الانسان بل هو المنهج الاصيل في حياة البشر ولم تسبق الافكار المعقدة « وبعبارة أخرى سبقت الديانة الفلسفة »^(٩٦) . ينظر الفرييون على ان الدين تولد في نفس الانسان نتيجة لمؤثرات قاهرة انعكست في حياة الانسان على شكل عقيدة دينية عبر من خلالها الانسان عن استجابته لبعض التحديات التي عجز عن التمكن منها والتغلب عليها ومن العوامل التي يمتد هؤلاء الفرييون انها كانت تؤثر على خلق العقيدة الدينية « الخوف من الموت والدهشة لما يسبب الحوادث التي تأتي مصادفة او الاحداث التي ليس في مقدور الانسان فهمها . وكان أهم ما تملكت به دهشتهم وما استوقف انظارهم بسرّه المجهوب هما الجنس والاحلام . لقد بهت الانسان البدائي لهذه الاعاجيب التي يراها في نومه وفزع فزعاً شديداً حين شهد في رؤاه أشخاص اولئك الذين يعلم علم اليقين أنهم فارقوا الحياة»^(٩٧) . إن أعظم ما هو موجود عند الانسان هو ذلك المخزون المعرفي الذي يحويه في باطنه في مساحة هائلة وراء الوعي لا تزال سراً من أسرار الخلق . ان الانسان الذي اودع الله فيه سراً من التعامل مع البيئة في كل المصور منذ أمم (عليه السلام) هو نفسه لم يتغير انما تغيرت الظروف نتيجة لمعامل عديدة منها الخبرة المتراكمة التي تنتقل من جيل الى جيل ومن عصر الى عصر كان الانسان خلالها يحور ويطور ويعدل ففي كل عصر لم يكن هناك خلق ولكن تطوير وكشف لان الانسان لا يخلق ولكن الخلق صفة للخالق فالانسان « الهمجي هو ايضاً متقدم

(٩٦) ديورانت / بول / قصة الحضارة / ١٦ ج ١ ص ١٠١

(٩٧) ديورانت / بول / قصة الحضارة / ١٦ ج ١ ص ١٠٠ . وانظر كذلك شيلنجر / اسوالد /

تعمير العرب / ج ١ ص ٢٢٠ حيث يقول : « انها الانبياء ذاتها التي ولدت ضمنها نفس

وليدة في الشرق . نفس تسيل من جديد بخمرة الاحلام والمخاوف والتوحد .

بمعنى هام من معاني المدنية لأنه يعني بنقل تراث القبيلة الى أبنائه . وما تراث القبيلة الا مجموعة الانظمة والعادات الاقتصادية والسياسية والعقلية والخلقية ، التي هزبتها أثناء جهانها في سبيل الاحتفاظ بحياتها على هذه الارض والاستمتاع بتلك الحياة وأنا حين نطلق على غيرها من الناس اسم (الهمج) او (المتوحشين) فقد لا نعتبر بمثل هذه الالفاظ عن حقيقة موضوعية قائمة بل نعبر بها عن حبنا المارم لانفسنا لا اكثر . ولا شك اننا نبخس من قيمة هاتيك الشعوب السانحة التي تستطيع ان تعلمنا كثيراً جداً من الجود وحسن الخلق . فلو أننا أحصينا أسس المدنية ومقوماتها لوجدنا ان الامم العريانة قد أنشأتها او أركتها جميعاً إلا شعيماً واحداً . ولم تترك لنا شيئاً نضيفه سوى تهذيب تلك الاسس والمقومات لو استثنينا فن الكتابة^(٩٨) وهذا الكلام وان كان يعبر عن وجهة نظر فيلسوف ومطرح وعالم غربي يصدر عن مؤثرات حضارته وأنا لا نتطابق معه في الآراء ولكن تبقى بعض الحقائق والمفاهيم مما لا يختلف عليه . وتدل على اتفاق منطقي في عقول البشر اينما وجدوا ومتى ما وجدوا .

ولذلك عندما حدثنا القرآن الكريم عن قوم نوح لم يكن يعبر عن صفة مميزة لهذا المجتمع البشري بل كان القرآن يرسم صورة المجتمع بجنوره وكأنه لم يتغير على مدار العصور والدهور . ومنذ وضع القرآن جميع الامم في مستوى واحد لكي يعطي خلاصة تجربة هؤلاء الاقوام ومضائهم لتتشكل العبرة والعظة للانسانية على مدار الزمان قال تعالى ﴿ اِذْ يَأْتِيكُم نُبَأُ النَّوْحِ مِنْ رَبِّكُمْ لَقَوْمٍ نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله ﴾ جاءتهم رسلكم بالبينات فرثوا أيديهم في اهلهاهم وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به وانا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب^(٩٩) وقد تكرر هذا الموقف في القرآن الكريم لكي يتعلم الانسان أن الجاهلية واحدة في مفهومها وصفاتها وأهدافها ولكن قد تتغير صورها وأشكالها وكذلك دعوة الانبياء دعوة واحدة تحمل حقيقة واحدة وهي التوحيد والدعوة الى عبادة الاله الواحد « والذي يقرأ القرآن يلحظ ولا شك التركيز على هذا المعنى في أكثر من مناسبة وفي أكثر من صورة . ان الانبياء جميعاً قد جاعوا بكلمة واحدة يقولونها لاقوامهم (﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ وأن اقوامهم - في جاهليتهم - وقفوا من أنبيائهم موقفاً واحداً ، هو رفض الايمان بلا إله

(٩٨) بيروانت / وادل / قصة الحضارة / ١٢ ج ١ ص ٩٠ .

(٩٩) سورة ابراهيم / ٩ .

الا الله . وتارة يوجه الحديث الى الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة كما في سورة فصلت ﴿ ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ (١٠٠) . قوله واحدة ، وموقف واحد مكرر . ان هؤلاء الملا المتجبرين على اقوامهم الذين يستعبدون البشر بسلطانهم انما يفتصبون في الحقيقة سلطاناً ليس لهم . انما هو حق الله سبحانه وتعالى وانهم يكونون غارقين في الترف الفاجر الى انقائهم حريصين على الاستمتاع بهذا الترف الذي حصلوا عليه من ابتزاز حقوق العبيد واستغلال كدحهم وجهدهم . فيكفرون تحرد اولئك العبيد من سلطانهم . ثم تقع سلسلة من الاحداث تتشابه في كل جاهلية او تماثل (١٠١) . نريد ان نثبت حقيقة تستند الى نصوص القرآن وهي ان عصر نوح عصر اول الرسالات ومنه بدأت سلسلة الرسل والانبياء ولذلك عرض القرآن الكريم عصر نوح اول المصور في كل استعراض يستعرض فيه مجموعة رسالات ودعوات . قال تعالى مخاطباً محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح واتيين من بعده واوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وابوب ويونس وهارون وسليمان واتينا داود زبوراً ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً ﴾ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً (١٠٢) والسنة تثبت ما اثبتته القرآن وتجعل اول رسول الى الارض هو نوح (عليه السلام) « فكان اول رسول بعثه الله الى اهل الارض كما ثبت في الصحيحين من حديث ابي حيان عن ابي زرعة بن عمرو بن جرير . عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة (قال فياتون اثم فيقولون : يا اثم أنت ابو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك واسكنك الله الجنة ، الا تشفع لنا الى ربك ؟ الا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ؟ فيقول : ربي قد غضب غضباً شديداً لم يفضب قبله مثله ولا يفضب بعده مثله ونهاني عن شجرة فمصيت ، نفسي نفسي ، انهبوا الى غيري ، انهبوا الى نوح فياتون نوحاً فيقولون : يا نوح أنت اول الرسل الى اهل الارض وسماك الله عبداً شكوراً ، الا ترى الى ما نحن فيه . الا ترى الى ما بلغنا ؟ الا تشفع لنا الى ربك عز وجل ؟ فيقول : ربي قد غضب اليوم غضباً لم يفضب قبله مثله ولا يفضب بعده

(١٠٠) سورة فصلت / ٤٣ .

(١٠١) قطب / محمد كيف نكتب التاريخ الاسلامي / ص ٧٠ - ٧٩ بتصرف .

(١٠٢) سورة النساء / ١٦٣ - ١٦٥

منه . نفسي نفسي) ونكر تمام الحديث كما أورده البخاري في قصة نوح - « (١٠٣) »
 نوح (عليه السلام) أول رسول الى الارض ونحن نقرر هذه الحقيقة تواجهنا
 إشكالية في نظرتنا الى التاريخ واحداث عصره ومجتمعه ورسالته . هل كان نوح
 (عليه السلام) رسولاً يمثل رسالة عالمية الى كل الانسانية ؟ أم كانت رسالته
 خاصة بقومه ؟ هل كان هناك أنبياء أو رسل يعاصرونه الى اقوام آخرين ؟ وإذا كان
 نوح يمثل رسالة عالمية عمت جميع الارض ولم يكن هناك أنبياء أو رسل عاصروه فما
 هو مصير البشر الذين لم يصل اليهم تأثير رسالة نوح ؟ وهذه الاشكالية نفسها التي
 واجهتنا عند حديثنا عن أم (عليه السلام) وعن الاقوام الذين كانوا قبله . والاقوام
 الذين عاصروه وهل يوجد حقاً أناس قبل أم ؟ وهل كان هناك من البشر من عاصر
 أم ؟

نكرت آيات في سورة هود أمراً يبعث على التساؤل ، هذه الآيات هي قوله تعالى ﴿ قِيلَ
 يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمِّمِن مَعَكَ وَأُمُّمِن مَعَهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْنَا
 عَذَابُ أَلِيمٍ ﴾ (١٠٤) . يا ترى من المقصود بقوله تعالى ﴿ وَأُمُّمِن مَعَهُمْ ﴾ فهم غير
 ﴿ أُمِّمِن مَعَكَ ﴾ فهل كان هناك بشر يعاصرون قوم نوح في بلاد أخرى أخبر الله
 تعالى انه سيمنعهم أو يبارك لهم ويعذب آخرين (١٠٥) قال ابن كثير : « قال محمد بن
 كعب : دخل في هذا الكلام كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيامة وكذلك في المذاب والمتاع
 كل كافر وكافرة الى يوم القيامة » . وقد نوه الشيخ عبدالكريم المدرس الى وجود آراء
 تقول بعدم وقوع الطوفان شاملاً لكل الارض استناداً الى هذه الآية بقوله « ومما
 يحسن الاطلاع انه دار الكلام بين المفسرين ولا سيما المتأخرين منهم حول عموم
 الطوفان للكرة الارضية او اختصاصه بأقليم سيدنا نوح (عليه السلام) ونحن اذا
 نظرنا الى النصوص علمنا عمومها » (١٠٦) .

(١٠٣) ابن كثير / ابو الفداء اسماعيل / قصص الانبياء / ص ٧٠ - ٧١ .

(١٠٤) سورة هود / ٤٨ .

(١٠٥) ويذهب هذا المذهب الدكتور محمد بهيمي مهرازي في كتابه / دراسات تاريخية من القرآن
 الكريم / ج ٤ ص ٩٢ حيث يقول : الا يفهم من قوله تعالى ﴿ أُمِّمِن مَعَهُمْ ﴾ فهم غير
 أم نوح ؟ أم كان نوح (عليه السلام) أول رسول الى الارض ونحن نقرر هذه الحقيقة تواجهنا
 إشكالية في نظرتنا الى التاريخ واحداث عصره ومجتمعه ورسالته . هل كان نوح
 (عليه السلام) رسولاً يمثل رسالة عالمية الى كل الانسانية ؟ أم كانت رسالته
 خاصة بقومه ؟ هل كان هناك أنبياء أو رسل يعاصرونه الى اقوام آخرين ؟ وإذا كان
 نوح يمثل رسالة عالمية عمت جميع الارض ولم يكن هناك أنبياء أو رسل عاصروه فما
 هو مصير البشر الذين لم يصل اليهم تأثير رسالة نوح ؟ وهذه الاشكالية نفسها التي
 واجهتنا عند حديثنا عن أم (عليه السلام) وعن الاقوام الذين كانوا قبله . والاقوام
 الذين عاصروه وهل يوجد حقاً أناس قبل أم ؟ وهل كان هناك من البشر من عاصر
 أم ؟

(١٠٦) المدرس / عبدالكريم / مواهب الرحمن في تفسير القرآن / ج ٤ ص ٣٤ .

ولكننا نمود ونؤكد ان الجواب على هذه الاسئلة لا نملكه ولا يمكن أن نجزم بالحقيقة حول هذه القضايا . لاننا لم نشهد التاريخ منذ البداية ولم نخلق الانسان ونحن غير مسؤولين الا عن واقعا . الماضي نعتبر احداثه وتامل وقائه لتمييز الخبرة لمعالجة الواقع . أما المستقبل فلا سبيل الى معرفته ولكن معرفة الماضي تعيننا على إدراك الواقع وتمنحنا إحساساً متوازناً بالمستقبل غير منقاد للاهواء والمواطف فيكون الانسان المرتبط بالماضي اكثر حكمة وهو يرى المستقبل ترتسم صورته في مخيلته فلا يستدرج للالم والشقاء اذا كانت الصورة لهذا المستقبل سلبية تعاني من نقص عن مستقبل يطمح اليه تلك الانسان فيعود الى واقعه يعمل فيه ويصحح لكي يصل الى النتائج التي يريدتها في مسيرته التي يعيشها على الارض . هذه الاطر للتعامل مع التاريخ هي الاطر الواقعية التي ينبغي للانسان ان ينعن لها وقد ثبت القرآن الكريم هذه المعاني وهو يتحدث عن أخطاء الماضي بالنسبة للام سبقت فارد القرآن الكريم أن يضع أنظار الإنسان امام الواقعية بعبداً عن المتالية ويرسم حدود المساحة الخارجة عن التأثير فيها او التاثر بها فقال تعالى ﴿ تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبت ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ القرآن الكريم يحدد هنا المسؤولية ويجعلها ضمن حدود الواقع فلا يُسأل الانسان عن أعمال الماضين ولا يكتسب شيئاً من أجر العاملين الماضين . وهذه قاعدة قرآنية يمكن أن نضمها أمام الباحثين وهم يكتبون التاريخ . فلا بد ان يتحرك الباحث عن التاريخ ضمن المساحة التاريخية الواضحة التي ينعكس استيعابها على الدارس وعياً وفهماً لزيادة رصد التجربة الانسانية ولا يسبب تشويشاً وغبشاً في الرؤية ويضع الانسانية تحت الحدود المكرمة حيث التصورات الحيوانية والمقاييس البيولوجية . لذلك نجد معظم الباحثين والمتخصصين في التاريخ القديم قد تأثروا بالمفاهيم التي أفرزتها الحضارة الفرعية مثل نظرية التطور والتفسيرات المادية للتاريخ فجامت تفسيرات التاريخ مشوشة وتخمينات غير دقيقة منساقة وراء ظنون وأهواء . وفي كثير بل في معظم نقاط التاريخ هناك معضلات لا سبيل الى حلها أو حل الفازها وكما ذكرنا سابقاً بان المؤرخين لا يملكون سوى الافتراضات والتوقعات بل أدى غياب الحقائق الى جعل التاريخ عبارة عن عيثنولوجيا شعرية أو متعة خيالية لا جدوى من متابعة نقالقتها . ولا فائدة في محتواها . على إندا لا ننكر الجهود المخلصة والجاندة والابحاث المتوازنة الباحثة عن الحقيقة الرائضة للتشويه المتمند لتاريخ الانسانية

والاعتراف بجهود الامم في بناء تاريخ الانسانية جمعاء .

وإذا عدنا الى الاسئلة المطروحة سابقاً بإمكاننا ان نطمئن الى القرآن الكريم لانه وحده الذي حفظ لنا أهم أحداث تاريخ البشرية لاننا اذا قرأنا التاريخ القديم قراءة غربية فإننا سوف ننتبه وسط ركام من الاخيار التي نسجتها أخيلة الفلاسفة والمفكرين وسوف نجد أن هناك إنغافاً وطمساً متممداً لمساحات هائلة من التاريخ وتهميشاً لأبوار كثير من الامم بسبب التعصب والهوى . « ولم يحدث أن نون إغريقي عظيم حدثاً من شأنه أن يساعد على تثبيت مظاهر التجربة والخبرة للبصيرة الداخلية . ولم يتم أي من الناس بالتأمل في التاريخ تأملاً جدياً »^(١٠٧) . في التاريخ القديم كل الاشياء وظفت لخدمة النص القرآني ولإثبات دلالته على التاريخ . ومن خلال هذه الرؤيا نستطيع أن نفهم سر تقدم المصريين في تحنيط الموتى . سجد ان فرعون الخروج الذي خرج يطارد موسى (عليه السلام) ومن معه الذي هلك غرقاً قام المصريون بتحنيطه ليكون لمن خلفه آية كما حدث القرآن الكريم لذلك . ان دراسة نصوص القرآن الكريم التي تعرضت للتاريخ القديم والمفقود أكدت أن القرآن الكريم قد حافظ على هذا التاريخ رحمة للانسانية ليطلمها على حقيقة تاريخها فتأمل فيه وتكتسب العبرة والخبرة قال تعالى مخاطباً محمد (ﷺ) ﴿ ولكننا أنشأنا لرونأ فتطول عليهم العمر وما كنت لثوباً في أهل مدين تنكو عليهم أهبتا ولكننا كنا مرسلين ﴾^(١٠٨) وقوله تعالى : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم إذ يقون الالامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾^(١٠٩) . آيات كثيرة في القرآن تدعو الى التوقف والتأمل وتؤكد بأن الله سبحانه وتعالى قد نقل الينا في قرآنه الكريم ما ينفخ الانسان من أحداث ووقائع وعبر بتفاصيل دقيقة إذا احتاج الامر الى بيان وتوضيح وأحياناً مروراً عابراً في حالة سرد عدة وقائع لتأكيد حقيقة واحدة كما في قوله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب ادريس انه كان صديقاً نبياً • ورهناه مكثراً عليا ﴾^(١١٠) ولم يحدث القرآن عن إتريس اكثر من هذه المعلومات وجاءت في معرض الكلام عن مجموعة من الانبياء فكانت رواية المعلومة القرآنية لغرض تمييز

(١٠٧) شبلمجر / اسوالد / شعور الغرب / ١٤ ص ٥٦ - ٥٩ .

(١٠٨) سورة القصص / ٤٥ .

(١٠٩) سورة آل عمران / ٤٤ .

(١١٠) سورة مريم / ٥٦ - ٥٧ .

نور الانبياء وتحملهم أمانة دعوة الناس الى الحق عبر الآجيال والعصور التي عاشها هؤلاء الانبياء . وعند تأمل نصوص القرآن نجد ان الهدف من ذكر أخبار الانبياء جاء لتأكيد حقيقة واحدة وهي ان الله سبحانه وتعالى لم يترك البشرية ، بل تواصل إرسال الرسل والانبياء الى البشرية كلما انحرفت عن هدي السماء وأطبقت الوثنية والكفر على الارض فيرسل الله تعالى نبياً او رسولاً لانقاذ البشرية من ضلالتها وحيوتها . فتحصل لدينا من آثار هؤلاء الانبياء على الحياة ويقايا آثار ديواتهم على البشرية أن الدين أصيل في الحياة وعميق في داخل الذات الانسانية ولا يمكن ان نجد إنساناً عاقلاً منذ أن وجد الهوموسابينز حتى يومنا الحالي الا والدين يظهر على سلوكه وينعكس على حياته يمتد عنه أحياناً بالايمان بالحياة الاخرى والبعث بعد الموت وأحياناً يمتد عنه تعبيراً منحرفاً بعبودية أشياء وحيوانات اعتقد الانسان بانها تملك تأثيراً على حياته أو موته^(١١١) فاستسلم لها خائفاً طالباً منها أن تمنحه إحساساً بالراحة التي يملكها العابدون ولكننا ونحن نقرأ التاريخ القديم تبرز أمامنا مشكلة معقدة تترك الباحثين الذين يحاولون أن يخضعوا التاريخ للفهم الديني فوجد أن الرؤية الدينية للحدث التاريخي تبدو منسحبة من ميدان التاريخ القديم لان الذين كتبوا التاريخ وحلّلوا آثاره كانت تحكمهم افرازات الحضارة الغربية وانجازات العقل الغربي فكانت هذه التحليلات تُطرح لملاءمة القناعات العلمية المادية وقليل من الدراسات نيهت على حقائق مهمة مثل متابعة عقيدة التوحيد وآثارها في العصور القديمة أو ارتباط أحداث التاريخ وشخصياته بالاديان المعروفة . بل عكس ذلك وجدنا طمساً لمعالم الانبياء وإنكاراً لوجود شخصياتهم ما عدا محاولات قليلة كان هدفها خدمة التوراة والمهد القديم الذي تعرض الى ذكر الانبياء واحداث التاريخ القديم (ما قبل الميلاد) فكانت بعض المؤسسات المرتبطة بهذه الاهداف تخصص

(١١١) الطوطم ، نيابة بدائية عبد الانسان فيها الحيوانات « هنود أوجيوا (OJIBWA)

أطلقوا اسم طوطم على حيوانهم الخاص الذي يمدونه وعلى العصفرة التي تعبده وعلى كل عضو من تلك العصفرة ثم جاء علماء الاجناس البشرية فحللوا هذه الكلمة وجملواها اسماً على مذهب (الطوطمية) الذي يدل دلالة غامضة على عبادة لشيء معين وعبادة يكون الشيء المعبود حيواناً او نباتاً وقد وجدنا انواعاً مختلفة من الطوطم في اصقاع مختلفة من الارض ليس بينها رابطة ظاهرة « ديورانت / بول / قصة الحضارة / ص ١٠٦ .

منح مالية لدعم الباحثين الذي يخدمون أهداف التوراة وينتصرون لما منكور فيها^(١١٢).

ان عقيدة التوحيد التي نبّحت عنها في الآثار سوف لن نجدتها . لان التوحيد يعزّز عن وحدانية الخالق وهذه العقيدة ترفض جعل اي شيء مادي واسطة للارتباط بالله ولذلك كانت فترات ظهورها على الارض كمقيدة يدين بها البشر كانت فاقدة لكل اثر مادي يمكن أن يدلل عليها خصوصاً قبل الكتابة وعصور ما قبل التاريخ . أما بعد اختراع الكتابة فإن المونوات الباقية على الرقم الطينية كانت تمثل السلطة السياسية والملوك والطبقة المترفة التي كانت تتف مع السلطة لمحاربة الانبياء كما عرفنا من خلال الايات التي تعرضت لمجتمع النبي نوح (عليه السلام) . إلا ان العقيدة الوثنية وعبادة الاصنام التي ظهرت في عصر نوح وتحدث عنها القرآن الكريم نجدتها تظهر ايضاً في عصر ابراهيم وقد أشار القرآن الكريم الى الحوار الذي دار بين ابراهيم وقومه وتسفيه عبادة الالهة المتمدة التي تمكها الاصنام . وهكذا نجد مظاهر الانحراف العقائدي التي ابرزها القرآن الكريم كانت هي الواقع الذي تشهد به الرقم الطينية في تمجيد الالهة المعيدة التي كانت منتشرة في العالم القديم الذي يمثله الشرق الانسي والذي كان مركزه بلاد وادي الرافدين . ولكننا لو حللنا بعض النصوص القديمة الموجوبة في الرقم الطينية يمكننا أن نستشف وجود محاولات وتطلعات نحو التوحيد « ففي قصيدة الخلق ان إله بابل يظهر إلهاً بين الإله الأخرى لا شك انه يفوقها جميعاً ولكنه ليس بعد الاله الوحيد للكون . الا ان في الخاتمة سطرين بهذا الشأن يردان بنبرة فريدة فأذ يتكلم الالهة عن مردوخ يهتفون : « إذا انقسم البشر بشان الالهة ، أما نحن فبجميع الاسماء التي اطلقناها عليه ليكون هو إلها » ، (اللوح ٤ ، السطر ١١٩ - ١٢٠) وكانى بالشاعر هنا وهو يستشف وحدانية الله . يتخيل ان هذه الصيغة العليا من الشعور الديني تظل فوق متناول فكرة البشر المتقلبة ولا يمكن إدراكها الا بالمثل الإلهي ولكنها مع تلك مذكورة هنا . ان الديانة البابلية لم تتقدم هكذا نون أن تظهر ميولاً وتطلعات نحو وحدانية الله «^(١١٣) . إن تحليل هذه العبارات يرجع شعوراً كاملاً في نفس الشاعر كما نكر تلك لابات

(١١٢) انظر بالقر / د . طه / ملحمة كلكامش / ص ٣٩ وما بعدها .

(١١٣) لابات / رينيه / المعتقدات في بلاد وادي الرافدين مختارات من النصوص البابلية (ترجمة الاب البير أبونا ود . وليد الجادر / ص ٧٤ / جامعة بغداد ١٩٨٨)

كان هذا الشعور الذي أضاء لنا إشارة واضحة بأن الفكر البشري كان يحاول الارتقاء لاستيعاب التوحيد العقيدة التي شوحتها أفكار البشر وأوهامهم وثبتت احرف البشر مصالح الملوك والمترفين والكهنة ورجال الدين الذين لم يكونوا بأي حال يرغبون ان يتجردوا عن الامتيازات المادية التي حصلوا عليها نتيجة إطباق ظلام الجهل على عقول المستضعفين الذين رفعوا مكانة الكهنة وحكمهم في حياتهم كما قال تعالى ﴿ اتخللوا أحبارهم ورهبتهم لرهباً من دون الله ﴾ . ولو توفرت دراسات جادة وأمانة لتحليل نصوص الكتابات المسمارية للتعرف على حقيقة العقائد الدينية وآثار الايمان على المجتمعات القديمة لاستطعنا ان نخرج بنتائج يكون لها أثر حاسم في تاريخ الاديان ، وبذلك نستطيع ان نوظف دراسات التاريخ القديم لخدمة الحقيقة وتاصيل التوازن والعلمية الهادئة ونبتعد عن التعصب والهوى والاحكام المسبقة المنفلقة .

بالاضافة الى ذلك يمكننا دراسة نصوص التوراة لخدمة الحقيقة وذلك لان التوراة تعد أقدم نص تحثت عن التاريخ القديم وذكر شخصياته ومدته وأهم الاحداث والوقائع . ولكن بشرط استبعاد الاساطير والروايات التي تهدف الى تكريس سيطرة اليهود على العالم والروايات التي أثبت العلم خطأها ويكون ذلك باعتبار جوهر القضية المذكورة في التوراة اذا تطابقت مع القرآن الكريم فيمكن ان نعتبر نكر جوهر الحدث يدعم ويخدم النص القرآني خصوصاً عند دراسة النص القرآني سوف نزيد استقراراً بان ما يتضمنه القرآن الكريم خالي من الاخطاء الواضحة التي تبنتها التوراة . وقد حث القرآن الكريم الى اخراج التوراة الحقيقية لان القضية واحدة وان المسلمين يعتقدون بان الكتب السماوية مصدرها واحد وهو الله جل جلالته ولكن هذه الكتب لم تسلم من التحريف والاضافة . ما عدا القرآن الكريم الذي تكفل الله بحفظه ولذلك لا يمكن ان تجد التناقضات الموجودة في الكتب الاخرى هذه التناقضات لا يمكن ان تجدها في القرآن الكريم^(١١١) قال تعالى ﴿ قل فاتوا بالتوراة فاتلوهوا إن كنتم صادقين ﴾ .

(١١٤) انظر / محمد / محمد قاسم / التناقض في تواريخ واحداث التوراة من أمم حتى سبي بابل / ستار برس القاهرة - ١٩٩٢ . وكذلك بوكاي / موريس / دراسة في الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة .

بقيت قضية نوح أن نحسمها ونحن ننهي هذه الفقرة ، وهي القضية التي أثارته
الاسئلة السابقة حول عالمية رسالة نوح (عليه السلام) . وهل هناك بشر كانوا
يعاصرونه لم تصل دعوته اليهم ؟ وقد أكدنا إن الجواب عن هذه الاسئلة ليس مهماً
بقدر الحقائق التي عرضتها آيات القرآن الكريم وهي تتصدى لمعالجة رسالة نوح
(عليه السلام) وعصره والانحرافات التي كانت تسود البشرية في عصره . ولكننا
لا نشك بين رسالة نوح (عليه السلام) كانت عالمية بحدود المفهوم للعالم في
عصره^(١١٥) . لأن العالم في عصره لم يكن بالسمة الحالية وكما قلنا فإن أرض الرافدين
كانت تشكل وحدة جغرافية مع أرض الشام وشبه الجزيرة العربية وهي تشكل بذلك
معظم العالم الذي كان يعاصر النبي نوح (عليه السلام) . وقد أثبتنا أن الثقافة
التي كانت سائدة في العالم المذكور كانت الثقافة الوثنية التي كانت في قوم نوح .
وأكدت ذلك المكتشفات الأثرية في أوغاريت ونكر أسماء الاصنام التي نكرها القرآن
الكريم في عصر نوح (عليه السلام) في الرقم الحجرية الموجودة في أوغاريت
وكنك الشعر الجاهلي في شبه الجزيرة نقل لنا أسماء أصنام قوم نوح وشيوخها في
شبه الجزيرة . كما أن أسماء هذه الاصنام موجودة في الكتابات المسمارية في بابل
وأرض الرافدين « شيدوا معبداً لأند في المدينة »^(١١٦) . ويبدو ان الاتصال كان
موجوداً في حدود هذه المساحة وكانت التأثيرات تنتقل الى جميع المدن والقرى
المنتشرة في هذه البلاد الواسعة . ومن المعلوم لدى المسلمين ان الله لا يعذب أحداً
حتى يبعث اليهم رسولا يقيم عليه الحجة ويزيل الشبهة وقد وردت أحاديث بهذا
المعنى وقال ابن كثير : « أما النار فإنها دار عدل لا يدخلها احد الا بعد الاعذار اليه
وقيام الحجة عليه وفي حديث رواية الامام احمد . ان رسول الله (ﷺ) قال : أربعة
يحتجون يوم القيامة : رجل أصم لا يسمع شيئاً . ورجل أحمق ورجل هرم ورجل مات
في فترة ، فاما الأصم فيقول رب قد جاء الاسلام وما اسمع شيئاً . واما الاحق فيقول

(١١٥) لقد حدد القرآن الكريم رسالة نوح بقومه ولقطة اعداد البشر والوحدة الجغرافية للمنطقة
ساعد على انتقال تأثير ثقافة قوم نوح سواء الجاهلية ام الرسالة التي بلغها نوح الى
قومه . وقد جاءت آحاديت تؤكد ان كل الانبياء أرسلوا الى اقوامهم ما عدا النبي محمد
(ﷺ) فقد بعث الى الناس كافة . كما أكدت تلك الاحاديث النبوية الصحيحة .
(١١٦) انظر ليايات / رينيه / المعتقدات الدينية في بلاد وادي الرافدين / ص ٢٦
(اتراخاسيس) .

رب قد جاء الاسلام والصبيان يحذفوني بالبحر وأما الهرم فيقول رب لقد جاء الاسلام وما اعقل شيئاً ، وأما الذي مات في الفترة فيقول رب ما اتاني لك رسول ، فيأخذ موافقتهم لطبيعته فيرسل اليهم ان ادخلوا النار ، فوا الذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكنت عليهم برداً وسلاماً^(١١٧) . وقد أورد عشرة أحاديث بهذا المعنى وقال عنها بعضها صحيح والآخر ضعيف بعضه بعضاً ويتقوى بالصحيح فهي تفيد الحجة . وأجاب عن اعتراض امتحان الرب لهؤلاء في عرسات يوم القيامة عندما يأمرهم بالدخول في النار وقالوا بان الدار الآخرة ليست دار تكليف وإنما دار جزاء وقال ان هذا لا ينافي التكليف في عرساتها قبل دخول الجنة او النار كما ثبت ذلك في عقيدة أهل السنة والجماعة . حاصل ما تقدم بان الناس الذين لا تصل اليهم دعوة الانبياء يختبرهم الله تعالى يوم القيامة فيأمرهم بدخول النار فان اطاعوه كانت النار برداً وسلاماً عليهم ويدخلهم الجنة وإن خافوا ولم يدخلوها يقول لهم الرب : لقد عصيتموني فانتقم لرسلي أكثر عصياناً فيؤمر بهم الى جهنم . وهذا الامر يوضح لنا أحوال كثير من الناس الذين لم يدركوا الانبياء او لم يسمموا بدعوتهم فان الله سبحانه وتعالى لن يظلم ولا يعذب احداً الا بعمله وحكمته . لذلك إذا عدنا الى مقالتنا فان من عاش من البشر في عصر نوح او عصر آدم او عصر اي نبي ينطبق عليهم هذا الكلام . كما وان الله سبحانه وتعالى أقام الحجة على الناس بالانبياء والفطرة كما في قوله تعالى ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾^(١١٨) . فالحجة انما قامت عليهم بالرسول والفطرة التي فطروا عليها ، كما قال تعالى ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾^(١١٩) ، فان هذا الاشهاد هو إشهاد الفطرة فكل إنسان لابد أن يكون في داخله ايمان بوجود الله فالإيمان أصيل ه ولا شك أن الاقرار بالربوبية أمر فطري والشرك حادث طارئ والأبناء تقلدوه عن الآباء ، فإننا احتجوا يوم القيامة بان الآباء

(١١٧) (انظر ابن كثير / ابو الغداء / تفسير القرآن العظيم / ج ٣ ص ٢٩ .

(١١٨) (سورة الاعراف / ١٧٢ .

(١١٩) (سورة النساء / ١٦٥ .

(١٢٠) (ابن ابي العز / علي بن علي بن محمد ت ٧٩٢ هـ / شرح المقيدة الطحاوية ، تحقيق شعيب الارناؤوط عبدالله بن عبدالمحسن التركي / ج ١ ص ٣١٢ / مؤسسة الرسالة .

أشركوا ونحن جرينا على عادتهم كما يجري الناس على عادة آبائهم في المطاعم والملايس والمساكن يقال لهم انكم كنتم معترفين بالصانع مقزين بان الله ريك لا شريك له وقد شهدتم بذلك على انفسكم» (١١١). وبذلك توضح لدينا ان البشر الذين لا تصل اليهم دعوة الانبياء أمرهم موكل الى الله ولا ندري ما الله فاعل بهم ولا يهنا ان نعرف مصيرهم ولكن نحن نعلم كذلك ان الله حكيم عادل رحمن رحيم لا يظلم ويفر ويرحم بعلمه وحكمته فان شاء عذبهم فبعمله وإن شاء رحمهم فلحكمة يعلمها كما قال تعالى حكاية عن عيسى (عليه السلام) ﴿ إن تعلمهم لآياتهم عبادة وإن تغفر لهم فإنه أنت العزيز الحكيم ﴾ (١١٢) فقال عزيز حكيم ولم غفور رحيم لانه قد يرحم أناساً ظاهريهم يستحقون العذاب ولكن شاعت حكمة الله ولأمر غاب عن عقول البشر أن يفر لهم ويرحمهم . وليس أمراً مستبعداً على الله أن يعامل أهل الفترة ومن لم تصله دعوة الانبياء معاملة الحيوانات بعد أن يقضي بينهم فيما كانوا يتظالمون به في الحياة الدنيا ويقتصر للمظلوم من الظالم ثم يحولهم الى تراب كما ذكر تعالى ﴿ ويقول الكافر يا لئسي كنت تراباً ﴾ (١١٣) « أي يود الكافر نلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجوز حتى انه ليقصر للشاة الجماء من القرناء فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها كوني تراباً فتصير تراباً فعند نلك يقول الكافر ﴿ يا لئسي كنت تراباً ﴾ أي كنت حيواناً فأرجع الى التراب» (١١٤) إذ قد تكون رحمة الله بهم أن يحولهم الى تراب وتلك أمنية الكافرين ، أما الاحتمال الاخر وهو الذي وضحته أحاديث كثيرة كما نكرنا وإن الاحاديث نكرت ان هؤلاء يحتجون ويختبرهم رب العزة ليظهر طاعتهم وحقيقة ممدنهم فيلكتفك أمرهم ويعرف قدرهم ومدولتهم التي يعلمها الله في علم الغيب ولكن شاعت ارادته أن يعقم حجته على خلقه فيحكم الانسان على نفسه . فإذا عرفنا نلك ابركنا ان الامر يعود الى حالة القرآن الكريم عندما سال فرعون موسى عن القرون الاولى فقال له موسى ﴿ علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ (١١٥) وهذا هو موقف المؤمن بقدرته الله

(١٢١) ابن ابي العز / العز / علي بن علي بن محمد / شرح المطيعة للطحاوية / ج ١ ص ٣١٤ - ٣١٥ .

(١٢٢) سورة المائدة // ١١٨ -

(١٢٣) سورة البقرة // ٤٠ -

(١٢٤) الفات كند / تفسير التوراة العظيم / ج ٤ ص ٤٦٦ -

(١٢٥) سورة طه / ٥٢ .

وعظمته فلا يسأل وإنما يكل الأمر إلى بارئها فإن الله تعالى ﴿ له الأمر والعزم ﴾ ولا تبديل للكلمات الله . والأمر لم يقتصر على عصر نوح أو عصر موسى وعيسى وإنما يشمل دعوة خاتم الأنبياء محمد (صلى الله عليه وسلم) حيث يوجد على الأرض بشر لم يسمعوا ولم تصلهم دعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) . وهذه المسألة موجبة على مدار الرسالات والنبوات والله سبحانه وتعالى هو الذي خلق وهو الذي لا يفيب عن علمه بسبب الظلمة السوداء على صخرة صماء في ليلة ظلماء فهو أحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين .

أما لئيلنا على وجود بشر في عصر نوح (عليه السلام) لم تصلهم دعوته أو كانوا خارج محيط دعوته على الأرض فقد استشهدنا بأية نكر الله تعالى فيها نوعين من الاسم [أم من مع نوح) و (أم أخرى) وذلك في قوله تعالى ﴿ قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركاتك عليك وعلى أم من معك • وأم من سخطهم لم يمسه منا غلب أهب ﴾ (١١٦) . إن المفسرين فسروا هذه الآية بأن السلام عليه وعلى من معه « ويدخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة وكذلك في العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة » (١١٧) ونكر بعض المفسرين المعاصرين « انه دار الكلام بين المفسرين ولا سيما المتأخرين منهم حول عموم الطوفان للكرة الأرضية أو اختصاصه بالاقليم الذي كان فيه سيدنا نوح (عليه السلام) (١١٨) وهذا الكلام نكره في معرض تفسيره للآية المنكورة . وهذا النص القرآني اشكل على المفسرين لانه نكر أمماً غير الأم التي مع نوح في السفينة مما يشعر بوجود هذه الأم ووقت الطوفان وقد يفسر النص على أساس ان المنكوبين أم لاحقة ولكن القول بوجود أم وقت الطوفان لا يتعارض مع النص . ولو عضدنا هذا الفهم بأيات أخرى تتوضح لنا المسألة بصورة أفضل فقد نكر الله تعالى قوم نوح (عليه السلام) في معرض نكره لأقوام آخرين وهذا يعني إن قوم نوح (عليه السلام) كانوا هم المعنيين بالرسالة ولا يمنع ان ينتقل تأثيرها إلى بقية المناطق وشمول معظم البشر بدعوته ولكن سبب ضعف المواصلات وبدائية الحياة ويساطتها كل هذا لا يمنع وجود أقوام تعذر وصول دعوتهم أو أن الله تعالى قد بعث أنبياء محدودي التأثير إلى قراهم أو أقوامهم

(١٢٦) سورة هود / ٤٨ .

(١٢٧) ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / ج ٢ ص ٤٤٨ .

(١٢٨) المدرس / عبدالكريم / مواهب الرحمن / ج ٤ ص ٢٠٤ .

ونحن لا نعلمهم وهذا أمر غيبي لا سبيل الى الوصول اليه . وهذا الايات التي نكرت دعوة نوح (عليه السلام) هي ﴿ كَلِمَاتٍ لِّقَوْمٍ يُّوحِيهِمُ الرَّسُولُ اِذْ قَالَتْ لَهُمْ اٰهُوٰهُمْ نُوْحٌ اَلَّا يَتَّقُوْا رَبَّ ۗ لَكُمْ رَسُوْلٌ مِّنْ اَمِيْنٍ ۗ ﴿١٢٩﴾ ﴿ اَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَا الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمٌ وَعَادٌ وَثَمُوْدٌ وَقَوْمٌ اِبْرٰهِيْمَ وَاَصْحَابَ مَدِيْنٍ وَالْمُؤْتَفِكَةَ ۗ ﴿١٣٠﴾ ﴿ اَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَا الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمٌ نُّوحٌ وَعَادٌ وَثَمُوْدٌ وَالَّذِيْنَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ اِلَّا اللّٰهُ ۗ ﴿١٣١﴾ . وقوله تعالى ﴿ كَلِمَاتٍ لِّقَوْمٍ يُّوحِيهِمُ الرَّسُولُ اِذْ قَالَتْ لَهُمْ اٰهُوٰهُمْ نُوْحٌ اَلَّا يَتَّقُوْا رَبَّ ۗ لَكُمْ رَسُوْلٌ مِّنْ اَمِيْنٍ ۗ ﴿١٢٩﴾ .

ولكن دعوة نوح (عليه السلام) كانت بداية الرسالات واتخذت معلماً من معالم الحياة الانسانية على الارض كما اعتبرت نبوة آدم (عليه السلام) المعلم الاول للبداية الفاضلة المكرمة كانت رسالة نوح (عليه السلام) المعلم الثاني ولذلك أعطى القرآن الكريم أهمية خاصة لرسالة سيدنا نوح (عليه السلام) فكان عندما يتحدث عن تاريخ الرسالات يبدأ به (عليه السلام) ﴿ كَلِمَاتٍ لِّقَوْمٍ يُّوحِيهِمُ الرَّسُولُ اِذْ قَالَتْ لَهُمْ اٰهُوٰهُمْ نُوْحٌ اَلَّا يَتَّقُوْا رَبَّ ۗ لَكُمْ رَسُوْلٌ مِّنْ اَمِيْنٍ ۗ ﴿١٢٩﴾ . ونحن نعلم ان قبل نوح هناك أمم وأجيال بعد آدم (عليه السلام) كما نكر الحديث الصحيح الذي استشهدنا به في البداية بان هناك عشرة قرون كلها على الاسلام . وهذه الرواية في صحيح البخاري . كيف يكونون على الاسلام بدون أنبياء ؟ لقد كان هناك أنبياء لكن القرآن الكريم لم يذكرهم لان القرآن الكريم أرخ لبداية الرسالات من رسالة نوح (عليه السلام) لأهميتها ولذلك قد يهمل القرآن الكريم صفحات من تاريخ البشر او يسكت عنها لعدم أهميتها أو لا حاجة لذكرها ومن هذا المفهوم نستطيع أن نستوعب نصوص القرآن الكريم التي عدت آدم أبا البشر بوصفه (عليه السلام) الانسان المصطفى الذي تتشرف البشرية التي يبدأ تاريخها من عنده أن تنتسب اليه . فعندما ينطق القرآن بـ (نرية آدم) فقد يعني تغليب الاكرام على الكل او تشريف الكل بإرجاع نسبها الى الاصل المكرم وكذلك قوله تعالى : ﴿ نَرِيهٖ مِنْ حَمَلٰتِهَا مَعَ نُوْحٍ اِذْ كَانَ عَبَدًا

(١٢٩) سورة الضمراء / ١٠٥

(١٣٠) سورة التوبة / ٧٠ .

(١٣١) سورة ابراهيم / ٩ .

(١٣٢) سورة ص / ١٢ - ١٣

(١٣٣) سورة غافر / ٥ .

شكورا ﴿١٣٤﴾ . نكر ان البقية من البشر انما من نرية من كان مع نوح (عليه السلام) . وقد استعمل القرآن الكريم هذه الطريقة وهي جعل الانبياء آباء البشر كما في قوله تعالى حكاية عن لوط (عليه السلام) : ﴿ هؤلاء بناتي هن اظهر لكم ﴾ (١٣٥) وهو يدعوهم الى الزواج من بنات القرية . وقوله تعالى : ﴿ ولقد ارسلنا نوحا وابراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب لمنهم مهتد وكثير منهم فاسقين ﴾ (١٣٦) . وقال تعالى : ﴿ لولك الذين ائتم عليهم من النبيين من ذرية ادم ومن حملنا مع نوح ومن ذرية ابراهيم واسرائيل ومن هملينا واجتبتينا ﴾ (١٣٧) .

اذا كان الانبياء قبل نوح من نرية أم فمجيء نكر من حمل مع نوح يؤكد ان الامر جاء على العموم ولتقليل كرامة الانبياء إذ ان الواقع يؤكد أن النبي من نرية رجل وامرأة ويقلب نكر الرجل كما في قوله تعالى : ﴿ من ذرية ابراهيم واسرائيل ﴾ ولذلك عندما نكر الناص من حمل مع نوح لم يذكر النرية وكان يقصدنا لان السياق يدعو الى ذلك فنل على أن النرية تعني الارتباط اي ان الانبياء مرتبطون بمعض ببعض برابطة نسب نقية اصطفاها الله تعالى ولا يشترط أن تكون بمعناها الخاص المباشر وهي أن يكون كل نبي ابن نبي ولكن قد يكون الارتباط غير مباشر عبر اجيال سابقة كما الامر مع كثير من الانبياء مثل ابراهيم (عليه السلام) فقد كان أبوه كافراً وكذلك لم تعرف شيئاً عن احوال آباء كثير من الانبياء مثل نوح وموسى وداود وادريس ويونس وغيرهم عليهم صلوات ربي وسلامه . وكذلك فان عيسى ابن مريم لم يكن له أب . فيتضح لنا من ذلك بأن القرآن عندما يذكر النرية انما يعني بذلك الارتباط غير المباشر (وهو ارتباط الكرامة) وهذا الخطاب مستعمل في القرآن الكريم كثير عندما يذكر (بني آدم) وكذلك عندما نكر دعوة لوط (عليه السلام) قومه للزواج من بنات قومه « قال مجاهد لم يكن بناته ولكن كن من بنات أمته وكل نبي أبو أمته وكذا روي عن قتادة وغير واحد وقال ابن جريج أمرهم أن يتزوجوا النساء ولم يعرض عليهم سفاحاً وقال سعيد بن جبيرة يعني نساؤهم هن بناته هو نبيهم ويقال في بعض القراءات (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم) وكذا

(١٣٤) سورة الاسراء / ٣

(١٣٥) سورة هود / ٧٨

(١٣٦) سورة الحديد / ٢٦ .

(١٣٧) سورة مريم / ٥٨ .

روي عن الربيع ابن انس وقتادة والسدي ومحمد بن اسحق وغيرهم^(١٢٨) وبذلك نستطيع أن نتحدث عن احتمال وجود أقوام خارج محيط التأثير لرسالة نوح كما إننا من نص القرآن الذي يتحدث عن الناجين مع نوح ﴿ ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾ وجعلنا ذريته هم البالين ﴿^(١٢٩) نفهم من النص أن أهله المذكورين هم الذين آمنوا به مع أهله فاستوعبت أهله من آمن معه من قومه لأن كل مؤمن يرتبط بنبيه رباط الاهلية وكل كافر ولو كان من ذرية نبي فهو ليس من أهله كما نكر القرآن الكريم ذلك وكذلك قوله تعالى ﴿ وجعلنا ذريته هم البالين ﴾ يؤكد ما ذهبنا اليه بأن الذرية المقصودة ليست الذرية المباشرة من نوح (عليه السلام) ولكن ذريته المؤمنة مع ذرية المؤمنين من قومه . وقد نكر القرآن الكريم لفظة تعبر عن خاص الخاص وهي (ذرية نوح) وأراد به ذرية قومه فهي من باب إطلاق الخاص ويراد به العام أو نكر الخاص واشتماله للعام . وكذلك قد غلب القرآن الكريم هذا الخاص الذي يشمل نوح وقومه على العام الذي يشمل من موجود من البشر ولم يكن لهم اعتبار يستحق الذكر لأن مقصود الحق جلت قدرته إعطاء الاهمية للرسالة والكرامة للرسول ولمن آمن به وتبعه وأهل الآخريين لانهم لم يكونوا بالاهمية من الرسول واتباعه .

لقد ارسل الله نوحاً الى قومه وكل الآيات أكدت ارتباط دعوة نوح (عليه السلام) الى قومه وفي قوله تعالى ﴿ إنا أرسلنا نوحاً الى قومه أن ائتزل قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ﴾^(١٣٠) ولم يذكر القرآن الكريم أن الله تعالى أرسل نوحاً الى العالمين بينما نكر القرآن الكريم عالمية رسالة محمد (ﷺ) بقول تعالى ﴿ وما أرسلناك الا رحمة للعالمين ﴾ .

فإن القرآن الكريم تحدث عنه وعن قومه وفي كل الآيات التي تحدثت عن نوح (عليه السلام) فانها تذكر قوم نوح ﴿ إنا أرسلنا نوحاً الى قومه أن ائتزل قومك من قبل ان يأتيهم عذاب أليم ﴾ ﴿ كلبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ﴾ ﴿ أم يأتيكم نيا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ﴾ ومع هذه الحقيقة تصر الروايات على جمل نوح (عليه السلام) قد بعت ولم يكن على الأرض الا قومه . وهذا يخالف المنطق والعقل ولم يرد نص يقول بأن الأرض كانت خالية من البشر الا قوم نوح . وهذه

(١٢٨) ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / ج ٢ ص ٤٥٣ .

(١٢٩) سورة الصافات / ٧٦ - ٧٧ .

(١٤٠) سورة نوح / ١

القنعة المتأثرة بالرواية التوراتية انتقلت الى الطوفان فجعلته عاماً لكل الارض ولكل البشر وان السفينة وحجمها قد صورت بطريقة مرتبطة بتصور عموم الطوفان وان هذه السفينة هي من عدة طوابق وفيها جميع أنواع الحيوانات الى غير ذلك من الاسرائيليات وقد أثبتت الدراسات العلمية الحديثة ان الطوفان لا يمكن ان يعم الكرة الارضية لان الماء الذي ارتفع الى اعلى مستوى وغطى الجبال هذه الكمية من الماء لا يمكن تصريفها إذا كان الماء قد غطى جميع سطح اليابسة على الكرة الارضية^(١١) . وقد أكد القرآن الكريم ان هذا الماء من الارض ولم يات من خارجها ﴿ ولليل يا أرض ابلي ماءك ويا سماء اظهي فاذا كان هذا الماء هو ماء الارض وما نزل من السماء هو من الارض أيضاً لانه جاء من المطر والمطر نتيجة لتبخر مياه البحار والمحيطات . واذا كان ماء الارض هذا قد غطى جميع الارض فالتقت بذلك مياه المحيطات والبحار بمياه الطوفان فكيف نتصور ان الكرة الارضية قد تحولت للى كرة مائية ؟ وكيف تسنى للارض ان تبتلع الماء مرة اخرى وتظهر اليابسة ؟ كل هذا يؤكد ان فكرة عموم الطوفان فكرة تتعارض مع العقل والمنطق وان القرآن الكريم عندما اطلق كلمة الارض بقوله تعالى ﴿ ولجبرنا الارض هيونا ﴾ انما اراد ارض القوم الذين كذبوا واعرضوا وهي ارض قوم نوح (عليه السلام) وقد ذكر ابن الجوزي استخدام القرآن الكريم لكلمة الارض يمكن ان تعيننا على فهم الارض المذكورة في الآية اعلاه . فقد قال :

« الأرض تنكر ويрад بها ارض الاربن : ﴿ ولا تمشوا في الارض مفلسين ﴾
ويراد بها القبر : ﴿ لو تسوى بهم الارض ﴾ .

ويراد بها أرض مكة : ﴿ كنا مستضعفين في الارض ﴾ .
ويراد بها أرض المدينة : ﴿ ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ .
ويراد بها أرض الاسلام : ﴿ ويسعون في الارض فساداً ﴾ .
ويراد بها ارض التيه : ﴿ يتيهون في الارض ﴾ .
ويراد بها الارضون السبع : ﴿ وما من دابة في الارض ﴾ .

(١٤١) اطلمت على دراسة باللغة الانكليزية تثبت رياضياً وبحساب حجم الماء طبقاً للرواية التوراتية التي اكدت عموم الطوفان للكرة الارضية فقد اثبتت هذه الدراسة استحالة ان يكون الطوفان قد عم جميع الارض وبالمستوى الذي تنكره الكتب الدينية .

- ويراد بها أرض مصر: ﴿ اجعلني على خزائن الأرض ﴾ .
- ويراد بها القلب: ﴿ واما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾ .
- ويراد بها أرض الغرب: ﴿ مسلمين في الأرض ﴾ .
- ويراد بها الجنة: ﴿ الحمد لله الذي أورتنا الأرض نباتاً من الجنة حيث نشاء ﴾ ثم أجر العاملين ﴿ .
- ويراد بها أرض الروم: ﴿ غلبت الروم في أدنى الأرض ﴾ .
- ويراد بها أرض فارس: ﴿ وأرضاً لم تطووها ﴾ .
- ويراد بها أرض القيامة: ﴿ يوم تبديل الأرض غير الأرض ﴾ .
- ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾^(١١٢) .
- وهذا يرجح لدينا أن الطوفان لم يكن عاماً بل كان موضعياً .

(١٤٢) ابن الجوزي / ابو الفرج جمال الدين بن علي بن محمد ٥٩٧ هـ / المدمش ص ٢٤

الطوفان

دراسة مقارنة بين الرواية القرآنية والتوراتية والرقم الطينية

أولاً : الطوفان في الرواية القرآنية :-

(العقوبات الربانية في مفهوم القرآن)

لقد خلق الله تعالى الانسان ومنحه عقلاً وأعطاه قابلية التعلم ولكن الانسان وهو يملك هذه الميزات التي جعلته فوق الخلائق الحيوانية التي تعيش معه على الارض لم يترك هملاً ﴿ ايحصب الانسان ان يترك سدى ﴾^(١٤٣) . فكان إرسال الرسل السنة التي وضعها الرب جلّت قدرته لإقامة الحجّة على البشر بأن الخلق قد أوجده خالقه لغاية . وهذه الغاية هي تحقيق العبودية لله . فكان الرسل يحققون الاتصال بالسماء من خلال الوحي ويملمون البشرية جوانب من عالم الغيب أخفي عليهم لمحدودية العقل والفكر البشري . ومنذ أمّ وحتى نوح (عليه السلام) كان الدين يمثل النّفْس الذي تحيا به البشرية الحياة الحقيقية ولذلك فإن الاسلام وما مثله من عقيدة التي يتركز فيها التوحيد وهو أفراد الخالق بالعبودية والتخلص من سطوة

العقائد الجاهلية التي تتشكل عقائدها التي يبتدعها عقل البشر وتتغير هذه العقائد بحسب الواقع والبيئة ولكنها كانت دائماً تتجه باتجاه المادية المَجسَّدة بالاصنام أو الحيوانات أو الأفلاك وروحها الخرافة والاسطورة ومحركها الهوى والشهوة . ولهذا فإن الاسلام دين الفطرة ودين الانبياء جميعاً من لدن أمم ونوح الى محمد (ﷺ) كلهم جاءوا بكلمة التوحيد : لا إله الا الله وكلهم دعوا الى اخلاص العبادة لله ونبذ الشرك ونبذ الالهة المدعاة في أي صورة من الصور بشراً كانوا أم أصناماً أم كائنات أخرى مما خلق الله في الكون . وأن الاصل في البشرية الايمان والكفر الطارئ كما أخبر رسول الله (ﷺ) . لا كما يقول علم الاجتماع الجاهلي ولا علم تاريخ الاديان الجاهلي ولا علم مقارنة الاديان الجاهلي وأن هذه العقيدة لم تتطور كما تزعم تلك العلوم الجاهلية إنما تتطور هو الشرك لانه صناعة بشرية ومن ثم يتأثر بأحوال البشر ومدى ما لديهم من علم ومدى احتكاكهم بالكون المادي والبيئة من حولهم ولكن هذا كله من الخط المنحرف عن الدين وليس خط الدين ! إنما خط الدين هو خط الاسلام هو الذي كان عليه أمم (عليه السلام) وعشرة أجيال من بعده (كما ورد في الحديث الصحيح) وكان عليه نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليه وسلامه عليهم جميعاً^(١١٤) ولذلك كان الانبياء يبذلون جهوداً عظيمة للمحافظة على هذا الخط الاصيل في الحياة البشرية وكان كل نبي يذكر قومه بأحوال القوم الذين كذبوا قبلهم كما نكر هود قومه عندما عرضوا نكرهم بقوم نوح ونكر صالح قومه بقوم هود . وكانت البشرية تخطلو خطوات باتجاه تطوير المنجزات العقلية وهي ترتب مخلفات القوم الآخرين فكان العقل البشري يزداد رصيده في التطور المادي ولا يمنعه وضعه المتطور من التصدي للانبياء والانكار عليهم وتحدي السماء بل العكس كان يحصل حيث يزداد الانسان طغياناً وكفراً كلما أحس بان البيئة التي أحيطت به أصبحت أكثر انزعاجاً واستجابة لما حدث من تطوير في وسائل تسخير الوجود . فهذا هود (عليه السلام) يذكر قومه بما حصل لقوم نوح ويذكرهم بنعم الله عليهم من مظاهر القوة وزيادة البسطة وكثرة البنيان واتخاذ المصانع والبحث عن الخلود وهو الوهم الذي زعه الشيطان في حياة البشر منذ أمم (عليه السلام) ﴿ هل أدلك على شجرة الغلد وملك لا يبلى ﴾ .

وقال هود لقومه : ﴿ واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله عليكم تملحون ﴾^(١٤٥) ويقول لهم في موضع آخر ﴿ آتيتون بكل ربح ليه تعبتون وتستخنون مصانع لعلكم تخلون واذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله واطيعوه ﴾^(١٤٦) وهكذا كانت الانسانية تتراكم عندها الخيرة في السيطرة على البيئة والابداع في وسائل الاسترخاء والعيش . « ولذلك إن أي جاهلية من جاهليات التاريخ لم تخل من (براعات) بشرية في مختلف نواحي الحياة ولم تخل من تحقيق بعض الخير للناس ولكن هذا الخير الجزئي لا يوتي بتماره الكاملة في حياة الناس . ويضيع أثره في النهاية . بسبب الشر الجوهري الاكبر وهو رفض الهدى الرباني واتباع منهج الحياة غير منهج الله . وحتى لا يفتن الدارس بمظاهر التقدم العلمي والعمراني الموجود في بعض الجاهليات فيظن من أجل ذلك أنها ليست جاهليات »^(١٤٧) لقد كانت سنة الله في الحضارات او الجاهليات او القرى كما يسميها القرآن ثابتة لم تتغير في كل مرة يحدث انحراف عن الخط الاصيل وهو توحيد الخالق بالعبودية وتكليس الاهواء أفكار الناس فيلبسوا الحق بالباطل فيعمت الله رسولاً ليصحح المسار ويميد البشرية الى منهجها الاصيل وتغيرت أحوال وأمم وظروف ولكن القضية بقيت واحدة كما تغيرت جاهليات في صورها وأنواع الشرك فيها كان الخطاب يأتي بما يلائم البيئة والظروف التي كان يعيشها القوم ﴿ وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم ﴾^(١٤٨) . وأخذت سنن التغيير طابعها المميز الذي لا يتخلف وهو إهلاك المعرضين ونجاة الرسول واتباعه المؤمنين ويحدثنا القرآن الكريم ان معظم القرى لم تكن ممن يستجيب لدعوة الرسول ﴿ وما جعلنا لأكثرهم من عهد وإن وجئنا أكثرهم لفاسقين ﴾^(١٤٩) . فكان النبي ومن معه يرثون مخلفات المرحلة التي سبقتهم وهذه الوراثة ليست مادية وممتلكات وإنما وراثة التمكين في الأرض وبسط النفوذ وبتقادم الزمان ويخلف النبي وجيله أجيال تبعد عن المنهج الاصيل وقد حدثنا القرآن عن هذه السنة بقول تعالى : ﴿ أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أجناسنا

(١٤٥) سورة الاعراف / ٦٩

(١٤٦) سورة الشعراء / ٢٨ - ٣١

(١٤٧) غلب / محمد / كيف نكتب التاريخ الاسلامي / ص ٤٥ .

(١٤٨) سورة ابراهيم / ٤

(١٤٩) سورة الاعراف / ١٠٢

بنفوسهم ونطبع على نفوسهم فهم لا يسمعون ﴿١٠٠﴾ . وتقرأ ما كتبه ابن كثير في تفسيره لهذه الآية « قال ابن عباس (رضي الله عنه) اولم يتسنى لهم ان لو نشاء اصبناهم بنفوسهم . وقال أبو جعفر بن جرير في تفسيرها يقول تعالى او لم يتسنى للذين يستخفون في الارض من بعد اهلاك آخرين قبلهم كانوا اهلها فساروا سيرتهم وعملوا اعمالهم وعتوا على ربهم ﴿ ان لو نشاء اصبناهم بنفوسهم ﴾ يقول ان لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم . قلت وهكذا قال تعالى ﴿ اهلهم يهد لهم كم اهلكنا قبلهم من القرون يمضون في مساكنهم ان في ذلك لآيات لأولي النهى ﴾ وقال تعالى : ﴿ اولم يهد لهم كم اهلكنا من قبلهم من القرون يمضون في مساكنهم ان في ذلك لآيات افلا يسمعون ﴾ وقال : ﴿ او لم تكونوا القسم من قبل ما لكم من زوال وسكنتم في مساكن الذين ظلموا انفسهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ او لم يروا كم اهلكنا قبلهم من قرن مكناهم في الارض ما لم تمكن لكم وارسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الانهار تجري من تحتهم فاهلكناهم بنفوسهم وانشأتنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾ وقال تعالى بعد نكزه إهلاك عاد ﴿ فاصبحوا لا ترى مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ إلى أن قال تعالى ﴿ ولقد اهلكنا من اقرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ﴾ وقال تعالى ﴿ فكأين من قرية اهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة والصر شديد اهلهم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فأنها لا تعصى الاهباص ولكن تعصى القلوب التي في الصدور ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نقمه بأعدائه وحصول نعمه بأوليائه ﴿١٠١﴾ .

- تريد ان تؤكد عدة حقائق من خلال استشهدانا بهذه النصوص القرآنية منها :
- ١ - إن الناجين من الانبياء وأتباعهم يستأنفون الحياة بعد العقاب الذي نزل بقومهم وهؤلاء يرثون مجالات الانشطة الحضارية المادية وينقلونها الى الاجيال اللاحقة .
 - ٢ - إن سنة الله في المعرضين إنزال العقاب والهلاك وفي الموالين للمنهج الاصيل التوحيدى هي النجاة والمعيش في ظل النعيم الوارف . في الحياة الدنيا والرحمة والفرقان والنعيم المقيم في الآخرة .
 - ٣ - إن القرآن الكريم دعوى للاعتبار من خلال التاريخ وآثار الاقوام السابقة وقد

(١٥٠) سورة الاعراف / ١٠٠

(١٥١) ابن كثير / ابو الفداء اسماعيل / تفسير القرآن العظيم / ج ٢ ص ٢٢٤

وضع القرآن الكريم التاريخ في اولويات برنامج التنكير الرياني للانسانية .
لقد كانت العقوبات تمثل المعالجة الاخيرة للاعراض والاصرار على الموقف الخاطيء
للانسان ولم تكن هذه العقوبة خارجة عن اطار السنن ولكنها متناسقة تماماً مع
الموقف الذي يمثله المعرضون فيكون الجزء من جنس العمل وقيل العقوبة يحاول
النبي أن يخفف ومن ثم يعدل انحدار قومه نحو الهاوية ويحاول ان يمسك بوسائل
التأثير ويحفز فيهم كوامن الخير من خلال النصح والتذكير وقد يضطره قومه الى طلب
خرق نواميس الوجود من خلال المعجزات لإحداث صدمة شعورية في نفوس الناس
يحاول النبي من خلال هذه المعجزة ان يزيل طبقات الران المتكبد على قلوب ومشاعر
قومه الذين انغمسوا في مايتهم وابتعدوا في انحرافاتهم وانقلبت مقاييسهم للخير
والحق .

ولقد بينت لنا الايات القرآنية في أكثر من موضع « ان الدمار التاريخي بإبعاده
المختلفة ما كان ليحقيق بجماعة ما إلا أن يُمارس في نطاقها ، قواعد وقيادة ، ظلماً
وفجوراً وترفاً وإجراماً ولقد كانت مشيئة الله تمنح هذه الجماعة البشرية الفرصة
الكاملة للحياة الطيبة العادلة السعيدة المؤمنة ولكنها كانت تضع هذه الفرصة
فتضيع»^(١٢٢)

لقد كانت هذه العقوبات التي أنزلها الله بالاقوام المكذبة لانبيائه ورسله
متنوعة وقد احتلت أخبار هذه الاقوام ومصائرهما التي آلت اليها في القرآن مساحة
واسعة وحددت آيات قرآنية بتفاصيل دقيقة ألوان العذاب والعقاب الذي أصاب الذين
كانوا يعوقون عمل الانبياء . « ونحن نتكلم عن الفعل الإلهي المباشر أمام قوتين
كونيتين يسخرها الله لتحقيق كلمته : قوة الطبيعة المنظورة ، وقوة الروح غير
المنظورة . في الاولى نلتقي بنماذج شتى من اعتماد القوى الطبيعية لمواجهة العنت
والشرك والتكابر البشري : السيل ، الجفاف ، الحاصب ، الصيحة ، الخسف او
الزلازل أو الرجفة ، الفرق ، الصاعقة ، الطوفان ، الحشرات ، المطر العنيف ، الاوبئة ،
الريح العاتية ، الامامة الجماعية ، تمزيق المجتمعات ، الخوف الجوع ، ثم الدمار
الشامل دون الإشارة الى الوسيلة بالذات . وفي الثانية نلتقي بجند الله الذين لا يرون
وبحشود الصلائكة وبالطاقات الروحية التي لا تحدها حدود ، والتي تستطيع في
لحظات ان تقلب الهزيمة الى نصر وأن تمنح القلة المجاهدة مقدرة هائلة على

المقاومة والثبات» (١٢٣). وفق هذا المنظور نستطيع ان نستوعب التاريخ ومن خلال الايمان بالغيب تتكامل عندنا التصورات الواعية لاحداث التاريخ وان عدم الايمان بالغيب يعني أننا نغمض أعيننا ونصمت وندع أحداث التاريخ وحقائقه يسدل عليها ستار النسيان ونكون بذلك قد مارسنا اخفاءً متمعداً لحقائق التاريخ وؤورنا القيمة الحقيقية للوثائق التي بين أيدينا وهي ما تحكي لنا قصة الانسان على الارض . وهذا الخط الفاصل بين المؤرخ المسلم الذي يحس بسمؤليته تجاه تدوين الحدث التاريخي وهو يحلل الوثائق التي يمتلكها وبين المؤرخ الذي لا تربطه بالايمان بالخالق والايمان بالحق أية رابطة وإنما هو يُخضع التاريخ لعقله المحدود الذي يعجز عن ايجاد ابسط التفسيرات لابسط الحقائق التاريخية والتي سبق وأن تحدثنا عنها مثل أصل الحياة أصل الانسان ، أصل اللغة أصل الكتابة . وأصل الحضارة وجنورها .

الطوفان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كُنبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبثاً وقالوا مجنون وازدجر ﴾ فدعا ربه أني مغلوب
فاتنصر ﴿ ففتحننا أبواب السماء بماء منهمر ﴾ وفتحنا الأرض عيوناً فاتنقى الماء على
أمر قد قدر ﴿ وحملناه على ذات ألواح ودسر ﴾ تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر ﴿
ولقد تركناها آية فهل من مدكر ﴾ فكيف كان عذابنا ونذر سورة القمر/ ٩ - ١٦
لقد تحدثت نصوص كثيرة في القرآن الكريم حول هذا الطوفان ولكنها لم تتعرض
الى تفاصيل خارج إطار الهدف المرسوم للقصة في القرآن الكريم وعلى العكس من
ذلك فقد وقعت التوراة أو العهد القديم بمغالطات وأخطاء جعلت رواية الطوفان تأخذ
مسار الاسطورة بينما حافظ النص القرآني على تماسكه وإعجازه ولم يدع أي مجال
وثرة لتخيلتها واكتشاف تناقضات في ثنايا عرض قصة الطوفان في مواضع
مختلفة من سور القرآن الكريم . وسنحاول فيما يلي القيام بعملية إحصاء واستشهاد
بالآيات والنصوص القرآنية التي تعرضت للطوفان وسنقوم بعملية دراسة متأنية لهذه
النصوص للخروج بنتائج وتصورات ضمن معطيات النص والرواية القرآنية للطوفان .
من خلال نصوص القرآن يبدو ان تطوراً ونضجاً قد وصل اليه إنسان عصر نوح حتى
تبلورت قابليات هذا الانسان في الدفاع عن الطبقية الاجتماعية وتبرير الظلم
والانتقاص من الرسالة بسبب انتماء المستضعفين اليها . وهذا يعكس لنا أن إنسان
عصر نوح قد انتقل من البدائية الى عصر الزراعة ويمكن القول كذلك بأن عقل
الانسان في هذا العصر قد تأسست عنده الاسس الفكرية الاولى نتيجة تراكم الخبرة
منذ عصر آدم (عليه السلام) حتى هذا العصر . أول نص يطالمننا في القرآن حول
قوم نوح ورسالته في سورة الشعراء في خمس آيات من سورة الشعراء قصة نوح
ودعوته وبإيجاز . وقد أكتت معظم الآيات التي تعرضت لقصة نوح (عليه السلام)
بان الله قد أرسل نوحاً الى قومه وقد ارتبطت دعوة نوح بقومه وفي آيات سورة
الاعراف إشارة الى العالمين اي المحيط خارج قوم نوح وقد نكر نوح (عليه السلام)

بأنه « رسول من رب العالمين »^(١٤٤) . وهذا يؤكد ان دعوة ورسالة نوح (عليه السلام) قد ارتبطت مباشرة بقومه وبصورة غير مباشرة بالعالم خارج قوم نوح . وهذه القضية تدفعنا الى التساؤلات القديمة حول من كان يعيش من البشر خارج المحيط الانساني او البشري لقوم نوح فمن الواضح بأن نوح قد أرسل الى قومه ومن المعقول جداً أن ينتقل تأثير رسالته الى المجتمعات القريبة او التي تعيش ضمن مساحة جغرافية يمكن الاتصال بها ضمن وسائل الاتصال المتاحة في ذلك العصر . وقد تتسع هذه المساحة لان أعمار البشر كانت أطول فكان طول العمر يتيح فرصة للانسان لكي يتحرك على أوسع مدى ويهاجر ويغير مستقراته طلباً لموارد الطبيعة التي تحقق له نوعاً من الامن الغذائي له ولحيواناته وينقل الانسان معه في تنقلاته معتقداته وطرائق تفكيره ووسائل عيشه فيكون المحيط الثقافي خصوصاً في بداية تكون المستقرات البشرية يكون بمستوى ثقافي متقارب وطابع الحياة وأسلوب المعيشة يتشابه ولذلك كانت العصور الحجرية يطلق عليها أسماء مواقع اكتشفت فيها أدوات تلك العصر « ففي العصر الحجري القديم الاوسط من ١٢٠,٠٠٠ سنة الى ٣٥,٠٠٠ ظهرت صناعة الشظايا الليفلولوازية نسبة الى بلدة ليفولوا القريبة من باريس وظهرت الشظايا الموستيرية نسبة الى موقع موستيه في حوض الدوردون بفرنسا . اما العصر المولتييري فقد سمي كذلك نسبة الى منطقة سلوتره بمقاطعة الساندون حيث وجدت آلاته في احد الكهوف أما العصر الاخير يسمى العصر المكليني نسبة الى موقع مكلين في منطقة الدوردون بجنوب فرنسا »^(١٤٥) . الذي نريد تكميحه أن ثقافة حياة عصر ما وصناعاته وطبيعة حياته نجدها في مواقع مختلفة من نول مختلفة بل قد تصل الى قارات^(١٤٦) مختلفة فمن الممكن ان نجد أدوات العصر

(١٥٤) اقرأ الآيات ٥٩ - ٦٤ من سورة الاعراف .

(١٥٥) الدباغ / د. تقي / الوطن العربي في العصور / ص ١١ - ١٣

(١٥٦) ويذهب بعض الباحثين بأن تطور الصناعات للمصير الحجرية كان محلياً « وانها كانت نتيجة لتطور صناعة الآلات الحصوية المسلحة ويؤكد ذلك التشابه حضارة اللوس البينومية في كل من افريقيا وآسيا واوربا « أنظر - الدباغ / د. تقي ود. الجابر / عصور قبل التاريخ / ص ١٠٧ . ولكن في موضع آخر يدعي هذا الاستنتاج حيث ينكر العديد من الباحثين ان شمال افريقيا الاصل لمتل هذه الآلات المتقنة الصنع وقد انتشرت منها أساليب استخراجها الى مناطق أخرى / ص ١١١

المكبليني في فلسطين وفرنسا والمغرب وهذا من أقوى الأدلة على انتقال طرق العيش والوسائل التي يستخدمها الانسان في عصور ما قبل التاريخ بين مناطق متباعدة الامر الذي يدل على حدوث مجرات ونقل خبرات بين بني البشر في عصور ما قبل التاريخ وان هذه الظاهرة قد تقلصت الى أبعد الحدود بعد استقرار الانسان وتكون المستقرات الحضرية وبداية تكون الحضارات . وقد أكد المنقبون أن طبيعة الحياة المعيشية للتجمعات السكانية الاولى كانت قليلة الاستقرار ويغلب عليها التنقل ولكن في عصر جرمو (القرية التي اكتشفت في شمال العراق في الالف السابع قبل الميلاد) بدأت الحياة الاجتماعية تأخذ طابع الاستقرار لسنوات طويلة قد تصل الى عدة قرون كما ذكرنا ذلك حول جرمو . وليس من السهل أن نجد أدلة مادية على انتقال او تأثير حضارة وادي الرافدين في حضارة وادي النيل ولم تكن بالسهولة نفسها التي كان يعثر فيه على أدوات حجرية تتميز بميزات عصر من العصور الحجرية القديمة ومع ان العكس هو الذي يذهب اليه المنطق والعقل لان تطور الحياة وتنجين انواع اكثر من الحيوانات يوفر سهولة الاتصال بين الجماعات البشرية وبذلك يتعزز لدينا انتقال أدوات الاستخدام لإنسان العصور الحجرية قد تم بناء على زيادة في اعمار الانسان مما يساعد على زيادة في الانتقال ومعدلات الهجرة عن العصور المتأخرة التي بدأ فيها عصر الانسان الطبيعي في معدلات اعمارهم وذلك عندما بدأت معدلات النمو السكاني بالازدياد وبدا التوازن الطبيعي في حياة الانسان يتشكل مع زيادة الحركة البشرية وزيادة في الانتاج .

وإذا عدنا الى النصوص القرآنية التي تتحدث عن الطوفان الذي أهلك قوم نوح فنسجد أن أكثر السور تفصيلاً لحدث الطوفان وما قبله وما بعده هي سورة هود الايات من ٢٥ - ٤٩ . ونذكر هنا فقط الايات التي تتحدث عن الطوفان ونبدأ من قوله تعالى ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا ﴾ إنهم مفرلون • ويصنع الفلك وكلما مر عليه فومه سفروا منه • قال إن تسفروا منا فإننا نسفر منكم كما تسفرون • فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يعجزه ويحل عليه عذاب مقيم • حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا أحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل • وقال أركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها أن ربي لغفور رحيم • وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح أبنيه وكان في معزل يا بني أركب معنا ولا تكن مع الكافرين • قال سأوي الى جبل يعصمني من الماء قال

لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المفرقين • وليل
 يا أرض ابلغي ماءك ويا سماء ابلغي وغيض الماء ولغضي الامر واستوت على الجودي
 وليل نمناً للقوم الظالمين • ونادى نوح ربه فقال رب ان ابني من اهلي وان وعدك الحق
 وانت احكم الحاكمين • قال يا نوح انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن
 ما ليس لك به علم اتي اعظك ان تكون من الجاهلين • قال ربي اني اعود بك ان أسألك
 ما ليس لي به علم والا تفغر لي وترحمني أكن من الخاسرين • قيل يا نوح اهبط بسلام
 منا وبركات عليك وعلى امم ممن معك وامم سمعتهم لم يصعب منا عذاب اليم • تلك من
 انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة
 للمتقين ﴿١٥٧﴾ .

لقد تعرضت الايات قبل نكر السفينة الى الحوار الذي كان يحصل بين نوح
 (عليه السلام) وقومه وكيف كان يحاول إقناعهم للتخلي عن عنادهم وكفرهم وكيف
 كانوا يجادلون ويسخرون وقد تكررت قصة عنادهم في معظم النصوص القرآنية التي
 تحدثت عن رسالة نوح (عليه السلام) وفي هذا تأكيداً لسريان سنة الله في الاقوام
 التي تكفر بالرسالات بان الله يرسل اليها رسولاً ويقيم عليها الحجة وتستخدم معهم
 كل الوسائل الممكنة في عصرهم ثم ينذرهم نبيهم بسوء العاقبة إذا استمرت
 اوضاعهم على النحو الذي يلقون به دعوة الله حتى يصل حالهم في التحدي
 والصلف ان يطلبوا من نبيهم أن يأتي ما يخوفهم به من العذاب ﴿ قالوا يا نوح قد
 جادتنا فاكثرت جداننا فاتماً بما تعلمنا ان كنت من الصادقين ﴾ (١٥٨) . ثم ان الله أخبر
 نوحاً بعاقبة القوم انها ستكون غرقاً وأمره بصناعة السفينة وتعرضت نصوص قرآنية
 لهذا الامر وهو بناء السفينة وان هذا البناء كان تحت رعاية الله ويتوجيه منه لان نوح
 (عليه السلام) لم يكن يملك الخبرة في تصميم السفن أو لم يكن يمتلك تصوراً حول
 وظيفة هذه السفينة وحجمها وكيفية الاغراق وطبيعة الطوفان . أخبر الله تعالى
 ﴿ واصنع الفلك باعيننا ووحينا ﴾ أي تحت رعايتنا بتهيئة مستلزمات انجاز هذا
 العمل ويكون بناء السفينة بموجب أمر الله وقد اوحى الله تعالى لنبيه تصميم هذه
 السفينة قال ابن كثير ﴿ واصنع الفلك ﴾ يعني السفينة ﴿ اعيننا ﴾ أي برأى منا

﴿ ووحينا ﴾ تعليمنا لك ما تصلحه ﴿^(١٠٩)﴾ . وهذا يوضح لنا بان السفينة قد صممت بمقتضى وحى الله وانها صممت لتلائم حاجة النبي نوح (عليه السلام) لكي تتم عملية انقاذه ومن معه من المؤمنين وما يحمل معه من الحيوانات التي لا تستطيع السباحة التي كانت تعيش ضمن البيئته التي يعيش فيها قوم نوح . وأن الله قد أمره بحمل من كل زوج اثنين أي نكر وأنثى من كل نوع لاستمرار النوع حتى لا ينقرض . وأن هذا الامر جاء يتوافق مع خطة وضعها الله لاستكشاف الحياة بعد الطوفان بالنسبة للناجين من قوم نوح . حتى تعود الحياة الى اوضاعها الطبيعية ضمن مدة منطقية لزيادة الانواع وتكاثرها وبذلك تستأنف الحياة نشاطها . وهذا الامر يساعدنا على فهم طبيعة الطوفان وأنه لم يكن غطى عموم اليابسة في كل الارض إذ لو كان كذلك لعجز نبي الله نوح عن إحصاء جميع أنواع الحيوانات التي تدب على سطح الكرة الارضية وكيف كان يتسلى له أن يطوف في الارض ليحضر من كل نوع زوجين ؟ وكما كان يستغرق من الوقت من أجل إنجاز هذا العمل الغير منطقي ؟ وهل يمكن ان يتصور أن بمقدور انسان أن يجمع من كل انواع المخلوقات على الارض زوجين ؟ ونحن نعلم ان كل بيئة فيها أنواع من الحيوانات تتلاءم حياتها مع هذه البيئة وقد أستغرق انتشار هذه الحيوانات على الارض منذ ان أوجدها الله وتكاثرت وتلوتعت استغرق هذا الامر ملايين السنين ثم ان أمر بناء السفينة وإخبار الله لئيبه بنتيجة القوم ﴿ انهم كفارون ﴾ هذا الامر كان يحتم عليه الانشغال كلياً ببناء السفينة خصوصاً إن المؤمنين الذين كانوا معه قلة فلم تكن عنده من الايدي العاملة الكثيرة مما يساعد على انجاز سفينة بضخامة ما يتصور أنها تسترعب كل أنواع المخلوقات الحيوانية في عصره . ثم ان استجابة الله لنوح كانت سريعة كما يوحي سياق النص في سورة القمر ﴿ فلما ربه اني مغلوب فانتصر ﴾ ففتحتنا ابواب السماء بماء منهمر ﴿ ولججنا الارض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر ﴿^(١١٠)﴾ . فلا يمكن مع هذه العجلة وسرعة الحدث ان ينصرف نوح (عليه السلام) لجمع أصناف الحيوانات ليضعها في السفينة لو لم تكن هذه الحيوانات المتواجدة في البيئة حول بيوت القرية ومع الانسان في بيوت القرية بالنسبة للمدجنة منها . ولو قيل أن الزمن من أمر البناء الى البناء استغرق وقتاً طويلاً في بعض روايات الحديث النبوي وهي ضعيفة وموقوفة

(١٠٩) ابن كثير / ابو الفداء اسماعيل / تفسير القران العظيم / ج ٢ ص ٤٤٤ .

(١٦٠) سورة القمر / ١٠ - ١٢

على بعض علماء السلف^(١٦١) أن الله أمره أن يفرس شجراً ليعمل منه السفينة ففرسه وانتظره مائة سنة ثم نجره في مائة أخرى وقيل في أربعين سنة . وهذا الامر لا يصمد أمام النقد في الرواية ولا يخلوا من الغرابة في المتن . وكذلك فان نص القرآن الكريم لم يوجد فيه أي نكر لانصراف نوح في البحث عن انواع الحيوانات أو أي إشارة الا حين التنفيذ ﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا أحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل ﴾^(١٦٢) . ولم يتطرق النص القرآني حول ابعاد السفينة وشكلها إلا إشارات في بعض الآيات حول وصف السفينة وهي قوله تعالى ﴿ وحملناه على ذات ألواح وثُجْر ﴾^(١٦٣) . وهو ما يعطينا فكرة حول تكوين السفينة وأنها بنيت من ألواح الخشب والُثُجْر تعني المسامير وتعني الحبال التي تربط السفينة^(١٦٤) ونحن نعلم ان استخدام الخشب قديم حيث وجد علماء الآثار بان إنسان عصور ما قبل التاريخ قد استخدم الخشب في حياته اليومية « فقد عثر في تل الصوان في الطبقات تعود الى الألف السادس قبل الميلاد على آثار لطبقات عارضة خشبية على جانبي المدخل بين غرفتين تشير الى وجود عارضة كانت تسند سقف المدخل وعلى ارتفاع ٩٠ سم من ارضية الطبقة الثالثة نور (A)^(١٦٥) كما نرى انه لا بد أن يكون سكان تل الصوان قد استخدموا نوعاً من العوارض الخشبية لتسقيف الوحدات البنائية ولكن ليس لدينا دليل أثري يثبت ذلك^(١٦٦) . وهذا بسبب تعرض الخشب للتلف . وقد وردت روايات « عن الثوري : بان الله أمره أن يطلي ظاهرها وباطنها بالقار وأن يجعل لها جُوجُؤاً أزود (أي صدر السفينة طائل يشق الماء)^(١٦٧) ومعروف عند علماء الآثار كذلك أن استعمال القار كان شائعاً في عصور ما قبل التاريخ « وقد عرفت مادة القير في مواقع

(١٦١) انظر ابن كثير / ابو الفداء / قصص الانبياء / ص ٧٧ .

(١٦٢) سورة هود / ٤٠ .

(١٦٣) سورة القمر / ١٣ .

(١٦٤) الرازي / محمد بن ابي بكر / صفتار الصحاح / ص ٢٠٤ . وكذلك الزبيدي / محمد

مرتضى / تاج المعروض / ١١ ج / ص ٢٩٠ . وكذلك ابن كثير / قصص الانبياء / ص ٨١ .

(١٦٥) وهو دور يمثل قسم من طبقات الحفر في الموقع الآثري .

(١٦٦) جورج / بوني / عمارة الألف السادس ق . م . في تل الصوان / ص ٧٥ - ٨٠ . وتل

الصوان موقع على نهر بجلة جنوب سامراء بـ ١٠ كم .

(١٦٧) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ٧٧ .

عديدة في وادي الرافدين كمادة عازلة للرطوبة والماء وفي تل الصوان عرف استخدامها منذ زمن الطبقة الاولى فقد عثرنا في تحرياتنا الموقعية على بقايا القير في الركن الداخلي من الزاوية الغربية من الغرفة وفي عمليات الموسم الاول عثرنا على بارية وهي مغطاة بالقير على ارضية إحدى الغرف لابنية الطبقة الاولى وقد تمثل هذه بقايا سقف متساقطة على ارضية الغرفة وإذا صح هذا يمثل اسلوب متطور في عزل السقف بالحصران ثم تغطيتها بمادة القير « (١٦٨) . اما النُسْر وهي كلمة اختلف في تفسيرها منهم من قال أنها المسامير ومنهم من قال « خيط من ليف تُشُدُّ بها الواحها » (١٦٩) والرأي الثاني أرجح لأن عصر نوح زراعي ولم يستخدم المعدن في عصره وفي القاموس أيضاً : « النوسر : نبات يجاوز الزرع في الطول » (١٧٠) وهذا يرجح استخدام حبال مصنوعة من ألياف النباتات لتثبيت الالواح وهذا يؤكد بان عمل السفينة كان قد تم بوسائل متوفرة في البيئة الزراعية ولم تكن بالضخامة التي يتصورها بعض المفسرين متأثرين في ذلك بمعلومات التوراة . حتى قال ابن كثير : « وهي السفينة العظيمة التي لم يكن لها نظير قبلها ولا يكون بعدها مثلها » (١٧١) وهذا لا يمكن بحال لأن بعد عصر نوح وحتى عصرنا الحاضر قد تطورت صناعة السفن وأصبحت بعض السفن مدن مصفرة وهذا كله بسبب اعتقاد معظم المفسرين بعموم الطوفان للكرة الارضية .

ومن خلال النص القرآني يتضح لنا أن قرية نوح (عليه السلام) لم تكن على النهر مباشرة وانما كانت تبعد عن ضفاف النهر ولذلك كان قومه يسخرون منه عندما ينظرون اليه وهو منصرف لبناء السفينة ويتمجبون من عقله وكذلك عندما كان نوح ينكرهم بنعم الله كان ينكرهم ويرغبهم بما تتطلع اليه نفوسهم من جنات ويساتين وانهار ونزوع وفيرة وأنعام كثيرة ﴿ فلعلت استغفروا ربكم انه كان غافرا ﴾ يرسل السماء عليكم مدررا ﴿ ويصدكم بأموال وبنيين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾ (١٧٢) . وهذا يدل على انهم كانوا بحاجة الى هذه النعم فالنعم الموجوبة قليلة يكثرها والماء

(١٦٨) جورج / زنجي / عملة الالف السادس قبل الميلاد في تل الصوان / ص ٧٨ .

(١٦٩) الزبيدي / محمد مرتضى / تاج المروسة / ج ١١ ص ٢٩٠ .

(١٧٠) الزبيدي / م . م / ج ١١ ص ٢٩١ .

(١٧١) ابن كثير / قصص الانبياء ٩ ص ٧٦ .

(١٧٢) سورة نوح / ١٠ - ١٢ .

المفقود يرسل السماء عليهم مدرارا . وان الامتتان بذكر إجراء الانهار وجعل الجنات يوحى بان قوم نوح كانوا قد عرفوا الجنان والانهار ولكنها لم تكن عندهم بالوفرة الكثيرة فكان الكلام بترغيبهم فيها اسلوباً يرجى منه أن يلاثر فيهم ويربطهم بمفاهيم الايمان بالله وقدرته . كما وان الطوفان عندما وصفته نصوص القرآن الكريم لم تكن هناك إشارة الى أن الانهار قد ارتفع الماء فيها ولم يرد أي ذكر لأي نهر فقد ورد في القرآن الكريم أن الطوفان حدث نتيجة لهطول أمطار غزيرة وتفجر عيون الماء من الارض ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ﴾ وفتحنا الارض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر ﴿ (١٧٣) . وفي آيات أخر من سورة هود ﴿ وقيل يا أرض ابلغي ماءك ويا سماء اهلقي ﴾ (١٧٤) . وقد ذكرت نصوص القرآن بان مستوى الماء قد غطى أعلى مرتفع في المنطقة ومن سياق النص يتوضح بان المنطقة كانت فيها مرتفعات وهي على شكل هضبة وهي أعلى مستوى من الارض المجاورة ولذلك تولد تيار مائي وصفه القرآن الكريم ﴿ وهي تجري بهم في موج كالجبال ﴾ فان تولد الموج نتيجة لتلاقى وتلاطم تيارات تجري بانحدار سريع وعلى ضوء ذلك يمكننا تصور المنطقة التي كانت عليها قرية نوح (عليه السلام) بانها لم تكن على ضفاف الانهار وقد تكون قريبة منها وذلك ان نصوص القرآن الكريم لم تذكر ان الطوفان حدث بسبب فيضان النهر بل ان جميع نصوص القرآن التي تصدت لشرح الطوفان لم تذكر من قريب أو من بعيد حول احتمالية تأثير مناسيب مياه الانهار على الطوفان . وكذلك نستطيع أن نستبعد وجود قرية نوح على المسطحات الجنوبية من العراق لانها لو كانت هناك وحدث الطوفان لم تحدث تيارات ماء لعدم وجود انحدارات تؤدي الى جريان الماء كالجبال . ويذكر النص القرآني بان نوح (عليه السلام) قد حمل معه أهله ومن آمن معه من قومه وقد حذت الرواية القرآنية أن الذين آمنوا معه كانوا قليل ﴿ وما آمن معه الا قليل ﴾ . وقد حمل نوح (عليه السلام) في السفينة أهله . ولم يفصل القرآن الكريم من هؤلاء الأهل ؟ وقد استثنى منهم ﴿ الا من سبق عليه القول ﴾ وقد أوضح أهل التفسير أنها (زوجته) التي كانت كافرة ولم تتبع زوجها نوح وقد ورد ذكر لابوي نوح (عليه السلام) حتى انه دعى لهما بقوله ﴿ رب اغفر لي ولوالدي ولعن دخل بيتي مؤمناً

وللمؤمنين والمؤمنات ولا ترد الظالمين إلا تباراً ﴿١٧٠﴾ ودعاء نوح (عليه السلام) لوالديه يشمر بانهما كانا معه مؤمنين . خصوصاً ان القرآن لم يقب على دعائه كما عقب على دعاء ابراهيم لابيه ﴿ وما كان دعاء ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها لهما فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه أن ابراهيم لأواه حليم ﴾ (١٧١) .

وأن القرآن الكريم قد نهى رسول الله (ﷺ) أن يستغفر للمشركين ولو كانوا اولي قريى . والنص يوضح حقيقة أخرى وهي أن الاهد يشمل الزوجة والابناء لانه عندما امره بحمل أهله أستثنى منهم الكافرين وعندما دعا نوح ابنه ليركب معه وكان كافراً وكانت آخر محاولة من نوح الذي كان يحمل مشاعر الابوة والمطف على الولد . هذا الولد الذي أصر إلى آخر لحظة أن يكون مع الكافرين وعندما اختفى عن أنظار نوح (عليه السلام) خلف الامواج تحركت في قلبه عاطفة قوية دفعت الى اللجوء إلى الله لكي يتدخل لإنقاذ ابنه وقال نوح ﴿ ربي إن ابني من أهلي ﴾ الآية . فنهاه الله تعالى عن الدعاء لإنقاذ ولده . لأنه أصر أن يكون مع الكافرين . ولانه سبحانه وتعالى يريد من قلب المؤمن أن يتوجه بكل ما يحمل من عواطف ومشاعر نحو الحقيقة الكبرى في الوجود وهي الايمان بالخالق وبذلك يتخلص الانسان من كل مؤثر بنيوي يدفعه بالاتجاه الخاطيء الذي يفسد الاسس الصحيحة التي تقوم عليها الحياة وتتصلح بها فيتخلص من التمسب والهوى والمحابة والظلم والحقد وكل الامراض الاجتماعية التي تعاني منها المجتمعات الجاهلية وقد حشد النص القرآني العلاقة الحقيقية التي تربط أفراد المجتمع وتكون الامة قد بنيت على أساسها ﴿ انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح ﴾ . وهذا الاساس للعلاقة الانسانية يصلح أن يرتبط من خلاله جميع البشر من خلال الاعتبار الانساني والعمل الصالح وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة في مواضع عدة ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ . وعلى منهجية القرآن الممجة لم يذكر القرآن الكريم اسم هذا الولد . ولم يذكر كذلك من كان معه من أولاده وما هي اسماءهم وما يتشبت به بعض المفسرين من نكر لأسماء ونسج لروايات وقصص كلها لم تثبت وهو مما نقله أهل الكتاب ودخل في تفسير الرواية القرآنية كذلك في النص القرآني لم يتطرق إلى أصناف الحيوانات التي حملها وقد وردت

روايات تفسيرية^(١٧٧) بأنه حمل الجحوش والحيات والحيوانات المستأنسة الأخرى وجعل السفينة طوابق وهذا كله خارج دلالة النص القرآني ولم يثبت فيه حديث صحيح . ولكن الظاهر من النص بأنه حمل معه ما كان ضمن بيئته وقريبه منه من أنعام وحيوانات من كل نوع نكر وأنش وكما نكرنا سابقاً كان الهدف من هذا العمل هو تثبيت الواقعية التي يدعو إليها القرآن وأن الأمر لا يحتاج أن يوضع ضمن إطار غيبي ميتافيزيقي أشبه ما يكون حديث خرافة خصوصاً وإن سياق الآيات لم ينكر بأن هناك حديث حول معجزة ضمن أجواء تحدّ وإنما أخذ بأسباب الحياة وأتباع السنن التي تنهض بها الحياة فإن نوحاً والناجين معه بعد الطوفان كانوا يحتاجون إلى ما يكمل حياتهم وقد جعل الله تعالى حياة الإنسان على الأرض تتكامل مع الحيوان والنبات والكل يحقق التوازن بالقدر الإلهي للحياة والكل يؤدي وظيفة تتكامل مع النوع الآخر وكذلك الشمس والقمر والنجوم والانهار والطيور لقد جعل الله من هذا التركيب والمزيج والنقص الموجود والذي يتكامل بانعاش جملة سبباً من أسباب الإيمان به لكي يبرك الإنسان من خلال حاجته للمخلوقات الأخرى بأنه ليس إلهاً ولا يستطيع أن يستغني عن الحياة . كما لو أن الأمر كان فيه معجزة لنكرها النص كما كان ينكر حول معجزات المسيح (عليه السلام) ﴿ يرى الأكمة والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله . وينفخ من الطين كهياة الطير فتكون طيراً بإذن الله ﴾^(١٧٨) ولما لم ينكر النص القرآني حاجة قوم نوح خصوصاً أن الذين كانوا معه في السفينة مؤمنين ولما لم ينكر النص وجود مثل هذه الحاجة نجد أنه من الضروري عدم الخروج عن دلالة النص القرآني إلا أن وجد نص حديثي . وعلى هذا فإن الروايات الكثيرة التي تتحدث عن أمور غير منطقية والتي تسربت إلى التفسير من الأسرائيليات لا بد من الاعتماد عنها وتلقيه التفسير من هذه الخرافات . فأنهم ينكرون بأن إبليس تعلق بذنوب الحمار وتمتر الحمار عند صعوده إلى السفينة بسبب ذلك . لماذا يصعد إبليس إلى السفينة ؟ وإنه غير مادي لا يتأثر بالطوفان . وكذلك ينكرون أن الفارة أنت قوم نوح فعمطت الأسد فخرجت القطة . وهذا كله لم يعد يقنع عقلية الإنسان المعاصر ومن الخطأ

(١٧٧) انظر ابن كثير/ تفسير القرآن الكريم العظيم / ج ٢ تفسير سورة هود ص ٤٤١

(١٧٨) نص الآية ﴿ ورسولا إلى بني اسرائيل اني جنتكم بآية من ربكم اني اخلق لكم من الطين كهياة

الطير فاتفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله واهره الأكمة والأبرص واهيى الموتى بإذن الله ... ﴾

الآية / آل عمران / ٤٩ ونص آخر في سورة المائدة آية ١١٠

الاستشهاد به في كتب التفسير .

ونعود الى النص القرآني فنجده يحدثنا عن لحظات الطوفان الرهيب وكيف إن السفينة أخذت تجري بهم في موج كالجبال جريان السفينة كان يعني أنها انحدرت من المستوى المرتفع من الشمال نحو الجنوب . وقد كانت السفينة تسير سيراً محدد الهدف ﴿ وحملناه على ذات ألواح ونُسر . تجري بأعيننا جزاة لمن كان كفر ﴾ (١٧٩) فإنها كانت تسير بمناية الله ورعايته . وقد أراد لها ان تستقر على (الجودي) . وهنا نجد الخلاف في الروايات حول مكان هذا الجبل الذي سماه القرآن (الجودي) « قال مجاهد وهو جبل بالجزيرة : وقال الضحاك : الجودي جبل في الموصل وقال بعضهم هو الطوير وفي أثر عن نوبة بن سالم قال رأيت زرين حبيش يصلي في الزاوية حين يدخل من أبواب كندة على يمينك فسألته أنك لكثير الصلاة ههنا يوم الجمعة قال بلغني أن سفينة نوح أرسيت من هنا » (١٨٠) .

إن تحديد مكان الجبل والتعرف عليه من المبحث خصوصاً ان منهجية القرآن كما أشرنا في دراستنا لا ترتبط بالاسماء عند عرض الحدث لأن الهدف من سياق الرواية هو استخلاص العبرة . وإن القرآن الكريم لم يصدر من بشر وإنما جاء من عند الله وهو المعلم الحكيم والمسلم عندما يتلقى الرواية القرآنية على أساس التصديق واليقين . ولكن ونحن نتأمل النص القرآني يدفعنا شوق الى معرفة المجهول وذلك عندما يصرح النص باسم الجبل وإن اسمه (الجودي) في مثل هذه الحالة منحنا النص القرآني وضوحاً أكثر وبنيت صورة الحدث وقد أخذ جوهر القضية معظم مساحتها ولكن مع هذا الجوهر ظهرت بعض العلامات الخافتة يشوبها بعض الضباب والتضائل وكانت أكثر هذه الاشياء إثارة للتساؤل هو (الجودي) . إن هذه التسمية بحروفها وبنائها تدل على أنها عربية وقد ذكر أحمد سوسة ذلك « ان الفلك (استوت على الجودي) وهي كلمة عربية الامر الذي يؤيد أنها رست على مرتفع من الصحراء جنوب شرقي الفرات عند حدود سلسلة مرتفعات التي تملو عن سطح البحر بما يقارب (٦٥ متر) . » (١٨١)

(١٧٩) سورة القمر / ١٣ - ١٤

(١٨٠) انظر ابن كثير / ابو الفداء اسماعيل / تفسير القرآن العظيم / ج ٢ ص ٤٤٧

(١٨١) سوسة / د. احمد مقالة عن موطن الطوفان واستقرار فلك نوح / ص ١٨٥ - ١٩٢ . وروى هذا الكلام في كتاب (معجزة القرآن والطوفان) المهندس سعد حاتم مرزة ص ٩٩ .

وهذا الكلام يبقى ضمن الاستنتاجات حول مكان استقرار السفينة وقد ورد أسم الجبل في التوراة بـ (أرازات) « وقد جاء في التوراة العبرانية (استقر الفلك على جبل ارازات) وهو جبل يقع في أرمينيا بينما تذكر التوراة السامرية أنه جبل سرنديب وهو يقع في سريلانكا^(١٨٢) . وتذكر ملحمة كلكامش البابلية أن أسم الجبل الذي استقرت عليه السفينة هو (جبل نصير)^(١٨٣) .

ويذكر المرحوم د. طه باقر أن معنى جبل النصير « اذا صحت قراءة اسم الجبل في الملحمة (نصير) فلعل معناه جبل الخلاص . وان هذا الجبل يقع بموجب أخبار الملك الاشوري (آشور ناصرال) الثاني الى جنوبي الزاب الصغير^(١٨٤) وينهب كذلك الدكتور طه باقر الى ان الجبل الذي استقرت عليه السفينة بحسب رواية (بيروسوس) (برعوشا الكاتب البابلي ، القرن الثالث ق . م .) سمي هذا الجبل بأسم الـ (كوربيين) . « ويستنتج الدكتور طه بأن معنى (كوربيين) الاكراد .^(١٨٥) وكما توضح بان الامر لا يعدو الاستنتاجات والتوقعات لعدم وجود دليل مادي يحسم المسألة . ولكن نكر أسم الجبل في ملحمة كلكامش بـ (جبل النصير) لا يتعارض مع التسمية القرآنية لانه يحمل اسماً من البيئة وله معنى (جبل الخلاص) وقد يكون اطلاق هذه التسمية جاءت لتعبر عن النجاة اكثر من ارتباطها بأسم جبل ارتباطاً حرفياً أو يقصد بها جبل يعينه كذلك رواية الكاتب البابلي لا يشترط أن تتطابق مع تحليل واستنتاج د . طه باقر بل أن أسم جبل (كوربيين) قد تتمرض هذه الكلمة للنحت فنتحول بمرور الزمن الى الجبل (الكوبيين) أي تتطابق مع التسمية القرآنية التي تدرجت لاحقاً فكانت اللفظة التي استخدمها القرآن الكريم تتطابق مع اللفظ الاخير للكلمة وهو « الكودي » أو (الجودي) . وقد حاول كتبة التوراة الابعاد عن البيئة العربية فاعطوا أسماء لا تتسجم مع سياق أحداث الطوفان فاطلقوا اسم جبل ارازات وهو في أرمينيا بينما

(١٨٢) محمد / محمد قاسم / التناقض في التواريخ واحداث التوراة من أمم حتى السبي

البابلي / ص ١٣

(١٨٣) باقر / د . طه / ملحمة كلكامش / ص ١٤١

(١٨٤) انظر باقر / د . طه / م . س / ص ١٤١

(١٨٥) انظر / باقر / د . طه / م . س / ص ١٤١

حدثت التوراة السامرية الجبل بأنه سرنديب في سريلانكا^(١٨٦) . وليس غريباً أن يعمد مدونو التوراة على معلومات من شأنها ان تسلط الضوء على تاريخ العرب فقد أزالوا من التاريخ أخبار أنبياء العرب مثل هود وصالح . ولذلك نرجح ان الجبل الذي استقرت عليه السفينة كان في جزيرة العرب لهذا السبب وسبب آخر وهو ان قوم هود كانوا في الاحقاف جنوب الجزيرة العربية في اليمن . وأن نبيهم بُعث اليهم نكرهم بقوم نوح . فقال هود ﴿ لو عجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينزركم واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الضلوق بسطة فلذكروا آلاء الله هلکم تفلحون^(١٨٧) . عندما نكرهم نبيهم هود بقوم نوح إن هذا يعني أنهم كانوا قريبين منهم مازالوا يسمعون أخبار نوح وقومه وكيف كانت احوالهم ؟ . وكذلك هناك سبب ثالث يدفعنا الى هذا الرأي وهو أن الله تعالى علم نوحاً أن يدعوهم ويطلب منه ان ينزله في مكان مبارك ونلك في قوله تعالى ﴿ ولقلى ربى اترتنى منزلاً مباركاً وانى خير المنزلين ﴾^(١٨٨) . ولا يمكن ان يكون جبل في ارمينيا أو سريلانكا منزلاً مباركاً ا وهل البركات الا في ارض العرب وبلادهم وأخص بلاد العرب « أم القرى وما حولها » اى مكة وما حولها . نزل نوح (عليه السلام) بمباركة الرب له الى ارض مباركة ومع أمة مباركة وهكذا انتهت مرحلة الصراع وبدأت البشرية مرحلة جديدة وهي ما بعد الطوفان واعتبرت بداية لمرحلة جديدة بعد ان تجاوزت التجربة السابقة وعلى هذه المجموعة التي اجتازت الامتحان مع نبيها (عليه السلام) أن تخطو خطوات تستأنف بها نورها لالها الجماعة المؤمنة الوحيدة على الارض وكان عليها برغم قلة عددها أن تؤدي نورها لايصال الحق الذي نزل اليهم الى المجتمع البشري الذي كان يتواجد على الارض في ذلك العصر . وبعد استقرار نوح وقومه المؤمنين ويمرور السنين وهم على شبه جزيرة العرب بدأوا يتكاثرون وتزداد أعدادهم ثم بدأت مرحلة الهجرة والتفرق وكان الحنين الى بلاد الرافدين الهاجس الاول . وهكذا بدأت الهجرة تأخذ نورتها في الحياة . لقد اخرج آدم من جنته على ارض الرافدين الى ارض

(١٨٦) « ويكاد ـ بلاشير Blackere وفي رأي هذا الكاتب ان هناك كتلة جبلية بهذا الاسم (الجودي) بالجزيرة العربية انظر بوكاي / موييس / دراسة الكتب المقدسة / ص ٢٤٨ .

(١٨٧) سورة الاعراف / ٦٩ .

(١٨٨) سورة المؤمنون / ٢٩ .

التكليف والوحي والرسالات الى مكة وما حولها ثم عاد أبناؤه الى ارض الخيبر والبركات والانهار الى ارض الرافدين والقصة تتكرر هنا مع نوح حيث أخرجته الطوفان من أرض الرافدين الى مكة « وقد روى ابن جرير والازرقعي عن عبدالرحمن ابن سابط او غيره من التابعين مسلماً ان قبر نوح (عليه السلام) بالمسجد الحرام » (١٨٩) . وهكذا نرى ان المجتمع البشري بدأ يخطو خطوات نحو النضج في الوعي وبدأت أشكال الحياة في الواقع تتطور بخطى متسارعة منذ آدم (عليه السلام) حتى نوح ولقد حدث تطور في الوعي وأساليب الحياة في زمن نوح . وبدأ الانسان في عصر نوح يمتلك وعياً وخبرة متراكمة وقد نكر القرآن الكريم نصاً في سورة نوح في سياق تنكير نوح لقومه بنعم الله عليهم ينكرهم بان الله خلقهم أطواراً في قوله تعالى ﴿ ما لكم لا ترجون لله وفاراً وقد خلقكم أطواراً ﴾ (١٩٠) وهذه الكلمة (أطواراً) النكر الوحيد في القرآن الذي جاءت به في هذا الموضع ومن الجائز أن يكون نوح ينكرهم بمن قبلهم من البشر وأطوارهم التي كانوا فيها وكيف امتن الله عليهم وجعلهم بأحسن تقويم (١٩١) وقد قال المفسرون أن أطواراً تعني مراحل التخليق للجنيين في الرحم . وهذا ممكن لكن هذه الملاحظة لا تثير في قوم نوح الاحساس بقدرة الخالق في عصرهم .

(١٨٩) ابن كثير / ابو الفداء / قصص الانبياء / ص ٩٣ .

(١٩٠) سورة نوح / ١٣ - ١٤

(١٩١) انظر بوكاي / موسي / أصل الانسان / ص ١٩٧ - ١٩٨ ويقول تعقياً على هذه الآية

(ولم يرد في السورة اي تكرار لعمد الجدين قبل الولادة وهي الظاهرة التي فسرها المفسرون التكنديون الغناء من خلال كلمة (أطواراً) . وهذه الآية توضح درجة كامية وشادية ان الشكل البشري يتعرض لتحولات لدرجة أننا لو رفضنا الآية لم يتغير المعنى .

ثانياً : الطوفان في الرواية التوراتية

إن استشهائنا بالرواية التوراتية لا يعني إننا نقبل هذه الرواية او نعتمدها ولكننا وجدنا ان معظم مَنْ كَتَبَ في التاريخ القديم قد استقى معلوماته منها أو من شروحاتها أو ما كتبه أحيار اليهود وهذ يعني ان التاريخ القديم ويضمه تاريخ الانبياء بيد اليهود ولذلك فانا نعتبر هذه الظاهرة من أخطر الظواهر التي استقرت في أذهان الباحثين من القدم والمحدثين ولا بد من التصدي لها من خلال البحث العلمي ونشر الحقائق التي تتوضح للدارسين وقد عتَمَ عليه اليهود واحتكروا مصادر تعليمها . وقد مارس اليهود هذا الدور في بداية البعثة النبوية لرسول الله (ﷺ) حيث كانوا يحتفظون بمعلومات تاريخية حول فتية أهل الكهف وذوي القردين^(١٩٢) . وما نلك الا لقناعة اليهود بان إحكام السيطرة على التاريخ يعني أحكام السيطرة على المستقبل . وكذلك إذا استطاع يهود ان يحجبوا المعلومات التاريخية ويتحكموا فيها فإن هذا يعني انه لم يبق مصدر يرجع اليه الباحث عن التاريخ الا التوراة وهذا يجعل اليهود يمدون التوراة هي عهد الله لشعبه الذي أختاره ولذلك ويصوره غير مباشرة يقول يهود للعالم نحن سانتم وما في توراتنا هو الحق ولا حق غيره . وقد استطاع مفكرهم أن يقنعوا الباحثين والمتخصصين بأن الاخطاء التي في التوراة هي أخطاء بسبب بشر وليس من الله وبذلك تخلصوا من احتمالية الغاء اعتبار التوراة بسبب تصادمها مع الحقائق العلمية التي أصبحت ثابتة في عصرنا ولا تقبل المراجعة . وقد نكر جان جيتون (Jean Guilton) هذه حقيقة في كتابه التعليم المسيحي الموجز الصادر ١٩٧٨ حيث يقول « ان الاخطاء العلمية في التوراة هي أخطاء البشرية . فقد كان الانسان منذ زمان طويل مثل الطفل يجهل العلم »^(١٩٣) ومن المؤسف ان يدافع المسيحيون عن التوراة بهذه الطريقة التي يبلب عليها التمصب وهو أمر غريب حقاً عندما يتحدث الاب ليفو في كتابه (مدخل الى سفر التكوين » ان التوراة لا

(١٩٢) انظر ابن كثير / ابر الفناء / تفسير القرآن العظيم / ج٢ ص ٧١ - ٧٢ .

(١٩٣) بوكاي / موريس / دراسة في الكتب المقدسة / ص ٥٨ .

تنتهي الى اي من هذه الدراسات العلمية «^(١٩١) وهو في مرض حديثه عن التناقضات بين العلم والتوراة .

« وفي الوثيقة المسكونية الرابعة الصادرة من المجمع المسكوني للفاتيكان الثاني (١٩٦٢ - ١٩٦٥) هناك جملتان خاصتان بالمعهد القديم (الفصل الرابع ص ٥٣) تشير الى الشواذب ويطلان بعض النصوص وبشكل لا يسمح بأية معارضة تقول : (بالنظر الى الوضع الانساني السابق على الخلاص الذي وضعه المسيح تسمح أسفار العهد القديم للكل بمعرفة من هو الله ومن هو الانسان بما لا يقل عن معرفة الطريقة التي يتصرف بها الله في عدله ورحمته مع الانسان غير ان هذه الكتب تحتوي على شواذب وشيء من البطلان ، مع ذلك ففيها شهادة عن تعليم الهي) ترى هل يبقى التحفظ مجرد تعبير عن نية طيبة او سيتبعه تفسير في الموقف «^(١٩٢) وقد كان للعلماء المسلمين موقف قديم من التوراة ومعلومات أهل الكتاب أو ما يسمى بالاسرائيليات وعلى الرغم من التحسس الموجود تجاه المعلومات المنقولة عن أهل الكتاب إلا اننا نجد ان معظم المفسرين والمؤرخين الذين تكلموا حول مواضع التاريخ القديم او حتى ما قبل التاريخ مثل بدء الخليقة وخلق الانسان . فإن هؤلاء قد طغت على كتاباتهم الاسرائيليات ولذلك لا نجد اي كتاب في التفسير او التاريخ من الكتب التي ألفها القدماء الا وتوجد فيه نسبة من الاستشهادات الاسرائيلية وهذا الاتجاه ينسجم مع ثقافة عصرهم اذ لا سبيل الى استيعاب النصوص القرآنية والحديثية بالنسبة لعصرهم الا من خلال معلومات هؤلاء . وقد وجدت أحاديث نبوية تحذر المسلمين من اعتماد معلومات أهل الكتاب كمصدر لتكوين ثقافة اسلامية ولكن هناك نصوص لاحاديث نبوية أخرى تسمح للمسلمين أن يستعينوا بمعلومات أهل الكتاب هناك نصوص في القرآن الكريم تذكر بأن التوراة فيها هدى ونور ولكنها حرفت وبلدت كما نلت على تلك نصوص وآيات في القرآن الكريم وفي نص من القرآن الكريم يطالب ويتحدى اليهود بأن يأتوا بالتوراة لمطالمتها ومعرفة ما فيها ﴿ قل فأتوا بالتوراة فاتوها إن كنتم صادقين ﴾^(١٩٣) وحديث البخاري عن عبدالله بن عمرو بن العاص الذي فيه « وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج » . ويقول « الدكتور رمزي

(١٩٤) بوكاي / موريس / دراسة في الكتب المقدسة / ص ٥٨ .

(١٩٥) بوكاي / موريس / دراسة في الكتب المقدسة / ص ٦٠ - ٦٢ بتصرف .

(١٩٦) سورة ال عمران / ٩٣ .

نماعة : إن وجه التوفيق بين هذه الاحاديث التي تفيد سؤال أهل الكتاب وحديث عبدالله بن عمرو بن العاص الذي يجيز التحدث عنهم ، يتبين لنا من شرح حديث عبدالله بن عمرو ومعناه ، فإن معنى قوله (❸) : « وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » حدثوا عنهم بما تعلمون صدقه وهو ما يوافق القرآن أو السنة الصحيحة ، لما في الحديث عنهم من العظة والاعتبار ولا يجوز ان يكون المعنى : حدثوا عنهم بكل حديث حق أو باطل . إذ من المعلوم بالضرورة أن النبي (❸) لا يجيز التحدث بالكذب^(١٩٧) . التوراة بناءً على ما تقدم يمكن الاستفانة منها بوصفها من أقدم المصادر التاريخية فإذا اتفق النص القرآني مع التوراة كان هذا بمثابة تعزيز للنص وتأكيد على أهمية القرآن كمصدر للتاريخ القديم خصوصاً إن النص القرآني خالي من كل شواذب وتناقضات وكل ما يتنافى ويتعارض مع البحوث العلمية والحقائق الثابتة . فإننا تحدث القرآن عن الطوفان وتحدثت التوراة كذلك فإن هذا يدل على تأكيد الحدث . وإن هذا القرآن من عند الله ولا يمكن ان يكون من محمد (❸) إذ لو كان من عند محمد (❸) لتكررت الأخطاء التي توجد في النص التوراتي وأعيدت في النص القرآني وبما ان الذي يحدث المكس وهو خلو النص القرآني من الأخطاء الواضحة والمركبة والتي وقعت فيها التوراة فإننا نستطيع ان نؤكد بالنسبة لدارسي النص القرآني من غير المسلمين أن هذا القرآن من عند الله ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافات كثيرة . على وفق هذا المنهج سندرج النص التوراتي للطوفان ونحاول ان ندرس هذا النص ونقارن مع النص القرآني وسنخرج بنتائج من شأنها تسليط الضوء على هذا الحدث العظيم الذي جعله الله عبرةً للأجيال كما قال تعالى ﴿ وحملناه على ذات ألواح وثقور ﴾ تجري بأعيننا جزاء لمن كفر ﴿ ولقد تركناها آية فهل من مدكر ﴾^(١٩٨) يبدأ العهد القديم رواية الطوفان عند الاصحاح السادس من سفر التكوين واستفرقت الرواية ثلاثة إصحاحات (٦ ، ٧ ، ٨) وسوف نأخذ بكتابة هذه الاصحاحات نقلًا عن الكتاب المقدس الذي يتلوه المسيحيون والذي يتضمن العهد القديم (التوراة وما أضيف إليها) والعهد الجديد (الانجيل) بمجموع رواياته الأربع ورسائله .

(١٩٧) نماعة / د. رمزي / الاسرائيليات وأثرها في كتب التفسير / ص ٢٧٢ نقلًا عن كتاب (نو

الزهرين الثالث والطاقح والحاكم الصالح) محمد خير رمضان يوسف / ص ٧١ .

(١٩٨) سورة القمر / ١٢ - ١٥

سفر التكوين : الاصحاح ٦ : حقة الجبابرة :

وحدث لما ابتدأ الناس يتكاثرون على سطح الارض وولد لهم بنات انجذبت اناظر ابناء الله الى بنات الناس فرأوا أنهم جميلات فاتخذوا لانفسهم منهن زوجات حسب ما طاب لهم . فقال الرب : « لن يمكت روحي مجاهداً في الانسان الى الابد . هو بشري زائع . لذلك لن تطول أيامه اكثر من مائة وعشرين سنة فقط » وفي تلك الحقة كان في الارض جبابرة ويعد أن يدخل ابناء الله على بنات الناس ولدت لهم ابناء . صار هؤلاء الابناء انفسهم الجبابرة المشهورين منذ القم .

عقاب الله للبشرية : ورأي الرب ان شر الانسان قد كثر في الارض وان كل تصور فكر قلبه يتسم دائماً بالاثم . فلما قلبه الاسف والحزن لانه خلق الانسان وقال الرب : « أمحو الانسان الذي خلقته عن وجه الارض مع سائر الناس والحيوانات والزواحف وطيور السماء لاني حزنت اني خلقته » . أما نوح فقد حظي برضا الرب .

نوح يصنع فلكاً :

وهذا سجل مواليد نوح : كان نوح صالحاً كاملاً في زمانه وسار نوح مع الله وأنجب نوح ثلاثة ابناء هم سام وحام ويافت واذا ساد الشر الارض امام الله وعمها الظلم نظر الله واذا بها فاسدة لان كل بشر على الارض قد سلك في طريق الاتم . فقال الله لنوح : « قد أزلت نهاية البشر جميعاً أمامي . لانهم ملأوا الارض ظلماً . لذلك سأبيدهم مع الارض . ابن لك فلكاً من خشب السرو . واجعل فيها غرفاً تطليها بالزفت من الداخل والخارج أصنعه على هذا المثال . ليكون طوله ثلاثمائة نراع (نحو مائة وخمسة وثلاثين متراً) وعرضه خمسين نراع (نحو اثنين وعشرين ونصف متراً) . واجعل له نافذة على انخفاض نراع . (نحو خمسة واربعين سنتمتر) من السقف وباباً تقيمه في جانبه وليكن للفلك طوابق سفلية ومتوسطة وعلوية . فها أنا أغرق الارض بطوفان من المياه لايبد كل كائن حي فيها ممن تحت السماء كل ما على الارض لايد ان يموت ولكني سأقيم معك عهداً فتدخل إنت مع بديك وامراتك ونساء بديك الى الفلك وتأخذ معك في الفلك زوجين ذكراً وانثى من كل كائن حي نو جسد لاستبقائهم معك . تدخل معك اثنين من كل صنف من اصناف الطيور والبهائم والزواحف على الارض حفاظاً على استمرار بقائها . وتخزن لنفسك من كل طعام يوكل وتخزنه عنكب ليكون لك ولها غذاء . وفعل نوح تماماً بمقتضى ما أمر الرب به .

الاصحاح : ٧ الامر بملء الفلك :

وقال الرب لنوح « هيا ادخل ايتِ وأهل بيتك جميعاً الى الفلك لانى وجدتك وحكك صالحاً امامي في هذا الجيل خذ معك من كل نوع من الحيوانات الطاهرة سبعة ذكور وسبع اناث وزوجين ذكراً وأنثى من كل نوع من الحيوانات الأخرى غير الطاهرة وخذ معك من كل نوع من الطيور سبعة ذكور وسبع اناث لاستبقاء نسلها على وجه كل الارض . فإني بعد سبعة أيام أمطر على الارض اربعين يوماً ليلاً ونهاراً فامحوا عن وجه الارض كل مخلوق حي » . وفعل نوح بموجب كل ما أمره الرب به وكان عمر نوح ستمائة سنة عندما حدث طوفان الماء على الارض فدخل نوح الى الفلك مع زوجته وابنائها وزوجاتهم (لينجوا) من مياه الطوفان وكذلك الحيوانات الطاهرة وغير الطاهرة والطيور والزواحف دخلت مع نوح الى الفلك زوجين زوجين ذكراً وأنثى كما أمر الله نوحاً .

الطوفان :

وما إن انقضت الايام السبعة حتى فاضت المياه على الارض ففي سنة ستمائة من عمر نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر منه فتفجرت المياه من اللجج العميقة باطن الارض وهطلت أمطار السماء الهزيرة وأستمر هذا الطوفان على الارض ليلاً ونهاراً مدة اربعين يوماً في ذلك اليوم الذي بدأ فيه الطوفان دخل وزوجته وابنائها . سام وحام ويافت وزوجاتهم الثلاث الى الفلك وبخل معهم ايضاً من الوحوش والبهائم والزواحف والطيور ونوات الاجنحة كل بحسب أصنافها من جميع المخلوقات الحية أقبلت الى الفلك ودخلت مع نوح زوجين زوجين ذكراً وأنثى دخلت من كل نبي جسد كما أمره الله ثم أغلق الرب عليه باب الفلك . ودام الطوفان اربعين يوماً على الارض وطلعت المياه ورفعت الفلك فوق الارض وتكاثرت المياه على الارض وطلعت جداً فكان الفلك يطفو فوق المياه وتعاظمت المياه جداً فوق الارض حتى أغرقت جميع الجبال العالية التي تحت السماء كلها وبلغ ارتفاعها خمس عشرة نراعاً (نحو سبعة امتار) عن أعلى الجبال فمات كل كائن يتحرك على الارض من طيور وبهائم ووحوش وزواحف وكل بشر مات كل ما يحيى ويتنفس على اليابسة وباد من على سطح الارض كل كائن حي سواء من الناس ام البهائم ام الزواحف ام الطيور أبينت من الارض ولم يبق سوى نوح ومن معه في الفلك وظلت المياه طاغية على الارض مدة مائة وخمسين يوماً .

الإصحاح : ٨ : تناقص المياه :

ثم افتقد الله نوحاً وما معه في الفلك من وحوش وبهائم فأرسل ريحاً على الأرض فتقلصت المياه وانسدت ينابيع اللجج وميازيب السماء واحتبس المطر وتراجعت المياه عن الأرض تدريجياً وبعد مائة وخمسين يوماً نقصت المياه واستقر الفلك على جبل أراتات في اليوم السابع عشر من الشهر السابع للطوفان ، وظلت المياه تتناقص تدريجياً حتى الشهر العاشر وفي اليوم الأول من الشهر العاشر بدت قمم الجبال .

إرسال الغراب والحمامة : وبعد أربعين يوماً أخرى فتح نوح النافذة . التي كان قد عملها في الفلك وأطلق غراباً فخرج وظل يحوم متردداً الى الفلك حتى جفت المياه عن الأرض ثم أطلق نوح حمامة من الفلك ليرى ان كانت المياه قد تقلصت عن وجه الأرض ولكن الحمامة لم تجد موضعاً تستقر عليه رجليها فرجعت اليه في الفلك لان المياه كانت ما زالت تتمر سطح الأرض فمد يده وأخذها .

وهكذا يستمر النص في وصف أحوال ما بعد الطوفان ففي الآية ١٢ من الإصحاح ٨ يصف ظهور الأرض وكيف رأى سطح الأرض قد أخذ في الجفاف . وحتى الآية ١٥ يبدأ نوح بالخروج من السفينة بأمر الله وفي الآية ٢٠ تصف بناء نوح مذبح للرب وفي الإصحاح التاسع يبرم الرب ميثاقاً وعهداً مع نوح ومن معه بأنه لا يبيد بالطوفان كل جسد ثانية وعلامة العهد ظهور قوس من السحاب ، نقاط كثيرة تلتقي فيها قصة الطوفان في التوراة مع قصة الطوفان في القرآن وتختلف أيضاً في نقاط كثيرة قد تكون جوهرية وسوف نبين أثناء نقاط الاتفاق بدون تعقيب لانها يمضد بعضها بعضاً فتشكل حقيقة تاريخية بالنسبة لنا غير قابلة للمراجعة وهذه النقاط هي :

- ١ - شخصية النبي نوح (عليه السلام) وهو النبي الذي تدخل الرب جعلت قدرته لنصرته فأغرق الكافرين من قومه وقد أطلق القرآن والتوراة اسم النبي نوح وهذا الاتفاق على التسمية يؤكد تطابق القصة والحدث وأن الطوفان الذي في القرآن هو نفسه في التوراة .
- ٢ - الطوفان حدث عقوبة من الرب للبشر العصاة وأنجي الله المؤمنين مع نوح في سفينة أمره ببناؤها وقد اتفقت التوراة مع القرآن بأن هذه السفينة من ألواح الخشب .

٣ - تتفق التوراة مع القرآن بأن الطوفان حدث نتيجة لهطول أمطار غزيرة وخروج الماء من ينانبع الارض .

٤ - تتفق التوراة مع القرآن على ان المياه ارتفعت الى أعلى نقطة موجودة وغطت الجبال .

٥ - تتفق التوراة مع القرآن على ان السفينة استقرت على جبل وتختلف تسمية هذا الجبل ففي التوراة اسمه (ارازات) وفي القرآن اسمه (الجودي) .

٦ - تتفق رواية التوراة مع القرآن على ان الله أمر نوحاً بأن يضع في السفينة معه من الاحياء من كل نوع زوجين (نكر وأنثى) .

مع ملاحظة أن هذه الاتفاقات هي من حيث العموم أي أن هناك اختلافات في التفاصيل الدقيقة كما في الاتفاق على استقرار السفينة على جبل والاختلاف على التسمية . أما الاختلافات فيمكن تحليلها كما يأتي :

١ - النظرة الى شخصية النبي نوح (عليه السلام) والى وضع البشرية في عصره ففي نص التوراة في حلبة الجبابرة هناك تصور خاص يعطي صفة خاصة لنوح من البشر كأنهم أعلى من الانسان العادي « انجذبت أنظار أبناء الله الى بنات الناس » من هم أبناء الله ؟ ومن هن بنات الناس ؟ وكان مدوئي التوراة ارادوا منذ البداية وضع أصل اليهود بوصفهم « أبناء الله واحباؤه » كما في نص القرآن الكريم ارادوا منذ البداية أن يوجدوا لهم مكاناً فوق البشرية . ولم يتطرق النص القرآني في كل مواضعه الى مثل هذا الاتجاه الغريب .

٢ - مبدأ العقوبة الذي وضعته التوراة على لسان الرب يعكس صورة لا تتفق بالرب الخالق بحيث يندم على خلق البشر وينزع منه الحكمة والعقل ويفطيه الغضب للانتقام حاشاه وتعالى علواً كبيراً . « فقال الرب : لن يمكت روحي مجاهداً في الانسان الى الابد . هو بشري زائل » « فعلاً قلبه الاسف والحزن لانه خلق الانسان » وقال الرب « أصحو الانسان الذي خلقته عن وجه الارض مع سائر الناس والحيوانات والزواحف وطيور السماء لاني حزنت أني خلقتة » .

٣ - النص التوراتي تعامل منذ البداية مع عموم البشرية في عصر النبي نوح وكان التوراة تتحدث عن البشرية في كل بقاع الارض وهي حالة ممتدة منذ عصر

لم لم يتكبر الخطاب . بينما في النص القرآني كان الخطاب دائماً يحدّص
 في قوم نوح ﴿ كلت قبلهم قوم نوح ﴾ ﴿ أم ياتكم نأ اللين من قبلكم قوم نوح
 وعاد ولمود ﴾ ﴿ إنا أرسلنا نوحاً الى قومه ة أن ائدر قومك من قبل أن ياتهم
 علب أيم ﴾ . وجميع الآيات التي تحدثت عن دعوة نوح في القرآن الكريم
 كانت توجه الخطاب نحو نوح وقومه . وهذه حقيقة جوهرية في النظرة الى
 الطوفان لان الذين نؤدوا التوراة تعاملوا منذ البداية على أساس عموم
 الطوفان وقد شمل كل البشر وعم كل الارض . وتأسيساً على هذه الفرضية
 أضطر مؤدوا التوراة الى أن يجلح خيالهم نحو تضخيم حجم السفينة
 والتوسع في نكر أصناف الحيوانات والطيور التي وضعها نوح في السفينة
 ومما يؤسف له إن هذه العدوى انتقلت الى الاسلاميين من مفسرين ومؤرخين
 فاقتبسوا هذه المعلومات ووضعوها في كتبهم ودفنهم هذا الامر الى الاعتقاد
 كذلك بمعمو الطوفان لكل الارض مع ان « القرآن يقم كارثة الطوفان
 باعتبارها عقاباً نزل بشكل خاص على شعب نوح . وهذا يشكل الفارق
 الاساسي الاول بين الروايتين »^(١٩٩) .

٤ - لم يذكر النص القرآني اية تفاصيل أو مسميات ترتبط بالطوفان فلم يذكر
 أسماء أبناء نوح الذين ركبوا معه في السفينة ولم يذكر أسم ابن نوح الذي
 هلك في الطوفان . كذلك لم يتطرق الى انواع الحيوانات أو تفاصيل أكثر من
 نكر الزوجين في الحيوانات التي أمر نوح (عليه السلام) بإخالها في
 السفينة ولم يتطرق كذلك النص القرآني الى ابعاد السفينة وطبيعة شكلها .
 وكذلك حدد القرآن زوجة نوح بأنها من سبق عليه القول وقد وُصفت بالخيانة
 الكفرية لأنها لم تستجب الى دعوة نوح . في حين سكنت التوراة عن زوجته
 بل نكر النص التوراتي بأنها كانت مع نوح في السفينة . وهذه المهجبة التي
 اتبعها القرآن الكريم في الرواية التاريخية كانت مطردة في عدم الخوض في
 المسميات والتفاصيل الدقيقة الجانبية ونلك لان النص القرآني أريد له ان
 يعبر عن خلال المطلق الذي هو كلام الله على المحدود الذي هو الحدث
 التاريخي المتلبس بالبشر وكلام الله المقدس عندما يتحدث عن حياة البشر

(١٩٩) بوكاي / حويص / دراسة الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة /
 ص ٢٤٧ .

لا يمكن ان يتموضع في غير المقدس وهو الحدث ولذلك نجد ان القرآن الكريم يرتفع عن المباشرة وإنما يسمو نحو الرمزية والتشابه ومن خلال استيعاب حالة المتشابه نتوصل الى المحكم . فلكي لا تأخذ المسميات الصفة القدسية لذلك ابتعد القرآن الكريم عنها ولكي يمنح البشرية المعاني المطلقة والعبر المحكمة ابتمد النص القرآني عن التلبس في التفاصيل والمسميات وهو بذلك يوضح المنهج الاصيل للملاقة بين البشر والوحي المعتزل من السماء وهم يتفاعلون معه .

٥ - حددت التوراة ان الطوفان حدثَ عندما كان عمر نوح ستمائة عام ولم يتطرق النص القرآني الى اي تحديدات زمنية لا عمر نوح ولا مدة الطوفان وغيرها من التحديدات الزمنية . وإن تحديد الطوفان عندما كان عمر نوح ستمائة سنة من النقاط التي عدت من الاخطاء العلمية التي تتضارب فيها نصوص التوراة بعضها ببعض « إن الرواية الكهنوتية حددت زمن الطوفان عندما كان عمر نوح ٦٠٠ عام غير انه من المعروف بحسب الانساب المذكورة في الاصحاح الخامس من سفر التكوين ان نوحاً قد ولد بعد أم بـ ١٠٥٦ عام (وهذه الانساب كهنوتية المصدر هي ايضاً) . هوينتج عن ذلك أن الطوفان قد وقع بعد ١٦٥٦ عاماً من خلق أم ومن ناحية يخرى فجدول نسب ابراهيم الذي يعطيه سفر التكوين يسمح بتقدير ان إبراهيم كان يعيش في نحو ١٨٥٠ ق.م . فإن زمن الطوفان يتحدد انن على حسب التوراة بـ (٢١ أو ٢٢) قرناً قبل المسيح . وهذا الحساب يتفق بمنتهى الدقة مع إشارات كتب التوراة القديمة التي تحتمل فيها هذه التحديدات التاريخية المتسلسلة مكاناً طيباً قبل نص التوراة . كيف يمكن اليوم تصور كارثة عالمية قد دمرت الحياة على كل سطح الارض (باستثناء ركاب السفينة) في القرن ٢١ أو ٢٢ ق . م . ٩ . ففي ذلك العصر كانت هناك على نقاط عدة من الارض حضارات قد ازدهرت وانتقلت أطلالها الى الاجيال التالية وبالنسبة لمصر على سبيل المثال كان ذلك في الفترة الوسطى التي تلت نهاية الدولة القديمة و بداية الدولة الوسطى وبالنظر الى ما نعرف عن تاريخ هذا العصر فإنه يكون مضحكاً القول بان الطوفان قد دمر في ذلك العصر كل الحضارات « (٢٠٠) .

(٢٠٠) انظر بوكاي / موريس / دراسة الكتب المقدسة / ص ٢٤٥ . ويلاه بوكاي « منذ ان حصل

ويضيف بوكاي في صفحة أخرى « إن البشرية والامر هكذا تكون قد أعادت تكوين نفسها ابتداءً من اولاد نوح وزوجاتهم ، بحيث أنه عندما يولد ابراهيم بعد ذلك بثلاثة قرون تقريباً ، فانه يجد الانسانية قد أعادت تكوين نفسها في مجتمعات . كيف يمكن لاعادة البناء هذه أن تتم في زمن قليل الى هذا الحد ... ؟ إن هذه الملاحظة البسيطة تنزع عن النص أية معقولة » (٢٠١) .

وهكذا نجد إن الرواية التوراتية ليست نصاً ولا وثيقة تاريخية وإنما هي قصة تمكسء بالاخطاء والتعديل والتحريف . كما وأنها تمثل روايتين الرواية الكهنوتية والرواية اليهودية وإن تعدد المصادر للحدث نفسه يفقده القيمة التاريخية . وهكذا نجد ان العلماء المسلمين لم يكونوا على مستوى من الدقة عندما استشهدوا بالاسرائيليات لتفسير النص القرآني ولو ترك النص القرآني وحده يعبر عن الحقيقة لتخلصنا من التشويشات والاضطراب في عملية فهم النص . وهكذا يتعمق لدينا شعور بان الاستغناء عن النص القرآني في دراسة التاريخ القديم خسارة لا تعوض وان هذا القرآن لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد ولا تشبع منه العلماء ولا تلتبس به الاهواء وصلى الله العظيم ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ (٢٠٢) .

→ المتخصصون على بعض المعلومات عن تسلسل الاحداث في العصور القديمة . كتبت هذه الحوليات الوهمية لكتاب العهد القديم الكهنوتيين ان تكون موضع تصديق سارغ المسؤولون بحذلقها من كتب التوراة لكن المعلقين المحدثين على هذه الانساب - التي احتفظ بها - لا يلقون انتباه قراء كتب التعليم الديني العامة نحو الاخطاء التي تحتويها . هامش ص ٢٤٥ .

(٢٠١) بوكاي / موريس / دراسة الكتب المقدسة / ص ٥٢ .

(٢٠٢) سورة فصلت / ٤٢ .

ثالثاً : الطوفان في الروايات التاريخية والرقم الطينية

لم يترك حدث في تاريخ البشرية أثراً في ذاكرة التاريخ كما ترك الطوفان . فقد تناقلته الشعوب والامم وشكل تراثاً يتربد على السنة البشر . الاجيال تناقلته والشعراء انفتحت قرائحهم في استلهامه . وكان ذلك من أهم أسباب حفظه وإشاعة ذكره على مر العصور . « وقد أكد اليكساندر كوندراتوف الذي ناقش موضوع الطوفان - ان قصص الطوفان ليست مقصورة على شعب من الشعوب فهي متداولة بين سكان الجزر الشرقية في اوقيانوسيا (المحيط الهادي) واليابانيين ، والصينيين واليوربيين والهنود الحمر فضلاً عن شعوب البحر المتوسط . وهناك طوفانات موضعية تحصل لسبب أو آخر نتيجة زوبان مفاجيء وسريع للتلوج أو أعاصير مصحوبة بالمطر أو احتياج موجي ناجم عن اضطرابات او اهتزازات في قاع البحر او زلازل الارض والبحر او انفجارات بركانية . وفي حدود عمر الانسان المتحضر لم تحصل كارثة ذات بعد مدمر على صعيد كوني فلماذا إذن يقول كوندراتوف تتواتر حكايات الشعوب عن الكوارث فيضانية مدمرة على صعيد كوني كما تزعم ؟ ويمكن الاجابة عن ذلك على ضوء الحقيقة الآتية : ان أفق العالم المحيط بأي شعب من الشعوب القديمة محدود بالرقمة التي يوجد فيها أو أوسع منها الى هذا الحد أو ذاك فبالقياس الى ساكن الجزيرة فان العالم يقتصر على جزيرته فقط أو مجموعة من الجزر المحيطة به وبالنسبة لسكان وادي من الوديان لا يتجاوز العالم حدود الجبال المحيطة به وهكذا فان حدوث كارثة موضعية سيرتك انطباعاً عندما تطالهم الكارثة . بان أركان العالم تنهاوى على أبنائه لانهم لا يعرفون شيئاً عن الاصقاع الأخرى »^(١٠٢) ويفض النظر عن أهداف الدراسة الملمانية التي قام كوندراتوف والتي استشهد بها علي الضوك فإننا نجد أنفسنا أمام استنتاجات تخدم الاهداف المتجربة عن القناعات المسبقة التي تحكم عقول معظم الباحثين اليوم في هذا المجال . وان هذه الاستنتاجات لا تتقاطع مع حقيقة قصة الطوفان في النصوص القرآنية . ان شيوخ قصة الطوفان بين الشعوب وصياغة هذه القصة صياغات متعددة

(٢٠٣) الضوك / علي / الاساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة / ١٠٩ - ١١٠ .

« الذي يدعى طوفان ديوكاليون (Deucalion) الجد المزعوم لليونانيين كما يذكر تنقيح بمقتضى البيئة المختلفة للشعوب كما في أسطورة القارة المفقودة اتلنتا « والتي يقلب عن الظن أنها من نسج مخيلة افلاطون » وقصة الطوفان اليوناني روبرت غريغز في كتابه (الاساطير الاغريقية) « وهي قصة تكاد تتشابه مع طوفان نوح التوراتي وطوفان كلكامش الاكدي » ويقول روبرت غريغز إن أسطورة طوفان ديوكاليون نقلها الهيلانيون من آسيا وتكرنا بأسطورة نوح التوراتية وعشتار البابلية^(٢٠٤) . ان هذا الانتشار الواسع لحدث الطوفان يؤكد بما لا يقبل الشك حدوث طوفان هائل انتقلت اصدائه الى العالم . وإذا كان التعبير عن هذه الطوفانات اخذ طابع الاساطير « فان الاساطير القديمة مهما احتوت من المبالغات في بناء أحداثها ولكنها مع ذلك مستندة الى معلومات تاريخية حقيقية . وهذا يعني ان الاسطورة لا تصنع من الخيال المجرد ، بل تعمل فقط على تجسيم تلك الحقائق التاريخية والمبالغة فيها »^(٢٠٥) وكذلك عد الطوفان موضعياً تفسير منطقي وتبرير مقنع عندما يصف تصور النين حلت عليهم الكارثة وإن الصورة الانطباعية المتروكة لدى الناجين منهم بان الارض كلها قد حلت بها الكارثة . لشدة هول الصدمة ولصعوبة الاتصال بالمجتمعات الاخرى . وان تفسير كوندراتوف لظاهرة وجود الهنود الحمر في العالم الجديد وسكان استراليا القديما كان بسبب مرحلة جليدية مرت على الارض قبل ٢٥ ألف سنة أدت الى انخفاض مستوى المياه في البحار والمحيطات مما أدى الى ظهور جسور برية بين القارات ساعدت على انتقال النوع البشري والحيوانات والنباتات بين القارات وبعد فترة من الزمن بحدود ٥ - ٨ آلاف من السنين ما لبثت هذه الجسور أن انقضت مرة اخرى بمياه للمحيطات بعد ان ارتفعت مناسيبها بالتدرج^(٢٠٦) إن هذا التفسير معقول جداً ولكننا لا نتفق معه على تفسير الطوفان بأنه حدث بعد فترة بقاء مرت على الارض بعد الفترة الجليدية كانت سبباً في نوبان الثلوج وحدث طوفان عم الارض وسمى هذا بالدفء الفلاندي (نسبة الى مقاطعة فلاندر البلجيكية) لان هذا يقود الى الفرضيات والخيال العلمي ويفرض سؤال نفسه لماذا حصل هذا الدفء وما هي أسبابه ؟ فلا يستطيع الاجابة عنه

(٢٠٤) الشوك / علي / الاساطير / ص ١٠٢

(٢٠٥) رشيد / د / فوزي / سرجون الاكدي اول امبراطور في العالم / ص ٢٠ - ٢١

(٢٠٦) الشوك / علي / الاساطير / ص ١١٠

ويحيله الى فرضيات واستنتاجات .

إن ان ترديد الطوفان في تراث الشعوب وأب الملاحم يضع أمامنا حقيقة تستدعي أن نشد اليها انتباهنا ونسأل عن سر تخليد الطوفان وجعله معلماً من معالم تاريخ المعتقدات والاديان حتى ان البشرية تؤرخ لبدائيتها منذ الطوفان فيقولون (ما قبل الطوفان وما بعد الطوفان) . ان هذه الظاهرة وهي تواتر حكاية الطوفان هي التي جعلت كوندارتوف يتسأل عن سرها ويقول : لم يحدث حدث أو طوفان كوني في حدود عمر الانسان المتحضر فلماذا تتواتر حكايات الشعوب عن كوارث فيضانية مدمرة على صعيد كوني كما تزعم ؟ وهو سؤال يستحق الوقوف عنده . ان القرآن الكريم عندما تحدث عن الطوفان ونجاة نوح ومن معه ختم الكلام عن الطوفان بقوله تعالى ﴿ ولقد تركناها آية لهل من مدكر ﴾ (٢٠٧) ، وقال قتادة : أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الامة . والظاهر ان المراد من ذلك جنس السفن كقوله تعالى ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ (٢٠٨) . بحسب رأي قتادة إن الله جعل السفينة آية لتتذكر الاجيال قدرة الله وبطشه بالمكذابين المعاندين ولكن تحللت أخشاب السفينة وتحولت الى رمال وتراب أين الآية ؟ الآية في ذكر الشعوب لحدث الطوفان . هذه الاثار والرقم الطينية هي الآية المتروكة لمن يريد أن يتنكر . وهذا يربطنا بأية أخرى جعلت الاثر المادي دليلاً على قدرة الله تلك الآية هي جثة الفرعون الذي خرج يطارد موسى وبني اسرائيل فأغرقه الله ثم أخرج جثته وألقيت هذه الجثة على الساحل فأخذ المصريون جثته وحفظوه واحتفظوا بهذه الجثة على عادتهم في تحنيط ملوكهم مصداقاً لقوله تعالى ﴿ فاليوم نجيك بينك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ (٢٠٩) (في عصر النبي محمد ﷺ) كان كل شيء مجهولاً عن هذا الامر ولم تكتشف جثث الفراعنة الذين شك الناس في العصر الحديث ان لهم علاقة بالخروج والتي كانت مدفونة بمقابر وادي الملوك بطيبة على الضفة الاخرى للنيل امام الاقصر الحالية . وكما يقول القرآن فقد انقذ بدن هذا الفرعون وأياً كان هذا الفرعون فهو الان في قاعة المومياءات الملكية في المتحف المصري بالقاهرة

(٢٠٧) - سورة القمر / ١٥

(٢٠٨) ابن كثير / ابو الغداء اسماعيل / تفسير القرآن العظيم / ج ٤ ص ٢٦٤

(٢٠٩) - سورة يونس / ٩٢ .

ويستطيع الزوار أن يروه . وقد علق الأب كوراوييه (R. P. Couroyer) الاستاذ بمدرسة الكتاب المقدس حول موت فرعون : « يشير القرآن اليه (اي موت فرعون) في سورة يونس الآيات من ٩٠ - ٩٢ . وعلى حسب التراث الشعبي فان فرعون قد ابتلع بجيشه (وهذا ما لا يقوله النص المقدس - يعني التوراة) . وهو يسكن الآن قاع البحر ويحكم مملكة انسان البحر اي عجول البحر »^(٢١٠) . إنن : القرآن الكريم قال بدجاة الجنة والتوراة لم تذكر شيئاً حول جنته والتراث الشعبي يقول انه يسكن قاع البحر ويحكم مملكة انسان البحر اي آية عظيمة أعلنها القرآن وتحدى فيها عقول البشر وهو يعلن استبقاء جنة الفرعون لتبقى لمن خلفه آية . وإننا كان التحنيط الذي برع به المصريون القداما أريد له أن يخدم الحقيقة التي أراد أن يثبتها القرآن فإن هذا التوافق يشكل معجزة أخرى لمقدرة الله تعالى . وتحنيط الفرعون يقابل الرقم الطيني الذي حفظته الأرض من البلى والذي يحكي قصة الطوفان كأقدم شاهد مادي على هذه المعجزة والآية التي تندرج تحت قوله تعالى ﴿ ولقد تركناها آية فهل من مدكر ﴾^(٢١١) . فقد أبداع الشاعر العراقي في إعطاء صورة مؤثرة في وصف الطوفان فكانت ملحمة كلكامش كنز عظيم لا يقدر بثمن لأنها اعطتنا تصورات ووضحت لنا إشكاليات ما كان لنا أن نتخيلها أو تمر على بال الباحثين في هذا المجال وفي التاريخ الانساني بصورة عامة . ويعد الابد العراقي أقدم الاداب في العالم فقد سبق أدب وادي النيل وأدب أوغاريت الكنعانية والابد المبراني الذي تمثل التوراة أقدم وثائقه^(٢١٢) . ومع هذا القم الذي امتاز به الابد العراقي « فالسومريون لم يتصوروا أنفسهم حديثي عهد في المدنية والحضارة بل عدوا أنفسهم ورتاء ما ضي بعيد مجيد ، إذ تخيلوا نلك الماضي على هيئة عصر « نهبى » كان السلام والوئام فيه يسودان العالم . فلا خوف ولا حزن ولا بغضاء وكان الخير يعم الكون وكان البشر (بلسان واحد يمجدون الاله الليل »^(٢١٣) وهذه المعاني تتفق مع النصوص الاسلامية التي تؤكد ان البشرية كانت على الاسلام ثم اجتاتهم الشياطين وبدأت

(٢١٠) بكاي / موريس / دراسة الكتب المقدسة / ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٢١١) سورة القمر / ١٥

(٢١٢) انظر باقر / د. طه / ملحمة كلكامش / ص ٩ . نشر وزارة الاعلام ببيداد / سنة ١٩٧٥

(٢١٣) انظر د. طه باقر / م . ص / ص ١٠ / ينقل عن :

الانحرافات منذ عصر نوح (عليه السلام) حيث طغت الوثنية وتعددت الالهة والفساد الاجتماعي والظلم وبذلك تبرز القناعة بأن عصر نوح مثل الجنود الحقيقية لحضارة وادي الرافدين التي تعد أقدم حضارة عرفت البشرية . فرصة عظيمة تركها لنا العراقيون القدماء فقد تعرفنا من خلال الرقم الطينية على معتقداتهم الدينية وحياتهم الاجتماعية وأنظمتهم السياسية في صورة يمجز الوصف في التمييز عن الامتنان لهم بها وهي معجزة حقا أن تكون الكتابة على أرض الرافدين أقدم الوثائق المدونة في العالم ومن الغريب أن يسبق أهل الرافدين غيرهم في تدوين حياتهم على الواح الطين في عصور موغلة في القدم وعلى وفق طريقة ليست من السهولة بمكان ، فلما يكتب العراقي القديم قصيدة شعرية او عقد أو وثيقة بيع أو وثيقة حكم قضائي فعليه أن يهيمه لوح الطين ويكتب عليه وهو رطب ثم يتركه يجف تحت أشعة الشمس لمدة أيام ثم يحتفظ بهذه اللوح كالألواح الخشب^(١١) . لقد ارتبطت أرض الرافدين بالدنوات ارتباطاً غريباً فعلى هذه الأرض بدأ الانسان قصة الدين الأولى منذ أم نوريته حتى نوح (عليه السلام) لقد عبّر الانبياء عن أهم قضية ترتبط مع حياة الانسان هذه القضية هي قضية الدين . العلاقة مع الخالق ، فكان لابد لهذه العلاقة من أن تحفظ شواهدا منذ بداياتها الأولى حيث فجر الرسالات . فكان لابد لهذا الشعب أن يهيمه الله له أسباب الكتابة لكي يحفظ من خلالها الاسر التي قامت عليها الحياة الفكرية والروحية للبشرية فكانت هذه التجربة منذ أم حتى نوح تمثل المرحلة الأولى لعلاقة الانسان بالخالق . وكانت المرحلة الثانية تبتدىء بإبراهيم (أبو الانبياء) وشاء الله لهذه المرحلة ان تبتدىء من أرض الرافدين كذلك . وكانت المرحلة الثالثة التي تمثلت بخاتم الانبياء محمد (ﷺ) أرسله الله للبشرية لكي يمثل آخر التجارب على الأرض والذي استجمعت رسالته كل القيم والمبادئ التي بُعث عليها الانبياء . فكانت تتصل بعمق فتشكل الامتداد المنطقي منذ أم (عليه السلام) حيث تتماسك القصة وتتصل لتعلن بوضوح عن وحدة المصدر لأهم قضية على الأرض وهي التوحيد أو عبادة الخالق الواحد الاحد . وتستوعب المستقبل لتشكل حللاً سماوياً لكل العقبات التي تواجه الانسان على الأرض حتى قيام الساعة . وشاء الله أن يرتبط محمد (ﷺ) بإبراهيم ابي الانبياء ومن خلاله ارتبط

محمد (ﷺ) بالعراق والعراقيين القدماء وإن من الأشياء التي تتير التساؤلات أن هذا التراث المتكون من آلاف الرقم الطينية لم يتطرق الى هذه المحاولات التي قام بها الانبياء لانقاذ أرواحهم من سطوة الجاهليات والاهواء والمظالم التي كانت تنوء بها حياتهم ا ان هذه الرقم الطينية لم تتكلم عن أمم وشيت وإدريس وفوح وإبراهيم وغيرهم من الانبياء الكثير . وإن الباحث يصيبه الاحباط وهو يبحث عن الانبياء الذين نكرهم الله في كتبه التي أنزلها على البشر فلا يجد نكراً لهم . وإنما يجد الوثنية ومسميات الالهة أنو (Anu) والليل (Enlil) والكي (Enki) ونسمع عن كلكامش وأوتونابشتم وارتخاسيس وحمورابي . أين القصة الحقيقية وسط هذا الركام من الاساطير ؟ أين الانبياء وسط هذا التمجيد لابطال اسطوريين ؟ لا بد أن تكون القضية متلبسة لباساً غير طبيعي أبعدنا عن المصدر الحقيقي . إننا أمام احتمالات وتحليلات لهذه الظاهرة . وهذه التحليلات تؤكد لنا عدة استنتاجات منطقية لعل أهمها : إما ان تكون الاديان التي جاء بها الانبياء أوهام ولم يكن هناك أنبياء وإن اليهودية والنصرانية والاسلام قد وضعتها عقول موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام وقد وضعوا تاريخاً مزيفاً وأسماءً مزيفة لخداع أرواحهم والبشرية جمعاء . وإما أن تكون هذه الرقم الطينية أوهام وإن قراءتها وترجمتها غير صحيحة وخذعنا من قال بأنه استطاع ان يحل رموز هذه الرقم وينقل الينا ما فيها . فإذا لم يكن هذا وذاك ننقل الى الاحتمال الثالث وهو أن هناك تتميماً على محتويات بعض الرقم الطينية التي فيها من المعلومات ما يعزز وينتصر للدين ورموزه وأنبياء التاريخ القديم (قبل اليهودية) . وإننا نتوقع وجود مثل هذه المحاولات خصوصاً من قبل اليهود الذي ليس من مصلحتهم معرفة الحق بالنسبة لغير اليهود . وقد نكر القرآن الكريم جانباً من محاولاتهم تحريف الحقائق وإخفاء معلومات تاريخية تخص بعثة الرسول (ﷺ) ومنها التواء أسنتهم لإيهام الناس بأن الكلام الذي يقولونه هو كلام الله ومز الكتاب الذي أنزل وما هو من الكتاب . إنن ليس غريباً على اليهود هذا السلوك وهم لباس الحق بالباطل وكتمان الحق وخط الاوراق وينقل لنا الدكتور احمد سوسة حالة من حالات تغيير المعلومات التاريخية على ضوء الايديولوجيات السياسية فيقول « ان الخبير الآثاري المعروف (سيتون لويد) الذي كان يعمل خبيراً دائرة الآثار العراقية عدة سنوات كتب مقالاً عن اريو نشر في مجلة سومر سنة ١٩٤٧ يستغرب فيه كيف يجرأ كرامر الخبير الآثاري في موضوع (السومريات) ان يصرح في كتابا

الاساطير السومرية) الصادر مؤخراً - ١٩٤٤ - ان معظم أراضي السهل الرسوبي من بلاد ما بين النهرين كان بلا شك يسكنها الساميون عندما نزح السومريون الى العراق من غير أن يخشى العاقبة فيقول ما نصه : (كرامر لم يخش أن يصرح في كتابه (الاساطير السومرية) بأن معظم أراضي ما بين النهرين بحلة والفرات كان بلا شك يسكنها الساميون) .

[in "Sumerian Mythology" published as recently as 1944 Karter is not afraid to assert at the time of the sumerian invasion much of the land between the Tigris and Euphrates was no doubt inhabited by the Semits].

سومر م ٣ ، العدد (١٩٤٧) القسم الانكليزي ص ٩١ .

ويذكر الدكتور سوسة ان كرامر حذف كلامه فيما بعد من كتابه في الطبقات الجديدة سنة ١٩٦١ . ولم يكتف كرامر بذلك بل أصدر كتاباً جديداً لتأكيد اتجاهه الجديد سماه (التاريخ يبدأ في سومر) سنة ١٩٥٩ وعنوانه باللغة الانكليزية (History begins at Sumer)^(١١٥) وبغض النظر عن الهاجس الذي كان يسيطر على د. سوسة والذي رده في كتبه بأن الساميين هم نواة الحضارة وإن وجودهم سابق لغيرهم ومناقشاته حول أصل السومريين . فان هذا لا يعيننا لاننا نؤمن بأن الدين والنبوة فضل من الله يصيب به من يشاء وان الانبياء يختارهم الله جلت قدرته . ولا علاقة للقضية العرقية ولا الجنس في اختيار الانبياء فكما اختار الله الانبياء من بني اسرائيل اختار أنبياءه من العراقيين القدماء كما اختار محمداً (ﷺ) من العرب واختار منهم هوداً وصالحاً وشعيباً كما ورد في صحيح ابن حبان عن ابي نر من حديث طويل في ذكر الانبياء المرسلين قال فيه : « منهم أربعة من العرب هود وصالح ، وشعيب ونبيك يا ابا نر »^(١١٦) . ولكن هذا لا يعني الغاء أسباب التفضيل وميراث الاختيار . فان هناك ارتباطاً موضوعياً بين النبي المختار وبين قومه فما اختار الله سبحانه وتعالى محمداً (ﷺ) نون مناسبة فقد كانت الامة العربية قد وصلت الى النضج والتكامل في الاستعداد لاداء دور حضاري لقيادة العالم فكانت القيم التي يؤمن بها العرب والأخلاق والفضائل تنسجم في معظمها مع الرسالة وكذلك فقد

(٢١٥) انظر سوسة / د. احمد / حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين / ص ٢٠

(٢١٦) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ٩٤ .

وصلت لغتهم الى مرحلة النضج والتكامل لكي تحمل كلام الله وتكون لغة القرآن الذي أنزله الله تعالى منهاجاً متكاملأ الى جميع البشر عربيههم وأعجميههم . وقد نكر الطبري « أن أهل التوراة يزعمون ان لا نكر لعاد ولا لشمود ولا لهود ولا صالح في التوراة وأمرهم عند العرب في الشهرة في الجاهلية والاسلام كشهرة ابراهيم وقومه »^(٢١٧) . وهذا يثبت لنا أن اليهود قد مارسوا عملية اخفاء المعلومات حتى عند كتابة التوراة . ويذكر مالوان الباحث الاتاري في مذكراته حادثة تؤكد القضية . حيث يقول « وذات مرة ظن الخبير في النقوش الذي كان يعمل ممنا خطأ إنه قرأ اسم ابراهيم على لوح طيني منقوش وتسرعت الى الكتابة الى صديقي في انجلترا ونكرت الاكتشاف . وعندما علم وولي أنني فعلت نك وبخني بشدة وجملني أبعث ببرقية التمس فيها من صديقي التزام الصمت حتى يحين وقت اعلان النبا . غير ان نك الوقت لم يحن ابداً »^(٢١٨) . وإذا أحصنا الظن وقلنا بأنه لا يوجد تعميم على نتائج الحفريات والاثار فهناك احتمال رابع إما نحن بصدده . وهو ان قراءة الرقم الطينية والتاريخ القديم . لم تكن تقرأ بمقلية تؤمن بالدين حيث ان معظم المستشرقين والاثاريين الغربيين تكونت ثقافتهم نتيجة إفرزات عصر النهضة الذي قام على إنكار الدين وتشكلت عقلياتهم بموجب رد الفعل ضد الكنيسة وما كانت تتبناه من افكار خاطلة تصطم بالملم التجريبي ونتائج بحوث العلماء . لذلك جاءت معظم قراءات الاثاريين خاضعة لهذا المفهوم فهم يفسرون الطوفان بأنه حالة فيضان وارتفاع في مناسيب المياه ، مما كان يحدث في بلاد ما بين النهرين باستمرار^(٢١٩) وعندما يجنون الاصنام والتماثيل يفسرونها بأنها المكاس لمعاناة الانسان في واقعه وبيئته كما نكر ديورانت « بأن الموت والاحلام التي كان يراها الانسان للموتى كانت سبباً في تجسيم فكرة الارتباط بهؤلاء الاشخاص »^(٢٢٠) وبالجملة فإنهم استبعدوا الغيب والايمان به وجعلوا عقائد

(٢١٧) الطبري / محمد بن جرير / تاريخ الرسل والملوك / ج ١ ص ٢٢٢

(٢١٨) مالوان / ماكس / مذكرات مالوان / ص ٥٨ .

(٢١٩) اقرأ كل ما كتب حول الطوفان فان التفسير المشترك له هو ارتفاع مستوى الماء في بحلة والفرات ، كما قال كويندرا توف وولي وييلكوكس وكريمير ولونزل حتى من كتب من العراقيين والعرب تاتر بهذه الآراء انظر كتابات احمد سوسة . ود. فاضل عبدالواحد . ود. سامي سعيد الاحمد وغيرهم .

(٢٢٠) انظر ديورانت / بول / قصة الحضارة / المجلد الاول حول نشوء الديانة .

الناس صدى للخوف من الحوادث الطبيعية والموت والرغبة والشهوة . وانه لامر مؤسف حقاً أن تفسر أنشطة الانسان الروحية وأفكاره بانها مرتبطة ارتباطاً لا يتعدى الجسد المادي الذي يشترك فيه الانسان مع الحيوان . وتلغى الروح والعقل ويهمل التراث الضخم الذي سجل فيه الانسان أرقى انتصاراته في ميدان العقائد والنشاط الروحي والعقلي حيث أعلن الانسان من خلالها تفريده واستعلاءه على عالم الحيوان . من خلال الاديان وتكريم عقل الانسان .

والحق الذي نريد ان نقول أنه يبدو ان الامر مشترك بين هذه الاحتمالات مما أدى الى هذا الفهم للتاريخ القديم . والاهام والاساطير لم تفتأ ملازمة لحياة الانسان فكانت عملية تلبس الوهم بالحقيقة نائمة الظهور في حياة البشر فالصراع بين التوحيد والوثنية لم يتوقف منذ أن أعلن الله سبحانه وتعالى نبأ استخلاف الانسان فاعلن الشيطان على اثر هذا الاستخلاف الحرب على الانسان وتمهد بفوايته وتلبس الحقائق عليه بالاوهام وبما ان الدين حاجة فطرية مجبول عليها الانسان فما ان يترك التوحيد حتى ينحط الى الوثنية لانه لا يستطيع الحياة بلا دين والذي يعيش بلا دين فانه فاقد للوعي . فكان لا بد من دين وإله يركن اليه الانسان وهنا يُزين الشيطان للانسان طريق الاوثان وقد نكر ابراهيم هنا المرض النفسي القديم الذي كان يعانى منه الانسان ﴿ واجنبي ويني أن نعبد الاصنام ﴾ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ﴿^(٢٢١)﴾ . وكذلك لا بد ان نعتقد بأن هناك عمليات تعتيم وهناك عمليات تضخيم لخدمة أهداف غير معلنة تختم اليهود . وان كان هنا لا يعني بان الامر محكوم بهذا القالون ومتحكم فيه وفق هذا المفهوم . فاننا ندرك أن هناك معلومات لو نشرت لادى تلك الى إحداث تغيير في عقائد الناس او تنهار على أثر نشرها مشاريع مخطط لها من قبل اليهود . تماما كما تحجب بعض الدول وثائقها ولا تظهرها الا بعد خمسة وعشرين عاماً او خمسين عاماً أو بعض الوثائق لا يمكن كشفها على الاطلاق . وكذلك علينا ان نعلم بان القراءة القريبة للتاريخ القديم معظمها خاضع لمفهوم العلمانية التجريبية التي لا تؤمن بكل شيء لا يدخل المختبرات ولا يخضع للتجربة . ملحمة كلكامش هي الوثيقة العظيمة التي احتفظت لنا بمعلومات مهمة عن الطوفان وهي أروع ما تركه لنا المراقبون القدماء « والتي يصح لنا أن نسميها أوديسة العراق القديم يضمها الباحثون ومؤرخو الابد المحدثون بين الشوامخ من الابد العالمي . ولعلني

(٢٢١) ابراهيم / ٢٥ - ٢٦ .

لا أبالغ إذا قلت إنه لو لم يأتنا من حضارة وادي الرافدين من منجزاتها وعلومها وفنونها شيء سوى هذه الملحمة لكانت جديرة بأن تتبوأ تلك الحضارة مكانة سامية بين الحضارات العالمية القديمة»^(٢٢٢). هذه الملحمة الشعرية كتبت على الواح طينية عددها إثنا عشر لوحاً أول من اكتشف أهميتها البريطاني جورج سميث « حيث أعلن عام ١٨٧٢ م نبأ اكتشاف خبر الطوفان في محاضرة ألقاها على الجمعية الآثارية للتوراة في لندن فاثارت ضجة وحماساً بالفين في العالم مما حدا بجزيرة (ديلي تلغراف) ان تتبرع بالف جنيه لينفقها جورج سميث في مواصلة الحفر في خرائب نينوى وقد نجح فعلاً في العثور على أجزاء أخرى مكتملة ونشر بحثه قبل وفاته المبكرة في عام ١٨٧٦ « وهو في السادسة والثلاثين من عمره»^(٢٢٣) ثم استمرت على اثر هذه المحاولة محاولات عديدة استغرقت سنياً طويلة حتى تم تجميع الواح هذه الملحمة. وبعد نشر جورج سميث ابحاثه، أخذت الابحاث والدراسات تزاد وتعمدت الترجمات لهذه الملحمة العظيمة. ولا تزال الدراسات والابحاث مستمرة عنها الى هذا التاريخ وقد وجدت نسخ عديدة من الملحمة في أماكن متفرقة من العراق والبلاد القريبة « فقد وجدت نصوص من الملحمة في موضع (سلطان تبه) في جنوب تركيا قرب حران وفي العاصمة الحثية (حاتوشاشر) وجدت بعض الاجزاء تعود الى اللوح الخامس. وفي (مجدو) في فلسطين عثر على كسرة تعود الى الملحمة. مما يؤكد الاتصال المباشر بين المبرانيين وبين المآثر الادبية والدينية في حضارة وادي الرافدين»^(٢٢٤) وقد نقلت الينا هذه الملحمة جوانب عديدة مما كان يفكر فيه العراقيون القدماء وكذلك سلطت الضوء على جوانب من المجتمع العراقي وتكوينه وطبيعته وكذلك جانباً من الوضع السياسي وموقع الملوكية في المجتمع العراقي القديم ولعل أهم قضية تعالجها الملحمة هي قضية الموت وكيف حاول كاتب الملحمة ان يعطي قارئه الملحمة نوعاً من الراحة وهو يمنحه العزاء والسلاوى « في مغالبة مصائب الزمان وتكبات الدهر ومنها الموت وملخص الملحمة أن حتى لكلامش الذي اختصته الارياب بالرعاية والحب فلعظته قوة البدن وجمال الشكل وحكمة وافرة وطولاً فارعاً (اثني عشر نراعاً) ونسباً

(٢٢٢) باقر / د طه / ملحمة كلكامش / ص ٢٠ .

(٢٢٣) باقر / د طه / ملحمة كلكامش / ص ٣٩ .

(٢٢٤) باقر / د طه / ملحمة كلكامش / ص ٤٠ - ٤٢ .

مرتبطاً بالآلهة حيث كانت أمه (حسب الاسطورة) الربة ننسون وأبوه ملك عظيم لوكلل باندا وبذلك صار ثلثاه الهاً وثلثه انساناً وحصل على ما تطلبه نفسه وتشتهيها من لذات الدنيا حيث لم يترك بنتاً لأبيها أو زوجة لبعلمها وهو الذي صرح انكيو الوحش الذي لا يقهر وقتل العفريت الكبير أصل الشر في العالم خومبابا المخيف فحتى هذا البطل السومري العظيم قد توفي فعليك ايها الفرد الاجتماعي ان تتفهم الواقع وترضخ لناموس الكون وتترك القلق على الموت والبكاء على من يرحل^(٢٢٥) لتكون الملحمة من اثني عشر رقيماً تشكل مزيجاً غير متجانس في معالجة مواضيع مختلفة ولكن صياغتها الادبية الرائعة وعمق الفكرة الرمزية تمنحها وحدة في الصياغة والاسلوب ففي اللوح الاول يدور حول شخصية كلكامش وكيف كان يتمتع بلا حدود يعكس لنا بأنه كان يمارس شهواته نون أي اعتبار للاخرين وهذا يوحي بأنه ملك جبار امتاز بقوة الجسد ونهاء العقل حيث يسلط على انكيو امرأة عاهرة لكي تفريه وتستدرجه اليه . واللوح الثاني يتابع لقاء انكيو مع كلكامش ويبين لنا اللوح كيف اراد كلكامش الدخول على عروس (قبل زوجها لأنه كان يمثل السيد المطاع) . وكيف بدأ الصراع بين انكيو وكلكامش وفي اللوح الثالث تتحول العلاقة بين انكيو وكلكامش الى علاقة صداقة ويتفقان على القضاء على العفريت خمبابا اساس الشر في العالم وتستمر الألواح الرابع والخامس والسادس في وصف الرحلة نحو خمبابا للقضاء عليه وفي الألواح السابع والثامن والتاسع والعاشر تصف مرض انكيو وموته وحزن كلكامش عليه ثم قرار كلكامش بالبحث عن الخلود ثم ناتي الى اللوح الحادي عشر وهو لوح الطوفان وقصة الطوفان حكاها أوتونابزتم الى كلكامش وفي اللوح الثاني عشر وصف لاحوال العالم السفلي وكيف كان انكيو يعيش في العالم السفلي . وكيف قال انكيو لكلكامش « اذا وصفت لك العالم السفلي الذي شاهدته فسوف تجلس وتنتحب » فتاوه كلكامش وألقى بنفسه في التراب^(٢٢٦) لقد كانت ملحمة كلكامش بالنسبة لدارسي حضارة وادي الرافدين « منجماً زاحراً لاستقاء اوجه ومقومات أساسية عن أحوال العراق القديم كمقائد القيم الدينية والتهتم وأرائهم في الحياة والكون. وأحوالهم الاجتماعية وجوانب مثيرة من حياتهم

(٢٢٥) الاحمد / د. سامي سعيد / ملحمة كلكامش / ص ١٤ المقفلة .

(٢٢٦) انظر الاحمد / سامي سعيد / ملحمة كلكامش / ص ٢٨ - ٣٠ بتصرف .

عن المقفلة .

الماطفية» (٢٢٧) إن الملحمة كتبت بشكلها النهائي وشاعت في زمن يعرف بالمعهد البابلي القديم (الألف الثاني ق . م .) (فقد وجدت نسخ كثيرة لها في حواضر العراق القديم في اوار ازدهار الحضارة البابلية^(٢٢٨) . ووجدت آخر نشرة لها كاملة في خزانة كتب الملك الاشوري (آشور بانينال) الشهيرة وهي من القرن السابع قبل الميلاد والملحمة فيما يبدو لمن تصر عن حالة واحدة بلورت الملحمة ولكن المرجح أنها جمعت من مصادرها وأخذت شكلها النهائي (فهي وان جاءت الينا من ناحية الفن القصصي على هيئة وحدة قصصية الا انها كانت اقرب ما تكون الى الجمع الادبي . أي أنها مؤلفة من عدة قطع واجزاء تدور حول أعمال وحوادث مختلفة »^(٢٢٩) لذلك فان أصول حوادثها قد جاء من التراث السومري . كما يقول المرجح د. طه باقر : « فقد ابان البحث الحديث أنها ترجع الى مصادر سومرية »^(٢٣٠) ولكن د. احمد سوسة ينفي اصلها السومري ويقول : « ابان البحث الحديث ان الملحمة ترجع الى مصادر قديمة ثم بدأت تتبلور في عهد سيطرة السلالة الاكدية التي أسسها سرجون الاكدي الشهير في حدود سنة ٢٣٧٠ ق . م . ونونت كاملة في المعهد البابلي القديم (اي مطلع الألف الثاني ق . م . حتى أصبح متفقاً عليه بين النقاد ان هذه الملحمة بشكلها متكامل الاكدي تعد نتاجاً ادبياً بابلياً صرفاً . وبما ان جلجامش ارتبط اسمه بسلالة الوركاء الاولى وهو الذي شيد سورها القديم والمقصود هنا زمن الوركاء ما قبل التاريخ تبر ان يكون السومريون قد ظهوروا على مسرح الاحداث ولما كانت آثار الوركاء وسبب الوركاء قد وجد مثيلها في سورية السامية وهي ترجع الى زمن اقدم من دور الوركاء فيمكن الاستدلال من ذلك ان ملحمة كلجامش ترجع الى اصل سامي ايضاً »^(٢٣١) . ان هذا الكلام اهتماد عن الحقيقة وتكلف في رد كل انتاج فكري وادبي الى اصل سامي ومن الصعوبة ان تقنع الآخرين بمقتضى هذه التفسيرات والتاويلات التي تغتفر الى الاملة الكافية . فنحن نعلم ان هناك افكاراً وقطعاً موجودة في

(٢٢٧) باقر / د . طه / ملحمة كلجامش / ص ٢٣

(٢٨) باقر / د . طه / ملحمة كلجامش / ص ٢٤

(٢٢٩) باقر / د . طه / ن . م . / ص ٣٤

(٢٣٠) باقر / د . طه / ن . م . / ص ٣٥

(٢٣١) سوسة / د . احمد حضارة وادي الرافدين في ضوء مشاريع الري الزراعية والمكتشفات

التاريخية والمصادر التاريخية / ص ٢٠٨

الملحمة وجد ما يقابلها في الادب السومري « ومن الحقائق المعروفة عن أصول التراث الحضاري وفي وادي الرافدين انه كان للسومريين الفضل الاكبر في ابتداء مقوماته الاساسية ثم جاء من بعدهم الساميون (ابتداءً من العصر البابلي القديم) فقاموا بجمع وتنسيق هذا التراث فتمخض عنه نتاج جديد في شكله ولكنه قديم في اصوله »^(٢٢٢) وقصة الطوفان السومرية شاهد على ذلك « لقد وصلنا من قصة الطوفان السومرية رقيم واحد فقط كان قد اكتشف في مدينة نغر وبشره لأول مرة الاستاذ بويل عام ١٩١٤ . ولم يصل هذا الرقيم كاملاً اذ لم يبق منه الا ثلثه الاخير فقط وقد وريت إشارات في نصوص سومرية ادبية - دينية تتعلق بالملك اشمي - وكان Ishmedagan ١٩٥٣ - ١٩٢٥ ق . م .) . وهذه الاشارات تتسلسل بالطوفان »^(٢٢٣) . وقد عكست الملحمة العلاقة بين الساميين والسومريين من خلال العلاقة بين جلجامش السومري^(٢٢٤) . والذي مثل السلطة التي كانت تحكم بلاد الرافدين وانكيو السامي الذي مثل رمز البداوة والاقوام التي عاشت على الفطرة حتى لا تعرف التحضر ولا مظاهره (المعطور وأنواع اللبس الفاخرة والوانها الزاهية) وبينت لنا كيف استطاع كلكاش ان يتحد مع انكيو ويشكلاً وحدة لتخليص البلاد من الاضرار وكيف عبر كلكاش عن حبه ووده للقائمين من الصحراء . وهذا هو سر قوة المراقبين القدماء الذين استطاعوا ان يحققوا توحداً لمزيج غير متجانس من الاقوام فكان الابداع يمثل أروع حالات وحدة الانسانية التي جسدها العراقيون القدماء .

أهم شخصية مرتبطة بالطوفان في الرقيم الطينية :

أهم شخصية ترتبط بالطوفان هي شخصية أوتونابستم في ملحمة كلكاش وهي الشخصية التي تقابل شخصية النبي نوح (عليه السلام) في حادثة الطوفان

(٢٢٢) علي / د . فاضل عبدالواحد / الطوفان / ص ٢٠ .

(٢٢٣) علي / د . فاضل عبدالواحد / م . س / ص ٢١ .

(٢٢٤) يحاول الدكتور سوسة على عانته التشكيك بسومرية كلكاش ويحاول أن يقربه الى الاصل السامي فيقول : « وفي ترجمة الاستاذ كرامر لآيات الطوك السومريين ترد من بعد اسم جلجامش عبارة ابوه كان بدوياً مع علامة الاستفهام . وهنا ما يؤيد ذلك اي ارتباط جلجامش بالصحاري » تاريخ حضارة وادي الرافدين / ص ٢١ . ولكنه لا يستطيع التصريح لان اقدم كتابه ذكرت اسم كلكاش جاءت في الاواح السورية (الكتابة الذهبية بالصور) التي وجدت في شرويك ويوجع زملها الى اواخر عصر جمدة نصر .

وتقابل شخصية زيوسدرا في قصة الطوفان السومرية وتعتبر كذلك عن شخصية اتراخاسيس في قصة الطوفان البابلية « ومن الجدير بالذكر ان الاقدمين أنفسهم طابقوا بين اوتونايشتم وبين زيوسدرا في قصة الطوفان السومرية حيث وردت الصيغة السومرية Ziu-sud-ra مرادفة للصيغة البابلية Ut-napishtim في أحد النصوص المصمارية^(٢٣٥) ومن المعروف ان زيوسدرا قد ورد ذكره في قصة الطوفان في النسخة السومرية (وقد ذكره المارخ البابلي بيروسيوس بنفس الصيغة تقريباً (Xisouthros) وخصص له مرحلة حكم خيالية قدرها ٦٤٠٠٠ سنة ولكن هذا الملك لم يذكر في النسخة الرئيسية من قائمة الملوك السومرية . وان هذا لا يهمنا ولكن الذي نحن بصدده هو معنى أسم زيوسدرا . « فان هذا الاسم يتكون من ثلاثة مقاطع سومرية Zi بمعنى (الحياة) و U بمعنى (يوم) و Sud بمعنى (طال أو أطال »^(٢٣٦) .

وهذا يعني ان معنى اسمه (الرجل الذي طال عمره أو طالت حياته) ويعيدنا عن الارتباطات الاسطورية حول هذه الشخصية فان هذا المعنى يتفق مع وصف القرآن لطول حياة النبي نوح (عليه السلام)^(٢٣٧) ﴿ فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاماً ﴾^(٢٣٨) .

وفي قصة الطوفان البابلية وردت الاشارة الى بطل القصة الذي يقابل اوتونايشتم باسم اتراخاسيس Atrahasis « ويتكون هذا الاسم البابلي من مقطعين (Atra) بمعنى كثير ، زالد من الفعل (ataru) كثير ، زاد . و basis بمعنى يحس ، أصفى ، فهم «^(٢٣٩) وهذا يعني ان اسم اتراخاسيس يحمل معنى الرجل الكثير الاحساس والعاطفة^(٢٤٠) أو مفروط الحس مع الحكمة وقد ورد في

(٢٣٥) انظر علي / د. فاضل عبدالواحد / الطوفان / ص ٢٩ حيث يأخذ هذه المعلومة من (Thompson, The Epic of Gilgamesh, P. 83).

(٢٣٦) انظر علي / د. فاضل عبدالواحد / م . م / ص ٣٥ .

(٢٣٧) ذكر النووي في التهذيب « ان نوح أطول الانبياء عمراً » انظر السيوطي / اللغات في علوم القرآن / ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٢٣٨) المنكوت / ١٤ .

(٢٣٩) انظر علي / د. فاضل عبدالواحد / م . م / ص ٢٨ .

(٢٤٠) باقر / د. طه / مطبعة لكهناس / ص ٢٦ .

المصادر الاسلامية إن (نوح قال الكرمانى معناه بالسريانية : الشاكر . وقال الحاكم فى المستدرک إنما سُمي نوحاً لكثرة بكانه على نفسه وأسمه عبدالغفار «^(٢١١)» الذى يتحصل لدينا من خلال هذه المقارنة أن :

(أوتونابشتم / بابلية) = (زيوسدرا / سومرية) = الرجل الذى طال عمره . وأن اتراخاسيس البابلية = المفرد الحس صاحب الحكمة وهذا المعنى يقابل ما ذكرته المصادر الاسلامية من وصف حول نوح (عليه السلام) انه شاكر والشاكر يقابل الذى يحس بالنعمة فيشكُرُ عليها وان الشكر ياتي من الاحساس بالنعم وكذلك البكاء والنوح والالم صفات يمتلكها الذين يتحسسون بالمسؤولية وقد وصف القرآن الكريم أنبيائه بهذه الصفات عن إبراهيم ﴿ أواه حليم ﴾ وعن نوح ﴿ انه كان عبداً شكوراً ﴾ وعن محمد (ﷺ) ﴿ ولقد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولا تنهب نفسك عليهم حسرات ﴾ كل هذا يعزز لنا الحقيقة القرآنية التى حفظتها هذه الرقم الطينية بأن أوتونابشتم وزيوسدرا واتراخاسيس كلهم شخصية واحدة هي شخصية النبي نوح (عليه السلام) . فما حفظته الرقم الطينية من أسماء لبطل الطوفان يكاد يتطابق تطابقاً كلياً مع اسم النبي نوح (عليه السلام) ووصفه ولا يضرنا الخلاف حول شخصيات هذه الاسماء فانها حتماً قد أضيف حولها ووضعت ضمن إطار الاسطورة التى تعبر عن أخيلة الكتاب والشعراء والادباء المهم أننا استطعنا ان نمسك بخيط يقودنا الى الحقيقة التى اختفت وسط الاساطير الحقيقة التى لا مرء فيها هي حدوث الطوفان فان ترديد هذا الحدث ضمن الاساطير يؤكد وقوع هذا الطوفان « وانه كان بالاصل حدثاً تاريخياً واقعياً حدث فى طيات الماضى البعيد وكان من جسامه التأثير وقدامته انه ترك أثراً بليفاً فى عقول الاجيال المختلفة فتناقلت بالروايات الشفوية وشوهت تفاصيله الواقعية «^(٢١٢)» وان هذا الطوفان موغل فى القمم حتى تحول الى اسطورة سومرية فى بدايات الالف الثالث قبل الميلاد « وتاريخ آخر طوفان بجنوب المراق حدث سنة نحو ١٤ ألف قبل الميلاد » كما تذكر المصادر التى تهتم بالدراسات الجيولوجية والاثارية^(٢١٣)

(٢٤١) السيوطي / جلال الدين ت ٩١١ / الاتقان فى علوم القرآن / ج ٢ ص ٢٩٨

(٢٤٢) بالقر / د طه / ملحمة كلكامش / ص ٢٥ - ٢٦

(٢٤٣) احمد / سامى سميد / ملحمة كلكامش / ص ٢٣ . / ينقل هذا التاريخ لآخر طوفان عز

دراسة كتبها ووتر نوزل فى مجلة سومر العدد ٣١ سنة ١٩٧٥ ص ١٠١ - ١٠٩

(الانثروبولوجيا) والحقيقة انه لا توجد اي دلالة تشير الى الطوفان الذي نتحدث عنه الكتب المقدسة (القرآن والتوراة) وان ما ذكره مستر وولي حول اكتشافه آثار ترسبات غرينية في اور من نور العبيد (حدود ٤٠٠٠ ق . م .) بلغ ثخنها زهاء (١١) قدماً وقد عثر عليه قريب من المقبرة الملكية ولكنه لم يعثر على بقايا مماثلة من هذا الدور في المواقع الاخرى مثل اريبو القريبة من اور^(١١١) وقد اختلفت الآراء حول نظرية مستر وولي حول الطوفان . فمنهم من خالفه الرأي كلياً مثل الاستاذ بيك ويتساءل البعض بحق لماذا توجد طبقة من طمي الطوفان من نهاية عصر العبيد في مدينة اور ولا توجد مثل هذه الطبقة في مدينة اريبو المجاورة التي لا تبعد عنها سوى ١٥ ميلاً فقط ؟^(١١٢) قد استبعد مالوان فرضية وولي حول الطوفان قد وقع في عصر العبيد لعدم وجود آثار لمثل هذا الطوفان في مدن أخرى خارج اور ولكنه انتصر لرأي جديد واعطى تفسيراً جديداً للطوفان . ويضع مالوان عصر هذا الطوفان في عصر فجر السلالات الثاني (حوالي ٢٩٠٠ ق . م .) في كيشي حيث وجدت آثار طوفان^(١١٣) والسبب الذي دفع مالوان الى ذلك كما يذكر د . فاضل عبدالواحد هو ذكر ملحمة كلكامش للطوفان يؤكد الى ان الطوفان قد حدث في زمن ليس بعيد عن عصر كلكامش . مع الملاحظة ان هذه الفرضيات والتحليلات كلها قائم على أساس ان الطوفان حدث بفعل ارتفاع مناسيب المياه في بحلة والفرات او بسبب نوبان تلوج كلها قائم على استبعاد ربط الطوفان بالقضية الدينية التي هي محور الرقم الطينية و (الرواية التوراتية والرواية القرآنية . ومن الغريب ان الذين يرجعون حدوث الطوفان الى الامطار كما في رواية التوراة . إن هؤلاء على الرغم من نكرهم لهذه الحقيقة فانهم يذهبون الى الاساطير ويتابعون روايتها ويعمدون الى تحليلها للوصول الى نتائج علمية حول حقيقة الطوفان حيث يقول د . فاضل عبدالواحد : « والملاحظ عز الطوفان في النصوص المسماة وفي التوراة ايضاً انه لم يكن ناتجاً عن ارتفاع

(Werner Nutzel: The Formation of the Arabian Gulf From 14000-3500 B.C.).

(٢٤٤) سوسة / د . احمد / تاريخ حضارة وادي الرافدين في ضوء مشاريع الري / ص ٢٠٦
ياخذنا من طه بالقر تاريخ الحضارات .

(٢٤٥) علي / د . فاضل عبدالواحد / الطوفان / ص ١٠٥

(٢٤٦) انظر علي / د . فاضل عبدالواحد / م . ص / ص ١٠٩

مناسب مياه الانهار بقدر ما كان بسبب هطول الامطار الغزيرة وتدفق مياه المعق ايسو . التي كان مسؤولاً عنها الإله أكي (أيا) وفي الحقيقة لم يكن الفيضان النهري حتى في حساب كاتب قصة الطوفان البابلية بلليل أن سفينة رجل الطوفان أوتونابشتم قطعت مسافة ٤٥٠ كم وياتجاه معاكس لتيار نهري دجلة والفرات لترسو في شمال القطر وعلى قمة جبل ارتفاعه (٩٠٠٠ قدم) ولهذا فانه من غير المستبعد كما لاحظ بعض الباحثين ان التفاصيل التي يؤنها الكتاب السومريون والبابليون عن الطوفان حدث في عصر فجر السلالات المبكر انما تعكس في الوقت نفسه رواسب بعيدة في القدم مما علق في ذاكرة البشرية عن الطوفان أو أكثر حدثت في عصر البلايستوسين الذي يتميز بامطار غزيرة في الشرق الأدنى وبانجماد كثيف في اورا^(٢١٧) أصبح من الواضح الآن إن كل التفسيرات التي نهدت الى وجود آثار لطوفان هائل كلها غير نقيصة ولا يمكن الاعتقاد بها أو الاقتناع بها لافتقارها الى الأدلة وعدم سلامتها من الانتقاض والتناقض وكذلك بالنسبة الى الرقم الطينية فانها تخدمننا في حالة واحدة فقط وهي تأكيد حدوث طوفان هائل في زمن موغل في القدم لا سبيل الى تحديده بواسطة هذه الرقم لغلبة الطابع الاسطوري على معلوماتها وقد كتبت وصيغت هذه الرقم بموجب تأثير البيئة الجديدة في عصر الكتابة فمثلاً أمر بناء السفينة في الرواية البابلية كان على ما يلي : « ابن سفينة كبيرة ... وليكن بناؤها كلياً بالقصب — »^(٢١٨) والمعروف ان القصب كان ومازال ينمو بوفرة في جنوب القطر الذي نريد ان نقدره ان الرقم الطينية تعبر عن انعكاس مضخم للطوفان صيغ بأسلوب شعري الرقيم الحادي عشر في ملحمة كلكامش حرل وصف الطوفان وكيف كان مهولاً لا يستطيع الأخ تمييز اخيه لهول الدمار . وكتب أدناه قطعة من ملحمة كلكامش تصف لحظات الطوفان .

ولما حصل الرعب من الإله أند الى عنان السماء
وتحطمت الارض الواسعة متلما يتحطم الإناء
إستحال كل نور الى ظلمة
وظلت ريح الجنوب يهب يوماً كاملاً

(٢٤٧) علي / د . فاضل عبدالواحد / الطوفان / ص ١١١ .

(٢٤٨) علي / د . فاضل عبدالواحد / الطوفان / ص ٧٥ .

وتزايدت سرعتها وهي تهب حتى (غطت جبال)
 وفنكت بالناس مثل حرب ضروس
 فلم يستطع الاخ ان يرى أخاه
 ولم يكن بالمستطاع تمييز الناس من السماء
 حتى ان الالهة نعرُوا لهول الطوفان
 فأخذوا يتراجعون الى خلف حتى وصلوا الى سماء الاله أنو
 وأستكان الالهة وكانهم كلاب تريض بمحاذاة الجدار^(٢٤٩) .

واستمر الحال على هذا المنوال سبعة أيام وسبع ليالٍ ثم ندرج أبناء قطعة من هذا
 الرقيم تصف الحال بعد الطوفان . وهي تعبر عن الكلام أوتونابشتم لكلكامش :-

« ثم فتحت نافذة (في السفينة) فسقط الدور على وجهي
 فسجدت وجلست باكياً
 والدموع تجري على وجهي
 ثم أخذت أتطلع الى سواحل البحر الواسع
 فبانَت الارض من مسافة أتني عشر ميلاً مضاعفاً ... »

وفي تلك الاثناء استقرت السفينة على جبل اسمه نيسير (Nisir) ومضت
 ستة أيام وجبل نيسير ممسك بالسفينة ولا يدعها تتحرك . على حد قول
 أوتونابشتم . ويتعبير آخر إن السفينة قد بلغت مستقرها الأخير^(٢٥٠) . ويخالف
 الدكتور فاضل عبدالواحد المرحوم د. طه باقر حول قراءة نيسير بالصاد نصير أي
 (جبل الخلاص) ويقول : هذا في اعتقادنا غير محتمل لصعوبة مثل هذا الاشتقاق
 اللغوي في الاكديّة . لان الفعل Nasaru غير Nisir في الشكل بالنسبة للكتابة
 المصمّارية) . وينقل رواية بيروسيس المؤرخ البابلي الذي يذكر بان سفينة زيوسدرا
 رجل الطوفان في القصة السومرية (قد استقرت على جبال Gordyaen في
 أرمينيا^(٢٥١)) في حين يذكر د. طه باقر بان كورديين الذي يذكره بيروسيس يعني جبل
 الكورديين أي الكردي . وقد سبق وأن تكلمنا حول هذا الجبل عند الحديث عن النص

(٢٤٩) علي / د . فاضل عبدالواحد / الطوفان / ص ٨٧ .

(٢٥٠) علي / د . فاضل عبدالواحد / الطوفان / ص ٩٤ .

(٢٥١) علي / د . فاضل / م . س / ص ٩٤ .

لفظه جبل الجودي في القرآن . وهذه التخريجات ومع أ
فإنها تمثل وجهات نظر شخصية .



صورة لرقم طيني الذي يروي قصة الطوفان
وهو اللوح الحادي عشر من ملحمة جلجامش ومحفوظ
في المتحف البريطاني
بوستيفوت / بيكولاس / حضارة المراق وأثاره / ص ١٩

شكل يمثل رقيم الطوفان
مدون في القرن السابع ق . م . محفوظ في المتحف الايطالي



صورة لختم يمثل زورقاً مقدساً لمصر الوركاء
متحف برلين وهو ما يشير الى اثر الطوفان في الفن والاختتام



صورة لختم لمنظر تمبدي
محلوظ في المتحف المراقي موجود عليه ايضاً الزورق المقدس

الفصل الثالث

ابراهيم الكليل (عليه السلام)
ابو الأنبياء

المبحث الاول

العصر والملاح (متابعة تاريخية)

ان حركة التاريخ لم تتوقف في القرآن الكريم ولم يكن هناك مفهوم ثابت وانما الحركة هي السمة الاساسية لعمليات التفسير التي أحدثها الانبياء وقالوا أتباعهم اليها . وهذه القضية أشار اليها ابن خلدون في مقدمته « فهو يرى ان الحركة التاريخية لا تنقطع ابداً والانسانية لا تقف ولكن يوجد حد يقف عنده كل مجتمع ومنه يجب أن يستأنف الى السير مجتمع جديد . ولم يسبق ابن خلدون احد الى تلك الفكرة العامة عن السير الابدي للمجتمع لم يتصور أحد حتى عهده او يقرر شيئاً يشبه ذلك القانون الذي نسميه (قانون الاطوار الثلاثة . وان نكاهه الخارق هو الذي استطاع الاستفاعة من القسم الذي يجيد معرفته من التاريخ وسرى انه يُخضع القرآن لنظريته ^(١))

استطاع ابن خلدون وبتقافته الاسلامية ان يؤسس مدرسة والمكاراً لفهم التاريخ أودعها في مقدمته ولكنه مع الاسف الشديد لم يطبق أفكاره التي وضعها في مقدمته على التاريخ الذي كتبه ولذلك بقي القرآن الكريم هو المصدر الوحيد الذي نون التاريخ بموجب منهجية وبلغة متناهية وبقيت هذه المنهجية لم ينتفع منها المؤرخون وهذه

(١) حسين / طه / ابن خلدون ولسفته الاجتماعية / ص ٨٤ .

الحقيقة تدفع المرئخ المسلم « أن يراجع القرآن لان مراجع القرآن سوف تبين له ان الوسائل هي الوسائل كذلك والاهداف هي الاهداف وهو الذي يؤكد له فساد مصادر ومراجع ما يسمى بالتاريخ القديم التي تتجاهل بضعة آلاف عام من التاريخ الاسلامي والتي زيفت وشوهت التاريخ الاسلامي بما في ذلك تاريخ الرسل والانبياء»^(٢) ومن خلال القرآن الذي يبين لنا ان تاريخ الانسانية هو تاريخ الانبياء وهو تاريخ الملة الموحدة وهو تاريخ دين الاسلام الذي جاء به الانبياء جميعاً من أم الى محمد صلوات الله عليهم . وان هذا التاريخ تحكمه سنن ونواميس خاضعة لارادة الله يتفاعل معها الانسان لتحقيق قدر الله علمي الارض وأن مما يؤسف له ان نجد بعض المرئخين يتجاهل هذه الحقيقة بل يعلن ان هذه الحقيقة غير أصيلة ولا تستند الى دليل علمي : «ومن الامور المعروفة ان اليهود لم يقدموا لمدينة العالم القديم سوى شيئين أظهرت الانلة الحديثة عدم أصالتهما اولهما المهد القديم الذي يتضح ان اكثر ما جاء به مستمد من آداب العراق القديم ومصر والكنعانيين الامر الذي عكس ربما لاول مرة فلسفة للتاريخ تجعل أحداثه مسنّية من قبل الله والثاني المعتقد اليهودي الذي نعرف الآن عن كونه مزيجاً من معتقدات أديان العراق ومصر وكنعان وقد تأثر بما تأثرت به هذه الأديان نفسها في مسيرتها التاريخية»^(٣) . اننا نتفق مع د. سامي سعيد في كون التوراة ليست كتاباً مقدساً وإنما هي « روايات مضللة وأخبار أسطورية ينقصها الدليل والسند التاريخي»^(٤) « وان هذه التوراة ليست التوراة التي نزلت على موسى»^(٥) . ولكننا لا نعتقد ان الدين وضمونها المعتقد اليهودي قد تطور او جاء نتيجة تطورات وتأثيرات ، لان هذا المنهج يتعارض مع نور الانبياء ومصدر الدين وقد أثبت القرآن حقيقتين من خلال عرض سيرة الانبياء . الحقيقة الاولى : « وحدة دين الله وتصديق هذا الدين لما قبله»^(٦) . والحقيقة الثانية هي نور اليهود في التلاعب وتزوير التاريخ الاسلامي للانبياء . لان القرآن الكريم عرض وحدة المصدر

(٢) محمد مسعود / د. جمال عبدالهادي مع د. ولاء محمد / اخطاء يجب ان تصحح في

التاريخ / ص ٤٠٤ .

(٣) الاحمد / د. سامي سعيد / تاريخ فلسطين القديم / ص ٣ .

(٤) الاحمد / د. سامي سعيد / تاريخ فلسطين القديم / ص ٣ .

(٥) محمد مسعود / د. جمال عبدالهادي مع د. ولاء محمد / اخطاء يجب ان تصحح في

التاريخ / ص ٤٠٦ .

(٦) محمد مسعود / م . س / ٤٠٩ .

ووحدة المنهج . والمصدر لكل الرسالات هو الله سبحانه وتعالى والمنهج كان يمثل الاسلام في عصر النبي المرسل ، وهذه الحقيقة أثبتتها القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ قل انا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾^(٧) . وهذا يعني ان تاريخ الامة الاسلامية لا يبدأ فقط ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وإنما يرجع الى زمن خلق آدم (عليه السلام) مسلماً موحداً^(٨) . وان الانبياء لم يكونوا يمتلكون أنفسهم أو أهدافاً بشرية دفعتهم للإصلاح ولم يكن موسى (عليه السلام) في مفهوم القرآن منقذاً ومصلاًحاً وزعيماً ولكنه قبل كل شيء كان نبياً رسولاً بعثه الله الى بني اسرائيل . ان الذين كتبوا في التاريخ القديم وتصنوا لمناقشة الاديان والانبياء معظمهم ان لم نقل كلهم قد سيطرت عليهم فكرة ان الدين قد اخترعه البشر وتطور كما تطورت باقي الجوانب في حياة البشر وهذه من أعظم الاخطاء التي وقع فيها هؤلاء المؤرخون وعلى الجانب الآخر كان هناك مؤرخون اعتمدوا على التوراة في بناء نظرتهم الى التاريخ القديم فتكونت عندهم صورة مشوهة مضطربة عن الانبياء والاديان لان المصدر مشوش ومحدرف وزعم هؤلاء « أن إبراهيم ونزريته كانوا يهوداً واعتمدوا في مصادرهم على ما ألفه كتّاب اليهود قديماً وأسموه بالتوراة ويدخل في ذلك ما يسمى بالعهد القديم والتلمود . وما يسمى بـ (دائرة المعارف الاسلامية) التي ألفها المستشرقون . وقصة الحضارة لديورانت والحضارات السامية لموسكاتي ، والشرق الخالد لعبد الحميد زيد وحضارة مصر والشرق القديم ، والموسوعة العربية الميسرة^(٩) وغيرها ، ومن المؤسف حقاً كما يقول د. سامي سعيد الاحمد ؛ أن الذين كتبوا عن تاريخ فلسطين القديم (أو تاريخ الانبياء بصورة عامة) قد اعتمدوا اعتماداً كلياً على العهد القديم الذين لا يمكن باية حال من الاحوال أخذ معظم ما جاء به كحقائق تاريخية » ونأسف نحن كذلك عندما نجد ان الذين يميون على هذا الفريق من المؤرخين اعتمانه على رواية العهد القديم وتأثروا بها فإن هؤلاء قد ابتعدوا عن الحق كثيراً عندما جعلوا التراث الضخم للاديان

(٧) سورة آل عمران/ ٨٤ .

(٨) محمد مسعود / م . س / ص ٣٩٩ .

(٩) محمد مسعود / د . جمال عبدالهادي مع د . ولاء محمد / اخطاء يجب ان تصحح في

التاريخ / ص ٤٠٥ .

والانبياء عبارة عن حالة طبيعية من حالات الوجود الانساني يخضع لمفهوم المادية والاسباب الطبيعية التي أدت الى ظهور الانبياء كحاجة غريزية تعزى عن استجابة الانسان لحالات الضعف التي تمره إذ ينكر د. سامي سعيد : « ولم تكن عبادة الاشجار بالامر الغريب على الشرق الانسى القديم فقد قمس الفينيقيون الاشجار وقرنوا بعضاً منها كالصنوبر والياس والدخل باريابهم مثل عشتروت . ويرتبط وجود الرب كذلك بالصخور المقدسة (المازيا) التي استخدمت كمذابح وظلت تمثل وجود الرب للمبرانيين الاوائل حتى إصلاحات الملك جوزايا وكذلك نرى ارتباط المعتقد المبري بالطوطمية واضحاً في تقديسهم للحيوانات على الرغم من تحذير الوصايا العشر وقد نجد أن بعض بطون القبائل العبرية تنتسب الى حيوانات مثل الأورديين (Arodites) اي عشيرة الحمار والتولاتيين (Tolaites) أي عشيرة الدود والكلبين (Calbites) اي عشيرة الكلب وربما تكون هذه بقايا لنظم ومعتقدات طوطمية سابقة «^(١٠) وعن موسى يقول : « ولكن من هو موسى الذي يقره الكثيرون بتأسيس الدين اليهودي ؟ هناك حقيقة مهمة هي أنه ليس لدينا حالياً أية وثائق تاريخية عن موسى معاصرة له يمكن أن ترسم له شخصية تاريخية «^(١١) إن هذا المنهج في تحليل المعلومات التاريخية لم يقتصر على مؤرخ واحد او مفكر واحد ولكننا نجد عامداً لم يتخلف عنه كل الذين كتبوا في مقارنة الانبياء وتاريخها فإننا نجد في كتاب علي الشوك الذي هو متابعة لكتاب (الاساطير العبرية) لروبرت غريغز وروفائيل باتاي . فقام علي الشوك بالتعقيب على هذا الكتاب ونشره تحت اسم (الاساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة) وهذا الكتاب نموذج يصلح ان يكون صورة مشحونة بالتحليلات وربط الحوادث المعترية عن العقائد بالاساطير والغاء تام للايمان بالله والانبياء وعزاً أساس المعتقدات الى حالات من التفاعل بين الانسان والظواهر الكونية . وهذا النموذج لما جاء في هذا الكتاب : نقرأ في كلام غريغز وبناتاي مؤلفاً (الاساطير العبرية) : « وكانت الفران مكرهة محبوبة عند المبرانيين على حد سواء وفي سفر أيوب (٢٨ : ٤١) والمزامير (١٤٧ : ٩) نجدها موضع عطف الرب لكنها في سفر التثنية (١٤ : ١٤) تصنف مع الطيور النجسة ومن المحتمل ان الفراب وليس حاماً ، استحال لونه الى السواد عقاباً

(١٠) الاحمد / د. سامي سعيد / تاريخ فلسطين القديم / ص ٣ .

(١١) الاحمد / د. سامي سعيد / م. ص / ص ١٧ .

له «^(١٢)» ويعقب علي الشوك على هذا النص في كتابه فيقول : « على ان الغراب كان في الاساطير اليونانية طائراً نبولياً يُزعم انه كان يسكن روح الملك المقدس بعد التضحية به . وولد ان الحمامة كانت طوطماً عند بعض القبائل السامية . وكذلك الغراب ويمكن أستنتاج ذلك من أسم القبيلة العربية بني حمامة وذلك على غرار قبيلة اسد وكلب وضبيان وأوس وثور وعقاب وقضاة وغيرها مما يعني ان هذه الحيوانات ربما كانت طوطماً للقبائل التي تسخت بأسمها وفي دراسة للمؤرخ الهولندي جي فلكن (Wilken) عن المجتمع الاموي عند العرب . ونقلها الى العربية بندي جي جوزي جاء ما يأتي : (ان الحمامة كانت تُعد آلهة الكعبة ومثلها الطيبي وبهما تسمت بنو حمام وبنو طيبي »^(١٣) . هذه المدرسة التحليلية التي سلطت العقل الغربي في عصر النهضة أو عصر التنوير كما يسمونه ومن روادها دارون ، وفرويد الذي أوغل فيها وفسر التاريخ تفسيراً جنسياً جيت جعل العين والسلوك الاجتماعي الاخلاقي للمجتمع البشري ضمن (مضامين عدوانية - لجنسية) تكمن في داخل النفس وتعود الى فاعليتها في وقت لاحق . ويصرح بذلك عندما يتحدث عن أصل الدين : « لقد قلت بهذه الاطروحة منذ حوالي ربع قرن من الزمن في عام ١٩١٢ في كتابي (الطوطم والتابو) . ففي الازمنة البدائية كان بنو الانسان يحيون على شكل عشائر صغيرة يحكم كل عشيرة منها ذكر نو باس وقوة وليس في استطاعتنا تحديد ذلك الزعم بدقة يبدو هذا التاريخ ، بالطريقة التي نسرده فيها ، في منتهى التكثيف »^(١٤) ويمضي فرويد في وصف طبيعة كيفية تكوين المجتمع البدائي وكيف كان فيه دور الاب وسلطانم الذي لا حدود له وكيف أعقبت هذه الحالة مرحلة جديدة من التنظيم الاجتماعي يقوم فيه الاولاد الكبار الذين يطربهم الاب بتكوين جماعات صغيرة يقومون خلالها بقتل الاب ثم يحدث صراع على من يخلف الاب ومن ثم يدرك هؤلاء خطورة هذا الصراع فيقومون هذا التفكير الى نوع من التفاهم والى نوع من عقد اجتماعي ونجم عن ذلك الشكل الاول من التنظيم الاجتماعي يقوم على نكران الفراءة وعلى القبول بالتزامات متباعدة . والاعلان عن محرمات (وزينة القول نجم عن ذلك ابتداء الاخلاق والقيم - وقد تخلى كل امرء عن الحلم في أن يحتل مكان والده أو ا

(١٢) الشوك / علي / التفسير بين السمات الكلية والجزئية / ص ١٠٢ -

(١٣) الشوك / علي / التفسير بين السمات الكلية والجزئية / ص ١٠٦ -

(١٤) فرويد / سيجموند / موسى والتوحيد / ص ١١٢ -

يملك أمه أو أخته ، وهكذا جرى تنظيم حب المحارم . وسُنَّ قانون الزواج الخارجي وأنتقل قسم لا بأس به من السلطة المطلقة عند موت الأب الى النساء وبذلك قام نظام الامومة . ولبثت نكزى الاب ثابتة راسخة ووقع الاختيار على حيوان مغمم قوة ، كان هو الآخر على الأرجح مهاب الجانب في سالف الازمان . وقد حافظت العلاقات مع الحيوان الطوطمي على ازواجية المواطف التي يوحى بها الاب فكان الطوطم روحاً حامية للمشييرة ولكنه كان يلاقي مصيراً مشابهاً لذاك الذي لاقاه الاب . فيجتمع أبناء المشيرة وينفنون فيه حكم الموت ويأكلونه (الوليمة الطوطمية على حد تعبير رويرتسون) . لقد تطورت الطوطمية وتقدمت باتجاه أنسنة (Humanisation) الكائن المعبود . فقد حلت محل الحيوان آلهة إنسانية لا يخفى علينا أصلها الطوطمي وحافظ الإله على شكله الحيواني أو في الاقل على رأس حيوان «^(١١)» ويمضي فرويد في نسج فرضياته عن تطور الدين والصراع بين المجتمع الامومي وعودة نظام الابوة وكيف يمود المجتمع الى نظام الاب الواحد ولكنه يقرر « بأنه لا مندوحة من التسليم بان هذه اللوحة التاريخية مليئة بالافتراءات تحفها الريب والشكوك في أكثر من ناحية ومع ذلك لا يسع أحداً أن ينعت طريقتنا في فهم التاريخ البدائي وتصوره بأنها تشط في الخيال الا اذا استهان عظيم الاستهانة بغنى المادة التي تستند اليها ويقوتها على الاقتناع «^(١٢)» لقد أغرى فرويد بالاسترسال في هذه الافتراضات وجود تشابه في وقائع وحوادث في صورتها وهو ما يعطي الطابعاً بتشابه الاصل بين الفرضية والواقع ونراه يحدثنا عن هذا التشابه : « إن بعض الوقائع وجدت وقائع مطابقة لها شبه حرفية . فقد أبدى أكثر من مؤلف نهشته من التشابه القائم بين طقس تناول القران المقدس لدى المسيحيين - وبه يتمثل المؤمن رمزياً جسد الهه ودمه - وبين الوليمة الطوطمية التي لها دلالة ماثلة . كذلك تشتمل الخرافات والحكايات الشعبية على عدد لا حصر له من بقايا العصر البدائي المنسي ومخلفاته «^(١٣)» . لقد أراد فرويد من خلال حشد هذه الظواهر التي تعبر عن ربط لا يخلو من الحذاقة والصناعة أن يلقي مبدأ الايمان بالدين والروح والحكمة من الخلق بجعل هذه التصرفات خاضعة لمفهوم الاستجابة

(١٥) فرويد / سيجموند / موسى والتوحيد / ص ١١٦

(١٦) فرويد / سيجموند / موسى والتوحيد / ص ١١٧

(١٧) فرويد / سيجموند / موسى والتوحيد / ص ١١٧ .

الطبيعية لتطور الحياة الانسانية من خلال نشاطها الاجتماعي الذي يعبر الدين عن أرقى أوجهه . ان التطور بموجب البرنامج الذي صاغه فرويد من الطوطم الى المجتمع الابوي ثم المجتمع الاموسي ثم الانقلاب والمودة الى المجتمع الابوي ثم الاب الواحد ثم الرب الواحد « التوحيد » هذا البرنامج يعبر عن خداع وتضليل وتهديم الاديان وهو يربط بين المسيحية والطوطمية ويقول : ان لكل واحد من واضعي الاناجيل الاربعة حيوانه المفضل «^(١٨) . انه يهدم الاساس الرياني للدين الذي جاء به عيسى (عليه السلام) وينسف اليهودية كذلك^(١٩) عندما يجعل موسى مصرياً وزعيماً انضم اليه الموحدون أتباع أخناتون ويقايا بني اسرائيل ومجاميع من المستضعفين وقاد عملية التفسير . ان اليهود يريدون تهديم الاديان فإذا وصلوا الى زرع هذه العقيدة في نفوس العالم حتى من خلال تهديم اليهودية فإنهم يكونون قد حققوا غايتهم وهدفهم في عزل العالم غير اليهودي (الامميين) عن الحقيقة وبذلك يتمكنون من بسط نفوذهم وهيمنتهم على العالم .

إن نقل القضية الى ساحات غير ساحتها وصناعة الاوهام لعقول الناس تجعل هذه الاساليب التي سادت الغرب وتبناها علماء عملأ مضللاً وتؤدي الى جمود العقل وتبلد الحس وتتنكس بها تطلعات الانسانية وتؤدي هذه النظرة الى الايمان بالمادية والتسليم بنتائج محتومة وان فرويد عندما يفترض (ان الله خرافة ثم يحاول أن يفسر سبب ايمان الناس بهذه الخرافة وهو لا يورد اي نكر للحجج المؤيدة او المناقضة لوجود الله وينهج دارون نهجاً مشابهاً لهذا . ففي كتابه (أصل الانسان) (The Descent of Man) نراه لا يناقش مسألة الله او عدم وجوده بل يقصر حديثه على الايمان بالله وبالخلود ثم يرجع بالذنب الطريقة التي يمكن فيها ظهور هذه المعتقدات بوصفها نتيجة (ثقافة متقدمة المهد) وهذه اجراءات طبيعية ومنطقية إذا افترضنا أن لا حقيقة الا في حقيقة المادة «^(٢٠) . إن تفسير السلوك على اساس

(١٨) فرويد / سيجموند / موسى والتوحيد / ص ١١٩

(١٩) اذ يقول : لقد كانت اليهودية بناية الاب فهدمت المسيحية بناية الابن وانحطت مكانة الإله

القديم الإله الاب الى المرتبة الثالثة ، انظر موسى والتوحيد / ص ١٢٢

(٢٠) أغروس / روبرت ج . وجورج ن . ستانيسلو / العلم في منظوره الجديد ترجمة د . كمال

الخلايلي / الجديد / ص ١٣٥

عملية استرجاع للخبرة المتراكمة في اللاشعور ليس تفسيراً^(٢١) وإنما وصف لأن السلوك يرتبط بالشعور وهذا الشعور شيء غير مادي وفي هذا الصدد ينكر (أكلس) النظرة الجديدة عن التفكير فيقول : « تعلمت بالتجربة الثابتة إنني بالتفكير والارادة أستطيع ان اتحكم بأفعالي إذا شئت نلك وليس في وصفي أن أفسر تفسيراً علمياً كيف يستطيع التفكير أن يؤدي الى الفعل . ولكن هذا العجز يأتي مصداقاً لكون علوم الفيزياء والفسولوجيا في وضعها الراهن بدائية للغاية . وحين يؤدي التفكير الى الفعل أجدي مضطراً كعالم متخصص في الاعصاب الى افتراض أن تفكيري يفيد بطريقة تستمصي على فهمي تماماً انماط النشاط المصبي التي تؤثر في دماغي »^(٢٢) وهكذا نجد ان العلم الحديث قد نقض الافكار التي كانت سائدة في القرن الماضي ولقرنين من الزمان أو ثلاثة . إن الغائية والحكمة للوجود في كل مظاهره والجمال والاحساس والنوق والاخلاق والاحلام والروى والسحر وما وراء الطبيعة^(٢٣) والاحساس عن بعد (التليثاتي) والدين وما يفرضه العقل من قناعات منطقية مثل وجود العلاقة الزوجية بين أنواع الحياة المختلفة كل هذا يدفع الى الايمان بقدرة الخالق وعظمته .

لقد اضطرنا الكلام عن منهجية القرآن في عرض الواقعة التاريخية الاستشهاد بأراء الذين تابعوا مناهج أخرى في متابعة الحدث التاريخي وقد رأينا انه من المفيد ان نسلط الضوء على هذه المذاهب لتأكيد أهمية القرآن ودراسته من قبل دارس التاريخ من أجل تكامل المعرفة وبناء منهج يفسر التاريخ يعتمد كلياً على النصوص القرآنية والاحاديث الصحيحة ، ولا بد ان نؤكد التعامل مباشرة مع النص القرآني ضمن قواعد فهم النصوص اللغوية والشعرية ونبذ ما تعلق بالنصوص من مفاهيم وتصورات بنيت أساساً على الاسرائيليات وثقافات اصطبلت بصبغة العصر الذي أفرز تلك الفهم من النص القرآني ، ومن المعلوم ان التطور الذي حصل في مجالات العلوم والثقافة أتاح لقارئ النص فهماً جديداً يختلف عن الفهم الذي بونت فيه آراء

(٢١) انظر جعفر / د . نوري / الفكر طبيعته وتطوره / الكتاب كله مكرس لهذا المعنى .

(٢٢) أغروس / روبرت / العلم في مظهره الجديد ص ٣٩ .

(٢٣) انظر ولسن / كولين الانسان وقواه الخفية دراسة في القوة الكامنة التي يملكها البحر للوصول الى ما وراء الحاضر / ترجمة سامي خضبة . والكتاب يؤكد عمدة الحياة الانسانية الى القوة الروحية والايمان بها وذلك لمعجز المعادية .

المفسرين القدامى . ونحن نتلقى النص القرآني لفهم التاريخ لابد ان نقرر أيضاً ان الاسلام لا يلقي المصادر الاخرى ولا سيما الكتب المقدسة التوراة والانجيل ولكن يتعامل معها بحذر وتمحيص ، ونحاول ان نستمين بهذه المصادر لتسليط الضوء على المداخلات التي تتكلس الحدث التاريخي الذي يعرضه القرآن الكريم ويغفل هذه المداخلات على ان تكون هذه المعلومات التي تضيفها هذه المصادر غير متعارضة مع جوهر الهدف القرآني وغير متقاطعة مع العقل والعلم . ولذلك فإننا لا نسلم بان التوراة قد أخذت وتآثرت كلياً بالحضارات السابقة لتتويناها وتلقت معلوماتها منها إن القرآن الكريم أكد إن التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون وقد اعترف القرآن الكريم ضمناً بالكتب المقدسة التي سبقتة وقد ذكر القرآن الكريم صحفاً غير التوراة والانجيل مثل ﴿ ان هنا لفي الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى ﴾ منذ عهد ابراهيم (عليه السلام) إذ ظهرت على سطح الارض مظاهر الحضارة والكتابة وأنزل الله صحفاً وكذلك قوله تعالى ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ و ﴿ اتينا داود زبوراً ﴾ لقد شكلت هذه الكتب والصحف الاساس للانسانية في علاقاتها مع السماء من خلال الانبياء الذين أنزلت عليهم هذه الكتب . وكذلك نحن نقربان تفاعلاً قد حصل أثناء تكوين هذه الكتب مما جعل احتمالية التأثر بالحضارات المعاصرة لتكوين هذه الكتب ممكنة وبخاصة إن تكوين هذه الكتب قد حصل بعد وفاة النبي محمد (ﷺ) الذي بلغها او بعد غيابه عن الارض بمئات السنين الامر الذي جعل عملية التكوين تخضع لاهواء شخصية وظروف خاصة لازمت عملية تكوين هذه الكتب . ولكن هذا لا يعني عندما نتحدث التوراة عن طوفان نوح او عن أم وأيوب أو أي حادثة تاريخية يمكن ان يجدها في الرقم الطينية ، إن التوراة قد أخذت هذه المعلومات من البابليين أو الكنعانيين أو الفراعنة . ونحن ننظر الى القضية من اتجاه آخر إذ يؤكد لنا تطابق المعلومات بين الرقم الطينية والرواية التوراتية مع الرواية القرآنية بان لهذه الحادثة أصلاً حقيقياً يتيح للباحث التمسك بتاريخ حقيقي يمثل جوهر الحدث وتترك التفاصيل التي تلبست رواية الرقم الطينية والتوراتية والتي افترتها عقول البشر في عصر تكوين هذه النصوص ونلجأ الى النص القرآني لناخذ منه التفاصيل ونتابع الرواية القرآنية ونستلهم منها تجربة من سبقنا من البشر . وبذلك يوضع التاريخ في الموقع الفعال والايجابي لخدمة حاضر الانسان ومستقبله من نون اللجوء الى الفرضيات والنظريات التي نتحدث عن إمكان اعادة التاريخ وقياسه بالعلوم الطبيعية والنظريات

المعارضة لها التي تؤكد استحالة تكرار الواقعة التاريخية وبين تلك آراء وآراء^(٢٤) ولا بد أن تؤكد منهجية القرآن من خلال استعراضنا السابق للآراء وثبتت هذه المنهجية ضمن النقاط الآتية :

١ - ارتباط كل واقعة تاريخية يعرضها القرآن الكريم ارتباطاً وجود بالخالق الذي أوجدها ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل ان نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾ لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يعب كل مفصل فطور ﴿^(٢٥) .

إن ربط الحدث بالمُخَيَّب والوجود بالموجِد يعني أن كُلُّ فعلٍ وحدثٍ قد جاء متوافقاً مع إرادة الله حتى الفعل الذي يباشره الإنسان فإن حقيقته مرتبطة بالله ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ وهذه المقيدة لا تعني سلب الإنسان حرّيته وإرادته الخاصة ولكن وجود هذا الشعور يولد قلقاً في نفس الإنسان قبل الحدث وهذا القلق يدفعه نحو مباشرة السبب واستجماع كامل الطاقة فيتولد الإبداع وقد أبدع الدكتور عبدالعزيز النوري في وصفه لأسباب ملامحة المجتمع المكي للتفسير عند ظهور الإسلام حين قال : « ومن ناحية ثانية ظهرت بوادر قلق اجتماعي في بعض المجتمعات المستقرة مثل مكة نتيجة التحول من اقتصاد بدوي الى اقتصاد تجاري . وعرفت مكة بحكم مركزها وفعاليتها القلق والتدب في أن واحد . وفي هذا الوعي القلق لا في جفاف الجزيرة كما ظن البعض تكمن بوادر الحيوية »^(٢٦) وهذا القلق ليس القلق الذي تحدث عنه ديورانت وجمل زوال علامة على بداية الإبداع فذاك قلق موضوعي ضمن إطار اليأس وهذا قلق مفتوح باتجاه آفاق التفسير والامل . فالقلق الذي يتولد عن الظلم لا يمكن أن يغير او يكون سبباً في التغيير اما القلق الذي يتولد في أجواء بعيدة عن الكبت والظلم وعلى أساس الوعي والبحث عن الحقيقة هو الذي يوصل الى نتائج ايجابية . وكذلك ان الشعور الذي يصاحب الحدث ويخلقه عندما يكون هذا الشعور الذي يخلف الحدث يمثل عقيدة في نفس الانسان ، بأن ما حدث لم يكن تفاديه ممكناً عندها

(٢٤) انظر بيور / كارل / بوس التاريخية ترجمة سامر المطلبي .

(٢٥) سورة الحديد / ٢٢ - ٢٣ .

(٢٦) النوري / د. عبدالعزيز / مقامة في التاريخ الاقتصادي العربي / ص ١١ - ١٢

يتجاوز الانسان كل الآثار السلبية لهذا الحدث على ألا يستخدم هذا الشعور لتبرير المواقف السلبية في الحياة قبل حدوث الحدث . هذه عقيدة الايمان بالقضاء والقدر عند المسلمين تكمن في روح التاريخ .

٢ - ان حركة التاريخ في النصوص القرآنية تتبع حركة المجتمع وان التغيير الذي يضعه القرآن الكريم هدفاً للنبوات والانبياء هو تغيير المجتمع وتحويله الى مجتمع ينسجم مع نبوة عصره ، ولذلك لم نجد في نصوص القرآن الكريم التي تعرضت لمحاولات الانبياء في التغيير أنها وضعت برنامجاً مباشراً لتغيير السلطة التي تعاصر النبي وإنما كان الحوار بين السلطة والنبي يقوم على أساس السماح للنبي بالعمل على إحداث التغيير من نون التعرض له . وقد أدركت مؤسسات السلطة التي واجهت الانبياء خطورة هذا الاسلوب وان ماله في النهاية تغييرها وأزالتها من مراكزها التي كانت تحكم عليها بقبضة من حديد . فبدأ الصراع . وقد شكلت الهجرة مع الجماعة المؤمنة أحد المعالم الاساسية لمسيرة الانبياء وقد تابعتنا الهجرة كحدث اكتسب أهمية في حياة الانبياء ونكرنا إن الهجرة يمكن ملاحظتها في عصر أم (عليه السلام) بالخروج من الجنة اذ مثلت الهجرة العكسية والفريب ان الهجرة كانت إحدى معالم الحياة الانسانية قبل نشوء الحضارات ومن المعلوم ان الهجرات التي خرجت من شبه الجزيرة باتجاه وادي الرافدين وأرض الشام من الوضوح بحيث لا تحتاج الى إعادة وتثبيت . وكانت الهجرة في عصر نوح (عليه السلام) تتمثل بالخروج مع المؤمنين على ظهر السفينة . أما في عصر إبراهيم (عليه السلام) فإن الهجرة قد تمثلت بإبعادها ومعالمها الواضحة ﴿ لقد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبنا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ (١٧) .

عصر إبراهيم (عليه السلام) :

تابعنا أحداث التاريخ منذ عصر آدم (عليه السلام) مروراً بعصر نوح (عليه السلام) ونتوقف الآن عند عصر إبراهيم (عليه السلام) ومن خلال هذه المتابعة تشكلت لدينا نظرة عن هذه المسيرة التاريخية لعل أهم ملاحظتها حدث تكرر مع هؤلاء الأنبياء هذا الحدث هو (الهجرة) وهذه الهجرة ليست هي نفسها التي تحدث عنها الذين تابعوا التاريخ القديم وتكلموا عن هجرات الاقوام من شبه الجزيرة العربية الى المناطق المجاورة (اراضي الهلال الخصيب) وأطلقوا عليها هجرات الاقوام السامية وتحدثوا عن جنود حضارات وادي الرافدين والنيل وأرض الكنعانيين والشام . وهذه الهجرة من نوع آخر يمكن أن نسميها الهجرة الديلية التي منعت وعبرت عن سلوك ديني مرتبط بامر السماء ويمكن ان نرصدها في عصر آدم (عليه السلام) من خلال خروجه من الجنة التي تحدثنا عنها وقلنا ان العلماء منهم اسلاميون ومنهم لاهوتيون أو مستشرقون هؤلاء جميعاً قالوا أن جنة آدم على الارض وحسبوا مكانها في وادي الرافدين وهم على خلاف في تحديد دقيق لمكان جنة عدن (بين أعالي الفرات الى جنوب العراق عند التقاء دجلة والفرات) ومنهم من قال ان هذه الجنة هي بلمون التي تتحدث عنها الرقعة الطينية ومكانها في البحرين وآخرون قالوا ان الخليج العربي في حقبه من الحقب كان منسحباً نحو الجنوب الغربي وكانت الاراضي التي يفرها الماء الآن اراضي يابسة وكانت حدود العراق ممتدة الى البحرين .

وقال آخرون ان الخليج العربي كان متقدماً نحو الشمال ومدن العراق القديمة أور وغيرها كانت على سواحه . وهذا الخلاف لا يمكن حسمه لانه قائم على فرضيات وتوقعات لا تستند الى أدلة قوية .

وتحدثنا بأن آدم (عليه السلام) قد استقر في مكة بعد خروجه من الجنة وقد خُزجنا أحاديث نبوية تشير الى ان الله أمر آدم بأن يبني بيتاً لعبادة الله وهو مكة . ثم بعد آدم يمكننا رصد هذه الهجرة في عصر نوح من خلال مسيرة السفينة التي كان عليها نوح (عليه السلام) ومن آمن معه حيث وردت روايات اسلامية تقول ان نوح (عليه السلام) قد مات ودفن في مكة . وفي عصر إبراهيم شكلت رحلته الى مكة أحد المعالم المهمة في الرواية الاسلامية وان كانت هجرته الاولى من العراق باتجاه حران ثم فلسطين . وهذه الهجرة التي حدثت في حياة هؤلاء الأنبياء هي التي

رجحت لدينا احتمال إن أصل أقوام هؤلاء الانبياء من العراق ثم هاجروا من وادي الرافدين الى شبه الجزيرة على وفق السياق والاسباب التي نكرناها ثم كانت هذه الهجرة هي الاساس للهجرات الطبيعية التي حدثت فيما بعد . وخرجت المجموعة البشرية التي تكاثرت بعد الانبياء أم ونوح خرجت مجموعات بشرية من شبه الجزيرة منتشرة حول أحواض الانهار في بلاد ما بين النهرين والشام وحوض النيل . وهذا الذي نهبنا اليه يتفق مع ما نهب اليه « فون كريمر » العالم الالمانى حيث ذهب الى ان اقليم (بابل) هو موطن الساميين الاول . وذلك لوجود الفاظ عديدة لمسميات زراعية وحيوية (حياتية) أخرى تشترك فيها أكثر اللغات السامية المعروفة ^(٢٨) وقد إتبع (فون كريمر) في نظريته أسلوب دراسة المفردات اللغوية ومقارنتها ولا سيما أسماء الحيوانات . والنباتات . وقد قال بمثل قول كريمر هذا عالم آخر وهو (كودي) وكذلك : « (هومل) وهو من العلماء الالمان الحائزين في الدراسات اللغوية . فقد ذهب الاول الى ان موطن الساميين هو شمال العراق ثم عاد فقرر ان اقليم بابل هو الوطن الاصل ونهب ايضاً الى ان قدماء المصريين هم فرع من فروع الشجرة التي أثمرت الثمرة السامية . وهم الذين نقلوا على رأيه الحضارة الى مصر نقلوها من البابليين ^(٢٩) وقد وجهت انتقادات الى هذه النظرية منها ما ذكره نولدك بان بناء نظرية مهمة كهذه على نتائج مقارنة تشابه كلمات وإجراء موازنات بين الفاظ لم يثبت ثبوتاً قطعياً أن جميع الساميين أخذوها من العراق . يُمدُّ هذا العمل مجازفة ولا يخلو من الخطأ . وكذلك انتقدت هذه النظرية من خلال ان القول بهذه النظرية يستدعي تصور حدوث هجرات من أرض خصبة ذات مياه الى بواد مقفرة وأراض صحراوية جرداء وابدال حياة منعمة زراعية بحياة بلوية خشنة . ومثل هذا التصور يخالف المنطق والمعقول والنظم الاجتماعية ^(٣٠) على أننا نكرنا في بداية كلامنا ان الهجرة الاساسية التي أنتقل بموجبها الانبياء وأقوامهم من العراق الى جزيرة العرب انما كان استجابة لاسباب دينية وليس لحاجة بشرية طبيعية وكذلك الاختلافات اللغوية فان أصول الجماعات التي نتحدث عنها وإرجاعها الى الاصل السامي غير مسلّم به الا ان هذا المصطلح ايضاً واجه معارضة وانتقادات كثيرة . وقد

(٢٨) علي / د. جواد / مفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام / جـ ١ ص ٢٢٩ .

(٢٩) المصدر السابق نفسه ص ٢٣١ .

(٣٠) المصدر السابق نفسه .

تراجع الاستاذ جواد علي وتخلّى عن فكرته في اطلاق مصطلح عربي على (الاقوام السامية) وقال : « لم أقصد ولن أقصد أن تلك الشعوب هي قبائل عربية مثل الشعوب والقبائل العربية المعروفة . فالسامية وحدة ثقافية أصطلح عليها اصطلاحاً والعروية وحدة ثقافية وجنسية يربطها نموية ، وبين المفهومين فرق كبير »^(٢١) وقد نهب الدكتور محمد عزة دروزة الى جعل الساميين عرباً وعدّ القماء منهم في نور العروية غير الصريحة ثم انتقلوا الى نور العروية الصريحة حيث اكد انتماء النازحين الى العراق منذ آلاف السنين الى الجنس « العربي نون الاسم الحديث (الساميين) ، لانهم اشتروا مع اشقائهم الذين بقوا في جزيرة العرب وتطورت عرويتهم غير الصريحة الى العروية الصريحة »^(٢٢) . غير ان الرواية الاسلامية تخالف ما نهب اليه هؤلاء في الأسلوب والنتيجة فقد نكر حديث نبوي شريف من حديث ابي نر وهو حديث طويل يرويّه ابن حبان في صحيحه نكر فيه الانبياء والمرسلين قال فيه « منهم أربعة من العرب : هود ، وصالح وشعيب ونبيك يا ابا نر »^(٢٣) وقد استبعدت هذه الرواية إبراهيم وإسماعيل وأنبياء بني اسرائيل بمعنى آخر حصرت العروية في أرض جزيرة العرب والفت اعتبار السامية من العربية . وهذا أمر طبيعي وتحديد يتسم بالواقعية والعلمية لان اعتماد الجنس وانحدار هذه الشعوب من أب واحد هو سام بن نوح إغراق في الخيال وسمي وراء وهم سيطر على عقول كثير من الباحثين أوجه اليهود وفي حديث نبوي استوعب العروية وأعطاه معنى إنساني وأبعدها عن المعنى المرقى العصبي . ففي الحديث : « من تكلم العربية فهو عربي » وبذلك تحولت العروية الى حالة تكتسب بالتفاعل والتمايش وقد أكدنا فيما سبق ان اللغة هي ارقى حالات التفاعل وأقوى وسيلة لنقل المعلومات واكتساب الخبرات ولذلك أكتت بعض المرويات هذه الحقيقة « انما العربية للسان فمن تكلم العربية فهو عربي » . وقد حاول بعض الباحثين أن يجد بديلاً لهذه المصطلحات وقد أدرك ضعف الآراء السابقة وافنقارها الى أدلة قوية تحسم القضية فأطلق مصطلح « الجزيريين » وهم الاقوام الذين كانت جزيرة العرب موطنهم الاول وهاجروا منها الى الهلال

(٢١) علي / د. جواد / مفصل في تاريخ العرب / ج-١ ص ٨ .

(٢٢) دروزة / محمد عزة / تاريخ موجات الجنس العربي وديلتها وسأثرها في العراق قبل العروية

الصريحة / ج-٢ ص ٦ .

(٢٣) ابن كثير / ابو الفداء / قصص الانبياء / ص ٩٤ .

الخصيب ووادي الرافدين^(٢٤) .

ولكننا نعود الى تحديد جزيرة العرب التي تحددت حسب الرواية الاسلامية بانها مهد العروبة وأصلها . نسأل أين موقع الاقوام الذين خرجوا من الجزيرة في عهد سابق للعروبة الصريحة ؟ ونحن نعلم ان الاسلاميين يقسمون العرب الى قسمين : الاول « العرب العاربة » ويضمنهم العرب البائدة والثاني العرب المستمربة وهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم وكان إسماعيل (عليه السلام) أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم^(٢٥) فالعروبة حالة ممتدة حية مكتسبة لا تتوقف عند عرق أو جنس وقد ارتبطت بالدين الذي ارتضاه الله للبشر وأرسل انبياءه ارتباطاً عميقاً منذ الخطوات الاولى لتاريخ الانسان الواعي على الارض .

وقد نكر ابن كثير « ويقال ان-هود (عليه السلام) اول من تكلم بالعربية وزعم وهب ابن منبه ان اباہ أول من تكلم بها . وقال غيره : أول من تكلم بها نوح ، وقيل أم وهو الاشبه^(٢٦) » (يعني (وهو الاشبه) الاقرب الى القبول . لقد أطلق القرآن الكريم تسمية تختلف عن التسميات السابقة على الامة التي كانت تتفاعل مع الرسالات هذه الامة هي (الامة الاسلامية) . منذ عصر إبراهيم (عليه السلام) تبلورت هذه الامة وهيات لاستقبال رسالة النبي محمد (ﷺ) . وقد نخل هذه الامة كل الماء التي كانت تشكل الشعوب التي كانت تعيش على هذه الارض (جزيرة العرب والهلل الخصيب ووادي النيل) وقد حددت نصوص القرآن الكريم هذه الحقيقة في آيات عديدة منها قوله تعالى : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾ ان لولي الناس إبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين^(٢٧) وفي جزء من من آية في سورة الحج ﴿ هل أتاكم إبراهيم • هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على

(٢٤) انظر علي / د . فاضل عبدالواحد / من الواح سومر الى التوراة / ص ٥٠ - ٦٠ حيث يذكر

ان د . طه باقر ود . سامي سعيد الأحمد يطبقون اطلاق هذه التسمية كبديل عن الساميين .

(٢٥) ابن كثير / ابو الفداء / قصص الانبياء / ص / ٩٥ ويجعلهم البعض ثلاثة اقسام (١)

العرب البائدة (٢) العرب العاربة . وكلاهما من طبقة واحدة . (٣) العرب المستمربة -

(٢٦) ابن كثير / ابو الفداء / قصص الانبياء / م . ص / ص ٩٤ .

(٢٧) سورة آل عمران / ٦٧ - ٦٨

التاسي (٢٨) إن الذين يحاولون تفسير ظهور الحضارات في وادي الرافدين على أساس السامية يبنون استنتاجاتهم على أساس إلغاء الدين ونور الأنبياء كما يقول الدكتور ويلفصون في كتابه تاريخ اللغات السامية : « اقدم هجرة سامية اتجهت نحو بابل كانت من ناحية الجزيرة وقد أسست تلك الجموع ملكاً عظيماً في بقعة الفرات كان لها من الحول والطول حظ وافر في عصور شتى » (٢٩) وكذلك ينقل لنا احمد سوسة قول ديورانت « ان مهد الجنس السامي ومرياه جزيرة العرب حيث ينمو الانسان شديداً عنيفاً . تدفقت موجة اثر موجة في الهجرات متتابعة من خلائق اقوياء شديدي الباس لا يهابون الردى بعد ان وجده الصحراء والواحات لا تكفيهم فكان لابد ان يفتحوا بسواعدهم مكاناً خصباً يعملهم ويقوم بإيوائهم . وأما من بقي في بلادهم فقد اوجدوا حضارة العرب البدو وأنشأوا الاسرة الابوية » (٣٠) .

وهذه التفسيرات كلها تستبعد الدين والأنبياء والروح الذي كان يسري في الامة التي تستجيب للرسالة . ثم يخلص الدكتور سوسة الى القول « وتأييداً لهذه النظرية يقول الدكتور جين وجرجي - وجبور « ان معظم العلماء اليوم يؤيدون النظرية القائلة ان بلاد العرب هي مهد الجنس السامي » (٣١) . ونحن نؤكد ما أكده القرآن الكريم بانه لا سامية وان الذين يتابعون السامية انما يتابعون وهماً . ونؤكد كذلك ان العراق كان مهد الامة التي تفاعلت مع الرسالات وعلى أرضه التي أنشئت الامة الاولى التي انجبت الأنبياء (نوح أبو البشرية الثاني وإبراهيم أبو الأنبياء) فان العمران وتطور الحياة لم يات نتيجة انبثاق من فراغ ولكن ارتباط الانسان بالوحي والرسالات وضع هذا الانسان على خطا التطور البشري بمجالاته المادية والروحية . وإذا كان اليهود يعلمون ناشئتهم ثقافة ينشرونها بين الناس عن تاريخهم العريف الذي يقولون عنه ان الشعب اليهودي نزح الى فلسطين من بلاد الرافدين في حدود الالف الرابعة قبل الميلاد بقيادة إبراهيم الخليل ولم يكن عندهم آنذاك يتجاوز اربعة آلاف شخص » (٣٢) فنحن لابد ان نعلم الناس ما أكده القرآن والتاريخ والحق بان الامة

(٢٨) سورة الحج / ٧٨ .

(٢٩) سوسة / د . احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٢٥٨ .

(٤٠) سوسة / د . احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٢٥٨ .

(٤١) سوسة / د . احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٢٦٠ .

(٤٢) سوسة / د . احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٩٤ هذا الكلام عن سلوط في

المصلمة هاجرت من العراق الى فلسطين وجزيرة العرب لكي تهيء الطريق امام
الابنتاقة الكبرى للامة الاسلامية العربية من جزيرة العرب بقيادة النبي محمد
(ﷺ) . واذا كان اليهود يصرحون ويثنون العقيدة التي نسميها خيط المنكبوت التي
تجعل السامية تعني اليهودية وتعني الشعب الذي اختاره الله ويحبه وأعطاه وعده .
حتى زيفوا التاريخ وحرفوا الكتب السماوية واقتتلوا الاحداث لنصرة عقيدتهم وادعوا
« ان تاريخهم في فلسطين يرجع الى خمسة آلاف عام وان العرب لم يدخلوها الا بعد
الفتح الاسلامي ويقول العقاد عن هذا الموضوع « ومن أقوال اليهود أن العرب فتحوا
فلسطين بعد قيام الدعوة الاسلامية فانهم لم يكن لهم وجود فيها قبل النبي محمد
(ﷺ) وقد نجح دعاة الصهيونية في الترويج لهذه الخرافة حتى صدقها الكثيرون من
الاوربيين والامريكان . بل نجحوا فيها حتى صدقهم أناس من العرب ايضاً فسمعنا
من يقول منهم أن شان اليهود في فلسطين كشان الهنود الحمر في القارة
الامريكية »^(١١٦) . فاذا كان اليهود قد غيروا قناعات العالم بتبنيهم عقيدة مزيفة
فلماذا لا نعلن العقيدة التي جاء بها القرآن التي تؤكد ان (الحنفية الابراهيمية
تعني العربية) ؟ وهذه الامة العربية شكلت نواة الامة الاسلامية امة حية لا عصبية فيه
وانما تضع القومية في مفهومها العالمي الانساني وبذلك نتجاوز إشكاليات المجتمع
السومري والحضارة الفرعونية والمجموعة الفلسطينية التي هاجرت الى ارض
الكنعانيين وكل الاقوام التي لم تكن دماؤها عربية الجذور وانما تفاعلت مع الرسالات
واكتسبت وتعلمت من النبوات كل المفاهيم الحضارية والتشريعات التي تنظف
المجتمع الانساني والتي تؤكد وحدة الانسانية . وهذا المفهوم الذي تفاعل مع ارض
العرب وكان العرب القتماء الذين انقرضوا وسفاهم العلماء العرب العاربة هؤلاء كانوا
الامة الاولى التي كانت تتفاعل مع الرسالات ومن قبل هؤلاء (العرب العاربة وهم عا
ثمود وجرهم وطسم وجديس وأميم ومدين وعملاق وجاسم وقحطان وبنو يقطن
وغيرهم »^(١١٧) كان قبلهم أقوام كانت هذه القبائل جزءاً منهم أو بعدهم ومن المحتمل

→ كتابه (كيف نما شعب اليهود) .

٧. I. Soloff «How the Jewish people grew up».

(٤٣) سورة / د. احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٢٥٨ ينقل عن كتاب العقاد
(الصهيونية وقصة فلسطين) / ص ١٢٣

(٤٤) ابن كثير / ابو الفداء / قصص الانبياء / ص ٩٥ .

أن يكون هؤلاء هم أنفسهم الذين شكلوا الهجرات من الجزيرة الى الهلال الخصيب و يسميهم العلماء المسلمون بأسماء الانساب إذ أن كل قبيلة تنتسب الى جنبها الاعلى ولكن من تتابع مسيرة الانبياء ومن خلال متابعتنا لهذه المسيرة تبلورت لدينا بعض الافكار التي يمكن ان تشكل فهماً جديداً للتاريخ من خلال النصوص القرآنية . فان القرآن الكريم بعد الطوفان يتوقف عن المتابعة للمجموعة المؤمنة وكيف قضت حياتها ولكن ينقلنا النص القرآني الى مساحة جديدة يسلط الضوء من خلالها علي نبي ارسله الله الى قومه بعد نوح (عليه السلام) هذه الجماعة (قوم هود عليه السلام) ويسكت القرآن عن وادي الرافدين وعن المجتمعات التي تجمعت على أرضه بعد الطوفان . ولكن النص القرآني ينقلنا الى الاحقاف . « وهي جبال الرمل . وكانت باليمن بين عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها الشحر وأسم وايبهم (مفيث) »^(٤٥) وقد حدثنا القرآن الكريم أن الله قد بعث هوداً (عليه السلام) بعد نوح ونكر هود قومه بقوم نوح ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة ﴾^(٤٦) .

ان تنكير هود لقومه بقوم نوح يرجح ان الطوفان لم يكن شاملاً لكل الارض اذ لا يعقل ان يكون قوم هود هم قوم نوح (عليه السلام) ببليلى ان هود (عليه السلام) نكرهم بانهم قد جعلوا خلفاء من بعد قوم نوح ولم يقل لهم بانهم من نرية أتباع نوح الناجين من الطوفان . والخلفاء تعني أنهم جاؤوا بعدهم وهم غيرهم ويقل ذلك ايضاً انتقال خبر الطوفان وما حل بقوم نوح الى الاقوام الاخرين ويمكن ان الناجين من قوم نوح نقلوا ما حل بقومهم الى الاقوام الاخرى . ولو كان قوم هود من نرية قوم نوح لكان الخطاب اليهم كما كان خطاب مؤمن آل فرعون الى قومه عندما بعث الله موسى (عليه السلام) فاراد ان ينكرهم مؤمن آل فرعون بيوسف الذي كان يعيش معهم كما نكر ذلك تعالى في قوله ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما ركن في شك مما جاءكم به حتى انا هلك لئن لم يكن الله من بعده رسولا لكانت بضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾^(٤٧) والخطاب هنا لنزيرتهم الذين جاؤوا بعد موت يوسف بمئات السنين ومثل هذا في القرآن وارد كما في قوله تعالى مخاطباً بني اسرائيل في

(٤٥) ابن كثير / ابو الفداء / م . س / ص ٦٤

(٤٦) سورة الاعراف / ٦٩

(٤٧) سورة غافر / ٣٤ .

زمن النبي محمد (ﷺ) ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم
 تظفرون ﴾^(٤٨) . فمنذما بعث الله موسى في القوم انفسهم الذين بعث فيهم يوسف من
 قبل . خاطبهم برسالته ونكّرهم بآثره (أي يوسف عليه السلام) ولما لم ينكّرهم هود
 بلوح (عليه السلام) دل على ان الارتباط لم يكن ارتباط نزية حقيقة وانما ارتباط
 معنوي وارتباط كرامة وتحفيز لهم لكي يكونوا كالذين نجوا مع نوح ويحقق تواصلًا من
 خلال ارتباط التنكير هذا وكذلك عيسى بن مريم لما بعثه الله الى بني اسرائيل نكّرهم
 بموسى ورسالته ولم يقل لهم انكروا إذ جعلناكم خلفاء من بعد قوم موسى . وانما قال
 لهم ﴿ إني رسول الله اليكم مصفياً لما بين يدي من التوراة ﴾^(٤٩) فكان الله سبحانه
 وتعالى يختار الرسل وفق حكمه وقد يسلط القرآن الكريم الضوء على رسالة نبي او
 رسول ويكون هناك من يماصره من نبي آخر بعثه الله تعالى الى قومه ولكن القرآن
 الكريم لم يتحدث عنه وقد يتحدث القرآن الكريم عن الرسول (ﷺ) وعن معاصرة
 النبي كما تحدث عن إبراهيم وعن لوط (عليهم السلام) . وكذلك عن عيسى ويحيى
 (عليهم السلام) . وبعد أن سلط القرآن الكريم الضوء على هود وقومه ينقلنا الى
 مكان آخر ويصلط الضوء عليه . ويحدثنا عن نبي بعثه الله الى قومه في جزيرة العرب
 ايضاً نك هو صالح (عليه السلام) الذي بعثه الله تعالى الى ثمود وكانوا
 « يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك وقد مر به رسول الله (ﷺ) وهو ذاهب
 الى تبوك بمن معه من المسلمين »^(٥٠) وقد نكّرهم بنبيهم بقوم عاد فقال لهم
 ﴿ والذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتغلغلون من سهولها قصوراً
 وتحتون الجبال بيوتاً فادكروا آلاء الله ولا تعنوا في الأرض مفسدين ﴾^(٥١) وهذه
 الخلافة التي يتحدث عنها القرآن والتي نكّر بها الانبياء هود وصالح وقومهما انما هي
 خلافة التمكين والنعمة وهذه القضية تربطنا بالمفهوم الذي نكّرهنا بأن التقم
 الحضاري والعمرائي كان بسبب تفاعل المجتمعات مع الانبياء والنبوات . إذ إن

(٤٨) سورة البقرة / ٥٠ قال السيوطي : « العرب تخاطب بمثل هذه وتمني الجد الاعلى والاب
 الابد » انظر جلال الدين السيوطي ت ٩١١ هـ / الاكليل في استنباط التنزيل /
 ص ٢٩ .

(٤٩) سورة الصف / ٦ .

(٥٠) ابن كثير / ابو الفداء / قصص الانبياء / ص ١١٢

(٥١) سورة الاعراف / ٧٤ .

هؤلاء الأنبياء دعوا أقوامهم الى مباشرة الاسباب للارتقاء نحو الامن والاستقرار ولو تابعنا الاقوام الذين ارتبطوا مع الانبياء بدءاً من قوم نوح حيث المجتمع الزراعي ومروراً بقوم هود حيث كانوا يعيشون في الخيام نوات الاعمدة الضخام ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بقوم عاد ارم ذات المصاد ﴾^(٥٦) و﴿٥٧﴾ . وقد أكد القرآن الكريم ان الله ينشئ أقواماً أخرى بعد القوم الذين يهلكهم كما قال تعالى عن قوم هود بعد نكر قوم نوح في سورة (المؤمنون) : ﴿ ثم انشأنا من بعدهم لقماً اخرين فأرسلنا فيهم رسولاً منهنم أن اعبدوا ما لكم من اله غيره ألا تتقون ﴾^(٥٨) وكانوا يتخذون المصانع وهي البروج والبناء المالي وقال قتادة هي ماخذ الماء و﴿٥٩﴾ .

أما نمود فقد وصف القرآن الكريم معيشتها في معرض تذكير صالح (عليه السلام) لهم في قوله تعالى : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبواكم في الأرض تمشون من سهولها قصوراً وتحتون الجبال بيوتاً ﴾^(٦٠) . والملاحظ ان هود وصالح ذكرا العميون ضمن البيئة التي كانت تعيشها أقوامهم ونجد ان نوح (عليه السلام) ذكر الانهار لانه كان قريباً منها في وادي الرافدين . فقال نوح ﴿ ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾^(٦١) وقال هود : ﴿ اتقوا الذي أمركم بما تعلمون • أمركم بأنعام وينين وجنات وعيون ﴾^(٦٢) . وقال صالح : ﴿ أتركون في ما ها هنا امنين • في جنات وعيون • وزروع ونخل طلمها هضيم وتحتون من الجبال بيوتاً فارهين ﴾^(٦٣) فنل على ان الجزيرة لم تكن فيها انهار وانما عميون ووديان وجبال . وبلت النصوص التي تعرضت لنوح وهود وصالح عليهم صلوات الله . بان المجتمعات البشرية كانت تتطور مادياً وفكرياً وان الانحراف كان يصيب المجتمعات فتعرض للهلاك وان

(٥٢) سورة الفجر / ٦ - ٧ .

(٥٣) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ٩٤ . وقد تكون اعمدة البناء وليست اعمدة خيام لانه تعالى لكر في موضع أخر حكاية عن نبيهم « يتبلون بكل ربع آية تمثون • الضمراء /

١٢٩ .

(٥٤) سورة المؤمنون / ٣١ - ٣٢ .

(٥٥) ابن كثير / ابو الفداء / تفسير القرآن الكريم / ج٣ ص ٢٤١ .

(٥٦) سورة الاعراف / ٧٤ .

(٥٧) سورة نوح / ١٢ .

(٥٨) سورة الضمراء / ١٣٢ - ١٣٣ .

(٥٩) سورة الضمراء / ١٤٦ - ١٤٩ .

الناجين من المجتمعات التي تتعرض للمقوية كانت تتواصل في نشاطها وترتبط مع المجتمعات الأخرى وتنقل خبراتها الى المجتمعات اللاحقة ويفهم ضمناً بأن الاقوام الذين كانوا يملفون الرسالة كان يعيش معهم على الارض أقوام آخرون ولكن يبدو ايضاً ان القوم الذين يبعث اليهم النبي يكونون على مستوى من الرقي والاستعداد أكثر من الاقوام الأخرى فيكون اختيارهم لحكمة يعلمها الله بانهم يملكون الاستعداد للتفاعل مع الرسالة ويوجد فيهم من الذين يعلمهم الله بعلمه الغيب من يملك الاستعداد لتحمل المسؤولية اتباع النبي والمضي في طريق دعوة الحق حتى النهاية . لكي تبقى هذه المجموعة الشاهد على الرسالة وعلى المجتمعات الأخرى التي كانت تراقب ما يحدث لقوم النبي . فتتواصل مسيرة الانبياء على الارض من خلال المجموعات المؤمنة .

وعن أخبار عاد وثمود في الدراسات التاريخية الحديثة ومناهج الآثاريين ومقارنة أخبار التوراة مع الحفريات نجد إشارات مقتضبة عن هاتين القريتين « وقد شك كثير من المستشرقين في حقيقة وجود أكثر الاقوام المولفة لهذه الطبقة (يعني العرب البائدة) فعدها بعضهم من الاقوام الخرافية التي ابتدعتها خيلة الرواة . وقد اتضح الآن ان في هذه الاحكام شيئاً من التسرع . إذ تمكن العلماء من العثور على أسماء بعض هذه الاقوام . ومن حل رموز بعض الكتابات اليهودية ^(٦٠) . وسبق أن أشرنا الى رواية الطبري عن انكار اليهود لوجود عاد وثمود (وهود وصالح الانبياء) . الا ان الحفريات أكتت الرواية القرآنية ولكن تحديد عصر عاد وثمود ومكانهما حصل فيه اختلافات كثيرة بين علماء الآثار الذين كانوا يقارنون الكتابات الشمودية ونحن نعلم من خلال منهجية عرض القرآن لآخبار الاقوام ان قوم نوح كان نكرهم يأتي ابتداءً مما يؤكد ان عصر نوح اقدم المصور بالنسبة للرسول وجاء بعده هود ثم جاء بعد هود صالح . ونحن نخالف الدكتور جواد علي الذي جعل « بعض هذه الاقوام أو أكثرها قد شاعوا بعد المسيح (عليه السلام) ولم يكونوا مسمنين في القمم على نحو ما تصور الرواة ^(٦١) » وما دفعه الى هذا الاعتقاد هو انكار التوراة لهم فكان هذا السبب في رأيه « لان هذه الاقوام متأخرة عاشت بعد الانتهاء من تدوين التوراة ^(٦٢) » ولكنه ينكر

(٦٠) علي / د . جواد / مفصل في تاريخ العرب / ص ٢٩٨ .

(٦١) علي / د . جواد / م . م / ص ٢٩٩ .

(٦٢) علي / د . جواد / م . م / ص ٣٠٠ .

رأياً لبعض أهل الاخبار (ينقل هذا الرأي عن جرجي زيدان عن الهلال) . وهذا الرأي يؤكد ان التوراة فيها إشارة الى عاد وهي (هبورام)^(٦٣) وقد ورد نكر عاد في القرآن الكريم ﴿ رِمَ ذَاتَ الصَّادِ ﴾ وتكرها المصائر العربية بـ (عادارم) و (هادارم) قريبة من (عادارم) . وإذا كان نكر بعض الآثار لهذه الاقوام في كتابات يرجع تاريخها الى عصور متأخرة قبل الاسلام بقليل وبعد المسيح . جمل الدكتور جواد علي ينهب الى الاعتقاد بتأخر عصورهم . فكيف نفسر وجود أصنام قوم نوح في الجزيرة ويقاعها الى قبل الاسلام ؟ بل ان الدكتور جواد علي ينقل عن فلهاوزن ترجمة لكتابات ثمودية تذكر ان اسم صنم من أصنام ثمود ورد في كتاباتهم هو الصنم (ود) . وهو من الالهة القديمة عند العرب^(٦٤) فان بقاء بعض التأثيرات لقرى قديمة امر وارد . فلا يستبعد ان يذكر عاد و ثمود في الكتابات الثمودية التي فسرت على انها وجدت في عصور متأخرة من الممكن أن يكون انعكاس لآثار هذه القرى في ذاكرة القبائل القريبة ولا سيما اذا علمنا ان الاسلاميين من المفسرين واخباريين قد تسموا عاداً الى طبقتين . عاد الاولى ، وعاد الثانية ، استناداً الى آية في القرآن الكريم ﴿ وأنه اهلك عاداً الاولى ولمود لها أبهى ﴾^(٦٥) وقد فسر جرجي زيدان إشارة التوراة الى ان (هبورام) من نسل قحطان . (وهذا التفسير للنسل لا يستقيم مع الروايات) بقوله « ولعل كاتب سفر الخليفة رأى مقر تلك القبيلة في بلاد اليمن . فقال أنها من نسل قحطان ، لان مقام عاد في الاحقاف بين حضرموت واليمن . وكثيراً ما التبس علماء التوراة في هبورام أو هادارام ومقر نسله ولم يهتوا الى شيء عنه مع انهم اهتموا الى اماكن أكثر أبناء قحطان وكلها بجوار الاحقاف . فعاد هي هبورام في التوراة وأما ان يكون كاتب سفر الخليفة اراد تبيان القبائل التي سكنت اليمن وكلها ينتسب الى قحطان فرأى عادارم في جملتها فجعله من اولاد قحطان وأما أن يكن بالحقيقة من نسل قحطان وهم العرب في نسبة الى آرام^(٦٦) أما بالنسبة لثمود فقد نكرنا ان القرآن الكريم قد حدد تتابع عصرهم بعد عصر عاد أما

(٦٣) التكوين / الاصحاح العاشر / الآية لخبار الایام الاولى .

(٦٤) علي / د. جواد / م . س / ص ٢٢١ .

(٦٥) سورة النجم / ٥٠ .

(٦٦) علي / د. جواد / م . س / ص ٣٠٠ ينقل عن جرجي زيدان / الهلال الجزء الثالث

والعشر / السنة السادسة ١٨٩٠ م ص ٨٩٠ .

ما نكروه الدكتور جواد علي من تقديم وتأخير في نكر (عاد وثمود واصحاب الرس)^(٦٧) في معرض حديث القرآن عن هذه الاقوام فلا يعني شيئاً بالنسبة للتاريخ ، لان الآيات القرآنية صريحة في ترتيب عصورهم فقد نكر هود لقومه ان الله جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح ونكر صالح قومه بان الله جعلهم خلفاء من بعد قوم هود . وقد استشهدنا بالآيات سابقاً . وان الله سبحانه وتعالى عندما كان يقص علينا آباء هؤلاء الانبياء واقوامهم لم يكن هذا يعني بان البشرية تمثلت في هذه المجموعة من البشر وقد أكدنا هذه الحقيقة وهي واضحة ضمن منهجية القرآن لكل متأمل ومتابع فان من آمن مع نوح كانوا قلة فكيف يتصور ان البشرية بعد كل عقوبة نكرها القرآن قد فنيت ثم تستعيد نشاطها من خلال القلة الباقية فهذا غير معقول وكذلك عندما حدثنا القرآن الكريم عن عقوبات الاقوام الاخرى وضح النص أن الإهلاك كان تاماً وشاملاً ولم ينكر اتباع الانبياء ونجاتهم كما في قوله تعالى ﴿ وانه اهلك عاداً الاولى وثمود فما ابقى ﴾^(٦٨) . فان هذه النصوص القرآنية تؤكد ان القرآن الكريم كان يعرض للمقارء حالة محدودة ويستكت عن النشاط البشري على الارض وإن هذا العرض لا يستلزم أن يكون كل مجموعة هي بقية الناجين من القوم الهالكين وإنه لا يوجد على الارض غيرهم فهذا تصور محدود يضيق المعاني التي يحويها النص القرآني . فقد بعث الله نوحاً في العراق وأعقبه يهود في اليمن وأعقبهم صالحاً في المدائن شمالي الجزيرة . فلا يشترط ان تكون هناك رابطة اجتماعية بين الانبياء في دعوتهم . فكما بعث الله عيسى في بني اسرائيل بعث الله تعالى النبي محمداً صلى الله عليه وسلم وعليهم جميعاً في العرب . وإن فكرة ارتباط الانبياء اجتماعياً او عرقياً واختصاصهم بقوم معينين فكرة يهودية حاولت ان تحصر الانبياء في بني اسرائيل فلما بُعث النبي محمد (ﷺ) الى العرب كفر اليهود وأنكروا بعثه وقد نكر القرآن الكريم هذه الحقيقة ﴿ وكفوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾^(٦٩) . لذلك كان الله يبعث الانبياء من اقوامهم وكان هؤلاء الانبياء كثير وما قصه علينا القرآن قليل فكانت المجتمعات البشرية فيها انبياءها فما من أمة الا وفيها نبي يعلمها الخير وينذرها سوء العاقبة . فعندما ننقل الى ثمود فان

(٦٧) علي / د. جواد / م . س . ج ١ / ص ٢٢٢ .

(٦٨) سورة الحجر / ٥٠ وما بعدها .

(٦٩) سورة البقرة / ٨٩ .

هذا لا يعني ان البشرية كانت ثمود فقط وانما انتقل القرآن الكريم ليتابع ويعرض لقارله أهم نبوة وأعظمها في العصر الذي يتحدث عنه القرآن . اذ من غير المعقول ان يترك القرآن الكريم نبوة او رسالة اعظم ويتحدث عن التي أقل شأناً منها . ونعود الى متابعة ما نكره المستشرقون عن ثمود ، فقد وجدوا اسم ثمود في النصوص الاشورية : وجدوه في نص من نصوص (سرجون الثاني) مع أسماء شعوب أخرى . وقد دعوا بـ (Tamudi) و (Thamudi)^(٧٠) . وكما نكرنا فان نكر ثمود في عصر سرجون الثاني لا يشترط ان يكون عصرهم او معاصرتهم لسرجون الثاني . فان هؤلاء الذين ورد نكرهم بأنهم حاربوا سرجون الثاني قد يكون من نسل قبيلة اسمها ثمود وهم حتماً غير ثمود الاولى المذكورة في القرآن الكريم وقد أكد هذا د . جواد علي بقوله : « ولم يكن اولئك الثموديون الذين حاربوه من أبناء الساعة . بل لا بد ان يكون لهم أسلاف عاشوا قبلهم بعد قرون »^(٧١) .

المهم نحن تاكدنا من وجود اسم لقبيلة ثمود ولا نلزمنا تحليلات المستشرقين لان القرآن الكريم قد أغنانا . وكفى بكتاب الله مصدراً .

وقد ذكر الدكتور جواد علي نهاية ثمود وقد أخذنا من المستشرق (برو Brau) حيث يرى « أن ثموداً أصيبوا بكارثة عظيمة من ثوران البراكين أو هزات أرضية بدليل ورود كلمة (رجفة) وكلمة (صيحة) في القرآن للكريم وذلك محتمل جداً لان البقاع التي كانوا يقطنونها هي من مناطق الحرارة »^(٧٢) وهذه القضية أود أن أقف عندها فان علماءنا تابعوا تحليلات المستشرقين وهذا امر مؤسف ، لان المستشرقين لا يمكن ان يفهوا تاريخنا كما نفهمه نحن ولو أرادوا أن يفسروا لنا وقائع التاريخ فانهم يفسرونها بعقلية غربية عن تاريخنا وعقيدتنا حتى ولو كانوا صادقين او منصفين . فان قضية العقوبات التي حلت بالاقوام التي عارضت الانبياء خاضعة لمفهوم ديني عقائدي وقد تحدثت عن هذا المفهوم عند التمرض للطفوان . وان ربط العقوبة وتفسيرها بموجب جيولوجية أو تحليلات خاضعة للعلم المادي يفقدها التأثير الذي أراده الله لكي تتأمل الاقوام والشعوب التي تأتي بعد الهالكين بالعقوبات فتمتدبر وتتجنب المصير الذي أحاط بالولئك المكذبين ، لذا سنحاول أن نعمق هذا الشعور من

(٧٠) علي / د . جواد / متصل في تاريخ العرب قبل الاسلام / جـ ١ ص ٣٢٤ .

(٧١) علي / د . جواد / م . ص / ص ٣٢٦ .

(٧٢) علي / د . جواد / م . ص / جـ ١ ص ٣٢٢ .

خلال دراسة آثار وخرائب القرى الهالكة وشيء عظيم أن يتوصل علماء الآثار والجيولوجي الى تطابق في المعلومات عن مصير هذه القرى بين نتائج الدراسات والرواية القرآنية . ويذكر د. جواد علي كذلك قرى لوط التي كان مصيرها يشبه مصير عاد وثمود . وهي قرى « سدوم وعمورة وبقية مدن الدائرة في عمق السديم التي تقع - على رأي كثير من علماء التوراة - في جنوب البحر الميت فقد لاقت هذه المدن وهي خمسة على سهل (دائرة الاربن) المصير الذي لقيه قوم عاد وثمود » (٧٣) . وقبل الانتقال من جزيرة العرب وليواتها لا بد ان نذكر رواية اوردها الدكتور جواد علي عن الازرقى يقول فيها : « زعم الاخباريون ان هوداً (عليه السلام) اعتزل قومه بعد يأسه من قبول دعوته وانه ذهب مع من آمن به الى مكة . فقد ذهبوا الى ان عاش فيها أمداً ثم مات هناك فقبره بمكة مع قبور ثمانية وتسعين نبياً من الانبياء » (٧٤) وهذا الخبر يؤكد لنا ان مكة كانت المكان الامن ونقطة العودة بالنسبة للانبياء بعد انتهاء مهمة النبي (٧٥) . وهذا يتفق مع أهميتها كمركز ورمز للتوحيد الذي جاء به الانبياء جميعاً . وبعد هود وصالح يتوقف القرآن عن متابعة النبوات في جزيرة العرب وينقلنا الى مكان استعاد دوره وتركزت فيه الحركة والنشاط البشري حيث بدأ واضحاً ظهور دولة المدن وبدأ التاريخ يورثه الفعلية حيث مظاهر العمران والحضارة والكتابة ومفاهيم متطورة عن تنظيم المجتمع والدولة والعلاقات المختلفة لوجه نشاط الانسان على الأرض . ذلك المكان كان وادي الرافدين والعصر عصر إبراهيم (عليه السلام) . حيث شكلت الهجرات عاملاً مهماً في عوامل بناء مظاهر ذلك العصر . وهذه الهجرات هي هجرات متعاقبة خرجت من الجزيرة باتجاه الهلال الخصيب واستمرت هذه الحركة آلاف السنين في عملية تفاعل بين شعوب المنطقة . وكان العصر الذي سبق عصر الاستقرار والمدن عصرأ مطبوعاً بطابع الهجرة وممتلئاً

(٧٣) علي / د. جواد / م . س / ج ١ ص ٣٣٢ .

(٧٤) علي / د. جواد / م . س / ج ١ ص ٣١٣ باختصار من الازرقى / اخبار مكة / ج ١ / ٣٠ وما بعدها طيبة باريض .

(٧٥) في رواية عن النبي محمد (ﷺ) انه قال : ما من نبي هرب من قومه الا هرب الى الكعبة ويمد الله فيها حتى يموت . وقال (ﷺ) ان قبر هود وشعيب وصالح فيما بين زمزم والمقام وان الكعبة قبر ثلثمائة نبي وما بين الركن الثاني الى الركن الاسود قبر سبعين نبياً . اظهر حول هذه الروايات : الهمداني / ابو بكر احمد بن ابراهيم المعروف بابن الخليلي / مختصر كتاب البلدان / ص ١٧

بالحركة وهو المفهوم الذي عرضه ابن خلدون في رسمه لمعامل تكوين الحضارات والدول فقد جعل البداوة والحركة قبل تكوين الدولة والاستقرار . وكانت هذه الهجرات نواة لتشكيل المجتمعات الحضارية المتطورة التي استقرت في الحواضر والمدن التي نشأت في الهلال الخصيب والذليل . والمعروف عن الاقوام التي بقيت في جزيرة العرب كانت ترتبط بالنسب فيما بينها وبقيت الانساب تلعب دوراً مهماً في الحياة الاجتماعية في جزيرة العرب بينما ضعف تأثير النسب في المدن والحواضر ولذلك نجد ان القبائل العربية بقيت محافظة على نسبها الى ظهور الاسلام والبعثة النبوية الشريفة وبقي العرب المسلمون محافظين على شجرات الانساب اقتداءً بسنة المحافظة وحفظ شجرة نسب النبي محمد (ﷺ) ويذكر د. رضوان السيد أبياتاً شعرية للشاعر التقلبي الاخنس بن شهاب الذي توفي نحو ٥٥٠ م . تعبد وثيقة مهمة نقتطع بعضاً منها :

ويكز لها ظهر العراق وان تشا
يُخَلُّ بونها من اليمامة حاجب
وصارت تميم بين قفٍّ ورملة
لها من حبال منتلى ومذاهب
وكلب لها خبت فرملة عالج
الى الحيرة الرجلاء حيث تحارب
وغارت اياذ في السواد وبونها
برازق عُجم تبثني من تضارب
ولخم ملوك الناس يُجيبى إليهم
إذا قال منهم قائل فهو واجب^(٣٧)

وفي هذه الابيات صورة للواقع المعاصر للشاعر فيه حالة العرب وقبائلهم ونفوذهم في الاماكن التي ذكرها النص الشعري . وهذا يلاكد بقاء سطوة القبائل حتى القرن السادس الميلادي وقد ذكرنا ان احد الاهداف الرئيسية لكل نبي هو بناء أمة تقيم شعائر التوحيد وتخضع لسلطان الله ولكن بناء هذه الامة لا يتعارض مع الواقع

(٧٦) السيد / د. رضوان / الامة والجماعة والسلطة / ص ١٩ يخلد هذه الابيات من المخطوطات
ص ٢٠٢-٢٠٦ والحمامة ١ / ٢٥٨-٢٦٢ .

الاجتماعي فالذبي لا يلغي الوضع الاجتماعي وانما يضعه في إطار خدمة اهداف دعوته . وقد قرأ القرآن الكريم هذه الحقيقة في نص يعترف فيه بوجود اختلافات في البناء الاجتماعي ﴿ وجهنالك شعوباً وللبائل تعارفوا ﴾ ان اكرمكم عند الله اتقاكم^{٣٣} وفي رواية منسوبة الى سيدنا عمر بن الخطاب : ان الشعوب الشعاب والقبائل العرب^(٣٤) .

الشعوب في المفهوم الاسلامي تعني الاقوام خارج جزيرة العرب او كل من لا يرتبط بالانساب والقبائل لان القبائل تعني العرب وقد بقي العرب كما تعرفنا من خلال الوثيقة الشعرية بقي هؤلاء يرتبطون بالانساب . حتى اولئك الذين خرجوا من الجزيرة واستقروا في بلاد الرافدين ووادي النيل وأرض الشام . وبقيت هذه الاقوام تتفاعل هجرة وحركة في اتجاهات عديدة وشكلت نواة النشاط البشري ومركزه وكانت هذه المساحة مسرح الانبياء الثلاثة الكبرى على ارضها كانت النبوات والحضارات . ويقول د. سوسة عن هذا المفهوم : (وكان وادي الرافدين امتداداً لجزيرة العرب . بل كان جزءاً لا يتجزأ منها فكان الموئل الرئيس الذي أسست على ضفافه المستوطنات الزراعية . فأسس الاكديون والعموريون والبابليون والاراميون وكلهم اصلهم من جزيرة العرب أولى مستوطناتهم فيه . ومن الامثال المعروفة في بادية العراق قولهم (نجد أم والعراق داية) والمقصود ارتباط نجد بوادي الرافدين . وكان النظام القبلي الذي يستند الى العادات والعرف والتقاليد المتوارثة والذي يتولى فيه شيوخ القبائل السلطة هو السائد في هذا المجتمع الواحد . اذ كانت تمتد سلطة رؤساء القبائل الى جميع توابعها : بطونها وافخاذها اينما وجدت . ويؤكد الاستاذ موسكاتي ذلك فيقول : (ان المناطق الثلاث الجزيرة العربية وسورية ومن ضمنها فلسطين وبلاد ما بين النهرين كلها تكون وحدة جغرافية مترابطة الاجزاء كانت في تلك الازمان مسرحاً رئيساً للنشاط البشري^{٣٥} ... والمنطقة بأسرها كانت مفتوحة مكشوفة امام اهل الجزيرة العرب بحيث كان يسهل عليهم التوغل في جميع انحائها من جميع الجهات وهكذا فقد انصبت عليها موجات الهجرة المتتالية لما تخللته من مفريات الخصوبة ووفرة وسائل العيش^(٣٦) .

(٧٧) سورة الحجرات / ١٣ .

(٧٨) السيد / د. رضوان / الامة والجماعة والسلطة / ص ٢٧ .

(٧٩) سورة / د. احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٢٢١ ياخذ من :

ويكاد المؤرخون المحدثون المستشرقون والغربيون والعرب المعاصرون يجمعون على تقسيم أربع هجرات رئيسية قدمت من جزيرة العرب نحو بلاد الرافدين على مدى تقريبي يقدر بالفى عام وهذه الهجرات نضعها بحسب قدمها في التاريخ وكما يأتي^(٨٠) :-

١ الاكديون : وهم أقدم من هاجر من الجزيرة الى بلاد الرافدين وقد سبقتهم اقوام أخرى هاجرت الى فلسطين وسوريا والارن ولكن بالنسبة للاكديين كانوا اول من وطىء بلاد وادي الرافدين بحدود الالف الرابع ق . م . وقد أسس الاكديون أقدم إمبراطورية واعظمها في تاريخ الحضارة الانسانية التي أسسها سرجون الكبير في القرن الرابع والعشرين ق . م . ذكرت اسطورة بأن ولادة سرجون الاكدي قد حدثت وسط ظروف غير اعتيادية وأنه قد ولد نتيجة طقس للزواج وامه كاهنة وتشير الاسطورة الى ان التعاليم تفرض ان الطفل الذي يولد من هذا الزواج يرتفع الى مرتبة الالهة وان الملك الذي كان موجوداً سوف يقتل هذا الطفل فتلقيه امه في الفرات ويلتقطه الساقى (اقي) . وهذه الاسطورة تذكرنا بقصة موسى (عليه السلام) . وفيما يبدو ان الذي ألف هذه الاسطورة لابد انه قد أخذها من اليهود وكهنتهم الذين كانوا موجودين في بلاد وادي الرافدين بعد السبي البابلي ولا سيما إذا علمنا أن نص هذه الاسطورة من النصوص التي « أعيد استنساخها في غضون العصر الاشوري الحديث في حدود القرن السابع قبل الميلاد . وتم استنساخ هذا النص من بين النصوص الاكديّة الكثيرة »^(٨١) التي أعيدت كتابتها وصياغتها وهذا يؤكد تاثر وتفاعل حضارات وادي الرافدين مع النصوص التوراتية وقد أخذ كل منهما من الآخر .

٢ - الكنعانيون : وهم أقدم الاقوام الذين استقروا في فلسطين وسوريا في حدود الالفين الثالث والثاني قبل الميلاد وبضمنهم الفينيقيون الذين استوطنوا المناطق الساحلية . ويشمل الكنعانيون كذلك الاموريين الذين استوطنوا

→ Moscati. «Ancient Semitic Civilization» London 1957 pp 13,21,108

(٨٠) انظر علي / د . فاضل عبدالواحد / من الواح سومر الى التوراة / ص ٥٩ - ٦٠ . انظر

كللك سوسة / د . احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ١٠١ - ٢٤٤

(٨١) رزهد / د . فوزي / سرجون الاكدي أول امبراطور في العالم / ص ١٧ وما بعدها .

المناطق الشرقية من بلاد الشام ووادي الرافدين وقد ورد إسم الاموريين في النصوص السومرية بصيغة « مارتو » والنصوص البابلية بصيغة (أمورو) وتلمي الصيغتان السومرية والبابلية (الغرب)^(٨١) وهذا يعني انهم بالنسبة للعراقيين جاؤوا من الغرب . وقد تمكن الاموريون من تأسيس سلالة بابل الاولى (١٨٩٤ - ١٥٩٥ ق . م .) واستطاعوا مع الاكديين فيما بعد إقامة سلالات حكمت مناطق عديدة في بلاد وادي الرافدين .

٣ - الاراميون : استوطن هؤلاء الهلال الخصيب في النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد وأقاموا نويلات عديدة في شمال سوريا وفي مناطق الجزيرة في (ما بين النهرين) زمن هؤلاء الكلدانيون الذين أقاموا دولة قوية في العراق أسسها نبووبلاصر في عام ٦٢٦ ق . م . استمرت حتى عام (٥٣٩ ق . م .) .

٤ - المجموعات الاخيرة من القبائل التي خرجت من الجزيرة باتجاه الهلال الخصيب وأسسوا دول المناذرة والساسنة في العراق وسوريا : وقد ورنبت أخبار عنهم في كتابات الملوك الاشوريين واستمرت عملية تدفق المجموعات البشرية وتفاعلها بين الهلال الخصيب وجزيرة العرب . وان حركة الهجرة هذه لم تكن مقتصرة على جزيرة العرب والخروج منها باتجاه الهلال الخصيب . بل ان الاختراقات والمداهمات التي كانت تحدث بين بلاد وادي الرافدين وفلسطين وبين من كان موجوداً على ارض فلسطين ومصر كثيرة فقد سجلت لنا الواح الطين وكتابات البردي عمليات كز وفز وبناء أسوار وسيطرة وتغيير أوضاع وسلب ونهب وأحداث كثيرة كانت تموج بها المنطقة التي كانت مرشحة لان تلعب اعظم ادوار التاريخ مع الانبياء . ولذلك نحن نرفض جعل الفتح الاسلامي وتحرير العراق وبلاد الشام ووادي النيل امتداداً لعمليات الهجرة التي كانت تحدث^(٨٢) . لان الفتح الاسلامي كان يعبر عن قيم رسالية واعتبارات دينية وليس البحث عن عيش وارزاق أو اراض خصبة وأنهار عذبة

(٨٢) رشيد / د . فوزي / الملك حمورابي مجدد وحدة البلاد / ص ١٠ وما بعدها .

(٨٣) لقد وقع في هذا التفسير الخاطيء مع الاسف الشديد كل الذين استرسلوا في الحديث عن الهجرات القديمة والحقوا بها عملية الفتح الاسلامي . وهذا من الاخطاء المنهجية والاختلافات الجوهرية بين النظرة الاسلامية للتاريخ والنظرة المتأثرة بالكتابات الغربية .

وبساتين وأرقة ولم يخرج العرب المسلمون من جزيرتهم بسبب الجوع والحاجة وإنما لتحرير الانسان ونشر التوحيد . وقد اكدت لنا وثيقة تاريخية هذه الحقيقة عندما حاور رستم اعضاء الوفد الاسلامي قبيل المواجهة العسكرية فقد سال رستم المغيرة بن شعبة عن سبب خروجهم من الجزيرة هل كان بسبب الجوع ؟ فاجاب المغيرة بن شعبة : لا لقد كان هذا من قبل . أما الآن فان الله قد أمرنا بالخروج لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله الواحد الاحد^(٨٤) .

والملاحظ على الهجرات التي خرجت من ارض الجزيرة في العصور القديمة أنها تخلت عن ارتباطاتها الصحراوية وحياتها القبلية وأنشأت مجتمعات ومستقرات مدنية أنتسبت اليها هذه القبائل فنجد تسميات قبائل العرب البائدة والعارية مثل طسم وجديس واميم وجرمم وقحطان ومعد وعدنان . ونجد ان هذه التسميات قد اختلفت وحل محلها الانتساب الى المدن والاماكن التي استقر فيها هؤلاء القادمون وأنشأوا عليها حواضرهم . فظهرت اسماء مرتبطة بمناطق السكن لهذه القبائل مثل : البابليون والاكديون والاشوريون والاموريون التي تعني القادمين من الغرب . وهؤلاء كلهم يرتبطون بجنور لغوية تعود الى أصول لفة واحدة والتي تفرعت الى لغات هؤلاء الاقوام ثم تقاربت فيما بعد لتشكل اللغة العربية الصريحة او بالاحرى يمكن القول بان العربية التي بقيت في الجزيرة قد زحفت وقضت على اللغات الاخرى التي تهبط معها في الاصول .

لقد أكدنا في الصفحات السابقة ان تسمية السامية تسمية غير علمية ومبنيّة على أساس اسطوري لم يأت اي دليل على وجوده في التاريخ الا من التوراة وقد حاول اليهود لتأصيل هذه النظرية وهي (السامية) وجندوا لنصرتها وتبويتها كل وسائلهم وحاربوا كل من يمس هذه العقيدة وعاش المفكرون في اوربا في العصر الحديث نوعاً من الارهاب الفكري عندما يحللون او يحاولون ان يطرحوا آراء تدعو الى التخلي عن هذا الوهم السامي ويحاول اليهود ان يعبروا من خلال هذه النظرية عن قضيتين هما أساس وجودهم في فلسطين وبعثاتين القضيتين اقعنوا العالم الغربي واضطروه للتسليم بمقيدة التوراة وشعب الله المختار . وهاتان القضيتان :

(٨٤) انظر العمري / د . انهم ضياء / السيرة النبوية الصحيحة / ج ١ ص ٢٤ / مكتبة الطبع

والحكم / المدينة المنورة / ١٩٩٢ م .

١ - ان الشعب الوحيد الذي ينتمي الى الشعوب السامية المرتبطة بـ (سام بن نوح) ويحمل الدم النقي والعرق الذي لا تشوبه شائبة الاختلاط بين شعوب المنطقة هم اليهود .

٢ - اللغة الوحيدة التي حفظت ولم تدرس من اللغات السامية هي اللغة العبرية . على اعتبار ان العربية الفصحى لفة منقرضة . ولذلك لا بد من تشجيع العامية وان تكون (اللغة المكتوبة هي الملفوظة)^(٨٥) .

ومن الحقائق المعروفة اليوم بان وجود المراق النقي وهماً من الاوهام « وفيما يتعلق بالاغراض الاجتماعية العلمية ليس (العرق) ظاهرة بيولوجية بقدر ما هو اسطورة اجتماعية . وقد ولدت اسطورة (العرق) هذه قدراً كبيراً من الاضرار الانسانية والاجتماعية »^(٨٦) .

اما بالنسبة للغة فنحن نعلم محاولات عديدة قام بها علماء في الانثروبولوجي والفيلولوجي وعلماء من الآثار والتاريخ القديم حاول هؤلاء الخروج من هذه التسمية (السامية) ولكنهم لم يفلحوا وتراجعت محاولاتهم وبقيت السامية هي التسمية الطاغية على كل المحاولات . ويبدو ان الباحثين العرب قد استحسنا هذه التسمية . وهذا الاستحسان قائم على اساس نفسي غير لائق وغير علمي وجريماً وراء التيار الذي اوجده اليهود . فما هو الدكتور رمضان عبدالنواب وهو رجل عالم معروف لا نشك في سلامة نيته ولكنه وجد نفسه مقتنعاً ومستسهلاً هذه التسمية وذلك في قوله : « وهذه التسمية مختصرة ومناسبة » وكما هو الواجب من التسميات الاصطلاحية^(٨٧) ولكن اذا كانت التسمية المختصرة تستقبل لاغراض غير علمية فلا بد من الاعراض عنها واستبدالها بتسمية تبتعد عن هذه الاعراض . وقد طرح بعض العلماء المعاصرين مصطلح (الجزيريين) كبديل عن الساميين^(٨٨) ولكن هذا المصطلح لم يكتب له الشروع وبقي محدود الانتشار . والمعروف ان اول من اطلق

(٨٥) صبحي / صبحي القوين / ملتحج للخصية العربية في التيار الفكري المعاصر للغة العربية / ص (٤) الصفحة .

(٨٦) سويتاغور / القليلي / المصنف العلمي للسطوة للشيخ العربي توجية للمقدم حسن أحمد بهنام / ص ٢٢٢ .

(٨٧) عبدالتواب / د . ومشارك / لفصول في لغة العربية // ص ٧٥ =

(٨٨) القادر علي / د . طائفل عطاواحد / مع الواجح صبحي الى التتبع // ص ٥٠ وما بعدها .

(السامية) هو العالم الالمانى شلوتسر * وقد اخذها من جدول تقسيم الشميب الموجود في التوراة . ذلك الجدول الذي يرجع كل الشموب التي عمرت الارض بعد طوفان نوح الى اولاده الثلاثة : سام ، وحام ، ويافت *^(٨٩) ولكننا عرضنا تسمية ترتبط بتاريخ المنطقة ولها جنور حقيقية اقراها القرآن الكريم وتتفق مع جوانب مما في التوراة . هذه التسمية هي « الابراهيمية » نسبة الى ابراهيم (عليه السلام) ونحن ندرس عصره ونتعرف على ملامح هذا العصر اذ برزت في المنطقة بدايات الحضارات والدول وتأسست قواعد الحضارات الانسانية وقيم وأخلاق وعقائد تكريم الانسان وتفوقه على الوجود غير البشري على الارض من حيواني ونباتي وغيرهما . ان اطلاق الابراهيمية بدل السامية تكريم لذكرى النبي الكريم (ابو الانبياء) وتكريم لامة التي ارتبطت به وهي الامة الاسلامية التي كان العرب نواتها . ولنا من الاسباب التي تجعلنا نؤمن بهذه التسمية وندعو الى تعميمها وتاصيلها وتثبيتها . ومن هذه الاسباب :

١ - قوله تعالى ﴿ ان لولي الناس يابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴾^(٩٠) . ان التاريخ بدأ بإبراهيم وهذه البداية تقابل البداية التي يرضاها علماء التاريخ القديم للتاريخ الذي بدأ بالكتابة . وان الله سبحانه وتعالى نكر في القرآن الكريم انه أنزل صحفاً على ابراهيم وهذه الصحف تعني ان الكتابة كانت معروفة وموجودة في عصره . قال تعالى ﴿ ان هنا لفي الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى ﴾^(٩١) . لذلك لا بد أن نجعل انتماء هذه الامة الى البداية الكريمة المعروفة لا الى بداية متحللة ليس هناك دليل على صحتها وقد ربط القرآن الكريم هذه الامة ونبيها بإبراهيم ليجعل لهذه الامة الشهيدة على الامم بداية واضحة المعالم كريمة الاصول ابوها أبو الانبياء .

٢ - ربط النبي محمد (ﷺ) هذه الامة بإبراهيم ففي صحيح البخاري عن ابن عباس قال : كان رسول الله (ﷺ) يهوذ الحسن والحسين ويقول : « إن أبكما كان يهوذ إسماعيل وإسحاق : أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان

(٨٩) انظر عبدالنواب / د. رمضان / فصول في فقه العربية / ص ٢٥ .

(٩٠) سورة آل عمران / ٦٨ .

(٩١) سورة الاعلى / ١٨ - ١٩ .

وهامة ومن كل عين لامة»^(٩٢) وفي البخاري ايضاً عن ابي هريرة موقوفاً فيما يذكره عن هاجر المصرية ويذكر خبر محاولة فرعون الاعتداء على سارة فلما منعه الله منها أعادها الى زوجها إبراهيم وأخضعها هاجر . فقال ابو هريرة رضي الله عنه عن هاجر : فتلك أمكم يا بني ماء السماء»^(٩٣) وهذه إشارة الى ان أهل مصر أخرجهم الحديث من العرب وجعل العراقيين من العرب لان إبراهيم ابا العرب كان عراقياً . فاذا كانت هاجر المصرية ام العرب فيحق لنا أن نقول : إن (إبراهيم العراقي ابو العرب) . وقد ذكر رسول الله (ﷺ) هذه الرحم للمصريين عندما قال « اذا استفتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فاني لهم صهراً »^(٩٤) وفي رواية « أن لهم رحم » . إشارة الى مارية القبطية . ان تصورنا للغة بحسب المفهوم الديني بدأ بـ (أم) وفي عصر أم كانت اللغة بدائية تتوأم مع البيئة والحاجة وهذا التحديد لعصر اللغة يستند الى قوله تعالى ﴿ وعلم أم الاسماء كلها ﴾ وبذلك أوجد الله في أم القابلية والاستعداد على تعلم اللغات كلها وما يمكن ان تتطور اليه . وان اصل اللغة يتحد بموجب الآية السابقة توقيفي اي ان الله تعالى قد خلق في الانسان امكانية النطق وغرز فيه الاستعداد وبدأت عند أم (عليه السلام) عندما نطق بأسماء الاشياء أمام الملائكة . ولكن هذه اللغات البدائية التي بدأت عند أم سارت في خطوط تطويرية تطورت فيها اللغة الام الى لغات أساسية قسمها العلماء على ثلاثة أقسام « وأشهر نظرية قسمت اللغات على فصائل هي نظرية ماكس مولر (Max Muller) الذي يجعل اللغات كلها ثلاث فصائل : الهندية الاوروبية ، والسامية الحامية ، والبطوانية . وقد انتهى علماء اللغة الى القول بضرورة توافر شروط معينة يمكن القول بين لغتين تنتمي الى فصيلة لغوية ما »^(٩٥) « وقد حدد الدكتور سميح هذه الشروط الثلاثة وهي على نحو الآتي :

-
- (٩٢) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٧٥
(٩٣) ابن كثير / م . ص / ص ١٤٧ . وقد تكون هذه العبارة حديث نبوي شريف ولكن الرواية موقوفة على ابي هريرة .
(٩٤) الهمذاني / ابو بكر احمد بن ابراهيم المعروف بزبن الفقيه / مختصر كتاب البلدان / ص ٩٥ .
(٩٥) أبو مفلح / د . سمح / في فقه اللغة وقضايا عربية / ص ٢٢٠

١ - التشابه بين النظم الصوتية .

٢ - التشابه بين النظم الصرفية .

٣ - خضوع الاختلافات بين النظم الصوتية والصرفية لقواعد مطردة .
وقد قال بتطور اللغات علماء اللغة المسلمون الأوائل مثل ابن جني الذي يقول في الخصائص عن أصل اللغة : « باب القول على أصل اللغة الهام هي أم اصطلاح : هذا موضع محوج الى فضل تأمل . غير ان أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح ، لا وحي (وتوقيف) الا ان أبا علي رحمه الله قال لي يوماً : هي من عند الله واحتج بقوله تعالى ﴿ وَعَلَّمَ أَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ وهذا لا يتناول موضع الخلاف وذلك انه قد يجوز ان يكون تاويله : أقدر آدم على أن واضع عليها . وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة وهذا رأي ابي الحسن . على انه لم يمنع قول من قال : انها تواضع منه (أي آدم) على انه قد فسر هذا بان قيل : ان الله سبحانه علم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات : العربية والفارسية والسريانية والبربرانية والرومية وغير ذلك من سائر اللغات وعلق كل منهم بلغة من تلك اللغات فغلبت عليه واضمحل عنه ما سواها لبعد عهدهم بها «^(٩٦) . ويذكر ابن جني بانه « متردد بين التوقيف والتواضع »^(٩٧) بعد عصر آدم حيث كانت الهجرة والانتقال طابع عصور ما قبل التاريخ وكان التفاعل بين الجنس البشري يتصاعد فيطور قابليات البشر ويحسن ظروف عيشه . وقد اتسمت هذه العصور بصفتين أساسيتين وهما : الانعزال ويحدث الانعزال بعد تجمع المجتمع واستقراره وذلك بسبب صعوبة المواصلات . والصفة الثانية التحول وقد ذكر ذلك أشيلي حيث ذكر « إن الانسان قد تطور على وفق الخطوط الآتية : جماعات منعزلة نسبياً تتمايز بصورة مبكرة وتتحول تكيفاً مع بيئتها الى اعراق جغرافية واضحة المعالم يلي ذلك فيما بعد تزاوج (تهجين) ينشأ عنه اتحاد الجسيمات الوراثية (المورثات) اتحاداً جديداً بصور كثيرة جداً »^(٩٨) وقد كان العراق مهداً لتكوين مجموعات بشرية منذ القدم ومع بداية ظهور الانسان المائل بل ان العراق كان مقراً او موئلاً او احد المستقرات المهمة لانسان نياندرتال لان الظروف كانت مناسبة لتكوين تاريخ ثقافي للمجتمع العراقي

(٩٦) ابن جني / ابو الفتح عثمان / الخصائص / ج١ ص ٤١ - ٤٢ .

(٩٧) ابن جني / ابو الفتح عثمان / الخصائص / ج١ ص ٤٨ .

(٩٨) مونتغيو / اشيلي / المحضر العلمي لاسطورة التفوق العرق / ص ٣٠ .

القديم وهذا التاريخ لتطور عملية الانسان هو التفسير الملتفي لوجود اوان حضارة على الارض كانت على ارض العراق وكان التفاعل بين القادمين الى العراق والمستقرين على ارضه قبلهم يولد حالة « امتصاص للعرق » وهو « اندماج جماعة سلالية في جماعة سلالية أخرى بشكل يجعل الجماعة المندمجة تختفي من نون ان تحدث اي تبديلات جسمية ملحوظة في مظهر الجماعة السلالية التي اندمجت فيها . ومن الامثلة على اول نوع من الانطفاء الذي نملك عنه شواهد ذات دلالة . نوبان الجماعات السلالية في عصور ما قبل التاريخ الذي يعتقد بعض العلماء انه حدث في الشرق الانسى مثلا . ولا تزال عملية النوبان هذه مستمرة حتى في عصرنا الحاضر الى جانب عملية الامتصاص . ويبدو ان امتصاص اناس من نمطنا نحن لانسان نياندرتال هو حقيقة حدثت فعلاً^(٩٩) ولذلك في عصر نوح حيث بدايات تكون المجتمعات القروية ثم ظهور السومريين في العراق وقيام الاكديين وما بعد هذه الاحداث يمكن ان توضع تحت هذا العنوان ، فقد حدثت عمليات تنويع وامتصاص وتفاعل لغوي ادى الى اختفاء السومريين ولفتهم وظهور الاكديين ولفتهم وحدث الامر نفسه مع البابليين وظهرهم في العراق وتفاعلهم مع الاكديين الذي ينتمون معهم الى سلالة واحدة ويشتركون معهم في اصول لغوية متقاربة . وتبلور في الالف الثاني قبل الميلاد هيكل متكامل حضارياً ولغوياً واجتماعياً تمثل في أنظمة الحكم لعصر فجر السلالات وتمثل في شرائع عبرت عن مستوى راقٍ لواقع اجتماعي متطور يخضع لضوابط القانون والتزاماته وفي قمة هذا العصر وتطوره ظهر ابو الانبياء (إبراهيم عليه السلام) ظهر لكي يوضح معالم الطريق التي بدأها آدم وتواصل معها نوح عليهم السلام . وعن شخصيته ومعالمها توقف القرآن كثيراً ولذلك سنتوقف مع شخصية هذا النبي الكريم من خلال نصوص القرآن الكريم .

المبحث الثاني

إبراهيم (عليه السلام) في نصوص القرآن الكريم والآهاديث النبوية

لقد امتاز النص القرآني عن غيره في حديثه عن الواقعة التاريخية وتصديه للحدث التاريخي . ان النص القرآني يجرد الحديث من الملابسات المكانية والزمانية والشخصية ويتحدث عن الفعل المجرد ويمنح الفعل حركة وفاعلية تتجاوز الزمان والمكان والاشخاص . وقد أكدنا هذه الحقيقة في حديثنا عن المعالجات التي تعرضنا لها في محاولة لربط النص القرآني بالتاريخ . وتبدو هذه القضية اكثر وضوحاً عند حديثنا عن شخصية إبراهيم الخليل (عليه السلام) .

ولادته ونشأته :

لم يتحدث القرآن الكريم عن ولادة إبراهيم (عليه السلام) ولكن اول نص يطالعنا حول حوار حصل بين إبراهيم وأبيه يخبره بأنه قد أوحى اليه وأنه اختير نبياً ويحذر أباه من عبادة الاصنام واتباع الشيطان ويبدو ان هذا النص يعبر عن بداية

الوحي لإبراهيم^(١٠٠) وفي نصوص أخرى تصدت لهذا الحوار الذي وقع بين إبراهيم وأبيه ففي سورة الانعام نجد في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَسْمَأُكُمْ أَهْمَةً ۖ إِنِّي أَخَافُ كَيْدَهُمْ ﴾ (١٠١) وقد يكون هذا حوار آخر حصل بين إبراهيم وأبيه لأن الأسلوب الذي اتبعه إبراهيم هنا يختلف حيث تبدو المواجهة قد وقعت وان إبراهيم (عليه السلام) قد استقبل أسلوب الود والموادعة بأسلوب التعديف والتسفيه لمقائد القوم وأبيه . ولكن هناك مسألة اثار جدلاً بين المؤرخين والمفسرين الاسلاميين . فالنص القرآني يحدد اسم ابي إبراهيم بـ (أزر) وقد نكر ابن كثير « ان جمهور اهل النسب منهم ابن عباس على ان اسم ابيه (تارح) واهل الكتاب يقولون (تارخ) بالخاء المعجمة فقليل ان لُقّب بصلم كان يعبد اسمه أزر . وقال ابن جرير : والصواب ان اسمه أزر ولمل له اسمان علمان او احدهما لقب والآخر علم . وهذا الذي قاله محتمل والله اعلم »^(١٠٢) وينكر العقاد تفسيراً لهذه الحال فيقول : « فإذا نُسب إبراهيم الى آشور فمن الجائز جداً ان يكون تارح وأزر لفظين مختلفين لاسم واحد ، سواء كان هذا الاسم علماً على رجل أم على الجد القديم الذي تنتسب اليه أمة آشور وكثيراً ما انتسب القوم الى اسم جدٍ قديم كما يقال في التسمية الى عدنان وقحطان . ونظرة واحدة في كتابة اسم آشور ونطقها الى اليوم في العراق وسورية تقرب لنا هذا الاحتمال الذي يبدو بعيداً لأول وهلة . فقد كتبت آشور تارةً أزر وتارة آشور وتارة آشور بالسين . ولا يخفى ان اللغات السامية لم تكن تكتب لها حروف علة الى زمن قريب . وان الاغريق الذين اطلقوا اسم (أسورية) على وطن إبراهيم من نهر الفرات الى فلسطين ينطقون الياء الاغريقية بين الواو والياء ولهذا تنطق سيرية بالياء في اللغات الاوربية وتنطق سورية بالواو في اللغات الشرقية ولا يخفى كذلك ان كلمة تارح تنطق تيرح على لسان الكثيرين من الناطقين باللغات السامية وتنطق تيرا وتيره عند الذين لا يستطيعون النطق بالخاء . فانا لاحظنا ذلك كله فليس اقرب من تحويل آشور وأتير الى تيرا وتيرح ومضى هذا انه (أزر) هي النطق الصحيح الذي عرفه به اسم لسور القديم وان تيرا وتيرح هي نطق الذين

(١٠٠) انظر الآيات ٤١-٤٤ من سورة مريم وهي تسجل هذا الحوار .

(١٠١) سورة الانعام / ٧٤ -

(١٠٢) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٢٢ .

يكتيبنها اتيرة واتيرج وينطقونه بكلمة آشور بين الواو والياء «(١٠٢)». ومن خلال عرض القرآن الكريم لمراحل دعوة إبراهيم (عليه السلام) تؤكد النصوص إنه عرض بعوته في بيئتين البيئة الاولى عندما دعا آياه الى التخلص من عبادة الاصنام وهذا يعني انها بيئة تمعد الاصنام وقد تفشت فيها هذه العبادة حتى دخلت البيوت والمعابد وعمد الناس الى هذه الاصنام عاكفين على عبادتها . وهذه البيئة هي البيئة الاولى التي نشأ فيها إبراهيم وترعرع . والبيئة الثانية كانت فيها عبادة الكواكب . وقد عرض القرآن الكريم في نصّ أسلوبياً مارسه إبراهيم (عليه السلام) في تفنيد عقيدة عبادة الكواكب ويعطريقة غير مباشرة وهذه من تعليم الله له فقد آتاه الله حجة على قومه في البيئة الاولى عندما عمد الى الاصنام فكسرها ووضع الفاس بيد كبيرها وعندما سآله قومه قال لهم اسألوا كبيرهم ان كانوا ينطقون ؟! فنكس القوم وأضحوا . وهنا يتمرض الى عقيدة عبادة الكواكب فيقول لقومه انه سوف يعبد هذا الحجر البازخ « وقيل هو الزهرة ثم ترقى الى القمر الذي هو أضواؤها وأبهى من حسنها ثم ترقى الى الشمس التي هي أضد الاجرام المشاهنة ضياءً وحسناً فبين إنها مسخرة مسخرة مقنرة مريوية . ولهذا قال ﴿ فلما رأى الشمس بازغة . قال هذا ربي هذا أكبر فلما أظلت قال يا قوم اتى برىء مما تشركون • اتى وجهه وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً • وما أنا من المشركين وحاجته قومه قال أتعاجوني في الله وقد هنان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا ﴿(١٠٣) والظاهر ان موعظته هذه في الكواكب لاهل حران . فانهم كانوا يعبدونها وقد ذكر ابن اسحاق وغيره إن هذا كان حين خرج من المرب لما كان صغيراً . وهو مستند الى اخبار اسرائيلية لا يوثق بها . أما أهل بابل فكانوا يعبدون الاصنام . وهم الذين نأظرهم في عبادتهم وكسرها عليهم «(١٠٤)» .

وفي بابل كانت المواجهة الاولى وكانت أكثر قسوة وضراوة حيث كانت بابل اقدم مدن العالم وذات تاريخ عريق وفيها نظام سياسي مركزي يقف على رأسه الملك الذي تحدى إبراهيم . وينكر النص القرآني ان هذا الملك جاء يحاجج إبراهيم بعد ان فند إبراهيم (عليه السلام) عقائد القوم وملك الحجة على قومه في إبطال عقيدة عبادة

(١٠٣) المقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(١٠٤) سورة الانعام / ٧٨ - ٨٠ .

(١٠٥) ابن كثير / تفسير الانبياء / ص ١٣٣ .

الاصنام وزيفها . هذه العبادة الوثنية التي سادت العالم في تلك العصر وعصور قبله فبعت الله إبراهيم لتحطيم هذه القاعدة التي بناها الشيطان ليُضِلَّ الانسان على الارض . ولكن هذه القاعدة التي كان الكهنة يديرونها ويثبون ضلالاتها على العالم كانت معهم سلطة سياسية التقت مصالحتها مع الكهنة فكان حلفاً ستراتيجياً بين الكهنة والملوك . حتى صوّر الكهنة إن هذا النظام الملكي قد هبط من السماء ليحكم الناس^(١٠٦) . وقد منحت الالهة الملوك حقاً في التحكم في مصائر العباد . ولذلك لكر النص القرآني ان الملك الذي حاج إبراهيم (عليه السلام) قد (اتاه الله الملك) اي مكن له وانعم عليه بأن جعله ملكاً من خلال تسخير الامور وجريان المقادير لكي يتسلم هذا الانسان الملوكية . ولكن هذا الانسان نسي هذه الحقيقة فأعلن جببروته بعد ان نكّره إبراهيم (عليه السلام) بقدرة الله على الاحياء والايجاد من العدم والاماتة . هذه الحقيقة التي لو تأملها هذا الملك لاستعاد وعيه وعرف قدره ولكنه قال بصلف وغرور : ﴿ انا احيي واميت ﴾^(١٠٧) فقال له إبراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر • والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾^(١٠٨) وهذه الحقيقة التي اوجدنا الله في النظام الكوني وهي خروج الشمس من المشرق هي التي حطمت عقيدة الملوكية التي هبطت من السماء عندما عجز الملك ان يغير هذا الناموس ونهت الذي كفر . في هذه المناظرة أعلن إبراهيم عن حقيقة بعوته وعن موقفه من الملك ويبدو ان المعركة مع الوثنية قد اشتدت وأعلن إبراهيم (عليه السلام) عداوته للملك والكهنة والوثنية وأعلن إبراهيم عن هذه العداوة في نصوص قرآنية منها قوله تعالى عن حكاية عنه ﴿ اهل ايّمت ما كنتم تعبدون • انتم واهلواكم الاكلمون • فانهم عدو لي الا رب العالمين ﴾^(١٠٩) . وفي هذا النص يكشف إبراهيم عن حقيقة تاريخية وهي ان عبادة الاصنام عميقة في التاريخ فقد كان الآباء الاقمامون اي الاجيال القديمة ، كانت تعبد هذه الاصنام لذلك نجد ان حفريات العراق في الطبقات الاولى منها وأقمتها لم تكن تخلو من أصنام من الطين

(١٠٦) اظهر مصادر التاريخ القديم حيث اجتمعت ان عقيدة المراقبين القدماء (ان الملوكية

هبطت من السماء) .

(١٠٧) سورة البقرة / ٢٥٨ .

(١٠٨) سورة البقرة / ٢٥٨ .

(١٠٩) سورة الشعراء / ٧٥ - ٧٧ .

وقد عثر في طبقات مختلفة على أصنام هائلة في حفريات العراق^(١١٠) . ونص قرآني آخر يعبر عن عداة إبراهيم (عليه السلام) لهذه الاصنام بقوله تعالى ﴿ وتالله لا أكفيبن أصنامكم بعد ان تولوا مدبرين ﴾^(١١١) « وكان لهم عيد يذهبون اليه في كل عام مرة الى ظاهر البلد فدعاه أبوه ليحضره فقال : إني سقيم كما قال الله تعالى ﴿ فظهر نظرة في التجموع فقال اتي سقيم ﴾^(١١٢) . عرض لهم في الكلام حتى توصل الى مقصوده من إهانة أصنامهم ونصرة دين الله الحق . ويطلان ما هم عليه من عبادة الاصنام التي تستحق ان تكسروا وان تهان غاية الإهانة »^(١١٣) . فكانت حادثة تكسير الاصنام تعبر عن تهاة هذه الالهة وكانت طريقة نكية في تدمير قسمية هذه الاصنام في نفوس القوم . ولكنهم ارتكسوا ونكسوا على رؤوسهم وأعلدوا حربهم ضد إبراهيم ودينه و ﴿ قالوا حرقلوه واتصروا الهتكم ان كتتم فاعلين ﴾ فلنا يا ناز كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ وأرادوا به كيباً فجعلناهم الاخسرين ﴾^(١١٤) .

فكانت حادثة تحريق إبراهيم علامة بارزة في تاريخ البشرية عبرت عن كفر القوم وحققهم على التوحيد والدين الذي جاء به إبراهيم وقد كان قرار حرق إبراهيم (عليه السلام) من الكهنة وفضه الملك من خلال تنسيق وتهينة شعبية قام بها عندما استعقوا القوم والشعب على إبراهيم بقولهم (انصروا الهتكم) وتمت العملية باقامة بناء كما في قوله تعالى ﴿ قالوا ابنا له نبياً فاتقوه في الجحيم ﴾ فأرادوا به كيباً فجعلناهم الاسفلين ﴾^(١١٥) هذا البناء الضخم الذي وضعوا به الحطب الكثير كما قال ابن كثير « ان المرأة منهم إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطباً لحريق إبراهيم . ثم عمدوا الى حوية (حاوية) عظيمة فوضعوا فيها نلك الحطب واطلقوا فيه النار . فاضطرب وتاججت والتهبت وعلا شرار فيها لم يُر مثله قط »^(١١٦) بعد ان

(١١٠) انظر مالون / ماكس / منكرات مالون / ينكر عن التتقييات في مواقع عديدة وعتوره مع

مسترو بولي على اعداد هائلة من الاصنام .

(١١١) سورة الانبياء / ٥٧ .

(١١٢) سورة الصافات / ٨٨ - ٨٩ .

(١١٣) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٣٦

(١١٤) سورة الانبياء / ٦٨ - ٧٠ .

(١١٥) سورة الصافات / ٩٧ - ٩٨ .

(١١٦) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٣٩ . انظر لفرة الشرائع القديمة فيما ياتي وكيف

نجاه الله من خلال المعجزة التي تحدث عنها القرآن وهي ابطال خاصية الحريق في النار وجعلها (برداً وسلاماً) وهو برد لا يؤذي ، سالم من الاندى رأى إبراهيم ان لا مقام له في العراق بعد ان وصلت الامور الى ما وصلت اليه فقرر الهجرة فهاجر هو ومن آمن معه وكان معه من المؤمنين به ابن اخيه لوط (عليه السلام) الذي بعثه الله نبياً الى سدوم والقرى القريبة منها في فلسطين وكان على اتصال مستمر بإبراهيم (عليه السلام) كما اشارت الايات الى ذلك بعد الهجرة والاستقرار في فلسطين . هذه المرحلة الاولى من حياة إبراهيم (عليه السلام) وهي تمثل بداية تكوين امة التوحيد التي ارسى قواعدها إبراهيم (عليه السلام) ولا يمكن ان نطلق على هذه البداية عربية ولكنها سابقة للعربية الصريحة وهي تمثل جنور امة العرب التي كان ابوها إبراهيم فهو ابو العرب . لذلك كانت العراقية حالة تمثل جنور العروبة واننا اذا اطلقنا عليها العروبة فاننا سنقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه اليهود الذين قالوا ان إبراهيم كان يهودياً . وكانت هناك محطة استقر فيها إبراهيم (عليه السلام) مؤقتاً وقد تعرضت نصوص في القرآن الكريم لهذه المرحلة من حياة إبراهيم وهو يتصدى لعقيدة هؤلاء القوم الباطلة حيث كانوا يعبدون الكواكب . وقال علماء التاريخ ان هذه المنطقة التي قصدها إبراهيم (عليه السلام) عند خروجه من بابل وبابل كانت تعني العراق القديم ، هي حران التي كانت مركزاً عالمياً لعبادة الكواكب وهي مدينة قديمة واقعة في مفرق طرق بين تركيا وسوريا والعراق . وقد تحدثنا عن النصوص التي نكرت الحجة التي آتاه الله إبراهيم في تفنيد عقيدة عبادة الكواكب عندما قارن بين الكواكب ويوظفها وأوصلهم الى نتيجة واحدة هي عبادة الله الذي يُستَبر هذه الكواكب ويبيق اثره لا يأفل ولا يغيب . بعدها يخرج إبراهيم (عليه السلام) من حران مع قومه واتباعه ومعه زوجته سارة وهي بنت عمه لا كما يقول اهل التوراة بانها ابنة اخيه وهي اخت لوط^(١١٧) . وهذا افتراء على هذا النبي العظيم خليل الرحمن بأنهم جعلوه يتزوج المحارم وهذا شأن اليهود في تحطيم القيم والاخلاق وتدمير اثر الانبياء والافتداء بهم . بعد خروجه من حران استقر في فلسطين وحدثت مجاعة اضطرته الى أن يهاجر الى مصر لانه لم يستطع العونة الى العراق لانه كان مطارداً من قبل

→ توضح ارتباط عقوبة التحريق بالواقع والمصر الذي كان يعيش فيه ابراهيم (عليه السلام) .

الملك والكهنة في العراق وهجرته الى مصر تنكرها النصوص الاسلامية في حديث نبوي شريف صحيح . رواه البخاري في جزء من حديث الكتابات ؛ « بينما هو ذات يوم وسارة اذ أتى عليه جبار من الجبابرة فقيل له : ان هاهنا رجلاً معه امرأة من احسن الناس . فأرسل اليه وسأله عنها ؛ فقال : من هذه ؟ قال : اختي ، فأتى سارة فقال ؛ يا سارة ليس على وجه الارض مؤمن غيري وغيرك . وان هذا سألني فأخبرته انك اختي . فلا تكذبيني . فأرسل اليها فلما دخلت عليه نهب يتناولها بيده فاخذ . فقال ادعي الله لي ولا أضرك . فدعت الله فأطلقها ثم تناولها الثانية مثلها او اشد . فقال ادعي الله لي ولا أضرك . فدعت فأطلق . فدعا بعض حبيبه فقال ؛ انكم لم تأتونني بإنسان وإنما أتيتوني بشيطان . فأخدمها هاجر . فاتته وهو قائم يصلي فأومأ بيده مهيم ؟ فقالت ؛ ردّ الله كيد الكافر - او الفاجر - في نحره . وأخدم هاجر . قال ابو هريرة ؛ فتلك أمكم يا بني ماء السماء «^(١١٨) وقال العلماء انه قال ؛ لا يوجد على الارض مؤمن غيري وغيرك « يعني زوجين مؤمنين غيري وغيرك . ويتعين حملهُ على هذا لان لوطاً كان مهيم وكان نبي (عليه السلام)^(١١٩) . ثم رجع بعدها الى فلسطين ومعهم انعام وعبيد ومال جزيل وصحبتهم هاجر القبطية المصرية . وبعد عودته الى فلسطين سحب لوطاً الى ارض الغور المعروف بغور زغر (ويسمى صوغر) فنزل بمدينة سموم (على شاطئ البحر الميت) وهي أم تلك البلاد في تلك الزمان وكان أهلها أشراراً كفاراً فجاراً . ويسكت القرآن الكريم عن اوضاع لوط وعلاقته بإبراهيم (عليه السلام) ولكن روايات اهل الكتاب تذكر ان لوطاً تسلط عليه قوم من الجبارين فأسروه واخذوا أمواله فلما بلغ الخبر إبراهيم الخليل سار اليهم في ثلثمائة وثمانية عشر رجلاً فاستنقذ لوطاً (عليه السلام) واسترجع أمواله . فقتل من اعداء الله ورسوله خلقاً كثيراً وهزمهم وساق في آثارهم حتى وصل الى شمالي دمشق وعسكر بظاهرها عند برزه . واطن مقام إبراهيم لما سمي لأنه كان موقف جيش الخليل ، والله اعلم «^(١٢٠) ورجع الى بيت المقدس .

(١١٨) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٤٧ . ووجدت في الآثار المصرية نقوش لصور تمبر عز عاتلة بفيوية تتلمج برحلة الى مصر وتكتم الهدايا الى فرعون مصر ولعلها تمبر عن رحلا إبراهيم (عليه السلام) . أنظر سوسة / د . احمد / متصل العرب واليهود لم التاريخ / ص ١٩٤ .

(١١٩) ابن كثير / م . ص / ص ١٤٩ .

(١٢٠) ابن كثير / م . ص / ص ١٥١ .

ولادة إسماعيل والذهاب الى مكة :

لم يذكر نص في القرآن الكريم انه ولد لابراهيم إسماعيل ولكن نصوصاً كثيرة تكلمت عن مراحل لاحقة عن حياة إسماعيل وهي تصف إسماعيل وإبراهيم (عليهم السلام) بينان البيت الحرام وهذا السبب كان وراء الخلاف بين العلماء عن شخصية النبي فقد تأثر بعض العلماء المسلمين برواية أهل الكتاب (اليهود) التي تنص على ان النبي إسحاق ولما نظر المسلمون الى النصوص التي تحدثت عن النبي وجدها تتحمل ان يكون إسحاق هو النبي ولكن معظم العلماء المسلمين رجحوا واكفوا أن النبي هو إسماعيل (عليه السلام) وكشفوا النواضع الحقيقية التي دفعت اليهود الى إنكار ان يكون النبي هو إسماعيل وجعلوه إسحاق . وهذه الظاهرة تكشف لنا حقيقة كبرى اتصفت بها المصادر الاسلامية وهي عدم تمسبها وعدم خضوعها لاهواء البشر بل انها تمثل ريانة المصدر . فان الله تعالى لم يكن يحابي او يفضل على اسس عرقية او يضع مجموعة من البشر فوق الاخرين . وانما وضع اسما دعا اليها الانبياء ووضعها معالم للمجتمع البشري ﴿ وقاتل اليهود وانتصاري نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل اتمم بشر من خلق ﴾ (١٢١) ولذلك نجد علماء الاسلام او القرآن الكريم او المصادر الاسلامية عندما تتكلم عن إسحاق تصفه بالصق والندوة والعبد الصالح بل ان القرآن الكريم ركز على ارتباط إسحاق بإبراهيم وركز في اكثر من موضع بالبشارة لإبراهيم بإسحاق وهذا يؤكد ان الانبياء الاسلامية في المصادر لا تميز بينهم وان المسلم يؤمن بجميع الانبياء من نون تفریق او إنقاص لقيمة واحد منهم . وهذه الظاهرة تؤكد ان المصادر الاسلامية مستقلة في وجودها وعدم تأثرها بالشرايع التي قبلها وان كتاب المسلمين (القرآن الكريم) لم يأخذ النبي محمد (ﷺ) من الكتب التي سبقت على عكس ذلك نجد ان القرآن الكريم لم يحو الاخطاء او الاختلافات الموجودة في الكتب السابقة بسبب تدخل البشر . وإنما انزل الله تعالى القرآن الكريم مصدقاً لنبوة الانبياء الذين سبقوا النبي محمداً (ﷺ) ومهيماً على الكتب السابقة ولا يرقى اليه شك او تحوطه شبهة . وبذلك كانت خصوصية الرواية القرآنية تؤكد استقلالية القرآن الكريم ورواية أهل

الكتاب تؤكد هذه الحقيقة . وكما يذكر الاستاذ العقاد حول اختلاف اسم ابي ابراهيم في القرآن الكريم (آزر) وفي التوراة (تارح) فيقول : « وتفيد هذه الملاحظة فائدة جلية في مرض آخر من معارض سيرة الخليل . فلم يكن تاريخ ابراهيم في الاسلام مستمداً من المصادر اليهودية كما زعم بعض المشرعين من رواة الاخبار الدينية غير الاسلامية وإلا لما كان ايسر من تسمية ابيه تارحاً او تيرحاً او تيره وما شابه هذه التصحيفات . ولما كان هناك سبب قطلتسميته بأزر على أي توجيه . وإنما هذه بينه من بينات شتى على ان دعوة ابراهيم لم تصل الى الحجاز من مصادر اليهود »^(١٢٢) .

النص القرآني الذي نكر بشارة إسماعيل لم يصرح بإسم إسماعيل ولكن علماء التفسير مطبقين على انه إسماعيل لأن سياق الآيات يدل على ذلك . فقد جاء في القرآن الكريم على لسان ابراهيم ويشانه ﴿ وقال اني ذاهب الى ربي سيهدين • رب هب لي من الصالحين فبشرناه بسلام حليم • فلما بلغ معه السعي قال يا بني اني ارى في المنام اني اذبحك فانظر ماذا ترى • قال يا ابت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين • فلما اسلما وتله للجبين وناديناه ان يا ابراهيم • قد صدقت الرؤيا • انا كذلك نجزي المحسنين • ان هذا لهو البلاء المبين • وفديناه بذبح عظيم • وتركنا عليه في الاخيرين • سلام على ابراهيم • كذلك نجزي المحسنين • اتاه من عبادنا المؤمنين وبشرناه ياسحاق نبياً ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾^(١٢٣) في هذه الآيات بشارتان . البشارة الاولى (الغلام الحليم) وهو إسماعيل والبشارة الثانية (اسحق النبي) . وقوله تعالى ﴿ ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ لا بد انها تعني إسماعيل وإسحاق . لان النص ذكر التتدية وهي اقرب في المعنى الى إسماعيل وإسحاق من ان الآية تعني ابراهيم واسحق (عليهم السلام) ان اذن ابراهيم هو الاصل وإسحاق من ذريته ولو كان المعنى ابراهيم وإسحاق لقال ومن ذريته محسن وظالم لنفسه مبين . لان القرآن كان يجعل الفرع في مقام الاصل كما في قوله تعالى ﴿ فبشرناه باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب ﴾ وقوله تعالى ﴿ فلما اعتزلها وما يعبدون من دون الله ووهبنا له اسحاق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً ﴾^(١٢٤) . والمعروف ان يعقوب هو ابن إسحاق . ولكن الله كان يمتن بيعقوب

(١٢٢) العقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ١٦٧

(١٢٣) سورة الصافات / ٩٩ - ١١٣

(١٢٤) سورة مريم / ٤٩ .

على إبراهيم ويسوق البشارة اليه فجعل الفرع كالاصل فكان الخطاب واحداً . ولكن عندما يختلف الضمير فيترجع ان النص في الآية ﴿ ومن ذريعتها ﴾ يعني (ومن نرية إسماعيل وإسحاق) . لان الضمير اختلف وعاد على شخصين مختلفين في حين كان الضمير في الكلام المشتمل على (إسحاق ويعقوب) يعود على إبراهيم ونك في قوله تعالى ﴿ بشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ فالضمير في بشرناه يعود على إبراهيم وكذلك في قوله تعالى ﴿ وهبنا له إسحاق ويعقوب ﴾ الضمير في له يعود على إبراهيم وكذلك لو كان الكلام يعني إبراهيم وإسحاق في قوله تعالى (ومن ذريتهما) لاقتضى ان يفرد الضمير . ولما جاء بصيغة المثلى ترجح ان يكون المقصود فرعين مختلفين تفرعا من الاصل وهو إبراهيم (عليه السلام) . والآيات في سورة الصافات التي حملت البشارتين تؤكد ان الذبيح كان إسماعيل لانه نكر قصة الذبيح ثم قال بعده ﴿ وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين ﴾ وقد نكر ابن كثير : إن من ذهب - أن الذبيح إسحاق - من المسلمين فقد استند الى الاسرائيليات . وقد نكر انه في التوراة ان الله أمر إبراهيم ان يذبح ابنه وحيد وفي نسخة بقره إسحاق^(١٢٥) فلفظه إسحاق ها هنا مقحمة مكنوية مفتراة الى ان قال « وانما حملهم على هذا حمد العرب . فان إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز وملهم رسول الله (ﷺ) وإسحاق والد يعقوب - وهو إسرائيل - الذي ينتسبون اليه فارادوا ان يجزوا هذا الشرف اليهم فحرفوا كلام الله وزادوا فيه وهم قوم بهت لم يقروا بان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء^(١٢٦) فكانت بشارة إسماعيل هي بشارة محمد صلى الله عليه وسلم وكان الاقدار قد رُسمت من أجل النبي محمد (ﷺ) كل الخطوط التي امتدت في التاريخ قد تلاشت . الاقوام والامم والممالك واللغات وتنامى خط محمد (ﷺ) منذ أم (عليه السلام) ونوح الى إبراهيم كان الله قد بعث هؤلاء الانبياء والرسل ليمهدوا لرسول الله (ﷺ) ولكي يحفروا في التاريخ معالم المسيرة التي تقود الى خاتمهم محمد (ﷺ) . وكان إبراهيم (عليه السلام) أمة قانتاً لله حكيماً حليماً . فمنذما بشره الله بإمامته تذكر نريته . قال تعالى واذا ابني إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن • قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي • قال لا ينال عهدي

(١٢٥) انظر التكوين / ٢٢ : (خذ ابنيك وحبك اسحاق الذي تحبه وانطلق الى ارض المريا وقدمه محرقة) .

(١٢٦) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٦٢

الظالمين ﴿١٧٧﴾ ومع هذه البشارة التي تلقاها الخليل وضع الرب جلّت قدرته قاعدة وأساساً للتعامل مع الخالق وأوضح المنهج الذي طالما أكتته آيات القرآن الكريم وهي أن هذا العهد لا يشمل الظالمين مهما كانوا حتى لو كانوا من ذرية إبراهيم وتحت هذه القاعدة يمكن أن يوضع بنو إسرائيل وكل الأمم على الأرض فمن استجاب الى دين الله وارتبط بالتوحيد فهو الذي يستحق تكريم الله وتمكينه والكرامة في الدنيا والآخرة ومن أعرض وكان من الظالمين فعليه غضب الله ولعنته الى يوم الدين . وعندما ارتبط العرب بإسماعيل لم يكن هذا من صنمهم ومن نسج خيالهم ولكن التوراة تنكر تلك والتاريخ ينكره . وكان الله تعالى قد وضع إسماعيل في تلك المكان البعيد عن العالم والمدنية والحضارات في تلك الوادي المقفر حيث لا ماء ولا شجر في تلك الجبال الجرداء ويتوقف التاريخ عند إسماعيل وبناء البيت وتهيته للامة الموحدة وبعدها بألاف السنين من التوقف والانطواء والعالم مشغول بجلبه المدن وضجيجها يشرق على الأرض نور النبي محمد (ﷺ) وكان التاريخ صامتاً في تلك البقعة والليل يخيم على أرجائها وكان هنا الصمت يتوافق مع سكون الصحراء والعالم من حول هذه البقعة يعيش صراعاً امتد عمقه وطال أمده هذا الصراع الذي قاده الانبياء الذين بعثهم الله بعد إبراهيم وتفرعوا وانحدروا من إسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى والاسباط وأنبياء كثيرون منهم من قص علينا القرآن ومنهم من لم يقصص . وكانت جزيرة العرب تمشي فترة وتوقف حتى اختار الله حبيبه محمداً (ﷺ) . ولم تكن العرب أمة تترك أن القدر قد خبأ لها يوماً عظيماً يتجاوز الملامح الظاهرة لهذه الامة وما تتوسمه في نفسها . وهذه الامة التي توافق اختيارها وتهياتها مع نبيها محمد (ص) كانت في ذاكرة ابنيها ابراهيم وهو يبني البيت على قلب أرضها وعلى مركز الأرض وأشرف البقاع . بل ان الامر كان في ذاكرة إبراهيم ابعد من هذا التاريخ عندما ترك زوجته هاجر وابنها الرضيع على تلك الاحجار وتحركت فيه عاطفته وانسانيته ولكنه وهو إمام المتوكلين المعارف بره لا يمكن ان يتباطأ في تنفيذ ما يأمره الله به فكان الدعاء يمثل خلجات نفسه وأمنية استقرت في قلبه ان يهدي الله قوماً لكي يستقروا مع هذه المرأة الوحيدة في تلك الصحراء المترامية . ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبي وبني ان نعبد الاصنام ﴾ واستمر إبراهيم في دعائه ورجائه لربه ﴿ ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم

رَبَّنَا لِقِيَمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿١٢٨﴾ لم يكن هؤلاء الاعراب الذين يبحثون عن الماء في تلك الصحراء يعلمون أنهم على موعد مع قدرهم الذي اختاره الله لهم واختارهم له . والعرب لم يكتبوا التاريخ ليصنعوا لهم مجباً مزيفاً ولكنهم كانوا يتحركون بالتاريخ من بون علم منهم بأنهم يتحركون على أكرم مسار لحركة الانسان على الارض وهو مسار الانبياء . ولو كانوا يعلمون او كانوا يبحثون عن مجد التاريخ لما اختار إيراكهم القاصر ان يكونوا اولاد جارية مصرية . (ولو أراد العرب ان يخترعوا لما اخترعوا نسبة ينتمون بها الى جارية وتخص غيرهم بالانتماء الى السيدة المختارة . ولو كان يوسع اليهود ان يحتكروا النسب الى إبراهيم لما نكروا شيئاً عن نسبة غيرهم اليه . فالانتساب الى إبراهيم لم يكن مسألة اختراع واختبار) (١٢٩) .

بناء الكعبة :

أول بيت وضع للناس يربطهم بخالقهم وينكرهم بحقيقة وجودهم . بيت وبناء وأرض شرفها الله واختارها من بين المساحة الهائلة لهذه الارض اختار الله بقعة مباركة على وفق حكمته وعلمه في موقع لا يفري الاخرين ولا يدعو للمنافسة ولا يحسد ساكنه على وفق مقاييس الارض وأهل الارض . وقد جاء هذا الاختيار ليؤكد اختلاف مقاييس السماء عن مقاييس الارض وليؤكد ان المسار الذي يرتبط بالسماء لا يتحرك على وفق الظواهر المادية وان كانت هذه الظواهر هي نواميس ايضاً وضعها الذي أوجد الحياة ويشرها للانسان لكي يسير بمقتضاها فجاء اختيار البيت ليجمع بين الايمان بالاسباب ومسبباتها فكانت المنهجية القرآنية هي الجمع بين الحقيقتين بين الروح والمادة . كل المنن كانت مواقيمها تمنحها وجوداً وجمالاً كانت هذه المنن تلبس شرايينها بمياه الانهار وتنفس عبير الاشجار وظلال الجبال والفايات وعنوية الهواء . ولكن مكة كان جمالها من نوع آخر . حيث لا ماء ولا انهار ولا اشجار ولا عنوية الهواء . كان النور النازل من السماء يلامس جبالها ووديانها وينعكس على قلوب الطائفين والقائمين والركع السجود . وكانت قوافل الحجيج

(١٢٨) سورة إبراهيم / ٣٥ - ٣٧ .

(١٢٩) العقاد / عباس محمود / إبراهيم ابو الانبياء / ص ١٤٣ .

تخترق الفجاج العميقة وما ان تدخل بقعة النور حتى تحس بالامان والراحة فتنسى كل مقاييس الدنيا وجمال الدنيا ومتاعها وتطلع من هناك على انوار العالم الاخر فتبهد ظلمات الران المتبلدة على القلوب المتعبة . وكان الله تعالى قال كلمة عظيمة عندما اختار مكان بيته الحرام . كان الله تعالى يقول انه قادر على اخراج الحي من الميت والقوة من الضعف والجمال من القسوة فكانت مكة . لقد ارتبط البيت بإبراهيم ﴿ ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدياً للعالمين ﴾ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ﴿ (١٢٠) .

لم يرد ذكر للبيت او لمكة في القرآن الكريم مع الانبياء السابقين لإبراهيم (عليهم السلام) . منذ آدم ونوح وهود وصالح هؤلاء الانبياء لم يرتبط ذكر مكة معهم وانما بعثوا لاقوامهم . وقد وردت روايات حديثة عن ارتباط هؤلاء الانبياء بمكة منذ آدم إذ وردت احاديث تقول : ان الله امره ببناء لعبادته على الارض كالبيت الذي في السماء . ونوح وردت روايات عن سفينته التي طافت حول البيت . وانه مات ودفن بالمسجد الحرام . وهود وصالح جاءوا الى مكة بعد هلاك قومهم وماتوا ودفنوا هناك . على ان هذه الروايات لا سبيل الى توثيقها او الجزم بصحتها لانها وردت من طرق لا تخلو من مقال . اما النص القرآني فيتحدث بتفصيل عن بناء إبراهيم للبيت قال تعالى ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت الا تشرك به شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ (١٢١) . وقال تعالى ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ (١٢٢) وقال ابن كثير : « لم يحيء في خبر صحيح عن معصوم ان البيت كان مبنى قبل إبراهيم الخليل (عليه السلام) . وقد ذكرنا ان آدم نصب عليه قبة وان الملائكة قالوا قد طفنا قبلك بهذا البيت وان السفينة طافت به اربعين يوماً أو نحو ذلك ولكن كل هذه الاخبار عن بني إسرائيل وقد تورنا انها لا تصلق ولا تكتب فلا يحتج بها » (١٢٣) ولكن القرآن الكريم يذكر ان إبراهيم (عليه السلام) قبل ان يبني البيت وعندما ترك هاجر وإسماعيل ذكر البيت كما في قوله تعالى ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا

(١٢٠) سورة آل عمران / ٩٦ .

(١٢١) سورة الحج / ٢٦ .

(١٢٢) سورة البقرة / ١٢٧ .

(١٢٣) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٧٠ .

الصلاة ﴿ ان هذا النص يدل على ان البيت كان موجوداً وأنه مكان معد لإقامة الصلاة . ولكن إبراهيم قد يكون هم القديم وجدد بناءه او انه كان متهدماً ويقايا بناء قديم أرشده الله اليه وفي ذلك يقول تعالى ﴿ واذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴿ وقد جاء عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وغيره : « انه أُرشِدَ إليه بوحي من الله عزوجل »^(١٣٤) وقد روى الأزرقى « عن وهب بن منبه انه قال : لما رفعت الخيمة التي عزى الله بها أم من حلية الجنة حين وضعت له بمكة في موضع البيت ومات أم (عليه السلام) فبنى بنو أم من بعده مكانها بيتاً بالطين والحجارة فلم يزل معموراً يعمره هم ومن بعدهم حتى كان زمن نوح (عليه السلام) فنسفه الفرق وغير مكانه حتى بوى لإبراهيم (عليه السلام)^(١٣٥) . وروى عن مجاهد انه قال : كان موضع الكعبة قد خفي ودرس في زمن الفرق فيما بين نوح وإبراهيم عليهما السلام قال : وكان موضعه أكمة حمراء مدره لا تملوها السيول غير ان الناس يعلمون ان موضع البيت فيما هنالك ولا يثبت موضعه (يعني من غير تعيين محله) وكان يأتيه المظلوم والمتوعد من أقطار الارض ويدعو عنده المكروب فقال من دعا هنالك إلا استجيب له وكان الناس يحجون الى موضع البيت حتى بوأ الله مكانه لإبراهيم (عليه السلام) لما أراد من عمارة بيته وإظهار بيته وشرائعه فلم يزل منذ اهبط الله أم (عليه السلام) الى الارض معظماً محرماً بيته تتناسخه الامم والملل أمة بعد أمة وملة بعد ملة قال : « وقد كانت الملائكة تحجبه قبل أم (عليه السلام) »^(١٣٦) ان هذه الروايات تؤكد حقيقة وهي ان مكة حرسها الله لم تزل لها أهمية منذ أم وكانت مرتبطة مع الانسان تعبر عن قضيته وترمز الى ارتباطه بالسما . وكانت مكة تتلخ في وجودها على الارض غرابة وغموضاً . وكانها تعبر عن غربة الانسان على الارض وان وجوده هنا مؤقت بزمن قصير يرتحل عنه فيما بعد الى دار القرار والخلود . وأن تكون مكة في قلب صحراء العرب أمر يثير تساؤلات ولا يخلو من الغرابة كذلك وكان الله أراد ان يضع فيها سرّاً وقوة ذاتية تتحصن بها خلف الرمال فلا يستطيع جبار من جبابرة

(١٣٤) ابن كثير / قصص القرآن / ص ١٦٩ .

(١٣٥) الأزرقى / ابو الوليد محمد بن عبدالله بن احمد ت ٢٤٤ هـ / اخبار مكة وما جاء فيها من

الآثار ج١ ص ٥١ تحقيق رشدي صالح ملخص مطابع دار الثقافة / مكة المكرمة / ط٢

سنة ١٩٦٥

(١٣٦) الأزرقى / اخبار مكة / ج١ ص ٥٢ .

الارض ان يجازف او ان يفكر في احتلالها او تدميرها . ولم ينكر لنا التاريخ ان مكة تعرضت لغزو من خارج ارض العرب إلا محاولة يائسة من إبرة الحبشي وكانت نهايته معروفة « ويروي عن عبدالله بن الزبير : سمي البيت المتيق لانه عتق من الجبابرة ان يسطوا عليه »^(١٣٧) . وفي المصور القديمة قبل إبراهيم (عليه السلام) لم تكن الحضارات قد قامت وكان المجتمع البشري يخطو خطواته الاولى على الارض ولكن في زمن إبراهيم كانت البشرية قد وصلت الى مرحلة النضج الحضاري او المدني فقد ظهرت على الارض المدن والول والكتابة والصناعة والزراعة وعبر الانسان عن أوج نشاطه وقابلياته في جميع الاتجاهات الثقافية والاجتماعية والروحية والمادية . في هذا العصر كان لا بد من ان يتطور وضع البيت ليلائم العصر . عصر المدن وعصر الفخار ولا بد من ان يشيد البيت بالبناء وان تتشكل نواة مدينة حوله فكان زمزم الماء مصدر الحياة وكانت مكة نواة المدينة المقنسة . « وكان إسماعيل يحمل الحجارة على رقبته ويناولها الى إبراهيم (عليهما السلام) والشيخ يبني فلما ارتفع البناء شق على الشيخ إبراهيم تناوله فقرب اليه إسماعيل هذا الحجر - يعني المقام - فكان يقوم عليه ويبني ويحوله في نواحي البيت ، يقول ابن عباس : فلذلك سمي مقام إبراهيم لقيامه عليه »^(١٣٨) وقد روى كذلك : « الكعبة وهي مكعبة على خلقه الكعب فلذلك سميت الكعبة قال : ولم يكن إبراهيم سقّف الكعبة ولا بناها بمصر وانما رضعها رضعاً »^(١٣٩) ان الحجر الذي وقف عليه الخليل وهو يبني البيت آية من آيات الله حيث حفرت أقدام الخليل وتركت أثراً على الحجر وبقي هذا الاثر على الحجر الى اليوم ويبقى حتى قيام الساعة « وكان هذا الحجر ملصقاً بحائط الكعبة - على ما كان عليه في قديم الزمان - الى أيام عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فأخره قليلاً لللا يشغل المصلون عنده الطائفين بالبيت وقد كان الله قد استجاب لدعوة عمر باتخاذ مقام إبراهيم مصلى »^(١٤٠) .

ان حياة إسماعيل (عليه السلام) في مكة تلقي ضوءاً على عصره وعصر إبراهيم (عليه السلام) فانه لم يعيش وحده مع أمه في مكة ولكن الروايات التاريخية

(١٣٧) الازقي / اخبار مكة / ج١ - ص ٨٩ .

(١٣٨) الازقي / اخبار مكة / ص ٥٩ .

(١٣٩) الازقي / اخبار مكة / ص ٦٦ .

(١٤٠) رضا / فؤاد علي / ام القرى مكة المكرمة / ١٠٧ .

تؤكد ان قبيلة كانت تنتقل في جزيرة العرب تبحث عن الماء والكلأ وهي متجهة من الجنوب شمالاً حيث الانهار ورد الميثر هرباً من قسوة الصحراء وحرها وجبها وعندما مرّوا على وادي مكة لاحظوا آثار تل على الماء حيث الطيور تجمعت والاشجار نبتت . فطاب لهم النزول هناك عند هاجر واسماعيل . وشب بينهم إسماعيل وامترج بهم وتكلم لغتهم وتزوج منهم وهؤلاء هم جرهم وهم من العرب البائدة ويعد إسماعيل وذريته كانت العرب المستعمرة وينسبون الى نابت او نبات احد اولاد إسماعيل . وهذه الحقيقة تؤكد ان اصل العربية لم يتطور من اللغة اليمانية « وإنما جاء التطور من العربية القديمة الى الآشورية الى الآرامية الى النبطية الى القرشية . فتقاربت لغة النبط ولغة قريش من هذا السبيل وكان التقارب بينهما في الزمان او في درجات التطور ولم يكن تقارباً يقاس بالفراخ والاميال هذه هي البيئة الكبرى من مباحث اللغة على قرابة أهل الحجاز من النبطيين او النباطيين أبناء إسماعيل . ولهذا قال ابن عباس : نحن معاصر قريش من النبط «^(١١١) وكانت النبط تفرض ثقافتها ولغتها على أرض الجزيرة وشمالها وبلاد وادي الرافدين وهذا أيضاً يبرز قناعتنا بأن أصل العرب وجنود تكوينهم كانت من بلاد الرافدين ولم تكن الجنود من اليمن ، لان اليمن تطورت بيئتها الاجتماعية وقبائلها بصورة متوازية مع جميع بلاد العرب بينما كانت ارض الرافدين تشهد ولادة المجتمعات الاولى والنبوات الاولى منذ أم ونوح (عليهم السلام) . ولم يسجل التاريخ لنا نبوة في ارض اليمن قبل هود عليه السلام . وهود جاء بعد نوح كما هو ثابت في القرآن الكريم .

لقد ارتبطت حياة إبراهيم بمكة من خلال إسماعيل . وان هذه العلاقة لم تكن مخفية او دعوى ادعاها العرب ولكن التوراة تذكرها فقد جاء في سفر التكوين « فنادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها : (ما الذي يزعجك يا هاجر ؟ لا تخافي لان الله قد سمع بكاء الصبي من حيث هو ملقى . قومي واحملي الصبي وتشبثي به لانني سأجعله أمة عظيمة) ثم فتحت عينها فابصرت بئر ماء فنهبت وملات القرية وسقت الصبي وكان الله مع الصبي فكبر وسكن في صحراء فاران ويرع في رمي القوس واتخذت له أمه زوجة من مصر «^(١١٢) . لقد صيغت هذه الرواية بطريقة مفتعلة وأضيفت عليها معلومات تشويش وخلط إذ كيف يتسنى لهاجر ان تنهب الى

(١٤١) المقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ١٦٨

(١٤٢) تكوين / ٢١ / ١٧ - ٢١ .

مصريوتاتي بمصرية لتزوجها من إسماعيل ؟ وما هي فاران ؟ ولماذا هذا التخفيف والرموز العابرة ؟ ومن هذه الامة العظيمة التي بشر بها الرب ستكون من نزية إسماعيل ؟ أغير العرب ؟ كل هذا يؤكد ان هذه النصوص تحوي في طياتها معاني كاملة ليست مما يحب اليهود إشاعته أو نشره فحنفوا وحرّفوا وشوشوا . وعلى ما في هذه الرواية من نقاط ضعف واضطراب فانها تؤكد علاقة إبراهيم بمكة التي هي فاران عن طريق إسماعيل . النص القرآني الذي نكر إسماعيل وارتباطه بإبراهيم صراحة كان من خلال مكة والحديث عن بقاء هاجر وإسماعيل في الوادي وعندما تركهما إبراهيم (عليه السلام) ودعا لهما بان يجمع معهم أمة من الناس تزيل عنهما وحشة الوحدة بعدها توجه إبراهيم الى ربه بالتناء والحمد على النعم الكثيرة ﴿ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء ﴾ (١٤٣)

لقد نكر إبراهيم (عليه السلام) إسماعيل قبل إسحاق وهذا يدل على ان إسماعيل اكبر من إسحاق . وان كانت نصوص القرآن والتوراة تؤكد هذه الحقيقة ولكن هنا تخصيص وترتيباً وتسمية ولكن في مواضع أخرى تذكر هذه الحقيقة بصورة غير مباشرة والنص الاخر الذي نكر فيه إسماعيل مع إبراهيم كان أيضاً من خلال مكة وأتينا عملية بناء البيت حيث جاء النص ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴿ (١٤٤)

وفي النص يتضح ارتباط إبراهيم وإسماعيل بمكة وبمحمد (ﷺ) وبأمة العرب والاسلام .

عاش إسماعيل مع أمه هاجر في مكة وتزوج من جرمهم زوجتين الاولى طلّتها بأمر أبيه إبراهيم وتزوج الثانية منهم كما وردت بذلك أحاديث نبوية وأبقى الثانية بأمر أبيه كذلك^(١٤٥) وهذه الروايات تدل على بقاء اتصال إبراهيم بإسماعيل وزيارته له وقد ماتت هاجر ودفنت في مكة عند المسجد الحرام . وتوفي بعدها إسماعيل ودفن قرب أمه في مكان يسمى حجر إسماعيل . وهكذا انتهت حياة النبي الكريم إسماعيل وقد

(١٤٣) سورة ابراهيم / ٣٩ .

(١٤٤) سورة البقرة / ص ١٢٦ - ١٢٩ .

(١٤٥) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٥٦ - ١٥٧ .

عكست لنا ملابسات هذه الحياة كيف تكونت أمة العرب وكيف تتحد العوامل فتلتما الامة وكيف حدث التمازج بين إسماعيل وقبيلة كانت تعيش الحياة مثله وهكذا كان العالم وهكذا تكونت الامم .

إسحاق (عليه السلام) :

نصوص كثيرة في القرآن الكريم تحدثت عن إسحاق (عليه السلام) منها :
 ﴿ وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾^(١١٦) ومنها أيضاً : ﴿ وامراته قائمة فضحكت بغيرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب قالت يا ويلي ألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هنا لشيء عجب ﴾ قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد ﴿^(١١٧) قال العلماء في قوله تعالى ﴿ وبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ دليل على أنها تستمتع بوجود ولدها إسحاق ثم من بعده بولد ولده يعقوب أي بولد في حياتهما لتقر أعينهما به كما قررت بولده . ولو لم يرد هذا لم يكن لنكر يعقوب وتخصيص التلخيص عليه من دون سائر نسل إسحاق فائدة^(١١٨) ومع إسحاق ويعقوب يُنكر بناء المسجد الأقصى وكأنها مقابلة بين إبراهيم وإسماعيل وبناء المسجد الحرام وهذا المقياس للفضل جعله الله ليتعلم الناس فضل المسجد الحرام وإبراهيم وإسماعيل ومحمد (ﷺ) وفضل المسجد الأقصى وإسحاق ويعقوب عليهم جميعاً (صلوات ربي وسلامه) . ففي الحديث الحديث المروي في الصحيحين « عن أبي نر قال : قلت : يا رسول الله - أي مسجد وضع أول ؟ قال : المسجد الحرام » قلت : ثم أي ؟ قال : « المسجد الأقصى » قلت : كم بينهما ؟ قال : « أربعون سنة » قلت : ثم أي ؟ قال : « حيث أبركت الصلاة فصل فكلها مسجد »^(١١٩) . وفي روايات أهل الكتاب أن الذي بنى المسجد الأقصى هو

(١٤٦) سورة الصافات / ١١٢ - ١١٣ .

(١٤٧) سورة هود / ٧١ - ٧٢ .

(١٤٨) ابن كثير/ قصص الانبياء / ص ١٦٧ .

(١٤٩) ابن كثير/ قصص الانبياء / ص ١٧٦ .

يعقوب (عليه السلام) وهو مسجد ايليا ببيت المقدس شرفه الله وأعادته الى المسلمين .

وقد نسج اليهود عن شخصية إسحاق ويعقوب وخَوَّث توراتهم من الاباطيل في حق هؤلاء الانبياء وأبهيم عندهم صلوات الله الكثير . وقد حاول اليهود الارتباط بإبراهيم عن طريق يعقوب وإسحاق وجعلوا من إبراهيم أباً لليهود ونبى التوراة وجاء في المهد القديم « انقاذ لوط من الاسر . وجاء أحد الناجين الى إبراهيم العبراني الذي كان مازال مقيماً عند بلوطات ممرا اخي اشكول وعانر حلفاء ابرام »^(١٠٠) . وصورت التوراة سارة امرأة تقتلها الغيرة وتظلم وتطرد هاجر وقد جاء في سفر التكوين : « ورأت سارة ان ابن هاجر المصرية الذي انجبتة لإبراهيم يسخر من ابنها إسحاق . فقالت لإبراهيم اطرد هذه الجارية وابنها . فان ابن الجارية لن يرث مع ابني إسحاق . فقال الله له : (لا يسوء في نفسك أمر الصبي أو أمر جاريك واسمع لكلام سارة في كل ما تشير به عليك لانه بإسحاق يدعى لك نسل . وساقيم من ابن الجارية أمة أيضاً لانه من نريك »^(١٠١) . موازنة بسيطة بين نصوص القرآن وهذه النصوص ونظرة القرآن الكريم الى الانبياء النظرة التي تستعلي على الاهواء والمؤثرات القائمة على أسس من التعصب وعقد التاريخ والاحساس بالتمتعش للخروج من الكبت والغل والحرمان النظرة القائمة على اصطفاء انبياء البشر وانتفاء هؤلاء الى الانسانية المكرمة الخاضعة لسنن الله في مسيرتها على الارض . ويفئنا عن الكلام التامل في النص القرآني التالي ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هنيئا ونوحاً هنيئا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين ﴾ وكرها ويعهى وعيسى وإلياس كل من الصالحين • وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين • ومن لهائم وذريتهم واخوانهم واجبيبتاهم وهنيئاهم الى صراط مستقيم ﴿^(١٠٢) وتحدث القرآن عن الصراع بين الاديان عن شخصية إبراهيم (عليه السلام) ونلك في قوله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لم تعاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والاتجيل الا من بعده أفلا تعقلون • ها أنتم هؤلاء حاججتهم فيما لكم به علم فلم تعاجون فيما ليس لكم به علم والله

(١٥٠) سفر التكوين / ١٤ / ١٣ - ١٦

(١٥١) سفر التكوين / ٢١ / ٩ - ١٤

(١٥٢) سورة الانعام / ٨٤ - ٨٧ .

يعلم وأنتم لا تعلمون • ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين • إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴿١٣٣﴾ وقال تعالى ﴿ لم تحولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب كانوا هوداً أو نصارى قل أنتم أعلم أم الله ومن اظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون • تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ ﴿١٣٤﴾ وهذه الآيات القرآنية واضحة في ربطها على اليهود وعلى أهل الكتاب الذين ربطوا تاريخهم بإبراهيم (عليه السلام) وقد وضع القرآن الكريم الأساس والمنهج الذي يوصل بإبراهيم وهو طريق الانبياء جميعاً والخط الواصل من أم إلى محمد (ﷺ) جميعاً نك هو بين الاسلام بين الفطرة بين التوحيد بين الحنيفية الصراط المستقيم الذي يجمع الانسانية برياط واحد ويرد أهلها إلى الأصل الذي انحدر منه البشر: (نكر وانثى) ولا فضل لإنسان على إنسان ولا مجتمع على مجتمع ولا شعب على شعب . انما التفاضل للسبق بهذا الدين . والآيات تدل على ان الاديان التي جاءت بعد إبراهيم اليهودية والنصرانية انما جاءت محدودة إلى اقوام الانبياء الذين يمتوا فيهم . ولكن إبراهيم لم يكن مرتبطاً بقوم في دعوتهم وانما انتقل من بلد إلى بلد ودعا كل من عاش معهم إلى التوحيد وإلى دين الاسلام ﴿١٣٥﴾ . فكانت عالمية دعوة إبراهيم مرتبطة بدعوة النبي محمد (ﷺ) ولذلك قال الله تعالى ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴾ وهذا النبي تملي محمداً (ﷺ) . ولا حاجة للاستطراد لاثبات إن عصر إبراهيم غير عصر اليهود وان عصره كان عربياً ﴿١٣٦﴾ . وان كان القرآن الكريم قد ربط بين عصر إبراهيم

(١٥٣) سورة آل عمران / ٦٥ - ٦٨ .

(١٥٤) سورة البقرة / ١٣٩ - ١٤١ .

(١٥٥) وهذه المساحة الجغرافية التي تحرك عليها ابراهيم تؤكد اشتراك أصل هؤلاء الاقوام الذين يشكلون على هذه المساحة . وقد اكتمت الابحاث اللغوية اشتراك الجماعات التي كانت متواجدة على بلاد الرافدين والشام وشبه الجزيرة العربية ويوازي الدليل في عصر ابراهيم في اللغة وان هذه اللغة وان كانت تختلف في لهجاتها وبعض صيغها ولكن أهلها يستطيعون التفاهم بينهم ولذلك الترحنا تسميتها بالابراهيمية لانها اوتق من الصامية . (١٥٦) انظر سوسة / د . احمد / متصل العرب واليهود في التاريخ وكذلك حداد / د . مهنا يوسف / الرقة العربية لليهودية وكذلك سعدالدين / د . ليلي حسن / مثل الذين حملوا

←

(عليه السلام) وشخصيته وبين محمد (ﷺ) الذي ظهر في أمة العرب وجزيرتهم ولكن القرآن الكريم لم يربط ربطاً عرقياً وهذه إحدى الافكار الخرافية التي تبنتها التوراة . كما تبني اليهود اسطورة السامية التي توغل في القدم قبل عصر إبراهيم بعد نوح (عليه السلام) والتي لا دليل عليها . لقد كان النص القرآني واضحاً في ابراز الارتباط العقائدي الذي يربط بين المؤمنين عبر الزمان والمكان . لقد بعث الله الانبياء والرسل الى مختلف الشعوب والاقوام وكل شعب كان فيه المؤمنون والكافرون . وكانت العقيدة واحدة وهي الايمان بالاله الواحد الذي خلق السموات والارض وخلق الانسان وهذه هي العقيدة الاسلامية اما الشريعة فكانت تعبر عن العصر الذي يبعث فيه النبي وعن تنظيم الحياة بمقتضى الواقعة والمصرية المحددة بحدود الزمان والمكان . فكانت هذه الشريعة تتغير في احكامها مراعاة لطبيعة الواقع حتى بعث محمد (ﷺ) فكانت الشريعة والعقيدة قد صيغت صياغة معجزة لتتلاءم مع كل المصور منذ البعثة حتى قيام الساعة . وبموجب الواقعة التي اتسمت بها رسالة محمد (ﷺ) فقد مثل العرب مانتها وأول من تفاعل معها وأذل الكتاب بلغتهم لذلك كان لابد من أن يمتلكوا خصوصية طبيعية نتيجة لارتباط الرسول والرسالة بهم . على ان العرب المسلمين الذين وضعوا ضمن هذا الاطار الرسالي والوظيفي المهمة الاولى لنشر الرسالة عالمياً لم يضعوا أنفسهم موضعاً تطبيقياً او نظروا نظرة استعلاء على الامم الاخرى وهذا هو أثر القرآن الذي نزل من السماء وجاء ليمبر عن علاقة الانسان بالله . وجاء النص القرآني معبراً عن وحدة المشاعر ووحدة العقيدة ووحدة المصدر . ولعل آيات القرآن الكريم اعظم تأثيراً وأوضح تمييزاً من كل الكلمات فلنتأمل قوله تعالى : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطلحنا في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴿ ووصى بها إبراهيم بنه ويعقوب يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون ﴾ أم كتبت شهاباً إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل إبراهيم وحدهم ونحن له مسلمون ﴿ تلك أمة قد خلت أياً ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تعبدون عماً كانوا

→ التوراة لم يحمّلها . هذه الكتب كلها نظرت الى القضية من خلال هذه الزاوية وهي تنظر جانباً من الحق ولكن القرآن الكريم هو الفصيل وقد حدد ملامح وطبيعة النظرة من خلال آياته

يعملون • وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتوا قل بل بعتة إبراهيم حينياً وما كان من المشركين • قولوا أنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون^(١٥٧) ان النص واضح في تحديد طبيعة العلاقة التاريخية بين الانبياء وكيف ان اتباع هؤلاء الانبياء قد انحرفوا وطالبهم القرآن الكريم بتصحيح عقائدهم والايمان بما أنزل على آخر الانبياء محمد (ﷺ) لانه يمثل الامتداد الطبيعي لاولئك الانبياء وان رسالته جاءت لتؤكد النبوات وتصحيح الانحرافات التي طرأت عبر التاريخ على العقائد والشرائع التي بلغها اولئك الانبياء ولذلك نحن لا نؤيد الفكرة القائلة « ان شرائع التوراة هي نفسها هي الشرائع التي كان يمارسها الكنعانيون والبابليون والمصريون من قبل وقد اقتبسها اليهود منهم ومارسوها ثم ادخلوها في كتبهم المقدسة »^(١٥٨) ان تعميم هذه الفكرة لا يخلو من المفاهيم الخاطئة التي سيطرت على دارسي التاريخ القديم^(١٥٩) . فقد قادتهم الاخطاء التاريخية التي نكرتها التوراة الى هذه القناعة فانكروا كل ما في التوراة ونسبوا ما فيها الى تأثير الحضارات القديمة وسملوا بعد ذلك بما وجدوه على الرقم الطينية من الاساطير والعقائد الوثنية على اساس قدمها التاريخي وانها اقرب الى التصديق كمصدر الى فهم التاريخ القديم من التوراة . فلا هذه ولا تلك تسلم من النقد وتخلو من الخطأ . ان المبدأ الاسلامي واضح في تحذيره من معلومات التوراة (بعدم تصديق اليهود وعم تكذيبهم) (ولا باس في التحديث عن بني اسرائيل) وهذه المفاهيم لتوجيهات النبي محمد (ﷺ) لاتباعه وهم يتعاملون مع معلومات أهل الكتاب الاول وقد سبق الكلام عنها . ولذلك لا بد للدراسة التي تتبع المنهجية

(١٥٧) سورة البقرة / ١٣٠ - ١٣٧ .

(١٥٨) سورة / د . احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٨٤ .

(١٥٩) يقول المقاد حول هذه الظاهرة : « ان الدعوات النبوية التي بدأتها دعوة ابراهيم سلافة ل يظهر لها نظير في غير الاسم العربية . وقد ختمت بدعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلا وجاءت دعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم متممة لها فلا تلهم واحدة منها منفصل عن سائرهما بترتيب كل منهما في زمانها وعلاقة كل منها بمكانها فلا ليس فيها من جانب العصر ولا من جانب البنية » . المقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء ' ص ٢١٨ .

الاسلامية ان تمزج الروى وتقارن الدراسات وتبحث عن الحقائق في كل المصادر سواء اكانت الكتب المقدسة أم الحفريات والرقم الطينية . وموازنتها مع نصوص القرآن الكريم الذي لا ياتي الباطل من بين يديه ولا من خلفه وسجد ان القرآن قد نطق بالحق . ويمكن رسم مخطط يوضح العلاقة التي وضها القرآن الكريم بين الانبياء منذ عصر إبراهيم (عليه السلام) حتى محمد (ﷺ) ويمثل هذا المخطط النظرة الاسلامية للانبياء وذلك نستطيع ان نضع القواعد والاسس التي عنها القرآن الكريم في تكوين نظرة المؤمنين للانبياء^(١٦٠) وقد صاغ القرآن الكريم عقيدة المسلم بالنسبة للانبياء وأتباعهم وكما ياتي :-

- ١ - المسلم تحكمه نظرة واحدة الى الانبياء في المحبة والتبجيل والتعظيم قال تعالى ﴿ أمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله وطالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾^(١٦١) . فالانبياء سواء في التقدير الا ما ثبت « بالتواتر عنه (ﷺ) من انه سيد ولد آدم يوم القيامة كما في رواية مسلم من حديث أبي بن كعب (رضي الله عنه) بقوله (ﷺ) : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر . وقد جاء عنه من باب التواضع انه قال : (لا تفضلوني على الانبياء) وقال (ﷺ) : (لا تفضلوني على موسى فان الناس يصعدون يوم القيامة فاكون أول من يفتق فاجد موسى باطشاً بقوائم المرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصمعة الطور ؟ وقد روى البخاري : حديث (الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم)^(١٦٢) وهنا من تعليمه (ﷺ) للمسلمين لكي يحبوا هؤلاء الانبياء وينكروهم بخير .
- ٢ - عقيدة المسلم ان كل اتباع الانبياء في عصر نبيهم مؤمنون مسلمون فاتباع موسى (عليه السلام) في عصره وما بعده ما لم يات نبي يخلص دعوة النبي الذي قبله فان هؤلاء الاتباع هم المؤمنون الموحدون وكذلك اتباع عيسى (عليه السلام) ولذلك قال الله تعالى ﴿ ان الذين آمنوا والذين هادوا

(١٦٠) انظر صورة المخطط في نهاية الفصل .

(١٦١) سورة البقرة / ٢٨٥ .

(١٦٢) ابن كثير / تفسير الانبياء / ص ١٨٢ - ١٨٣ .

والصائبون وانتصاري من أمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿١٦٣﴾ وقوله تعالى ﴿ ان الذين آمنوا والذين هادوا واتباعهم من امن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ﴿١٦٤﴾ . وهذا يؤكد ان الانبياء لم يكونوا يدعون لانفسهم ولا لعشيرتهم ولا لابائهم ولكن دعوتهم كانت واحدة لتوحيد الله في العبودية والايمان باليوم الآخر وتغيير سلوك الانسان وضبطه بالمعمل الصالح . ولذلك قد يعاصر نبيّ نبياً آخر كما عاصر إبراهيم لوط وعاصره اولاده إسماعيل وإسحاق وجاء يعقوب في حياة إبراهيم (عليهم السلام) . وكما عاصر موسى هارون وعاصر عيسى زكريا ويحیی عليهم صلوات ربي وسلامه . ولا يشترط ان تكون المعاصرة في مكان واحد وكذلك لا يوجد نص يدل على ان شرط اللقيا بين النبيين أو الانبياء المتعاصرين وكذلك لم يرد نص يثبت وجود علم النبي بمعاصريه من الانبياء . اذ قد يبعث الله تعالى انبياء عبيدين في اماكن مختلفة ولا يُفْلِمُ اللَّهُ بعضهم لبعض وهذا العلم كله من اختصاص الله تعالى . ولذلك تقسم الانوار التي مرت بها دنياه اليهود يخالف عقيدة القرآن التي اثبتناها في الايات السابقة وان هذا التقسيم يعبر عن عقيدة تطور الدين والدين لا يتطور وعقيدة تطور الايمان التي قال بها فرويد^(١٦٥) وسبقه علماء الانثروبولوجي الفرييون الذين بحثوا تحت التراب ونسجوا قصة تطور الايمان التي قال بها المؤرخون الفرييون وتابعهم مع الاسف الشديد بعض المسلمين . ولذلك نرى أثر هذه العقيدة على الذين ذهبوا لنقض عقائد اليهود وتنفيذ مزاعمهم فوقوا تحت تأثير هذه العقيدة التي مهد لها اليهود لتدمير الصورة بالكامل وضياح الحقيقة بالنسبة لغير اليهود ويحتكرون الحقيقة لانفسهم وفيما بينهم . ونحن عندما نجد اثر هذه العقيدة في كتابات المسلمين والباحثين العرب الذين يدافعون عن القضية الفلسطينية من خلال تقويض دعائم التاريخ اليهودي فانه أمر مؤسف ألا ينتبهوا لهذه الحقيقة فلو أخذنا كمتال على ذلك ما نكر د . احمد سوسة

(١٦٣) سورة المائدة / ٦٩ .

(١٦٤) سورة البقرة / ٦٢ .

(١٦٥) انظر فرويد / صهيون / موسى والتوحيد .

عندما قسم الانوار التاريخية نجده يذكر ثلاثة اوار :

أ - نور إبراهيم وإسحاق ويعقوب وترجع حواشي الى القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد وهو نور مستقل بذاته ليس له أي صلة بنور النبي موسى او اليهود^(١٦٦) ونحن نتفق مع الدكتور سوسة بتمييز العصر وتحديدته ولكن كل الانبياء متصلون من حيث اصل الرسالة ومبدأ الدعوة الواحدة بحسب تحديد القرآن لهذه الحقيقة .

ب - نور موسى ويسميه نور حملة النبي موسى المصرية على فلسطين . وهذا خلط واضح اذ ليست هناك في النصوص القرآنية والروايات الاسلامية حملة مصرية على فلسطين وكذلك يسميهم بالموسوية او الموسويين وهذا لا يتفق مع منهجية القرآن التي نكرناها فلم يرتبط موسى ببني إسرائيل بشخصه ولم توجد موسوية وهي تسمية تحريفية غير صحيحة .

ج - الدور الثالث ويسميه نور اليهود ويتعي ان القرآن الكريم قد منّ بين هذا الدور وسماه نور اليهود وفصله عن بني إسرائيل والاسرائيليين فهناك فرق بين اليهود والاسرائيليين ويستند الى قوله تعالى ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ﴾ ويقول : لم يرد هنا اسم إسرائيل المرتبط بمصر إبراهيم الخليل . ويستشهد على خلط اليهود لهذه الانوار واختراع الإله (يهوه) برأي فرويد الذي يقول فيه : « لقد تحرى الكهنة في سرهم ان يوجدوا استمرارا بين عصرهم . وعصر موسى وأرانوا ان ينفوا ما يمثل في نظرنا أبرز واقعة في تاريخ الدين اليهودي واعني بها وجود ثغرة بين شرائع موسى والديانة اليهودية المتأخرة عنها في الزمان . ثغرة سُتت في البداية بعبادة يهوه ثم تم التخلص منها فيما بعد رويداً رويداً وعلى مهل ولقد كانت رواية الكهنة تخضع للميل المحرف والمشوه نفسه الذي جعل من الإله الجديد (يهوه) اله الآباء الاوائل » . وإنني أسأل كيف يقوض فرويد اليهود دعائم الدين اليهودي ؟

إنّ الاستشهاد بالآية الكريمة على ان اليهود غير اسرائيليين استشهاد غريب

(١٦٦) سوسة / د . احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٣٤٥ وما بعدها .

ولم يميز القرآن الكريم هذا التمييز للدلالة على هذا الاستنتاج وفي سورة البقرة التي عالجت في معظم آياتها أوضاع بني إسرائيل وانحرافاتهم كان الخطاب لبني إسرائيل وعلى عكس ما نهب اليه الاستنتاج نجد ان القرآن الكريم عد اليهود في عصر موسى والى حد ما قبل المسيح (عليه السلام) كانوا يمثلون المؤمنين وهذا هو تقسيم القرآن الكريم الذي هادوا أتباع موسى (عليه السلام) وأتباع أنبياء بني إسرائيل بعد موسى (عليهم السلام) مثلوا المؤمنين الذي لا يحل لكل إنسان ان يسمع بدعوتهم ويميش عصرهم ان يخالفهم وبعد المسيح (عليه السلام) كان أتباعه النصارى هم المؤمنين وعلى اليهود ان يتبعوا المسيح (عليه السلام) لانه بُعث اليهم ومصلحاً لما بين يديه من التوراة . وبعد النبي محمد (ﷺ) الذي بعثه الله رحمة للعالمين لابد لليهود والنصارى وكل من يسمع بدعوته الى يوم القيامة لابد لهم من الايمان به واتباعه ولن يقبل الله نبياً غير دينه وهذا هو الذي تعنيه الآية ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ﴾ اي ان اليهود أتباع موسى الذي جاء بعد إبراهيم والنصارى أتباع عيسى الذي جاء بعد إبراهيم فان هذه التسميات اصطلاحية باتباع هؤلاء الانبياء فلا يمكن ان يكون السابق من ضمن هؤلاء الاتباع . ولكنه كان يحمل عقيدة الانبياء جميعاً الاسلام .

المبحث الثالث

إبراهيم (عليه السلام) دراسة مقترحة في المصادر فهر الإسلامية والتاريخية

ان دراسة التاريخ من خلال الرواية الإسلامية فقط - (القرآن والسنة) - لا يؤدي الى تكوين صورة متكاملة بتفاصيلها الدقيقة للواقعة التاريخية لان القرآن ليس كتاب تاريخ انه يعطي جوهر الواقعة ويمطي العبرة منها وهذه تحلق الهدف الذي جاء به القرآن وهو هداية البشر . لذلك أصبحت دراسة المصادر الاخرى مع الرواية الإسلامية ضرورة تعين الباحث المتخصص لكي تتكامل عنده صورة الواقعة التاريخية . ومما يؤسف له ان هذه المصادر لم تعالج معالجة إسلامية لكي تعزج مع المصادر الإسلامية وعلى عكس ذلك نجد ان المصادر القديمة (الاسرائيلية) قد أثرت تأثيراً سلبياً على دراسة التاريخ عند المسلمين فلا تكاد تجد مصدراً إسلامياً تحدث عن تاريخ قبل الاسلام الا واعتمد كلياً على الاسرائيليات وتكاد هذه الظاهرة تلقي اثر الدراسات الإسلامية القديمة لتاريخ قبل الاسلام . ان ظهور علم الآثار والعلوم الاخرى مثل الانثروبولوجي وعلوم الاحاث والنميات والدراسات اللغوية وتحليل الكتابات القديمة وفك رموزها ادى الى احداث انقلاب في مفاهيم التاريخ القديمة وزعزع الاعتماد على التوراة كمصدر أساس من مصادر التاريخ القديم وكشف النقاب عن أحداث واقوام ومدن وضحت للباحثين جوانب كثيرة من التاريخ القديم

كانت قد اسدل عليها الستار وطواها النسيان . لقد سنحت الفرصة الان اكثر من اي وقت مضى لكي تقارن معطيات التوراة ورواياتها مع الاكتشافات الاترية وتحليل النتائج لتعزيز الدراسات التاريخية وبذلك نجد ان مقارنة النص القرآني مع هذه النتائج والدراسات يؤدي الى تثبيت الحقائق التاريخية واعطاء صورة واضحة وصائفة عن الواقعة التاريخية . فقد اذى الاعتماد على الاسرائيليات في رواية التاريخ الى تثبيت الاساطير والخرافة والايهام وساعدت هذه الصورة الميتافيزيقية التي تشكلت عند دراسة التاريخ القديم (تاريخ ما قبل الاسلام) من المؤرخين المسلمين على بلورة فهم خاطيء لرواية القرآن الكريم وأدت الى تبني فهم احادي مستند الى الرؤية الى الاسرائيليات فاصبحت قراءة النص القرآني تتم من خلال عين شكلتها ثقافة اليهود والروايات الاسرائيلية .

ونجد ان القرآن الكريم يحفز العقل للاستنتاج من خلال سلسلة عمليات منطقية تؤدي الى نتيجة لا يختلف عليها المقلد . ويؤكد المقاد على هذه الحقيقة لدراسة التاريخ فيقول : « واحسب لو اننا بدأنا بدراسة التواريخ الدينية منذ بداية النظر في هذه التواريخ لما تسرع المتسرعون بالنفي والانكار تارة والفهامة وسوء الفهم تارة اخرى بل كان من الميسور لهم ان يربطوا الدعوات الدينية كما ترتبط الحلقات في السلسلة الواحدة وان يملأوا فراغ التاريخ بما يسد به بدلاً من خلق الفراغ من لا فراغ ان بعض الفلكيين قد عرفوا مكان الكواكب المجهولة قبل اختراع المجاهر الكبيرة . لانهم قدروا موقعها من الفلك بحساب المدارات والاحجام . ولو أننا تتبعنا سلسلة الدعوات في مواقعها وتواريخها لما قال المتشككون : ان إبراهيم لم يوجد - بل لقالوا : هنا مكان إبراهيم لابد ان يشغل واستطاعوا بالبحث والمقارنة وتعليق النتائج بمقدماتها ان يربطوا بين أور وأشور وبيت المقدس وجاشان والبقراء ومكة لانها نسق واحد يدل الاخير منه على الاول فكلها دعوات لابد فيها من شخص للرسول ولا بد فيها من عنصر الحاضرة والبيادة . او ملنا نصل الى النتيجة من طريق قريب إذا اعتمدنا على قياس التاريخ بمقياسه الذي لا يقبل الخطأ ، وهو تصور الحوادث كما يمارسها الواقع والمقل فان هذا المقياس شبيه بمقياس العمليات الحسابية في التمييز بين الخطأ والصواب . وما علينا إذا لهذا ان نعمت حادثة تاريخية ، او سلسلة من الحوادث التاريخية الا ان نسأل أنفسنا كيف ينبغي ان تحدث ؟ فإذا ارتسمت لنا على الترتيب الذي يقبله العقل ويطباق الواقع فلذلك هو

الامتحان الصائق وما تستخلصه منه هو الصواب ، اذا كانت دعوات النبوة متصلة بمدائن القوافل فليس اولى من بلاد النهرين في العصر القديم ان تبدأ منها الدعوى الاولى ثم تتلوها المدن الاخرى بحسب مكانتها ومكانها من حيث النظر الى طريق العالمية ومظاهر الحضارات المختلفة فالدول القديمة بين النهرين لم يكن لها نظام غير النظام الذي اشتهر في علم السياسة بإسم نظام (حكومات المدائن) لانه يقوم على مدن أربع او خمس من العواصم العظمى تحيط بها البادية التي تزرع مرعاها او ترعى ماشيتها في المزارع الطبيعية وتسافر بالقوافل على بحسب مراحلها ويجوز ان تغلب بولة واحدة على جميع هذه المدن الى مدة قصيرة كما يجوز ان تتفرق وان تنفرد كل منهما بحكومتها ولكنها على الحالتين مدائن تحيط بها البادية وتعتمد على نقل التجارة من أقصى العالم المعمور الى أقصاه في الازمنة القديمة وترتيبها على حسب مكانتها ومكانها في وادي النهرين وفي العالم كله . يبدأ من مدينة أور في الجنوب وينتهي الى مدينة آشور شمالاً ثم يتجه غرباً وجنوباً الى فلسطين ومدن خليج العقبة فالحجاز . فمدينة أور أهم هذه المدائن ، لانها تتلقى التجارة من البر ومن البحر ويليهها مدينة آشور لانها تأخذ من الجنوب وتوزع الى ما حولها (١٧٧) لقد اقتبسنا هذه المعلومات لانها مهمة في توضيح بعض الإشكاليات في ربط معلومات الكشوفات الاثرية بالتاريخ الديني . وإنما لو تابعنا هذه الضوابط وطبقناها على المكتشفات الاثرية في بلاد الرافدين لتوصلنا الى نتيجة واحدة هي ان الحضارة على الارض بدأت في وادي الرافدين وضربت تكوينها على هذه الارض اي بقعة اخرى وهذا يؤكد ان بداية التاريخ الديني كانت على ارض الرافدين كذلك ويؤكد لنا ان اول الدعوات التي سبقت إبراهيم الخليل كانت على ارض الرافدين لان الدين لم ينفصل عن حياة الانسان العاقل وهذه حقيقة لا يمكن اغفالها او إنكارها ان التاريخ يعلمنا السلسلة المنطقية للاحداث . ولقد حاول شبلنجر ان يطبق هذا المفهوم على التاريخ الغربي وحاول ان يرسم صورة التاريخ والمستقبل من خلال المماثلة في الاحداث والمقارنة واطلق على هذه العملية « تكوين الموقف التقويمي التاريخي (Chronological-position) . ويمكن تمثل هذه المحاولة من خلال التلقيط بين الكلمتين التاليتين تلقيطاً مزججاً متوازيماً : الاغريق = الرومان وهذا يحدث لنا

ايضاً الآن ويمكن ملاحظة التطور عندما نلفصل بين ما تم وبين ما هو آت « (١٦٨) ومن خلال تطبيق التقويم التاريخي للاحداث نجد ان ارض الرافدين تشمل بداية التقويم التاريخي للانسان الواعي . وقد تابعنا منذ البداية تكرار الارتباط الديني للانسان فانك الانسان عن الدين وقد منقت ابعده انواع الحياة البشرية السلوك الفيني للانسان « وما التوتيميو والاساطير واللاهوت الاحلول مقترحة لنفس المشكلة التي تساود الضمير الانساني كلما وجد نفسه مأخوذاً بلغز الاشياء وغايتها النهائية . لماذا يلحم الضمير فيمما وراء هياكل الهته ، وجود من خلقها ؟ وتردد المشكلة الفيبية - وهكذا بانتظام - على الضمير الانساني في جميع مراحل تطوره هو في حد ذاته مشكلة أراد علم الاجتماع حلها حين وصف الانسان بانه في أصله (حيوان ديني) . فهناك نظريتان رئيستان متضادتان بصدد المشكلة التي تعرضها عليها الظاهرة الدينية . وليس التناقض بينهما قائماً بين الدين والعلم على غرار ما يوحي بعضهم اذ ان العلم لم يبرهن على عدم وجود الله او وجوده - كما نسلم بذلك مبدئياً - بل النزاع هنا بين الدينين . بين الالهية والمادية بين الدين الذي يسلم بوجود الله وذلك الذي افترض المادية ١١ « (١٦٩) وكل هذا يؤكد ان الاصل الديني والاصل الاجتماعي والثقافي كان قد نشأ على ارض الرافدين حيث بدأت الحركة خروجاً وعودة وتشكلت الجماعات البشرية في المنطقة بالامتزاج مع القضية الدينية وظهور النبوات والانبياء في منطقة الشرق الانسى . وهذه الحقيقة تؤكد كذلك ان الانبياء قد مثلوا حقيقة تاريخية مرتبطة بالسماء وان مبدأ التماثل الذي استخدمه شبلنجر تلعنا في دراسة ظاهرة الانبياء والنبوات لان التكرار في الحالة تؤكد أصلها « فمعد إبراهيم (عليه السلام) تتابع أفراد مدفوعون بقوة لا تقاوم جاءوا يخاطبون الناس باسم (حقيقة مطلقة) يقولون انهم يعرفونها معرفة شخصية وخاصة بوسيلة سرية هي الوحي ويقول هؤلاء الرجال انهم مرسلون من الله ليبلغوا كلمته الى البشر حيث لا يستطيع هؤلاء ان يسمعوها مباشرة . ولنا ان نلاحظ اولاً وقبل كل شيء ان بعث نبي ما ليس حدثاً فرداً بحيث يكون غريباً نادراً . بل هو على العكس من ذلك ظاهرة مستمرة تتكرر بانتظام بين قطبين من التاريخ منذ إبراهيم

(١٦٨) شبلنجر / اسوالد / تعبير الغرب / ج-١ ص ٧٨ .

(١٦٩) ابن نبي / مالك / الظاهرة القرآنية / ص ٧٦ - ٧٨ . بتصرف .

(عليه السلام) إلى النبي محمد (ﷺ) واستمرار ظاهرة تتكرر بنفس الكيفية تُعدُّ شاهداً علمياً يمكن استخدامه لتكرير مبدأ وجودها بشرط التثبت من صحة هذا الوجود بالوقائع المتفقة مع العقل ومع طبيعة المبدأ . وعلى الرغم مما يبدو في القضية من تمدد . فإني اعتقد أن مفتاحها موجود في قوله تعالى ﴿ قل ما كنت يدعى من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾ إن التبج إلا ما يوحي الي ﴿ . فهذه الآية تحمل أولاً : إشارة خفية إلى أن تكرار الشيء في ظروف معينة يدل على صحته (الحدث الذي يتكرر في نفس الظروف مع نفس النتائج) يعبر عن الظاهرة . وهي تحمل في ملولها ثانياً : ربطاً واضحاً بين الرسل والرسالات خلال المصور (١٧٠) . وقد مثل إبراهيم (عليه السلام) بداية واضحة المعالم مستفيدة الشواهد والأدلة هذه الظاهرة وهي ظاهرة النبوات وظهور الانبياء ولقد كانت الحالات السابقة لإبراهيم (عليه السلام) موعلة في القوم تمبر تعبيراً بدالياً وبسيطاً عن الدين وقد حُفظت لنا الرقم الطينية الكتابية الأولى بمض ملاحظها ممتلة في الطوفان وبمض القصص الدليلي المشوب بالاسطورة التي اضافتها عقول البشر في الازمنة اللاحقة للنبوات . وقد عثر على نقش سومري يعبر عن قصة آدم وحواء رسم عليه صورة رجل على رأسه قلمصوة ذات قرنين وامرأة حاسرة الرأس جالسين الواحد أمام الآخر وقد نبئت شجرة بينهما تشبه شجرة الدخل تلي عنقن من التمر من طرفيها ويشاهد الرجل ماناً يده اليمنى نحو العنق أمامه ليقطف من ثمرة . كما تشاهد المرأة وهي مائة يدها اليسرى نحو المنق الذي أمامها لتلقف من ثمرة ايضاً ثم تشاهد الحية وهي منتصبه على لندبها خلف المرأة تقربها في الاكل من هذا التمر المحرم عليهما اكله . وهذا دليل على ان شجرة الدخيل وجدت على تربة جنوب العراق منذ اقدم الازمنة وان شجرة معرفة الخير والشر هي شجرة الدخل بالنسبة للصومريين(١٧١) انظر الشكل (آدم وحواء) في الفصل الاول . وقد شكلت التوراة مع الرقم الطينية مصدرها مهماً مضافاً إليها وقد حوت التوراة معلومات كثيرة إلا انها أصابها ما أصاب الرقم الطينية من تضخيم اسطوري وتشويه للحقائق وإيراد معلومات مخالفة للحقيقة والمثل والمنطق وقد حدثت عملية تفاعل وتمازج بين تراث الحضارات القديمة والتوراة قام بها ملولو

(١٧٠) ابن دهي / ملك / الظاهرة القرآنية / ص ٦٦ - بتصرف .

(١٧١) سوسة / د . احمد / فصل الحرب واليهود في التاريخ / ص ٤٢٨ / يلخ عن ا-

H. Warad. «The Seal cylinders of Western Asia» 1910.

التوراة متأثرين بتراث الحضارات القديمة فقاموا بأقدم عملية تزييف واقتراء واعاء بان هذه المعلومات المدونة في التوراة هي معلومات أوحاها الله تعالى الى نبيه موسى . ولكن هذا التزييف والتحريف لم يطمس معالم الحقيقة التي جاء بها القرآن وأكتتها آياته وبخاصة بعد الاستكشافات الأثرية والمقارنة بين التوراة والالواح الطينية المكتوبة بالمصمارية القديمة . ومطابقة الرواية القرآنية لجوهر الحدث التاريخي مع خلو النص القرآني من الاساطير والخرافات وكل ما يخالف العقل والمنهج العلمي الحقيقي .

إن دراسة الرقم الطينية ومحتوياتها الكتابية التي عثر عليها في ارض الرافدين أكدت لنا حقيقة وهي ان التوراة قد التبتت وبشكل حرفي وفي بعض الاحيان روايات الاحداث حتى عصر إبراهيم (عليه السلام) . اما روايات التوراة لما بعد عصر إبراهيم فقد امتازت بالتحريف والانتحال والتدوير وقد صيغت بما يتناسب مع تطلعات الشعب اليهودي وبطريقة تزوع في نفوسهم رغبة جامحة لتحقيق عقيدة التوراة التي صاغها أحيار اليهود في بابل بعد السبي البابلي وقد طبعت صياغتها بطابع الكبت والقهر والاحساس بالرغبة في الانتقام من الاميين وهم الشعوب الأخرى غير اليهود . لقد عبر القرآن الكريم عن الحقيقة من خلال متابعة الانبياء وظهورهم وأقوامهم ولذلك لا قيمة للتلسيرات المستندة الى الرقم الطينية والتسوية لم ترتبط بالنص القرآني . لقد ظهر إبراهيم الخليل في العصر الكتابي وفي القرب التكويرات الى الواقع في القرن التاسع عشر قبل الميلاد وقد نكر القرآن الكريم انه أنزلت عليه صحف وجعل القرآن الكريم أول الصحف هي صحف إبراهيم ويطها مع صحف موسى على أساس انها تعبر عن المرحلة الأولى للنبوات والمرحلة الثانية تم التمييز عنها من خلال التوسيع (عليه السلام) والانجيل الذي أكد تعاليم التوراة والمرحلة الثالثة عبر عنها النبي محمد (ﷺ) الذي أنزل عليه آخر كتاب الى آخر الزمان وجاء القرآن معجزة مستمرة بعد وفاة النبي محمد (ﷺ) بخلاف معجزات الانبياء السابقين الذين كانت معجزاتهم لا تتجاوز عصر النبي وحياته وينتهي نورها بعد انتهاء حياة النبي على الارض ولذلك كان لا بد للقرآن ان يكون معجزاً في كل اوجه عرضه للحقائق وفي نظمه وصياغته في كل ما حواه بين سورة وآية . بينما التوراة والانجيل لم تكن كتباً معجزة إعجاز القرآن بقدر ما كانت تحوي وصايا وتعاليم

لم يتعهد الله بحفظها وإنما أوكّل حفظها إلى الاحبار والرهبان . وهؤلاء بشر يصيبهم ما يصيب البشر من اوهام ونقص وتمصّب لذلك كانت نتيجة طبيعية ان نجد في التوراة تحريفات وأخطاء لا يمكن تبريرها . ان ارتباط التوراة بإبراهيم (عليه السلام) ارتباطاً لا يمكن ان نجد له سنداً في التاريخ لان التوراة كتاب اليهود وهي التي أزلها الله على نبي بني إسرائيل الاول موسى (عليه السلام) ولا توجد علاقة بين الايمان اليهودية وإبراهيم الا من حيث ارتبط الانبياء بمصدر واحد . اما ان يرتبط اليهود بإبراهيم من خلال قضية او نسب فهذا امر بعيد عن الواقع واختلاقه واضح لا سبيل إلى قبوله . وقد أكدنا ان المنهجية التي ثبتها القرآن الكريم وهي ارتباط المؤمنين والانبيا من خلال التوحيد والمقيدة التي جاء بها الانبياء ولكن القرآن والتاريخ يقص علينا ان اليهود شعب لم يعرف التوحيد ويؤمن به كعقيدة الا في مدد قصيرة وتاريخ اليهود منذ عصر موسى وعبادتهم للمجل ﴿ وإذ واعنا موسى أربعين ليلة ثم اتعلم العجل من بعده واتم ظالمون ﴾ (١٧٢) ويعقب القرآن بعدها ﴿ وإذ قلت يا موسى لنؤمن حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الساعة واتم تطرون ﴾ (١٧٣) . وهكذا كشف لنا القرآن الكريم صفحات سوداً من تاريخ هذا الشعب المعاند الذي سيطرت عليه المادية والاهواء وبعد موسى وعلاقتهم بأنبيائهم ﴿ كلما جاءهم بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كلبوا و فريقاً يقتون ﴾ (١٧٤) ان هذا التاريخ وفق المنهجية والعدل الإلهي لا يمكن ان يكون له نصيب في عهد الله وتمكينه ولذلك عندما نكر القرآن الكريم امامة إبراهيم بقوله تعالى ﴿ إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾ لقد أثبت القرآن ان الدين واحد مع إبراهيم والانبيا جميعاً . لذلك آمن المسلمون بما نزل على الانبياء من كتب ولكن أقوام الانبياء كانوا يحرفون بعد أنبيائهم كانوا بعد أنبيائهم ولذلك اثبت القرآن ان التوراة الحقيقية لا تتعارض مع القرآن الكريم من حيث الجوهر . « وفي القرآن ما يفيد ان نسخه كانت متداولة في أيدي اليهود في زمن النبي (ﷺ) وفي قوله تعالى ﴿ كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل الا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل ان تنزل التوراة قل فاتوا بالتوراة فاتوها

(١٧٢) سورة البقرة / ٥١ .

(١٧٣) سورة البقرة / ٥٥ .

(١٧٤) سورة المائدة / ٧٠ .

ان كتّم صالّين ﴿١٧٧﴾ . وقوله تعالى ﴿ وكيف يعصونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ﴾ ﴿١٧٨﴾ . وفي القرآن قرآن عديده أخرى على انه كان في أيدي اليهود قراطيس ومدونات في صدد الاحداث والاسماء التي وريت في سطر التكوين ثم في صدد الاحداث التي وريت في الاسفار الاربعة التالية له قد فقت . ففي القرآن قصص عديده عن إبراهيم وقومه ونريته والقائه في النار ومحاورته مع الملك لم ترد في سفر التكوين مع أخباره ﴿١٧٩﴾ لذلك ان ما نجده في التوراة من أخبار واحداث وتواريخ إذا ما وجد ما يوكده من نقوش حجرية ويتطابق مع الرواية القرآنية فإننا نعتقد بوجود أساس صحيح لهذه الرواية . فان احداث موسى وما بعده قد نوتت في ظروف مقاربة لحدوثها وان كانت قد اعيد تدوينها لسبب من الاسباب ويصح أن تكون محل اعتبار مع التحفظ بسبب ما في الاسفار من غلو ومناقضات ومفارقات كثيرة . وان ما نكرته هذه الاسفار الملامح واسماء وجزئيات لا يعقل ان يكون من نسج الخيال . وكل ما يكون ان تداول الروايات شفويًا ربما من الزمن والخيال والتمصب وظروف التدوين قد كان ذا تأثير قوي فادى ذلك الى مناقضات ومفارقات وغلو . وهذا يطبق على ما احتواه سفر التكوين . ولا سيما من عهد إبراهيم وتاريخه وتاريخ نريته وما كان من احداث والملاح في شرق الارض وغربه لا يخلو من حقيقة وأن الاحداث والأعلام والجزئيات لا يعقل ان تكون من نسج الخيال ﴿١٧٨﴾

محاولة لتجديف عيسى إبراهيم

محاولة لتجديف عيسى إبراهيم

لقد نكده لدينا ان التوراة كل تنظيمها في تجديد بعض الملاح بالتمسك بكتف إبراهيم (عليه السلام) وأصوله جدًا مقارنة مع التكوين والكتابات التي عثر عليها في حفريات بلاد ما بين النهرين ونحو ذلك هتكتس التوراة تتناقض في روايتها عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب فلا بد من تحليلها ومقارنتها مع الكتابات القديمة التي عثر عليها في الحفريات للوصول الى نتائج متقولة عن أصل إبراهيم وعصره ولذا جاء

- (١٧٥) - مشورة آل عمران / ٨٣ - حديثه
 (١٧٦) - سورة المائدة / ٤٢
 (١٧٧) - نروزة / محمد عزة / تاريخ بني اسرائيل من اسطرهم / ص ٤٠ - ٤٤
 (١٧٨) - نروزة / محمد عزة / ص ٤٥

في سفر التكوين / الإصحاح ١١ / ٣٠ (وكانت ساري عاقراً ليس لها ولد . وأخذ تارح ابنه ابرام وحفيده لوطاً وساري كنته زوجة ابنه ابرام وارتحل بهم من أور الكلدانيين لينهبوا الى ارض كنعان لكنهم وصلوا الى حران واستقروا فيها وهناك مات تارح وله من العمر مئتان وخمس سنين . ان الحديث عن أور الكلدانيين في عصر إبراهيم يبدو انه من خلط كتّبة التوراة وأخطائهم . لأن « الكلدانيين لم يظهروا الا بعد سقوط نينوى في سنة ٦١٢ ق . م . »^(١٣) وهذا الخطأ مما كشفته لنا الدراسات الآتارية وقد يكون ان تسميه اور قد اشتهرت في عصر تكوين الرواية التوراتية بإسم أور الكلدانيين . ومن التناقضات الأخرى عن أصل إبراهيم في التوراة انه ورد في الإصحاح / ١٢ (اترك ارضك وعشيرتك وبيت ابيك وانهب الى الارض التي اوريك / — ٤ : فارتحل إبراهيم كما أمره الرب ووافقه لوط وكان ابرام في الخامسة والسبعين من عمره بينما غادر حاران « وفي الإصحاح / ١٥ / ٧ : انا هو الرب الذي اتى بك من اور الكلدانيين لاعطيك هذه الارض ميراثاً » هذه النصوص تجعل اصل إبراهيم واهله اور الكلدانيين ومرة اخرى حران أرضه وارض عشيرته وبيت ابيه . وهذا الاختلاف أدى الى توجه بعض الباحثين ان جعل اصل إبراهيم من اور الكلدانيين غير صحيح وان بدايته ونشأته كانت في حران . ولكن اور كمدنية ومركز حضاري اقدم واشهر من حران ولا سيما إذا أضفنا المعلومة التي تحدث عنها القرآن الكريم ولم تذكرها التوراة وهي حادثة الحوار مع ملك في عصر إبراهيم وان الصراع قد بدأ بينه وبين السلطة الدينية الكهوتية وسنة الاصنام (وان حران كانت مركز عبادة الكواكب) والسلطة السياسية المتمثلة بالملوكية وطفليانها وتلكها وهذه الملامح ترجح ان يكون اصل إبراهيم من اور او بابل على ان يكون من حران . وان حران مثلت مرحلة من مراحل حركة إبراهيم في هجرته وبعوته . اما اصل إبراهيم فقد تحدثت نصوص التوراة عن اصل إبراهيم في نصوص تمكس اضطراباً ومفارقة ايضاً . فقد ورد في الإصحاح / ٢٦ سفر التثنية / من ضمن وصايا الرب لبني إسرائيل في عصر موسى (عليه السلام) / ٢٦ / تقديم ابكار الفلات / ٥ / : ثم يعلن صاحب التقدمة قائلاً أمام الرب الهكم : كان ابي اراميا تالهاً ثم انحدر الى مصر وتقرّب هناك . ومعه نفر قليل ولكنه اصبح هناك أمة عظيمة . وهذا يؤكد ما كان يمتلكه اليهود بان اصلهم آرامي . وجاء في سفر التكوين الإصحاح / ١٤ / ٧ : استقروا

(١٧٩) سورة . د . احمد / مفضل العرب واليهود في التاريخ / ص ٤١٠ .

(كثر لعومر ملك عيلام وحلفاؤه) حتى اقبلوا على عين مشفاه التي هي قاض
فهزموا بلاد العمالقة كلها والاموريين الساكنين في حصور تامار ، ١٣ / وجاء احد
الناجين الى ابرام العبراني الذي كان مازال مقيماً عند بلوطات ممرا اخي اشكول
وعانر حلفاء ابرام وابلفه بما جرى « وجاء في سفر التكوين / ١٥ / ١٥ :) اما
انت فستمتو بسلام وتدفن بشيية صالحة - ١٦ / : اما هم فسيرجعون بعد أربع
أجيال الى هنا لان اثم الاموريين لم يكتمل بعد . هذه النصوص تشير الى ان
إبراهيم قد سكن مع الاموريين ونزح اليهم وهذا يرجح « ان فكرة النزوح الى هذه البلاد
جاءت اليه من كونها مساكن القبيلة التي هو منها . وان النصوص التي نكرت اصل
إبراهيم الآرامي متأخرة ومتأثرة بالواقع حين تدوين الاحداث في القرن الثالث عشر
وما بعده لان الآراميين كانوا هم أصحاب السلطان وكان طابعمهم هو الشامل لجميع
بلاد الشام الوسطى والشمالية بل كان يمتد الى العراق الجنوبي في هذا الظرف (١٨٠)
والمعروف ان هجرة الاموريين وانتشارهم في بلاد وادي الرافدين والشام كانت اقدم
من هجرة الآراميين وان الموجة الآرامية (قد أخذت تطراً على بلاد الشام في القرن
العشرين قبل الميلاد . وتسربت جماعات منها الى العراق غير انها لم تكن قد استقرت
وتحضرت في الظرف الذي تخمن فيه نزوح إبراهيم الى ارض كنعان كما لم يذكر أحد
من الباحثين ان جماعات منها تسربت الى شرق الاردين وغربه - ارض كنعان - قبل
القرن الثاني عشر (١٨١) وهذا كله يرجح ان أصل إبراهيم كان أمورياً « لان هذه
الموجة أخذت تطراً على بلاد الشام قبل الآراميين وتنتشر في أنحاءها وان جماعات
منها تنفقت الى جزيرة الفرات ثم الى العراق الجنوبي وسيطرت عليه وأنشأت فيه
مملكة بابل الاولى (١٨٢) وبذلك تتقدم ترجيحات امورية إبراهيم على آرامية
وكلدانية ومن خلال إبراهيم (عليه السلام) نتصل باقدم موجة أمورية منكت
الجنس الذي سيطر على شبه الجزيرة العربية وما بين النهرين وبلاد الشام من خلال
النبوات والانبياء في مرحلة قبل العروبة الصريحة لذلك نحن مع الدكتور برونو في

(١٨٠) برونو / محمد عزة / تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم / ص ٣٠ يأخذ من : أدري هيد /
تاريخ كلده والحور / ومن طه باقر / مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة / القسم الاول من
جرجي زيهان / تاريخ العرب قبل الاسلام .

(١٨١) برونو / محمد عزة / تاريخ بني اسرائيل / ص ٢٩ .

(١٨٢) باقر / د. طه / مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة / ص ١٣ - ١٣٩ - ١٥٦

تحديد ملامح اصل إبراهيم عندما قال : وعلى كل حال ان إبراهيم من الجنس العربي
الذين يسميهم المستشرقون ومن يتابعهم من كتاب العرب خطأ الجنس
الصامي^(١٨٢) وعلى المنهجية القرآنية التي تنسب الاقوام الى الشخص الذي يمتاز
بالصفات الكريمة كما بدأ القرآن بإطلاق انتساب البشر الى (أم) فجعلهم بني أم
تكريماً وجعل نوح أبا البشرية الثاني تكريماً وجعل إبراهيم أبا الامة الاسلامية
تكريماً ﴿ ملة ابيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين ﴾ لذلك نؤكد على ضرورة استبدال
السامية لانها تسمية وهمية لا أساس لها في التاريخ ولا الكتب المقدسة . وان إطلاق
الابراهيمية اكثر اقتراباً من الواقع وانطباقاً مع المنهجية القرآنية . اما عن عصر
إبراهيم فقد عرفنا من خلال دراسة سيرة إبراهيم (عليه السلام) في النصوص
الاسلامية انه عاش مع ابنه إسحاق وعاصر حفيده يعقوب ويعقوب هو إسرائيل وهذه
التسمية كانت شائعة في عصر إبراهيم (عليه السلام) وهي مرتبطة بالرب وما
يقرب اليه وان اسم ايل يعني الله في اللغة القديمة وهي من الالفاظ التي استعملها
القرآن عندما سمي يعقوب بإسرائيل وقد وردت اسماء جبرائيل وميكائيل وإسرافيل
في روايات حديثة وفي القرآن الكريم (جبريل وميكال) أسماء الملائكة والغريب ان
اسم جد العرب جاء مرتبطاً بالإله (ايل) وهو اسماعيل وقد تعني (اسمع ايل)
اسمع ايها الإله ايل او قد تكون اصلها سموتيل (صموئيل) المنذور الى الإله ايل .
بينما نجد ان اسم ابي يعقوب هو (إسحاق) وقد كثر استخدام هذه التسميات بعد
إسرائيل وبين أهل الكتاب يكثر اسم ميخائيل (اي ليحمي الإله ايل ميخا) وكذلك
الخليل مشتق من (خل) و (ايل) اي حبيب الإله (ايل) كما ورد في القرآن
الكريم ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾^(١٨٤) ولذلك نجد ان تسمية بابل قد جاءت من هذا
التأثير وبسبب ارتباط الحياة العراقية القديمة بالله الواحد الذي اطلق عليه
العراقيون القدماء (ايل) فان هذه التسمية لبابل - حفظت لنا معلماً من معالم آثار
الدبوات في ارض الرافدين فكانت اول مدينة عظيمة وشهرة وقدماً على الارض هي بابل
وهذا يؤكد ان انشاء هذه المدينة قد أسس على أساس ديني مرتبط بالتوحيد ودعوة
إبراهيم فكانت بابل تعني باب ايل اي باب الإله ايل وهذا اقرب الى القبول من تفسير
التوراة الاسطوري الذي يقول : أن الله قد بلبل الالسنة في بابل وتفرق اللغات في تلك

(١٨٢) نريزه / محمد عزة / م . س / ص ٣٠ .

(١٨٤) سوسة / د . احمد / مفصل تاريخ العرب واليهود / ص ٩٢ .

المدينة^(١٨٥) كما يؤكد تأثيرات النبوات في حضارة وادي الرافدين بأن ترتبط اعظم مدينة في حضارة وادي الرافدين بمقيدة التوحيد التي جاء بها الانبياء جميعاً . ويبدو اثر حضارة وادي الرافدين واضحاً على المنطقة من خلال تسميات المدن فان تسمية القدس بـ (اورشليم) يؤكد اثر حضارة وادي الرافدين على المنطقة لان العراقيين كانوا يسمون مدنهم بتسميات مقاربة واقدم مدينة عراقية هي اور وان (اورشليم) تعني مدينة السلام . اما اسم اسرائيل فقد ورد نكره في (قصيدة منقوشة على جدران الكارناك سجلت فيها انتصارات مرتبناح احد ملوك الاسرة التاسعة عشرة الذين كان حكمهم نحو ١٢٢٥ - ١٢١٥ ق . م . وعبارة القصيدة تقول : (ان إسرائيل خريت ولم يبق لها بنر) . وقد نكر بعض المؤرخين استناداً الى الدراسات الأثرية ان قبيلة من بني اسرائيل هربت من مصر الى فلسطين قبل حكم هذا الملك فرارا من الاضطهاد الذي وقع عليها في عهد أبيه رعمسيس وانها هي التي نكل بها مرتبناح لانها تمردت على الحكم المصري في فلسطين . حيث يكون في هذا توفيق بين وجود جماعة من بني إسرائيل في فلسطين قبل خروج بني إسرائيل الجماعي مع موسى^(١٨٦) اي ان مرتبناح نكل بهم في فلسطين وقضى عليهم وكان ابوه رعمسيس الثاني نكل بهم عندما كانوا في مصر او كان جزء منهم في مصر . وفي القرآن الكريم إشارات الى وجود لأصول قبائل إبراهيمية او متحالفة مع قبيلة إبراهيم في مصر ففي الآيات التي تحدثت عن يوسف في سورة يوسف على عادة المصريين في تسمية ملوكهم بالفراعنة ولكن القرآن كان يسمي رأس النظام بالملك ﴿ وقال الملك أتوني به استغله نفسي ﴾ وهذا الاستعمال القرآني للفظه ملك سلط الضوء على حقبة حصل فيها تغيير سياسي في نظام الحكم وسقوط مصر بأيدي الهكسوس (الملوك الرعاة) كما يسميهم التاريخ القديم . والهكسوس « شكلوا كما تذكر كتب التاريخ القديم ثلاث أسر الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة (١٦٨١ - ١٥٨٠ ق . م .) وكان من أسماء ملوكهم (يعقوب

(١٨٥) « بابل تمني (باب اليل) اي باب الله ولفظة بيل بالعبرانية تعني البليلة والتشويش ولما ارايت القنطرة التحدث عن بابل اعرضت عن معناها الاصلي وتحدثت عن بليلة الاصلنة فمسخت المعنى الذي اراده البابليون « انظر متي / سليم ملحم / مهل الضرائع / ص ٩٢ .

(١٨٦) ديوزيه / محمد عزة / تاريخ بني اسرائيل / ص ٣٦ .

(حر) (اي يعقوب ات) . والهكسوس كلمة مصرية وهي تحريف للقب (حقا خاصت) اي حاكم البلاد الاجنبية وكان لقب يطلقه المصريون على زعماء القبائل البدوية التي كانت تعيش في شرق مصر يؤيد ذلك العثور على هذا اللقب مكتوباً فوق مناظر البنو الساميين القادمين الى مصر في مقابر بني حسن^(١٨٧) هذه المعلومات ترجح بان الهكسوس هم القبائل البدوية التي كانت تسكن في فلسطين وكانوا قرييين من إبراهيم وقبيلته وهناك علاقة بينهم وفي سورة يوسف ايضاً يذكر القرآن الكريم وصفاً لمن كان يسكن فلسطين وفي قوله تعالى حكايةً عن يوسف ﴿ ولقال يا ابي هذا تأويل رؤياي من قبل لقد جعلتها ربي حقاً وقد احسن بي الاخرجنني من السجن وجاء بكم من البنو ﴾^(١٨٨) لقد وصف يوسف طبيعة حياة أهله بالبدواة وهذا يدل على ان فلسطين كانت تحكمها القبائل وكانت في مرحلة انتقالية بين البداوة والحضارة ولم يكن هناك نظام سياسي واحد يحكمها وإنما مناطق نفوذ لسلطان القبائل وقد يكون الهكسوس جماعة من العبرانيين لان العبرانيين كانوا يمشون حياة التنقل والبداوة وهؤلاء العبريون لا علاقة لهم باليهود « وقد استخدمت كلمة عبري من قبل طائفة كبيرة من القبائل العربية في شمال جزيرة العرب وفي بادية الشام حتى صارت كلمة (عبري) مرادفة لابن الصحراء او ابن العادية بوجه عام . وبهذا المعنى وردت كلمة (الابري) و (الهبيري) و (الخبيرو) و (المبيرو) في المصادر المسمارية والفرعونية ولم يكن لليهود وجود في ذلك الحين^(١٨٩) . وذلك تتفق تسمية القرآن الكريم لطبيعة الحياة في فلسطين بأنها حياة بدوية ولفظة العبري المذكورة في المدونات والرقم الطينية ووثائق تل العمارنة والرقم المسمارية التي تدل على المعاتلين الاشداء والرعاة . وإذا كانت أحداث عصر يوسف في الفترة الثانية من أسر هكسوس^(١٩٠) كما يفترض علماء التاريخ القديم لمصر . وهذا يعني أنها كانت بحدود ١٦٥٠ اي القرن السابع عشر قبل الميلاد . وكان إبراهيم قد توفي في هذه المدة ولم تكن وفاته قديمة جداً لانه (عليه السلام) أبرك

(١٨٧) عبدالهادي / د. جمال مع .د. وفاء محمد / اخطاء يجب ان تصحح في التاريخ - نرية

ابراهيم / ص ١٢٢

(١٨٨) سورة يوسف / ١٠٠

(١٨٩) سورة / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٤٩٥ .

(١٩٠) د. جمال عبدالهادي / اخطاء يجب ان تصحح م . ص / ص ١٢٢

يعقوب وفي ضوء هذه الحقيقة بإمكاننا ان نضع عصر إبراهيم في القرن الثامن عشر قبل الميلاد . وإذا وضعنا بالاعتبار طبيعة الاعمار التي كانت اكثر قليلاً من المعدلات للعصور المتأخرة فقد يصل التقدير الى القرن التاسع عشر قبل الميلاد .

البحث عن إبراهيم (عليه السلام) في غير الكتب الدينية :

ان الذي يدرس تاريخ إبراهيم (عليه السلام) يفاجأ بان هذا النبي العظيم لم يتحدث عنه غير الكتب المقدسة ، وعشرات الالاف من الرقم والالواح الطينية سكنت عنه !!! .

إن الباحث يأخذ هذا الصمت المطبق ، إذ لم يترك القدماء موضوعاً يمر حياة الانسان الا وتحدثوا عنه . تحدثوا عن الكون والخلق والتاريخ والعلوم والمدارس والتعليم والمقائد والالهة والملوك وحروبهم وأعمالهم وعن القضاة والقوانين وعن الزراعة والطب والحكمة . اين إبراهيم ؟ اين جهوده وآثاره ؟ أبو الانبياء أول المراحل الواضحة المعالم في مسيرة الانبياء . عندما تسأل المتخصصين في التاريخ القديم عن إبراهيم (عليه السلام) . الكل يجيب لا يوجد اي دليل آثاري يذكر إبراهيم ويوره في تاريخ الانبياء ! ولكن الحقيقة ان هذا السؤال يتجاهل أساس القضية فنحن نعلم ان التاريخ القديم لم يبحث عن إبراهيم وان الذين درسوا التاريخ القديم على الطرف الآخر بالنسبة للتاريخ الديني وإبراهيم بخاصة . لذلك نحاول أن نجتمع من القطع المتناثرة القليلة أجزاء ترتبط بهذا النبي وشخصيته وان نرسم صورة تقرب إلينا الحقيقة الضائعة وان نفرز بين الركام الهائل من المونونات المكتوبة على الالواح الطينية على مدى آلاف السنين . لعلنا نجد اسماً أو نكرأ لحدث او اثرأ يربطنا بهذا الانسان العظيم الذي ارتبط بالانسانية من خلال جهوده في اعادة الانسان الى عقيدة التوحيد وعلى مساحة العالم القديم الذي كان يشغله الانسان في عصره فقد انتقل خليل الرحمن من العراق الى فلسطين والى مصر والحجاز وشكل مساراً لقضية من أهم قضايا الانسان وهي ارتباطه بالعقيدة التي بلغ بها ودعى اليها الانبياء جميعاً منذ آدم ونوح ، وقد ترجع لدينا ان اليهود لعبوا دوراً في صياغة تاريخ الانبياء وحاولوا ربط الاحداث بتاريخهم وبخاصة شخصية إبراهيم الخليل (عليه السلام) ، فقد جاء في سفر دانيال (ان نبوخذ نصر صنع تمثالاً من ذهب وأمر

الناس بالسجود له ورفض ثلاثة يهود السجود للصلم وهم (شدرخ وميشخ عبد نفو) فأمر نبوخذ نصر بتحريقهم في أتون النار . وقد جاء في سفر دانيال ٣ : كلام نبوخذ نصر للثلاثة : والآن ان كنتم مستعدين لدى سماع صوت الاالات المرسلية المختلفة ان تحنوا وتسجدوا للتمثال الذي صنعتة اعطو عنكم ولكن ان ابستم السجود تطرحون في تلك الساعة في أتون النار المتقدة ، وأي إله يقدر أن يخلصكم عندئذ من يدي ؟ فاجابه شدرخ وميشخ وعبد نفو : لا داعي لأن نجنيك عن هذا الشأن لأن إلهنا الذي نعبد قادر أن ينجينا من أتون النار المتقدة يخلصنا من يدك أيها الملك وحتى ان لم يخلصنا فاعلم يقينا أيها الملك اننا لا نعبد الهتك ولا نسجد لتمثال الذهب الذي نصبته فاستشاط نبوخذ نصر حنقاً ... وأمر ان يضرموا الأتون سبعة أضعاف عما كانت عليه العادة ... حينئذ أوثق الرجال بما عليهم من ثياب وسراويل وأقمصة واربطة وطرحوا في وسط أتون النار المتقدة ... وان لهيب النار احرق الرجال الذين حملوا شدرخ وميشخ وعبد نفو وطرحوهم في النار فسقط هؤلاء الرجال الثلاثة موتقين وسط أتون النار المتقدة وما لبثت الحيرة ان اعترت نبوخذ نصر فهب بسرعة وقال الى مشيريه : ألم تطرح ثلاثة رجال موتقين في وسط النار ؟ فاجابوا : صحيح ايها الملك فقال : إني أرى أربعة رجال طليقين يتمشون في وسط النار لم يزلهم أذى ومنظر الرابع شبيه بإبن الآلهة ... ثم ينادي عليهم نبوخذ نصر فيخرجون من وسط النار واحاط علماء الدولة بهم فوجدوا ان النار لم تؤذ أجسادهم ولم تحرق شعرة من رؤوسهم ولم تشط ثيابهم ولم تعلق بهم رائحة النار فقال نبوخذ نصر : مبارك اله شدرخ وميشخ وعبد نفو الذي أرسل ملاكه وانقذ عبده الذين اتكلوا عليه وخالفوا امر الملك وبنلوا اجسادهم كيلا يعبدوا او يسجدوا لإله غير الههم . لهذا قد صر مني أمر ان أي شعب او أمة او أي قوم من أي لسان يذمون اله شدرخ وميشخ وعبد نفو يمزقون ريباً ريباً وتصبح بيوتهم أنقاضاً إذ ليس هناك اله آخر يقدر ان ينجي مثله « (١٩١) . ان هذه التفاصيل تؤكد ان احداثها تشبه حادثة تحريق إبراهيم وقد ذكر العقاد : « ان الشبه بين هذه القصة وقصة إبراهيم ظاهر » (١٩٢) وقد حاول بعض شراح التوراة التمويه وتحريف الحقائق عندما وجدوا في ترجمة يونانان بن عزيبيل للتوراة من السريانية او الآرامية بيان إبراهيم قد نجى من نار الكلدانيين وقالوا ان أور الكلدانية

(١٩١) سفر دانيال ٣ ، ١ ، ٣٠ .

(١٩٢) العقاد / عباس محمود / إبراهيم ابو الانبياء / ص ٤٩ .

تعني النار وبالعبرية تعني النور فالتبس عليه الامر فترجم النور بالنار « ولكن هؤلاء الشراح يدسون ان القصة قديمة وريت في باب الفصحيات من القسم الثاني من المشنا وانها اطول أصولاً وفروعاً من أن تبني على خطأ في ترجمة كلمة . ولا بد ان يلاحظ كذلك ان الكنيسة السريانية التي يعيش اتباعها في بلاد الكلدانيين القديمة بين سوريا والعراق والتي اشتهر آباؤها بدراسة السريانية - وهي الآرامية بعينها - لا تمد ان القصة ناشئة من غلط في الترجمة (اي نجاه ابراهيم عليه السلام) وتقيم لنجاة ابراهيم من النار حفلاً سنوياً في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني^(١٩٧) . وهذا يؤكد لنا ان القصة اي قصة حرق الثلاثة مأخوذة من التراث البابلي وضعتها اليهود واقتبسوها اثناء السبي وغيروا معالمها لخدمة العقيدة اليهودية وتمظيم ديانتهم وربطوا أحداث القصة بتاريخهم وجعلوها معجزة لا يباطلهم . وهذا يفسر لنا اختفاء ملامح القصة من الرقم الطينية إذ قد يبدو ان عملية طمس متعمد لمعالم القصة قد حدثت فعلاً .

لقد حاولنا سابقاً ان نحدد عصر ابراهيم بالقرن الثامن عشر قبل الميلاد وقلنا قد يصل عصره الى ابعد من هذا التقدير فيصل الى القرن التاسع عشر قبل الميلاد وهذا يتفق مع تقديرات بعض العلماء الى « ان ابراهيم (عليه السلام) كان يعيش في المدة (من ١٩٤٠ الى ١٧٦٥) ق . م . »^(١٩٨) وقد نقل المقاد عن المؤرخ اليهودي يوسيفوس عن ابراهيم (عليه السلام) « ويذكر المؤرخ بروسوس^(١٩٩) أبانا ابراهيم ولا يسميه حيث يقول انه من الجيل الماشر بمد الطوفان عاش بين الكلدانيين رجل صلق متبحر في العلوم السماوية وزاد المؤرخ هكتاسوس^(٢٠٠) على

-
- (١٩٣) المقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ٤٩ - ٥٠ .
 (١٩٤) مهران / د . محمد بيومي / دراسات تاريخية من القرآن الكريم / ج ٣ ص ١٢٢ .
 (١٩٥) بروسوس ، كاهن في معبد الاله مردوخ في مدينة بابل عاصر الاسكندر المقدوني و ألف كتاباً الى الملك انطوخس الاول (٢٨٠ - ٢٦١ ق . م .) عن تاريخ بابل ضمنه مطبوعات عن الطوفان البابلي غير ان هذا الكتاب قد ضاع ولم يبق منه سوى مقتبسات في كتب بعض المؤلفين الاغريق انظر علي / د . فاضل عبدالواحد / الطوفان ص ٣٠ الهامش وانظر كذلك الاحمد / د ساسي سميد / ملحمة كلكامش / حيث يقول عنه : المؤرخ اليوناني المشهور يروخشا (بروسوس الذي استوطن بابل في القرن ٣ ق . م .) .
 (١٩٦) عاش في مصر في القرن الثالث قبل الميلاد .

نك انه الف كتاباً عنه وقال نيقولا الممشقي في الكتاب الرابع من تاريخه ان ابراميس (حسب الكتابة الاغريقية) حكم في دمشق وكان مغيراً قدم من ارض بابل من البلاد التي تسمى الكلدانيون ولم يمض عليه زمن طويل حتى هجرها وقومه الى ارض كلعان - وتسمى اليوم يهوذا - وفيها نريته او لا يزال اسم ابرام مشهوراً في القليم بدمشق حيث تسمى احدى القرى بمسكن ابرام^(١٧٧) . هذه المعلومات نكرها يوسيفوس في تاريخه ينقلها عن مؤرخين قبل الميلاد وهؤلاء نقلوا عن مصادرهم وان كانت هذه المعلومات لا ترقى الى الصحة والتصديق ولا تخلو من صياغات مشكوك فيها الا انها تعطينا فكرة عن شهرة شخصية ابراهيم عند المؤرخين القدماء وتثير تساؤلات عن سر توقف النقل عن هذه الشخصية وان هذا التوقف او الاختفاء لشخصية ابراهيم (عليه السلام) في المونوات القديمة . بيعت الحيرة ويليها ظلالا من الشك عن طبيعة مسار المعلومات او التشويش عليها او التشكيك فيها وقد سبق ان اشرنا الى محاولة مستر وولي في نفي حادثة وجود اسم ابراهيم في حفريات اور . اننا لا نزال نأمل ان تعلن بعض المعلومات مما يلي الضوء على شخصية ابراهيم من خلال الحفريات ومن الجدير بالملاحظة ان احدى من المتخصصين بالاثار لم ينف شخصية ابراهيم او يجزم بعدم وجودها لشدة ظهور اثر هذه الشخصية على التاريخ وتاريخ اديان التوحيد الثلاثة الكبرى الاسلام والمسيحية واليهودية وكذلك لم تظهر لحد الان معلومات توضح معالم شخصية الخليل من خلال نتائج الحفريات او مونات الاواح الطينية التي كانت شائعة في عصر ابراهيم (عليه السلام) . ان عصر ابراهيم يمكن ان يوضع في موازاة عصر حمورابي على وجه التقريب « وهو الملك البابلي المشهور الذي اعتلى منصة الحكم في سنة ١٧٩٢ ق م . واستمر لمدة اربعة واربعين عام حتى عام (١٧٤٩ ق م .) حيث خلفه ابنه سمو ايلونا^(١٧٨) . على انا ونحن نتعامل مع الحفريات لابد ان تؤكد حقيقة هامة وهي ان هذه الحفريات لا تعطينا توضيحاً وتفصيلاً دقيقاً لاحداث التاريخ القديم « وعلى كثرة الاحافير لا نجد بينها خبراً يعين لنا التاريخ في حادث من حوادث تعيين الجزم واليقين ولم يهتد المنقبون الى تاريخ منها الا على وجه التقريب وبعد الموازنة والترجيح . ومن الامثلة الكثيرة على هذا ان المنقبين كانوا يعينون سنة

(١٩٧) المقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ١٢٠

(١٩٨) رشيد / د . فوزي / الملك حمورابي مجد وحدة البلاد / ص ٩٦ .

١٩٤٠ ق م . لحكم حمورابي ثم انكشفت أحافير (ماري) لاندري بارت فقدموها قرناً كاملاً الى نحو ١٨٤٠ لانهم وجدوا ملوكاً معاصرين له وكانوا يحسبونهم سابقين^(٢٠٠) لكن الشيء الاكيد والوحيد الذي تقدمه لنا هذه الحفريات هو انها تمثل العصر الذي تنتمي اليه وتتطابق مع سنوات هذا العصر وهذه أيضاً قد تتعرض للتزوير كما يفكر د. طه باقر بان « اغرب ما وجد الملقبون حديثاً في الموضع الاتري المعروف بإسم (سلطان تبه) في جنوبي تركيا بالقرب من حران - أجزاء من الملحمة ورسالة عجبية زورها كاتب قديم (عاش في الالف الثاني قبل الميلاد . فقد جاءت تلك الرسالة على لسان البطل جلجامش معنونة الى أحد الملوك القدماء يطلب منه جلجامش ارسال احجار كريمة ليصنع منها تعويذة لصاحبه انكيو^(٢٠١) . ان احتمالية الخطأ في الحكم على الحدث التاريخي من خلال الحفريات كبيرة بل ان هذه الحفريات قد تقود الى أوهام وأخطاء تقلب الحقائق لاسباب عديدة منها ان اللغة التي كتبت بها اندرست ولذلك جاءت الترجمات لهذه النصوص غير بقيقة وقابلة للتفسير والتعديل . ومن أسباب كثرة الاخطاء في قراءة التاريخ القديم ان المدونات عبرت عن ابطال وملوك وجبارة وضعوا ضمن ميثولوجيا كانت تعبر عن تمجيد وتضخيم يتسم بالمبالغة الممزوجة برؤيا دينية جاءت لتستند وتغذي الحاجة الدينية لدى الانسان في تلك العصور وعبرت كذلك عن السلطة السياسية وعن الوثنية وثقافتها لذلك كانت الالواح مشحونة بالاساطير والتمجيد والتضخيم ولا تعبر عن الواقع الا في حدود ضيقة مثل عقود البيع والشراء والمعاملات التجارية وبعض المجالات البعيدة عن الدين والملك وان كان هناك « انطباع لدى بعض الباحثين ان التأليف الانبية السومرية كلها كانت ذات صيغة دينية وقد جرى تأليفها على يد كهنة لاستعمالها في الطقوس الخاصة بالمعبد . ويبدو ان مثل هذا الانطباع جاء نتيجة وجود أعداد غير قليلة من الالواح المدونة بموضوعات ذات طابع ديني كالادعية والصلوات والترانيم والاساطير^(٢٠٢) ان دراسة التاريخ من خلال نقوش الحفريات لا بد ان تتسم بالحذر والتحليل العميق الذي يعتمد على المقارنة والفتنة لكي يصل الباحث الى نتيجة مقبولة تصمد أمام احتمالات النقد الكثيرة المحتملة بسبب تجد

(١٩٩) المقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ١٥٥ - ١٥٦

(٢٠٠) باقر / د. طه ملحمة كلكامش / ص ٢٥

(٢٠١) علي / د. فاضل عبدالواحد / سومر اسطورة وملحمة / ص ٤٩ .

واستمرار البحث والتنقيب وتحليل المعلومات . لذلك اذا جاز لنا ان نضع عصر إبراهيم (عليه السلام) مع عصر حمورابي فان هذا يعني ان عصره في اصطلاح علماء البابليات ضمن العصر البابلي القديم . وقد سجل هذا العصر تقيراً أساسياً في تكوين شخصية الانسان وقد سجلت النقوش وعياً امتاز به الفرد في تلك العصر « واذا كان الانسان من قبل قد شعر بالضعف وعدم القدرة او المعجز امام الاشباح التي جلبت له الازى والمرض فقد نقل إدراكه لامكانياته المتنامية والمسؤولية الكبيرة الان الى إله خاص الإله الحامي »^(٢٠٢) وهذه الملاحظة جديرة بالتأمل لانها عبرت عن متابعة دقيقة في بناء شخصية الانسان والتغير الجنري الذي حصل عنده وهو الذي عبر عنه ايب العصر البابلي القديم بربط الانسان بفكرة الحياة بعد الموت والتأمل في ظاهرة الموت « وهكذا صار البحث عن الخلود في الحياة موضوعاً مهماً في الاديان (motive) ونجد في ملحمة كلكامش في الرواية البابلية القديمة للملحمة في موضوعها يتسلم كلكامش النصيحة : « كلكامش الى أين أنت ذاهب ؟ الحياة التي تبحث عنها لن تجبها اذ حين خلقت الالهة الانسانية قررت للانسان الموت واحتفظت لنفسها بالحياة . اذا فأملأ يا كلكامش بطنك : كن فرحاً ... والطريف ان النصيحة هنا تعطي بالذات من اجل الاستمتاع بالحياة وتقيب هذا الاشارة الى محاولة ارضاء الالهة بالتبئين وبهذا ربما يمكن الوصول الى المشاركة بالخلود »^(٢٠٣) هذا التحريك في وعي الانسان لم يات نتيجة تطور في عقل الانسان اذ ان هذه الافكار لا يمكن تحصيلها بالتجربة او الفكر المجرد ولكنها عبرت عن اصداء وانعكاس على مدى أزمان طويلة الامد لآثار أولئك الاشخاص (وهم الانبياء) الذين جاؤوا ليبرطوا الانسان بالحقيقة ويوضحوا له الالفاظ والمعضلات التي كان عقله يمجز عن تفسيرها وهي الموت وما بعد الموت والقدر والحياة لذلك نجد ان مستوى هذه الاعمال يتردد بين الاسطورة والحقيقة فملنما نتحدث النصوص عن مصير الانسان تكون هذه النصوص تعبير عن الوعي والقلق ولكنها من جانب آخر تدفعه نحو البحث عن الخلود والتشبه بالإله وهذه الظاهرة وهي المزج بين الاسطورة والواقع كانت اكثر وضوحاً في مجال المعتقدات المراقية القديمة « وان الاساطير السومرية والبابلية الخاصة بالكون والالهة تشغل حيزاً كبيراً في مجمل الناتج الادبي الرافديني وعلى الرغم من

(٢٠٢) كلنفل / د هورست / حمورابي ملك بابل وعصره ترجمة د غازي فريد / ص ٨٤ .

(٢٠٣) كلنفل / د هورست / ص ٨٥ / ص ٨٥ .

ان كثيراً من القضايا التي عالجوها في تلك الاساطير مبنية على أساس منطق الفكر الميثوبي (أي الفكر الاسطوري (Logic of methopic thought) الا انهم خلصوا الى افكار ومعتقدات لا تبدو بعيدة عن منطق العلم احياناً فقصص الخليقة في وادي الرافدين تؤكد على ان الكون في البدء كان كتلة واحدة لكن الالهة انليل (او مردوخ) شطرها الى قسمين خلق منهما السموات والارض ثم ان كثيراً من المعتقدات السومرية والبابلية تركت بصمات واضحة في معتقدات اقوام عديدة اخرى وعلى وجه الخصوص في معتقدات المبرانيين (مثل عملية خلق الانسان والكون وقصة الفريوس المفقود وقصة الطوفان كما ان موضوعات توراتية اخرى مثل قصة ايوب ونشيد الاناشيد لسليمان والافكار الخاصة بالموت والعالم الاسفل هي الاخرى ذات جنور رافيدبية) ومن المعروف لدى الباحثين ان مبدأ التشبيه (Anthropomorphism) كان واحداً من المبادئ الاساسية التي اتصفت بها المعتقدات الدينية عند سكان وادي الرافدين اذ انهم شبهوا آلهتهم بالبشر تماماً وقد ترفع الحجب بين الالهة والانسان أحياناً ... فنجد ان الالهة تتحدث وتتعامل مع الانسان الذي يكون في مثل هذه الحالة أحد الحكماء ... او الاتقياء او احد الملوك ومع ذلك فان الالهة تتصف بالسمو والرفعة والقدسية وقبل هذا بالخلود الذي استأثرت به منذ بداية الخليقة^(٢٠١) لقد أربنا ان نؤكد من خلال استشهدنا برأي الدكتور فاضل عبدالواحد وهو العالم البصير بالسومريات والبابليات وقد أكد الحقيقة التي نكرناها في البداية ان هذه المعتقدات عبرت عن حقيقة وخيال فالحقيقة مثلت آثار النبوات والانبياء . والخيال هو الذي أنتج عقل البشر بعد النبوات والتحريرات . وان تتطابق الحقيقة المذكورة في الالواح السومرية والبابلية مع الحقيقة المذكورة في التوراة مع الحقيقة التي ثبتها القرآن الكريم ولم يستطع العلم الحديث تفنيد واثبات خطأها . كل هذا يؤكد وحدة المصدر وهو الله جلت قدرته وانه قد اوحى هذه العقائد الى الانبياء الذين أرسلهم الى اقوامهم وتناقلت اقوامهم هذه العقائد وأضاف وحرفت فكانت الصورة النهائية الاسطورية التي تحمل بين طياتها اثر الحقيقة والوحي السماوي .

ومن بين القضايا التي تخضع لهذا المفهوم من تفاعل مع الواقع وتأثير البيئة بالظروف هي قضايا الشرائع والقوانين القديمة فالمعروف ان المجتمع البدائي لا

(٢٠٤) علي / د. فاضل عبدالواحد / سومر اسطورة وملحمة / ص ٥٩ .

يحتاج الى قوانين تنظم علاقاته بقدر المجتمع المتطور ولذلك كانت القوانين والحاجة الى الحرية والعدالة الاجتماعية وبقية المتطلبات الانسانية لا تبرز بصورة ملحة الا من مجتمعات بلغت مرحلة لا بأس بها من نموها الاجتماعي والسياسي^(٢٠٥) وكذلك هذه الشرائع لم يعرف لحد الان أساسها وجنورها ولكنها وجدت هكذا على الرقم الطينية وهي تفاجئنا بتنظيمها وبقوتها وتفصيلها كما فاجتتنا حضارة وادي الرافدين في شموليتها ولذلك سنتوقف قليلاً عندها لمقارنتها بالشرائع الدينية التي أوحاها الله الى أنبيائه .

الشرائع القديمة :

من المعروف لدى الباحثين المتخصصين في تاريخ الاديان ومقارنتها والاسلاميين منهم بخاصة ان هذه الاديان عبرت عن عقيدة واحدة وهي عبادة الإله الواحد الاحد ، وقد أرسل الله الانبياء جميعاً ليلفوا هذه العقيدة الى أقوامهم . قال تعالى ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ فكل الرسل جاؤوا بالدعوة الى هذه العقيدة وكل الكتب الإلهية نزلت لبيانها وبيان ما يبطلها او يناقضها او ينقصها وكل المكلفين من الخلق أمروا بها^(٢٠٦) . أما الجانب الآخر الذي يمتح به الانبياء فكان مجموعة ارشادات وتوجيهات ونصائح يحملها النبي الى قومه وهذه المجموعة من التوجيهات تتناسب مع الواقع والمصر وليست ثابتة بل تتغير في بعض جوانبها من نبي الى آخر وتتطور بحسب تطور المجتمع وعصره ولم يرسل الله نبياً الا بهاتين الحقيقتين عقيدة توحيد الإله وشرعية تنظم علاقات المجتمع فيما بينهم قد تحددت هذه الوظيفة للانسان منذ آدم (عليه السلام) يقول تعالى ﴿ لئن لم هلطوا منها جميعاً لإذًا أتيتنكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكنبوا بلآئتنا لولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾^(٢٠٧) . وتحددت في رسالة نوح (عليه السلام) بقوله تعالى ﴿ ان اعبدوا

(٢٠٥) رشيد / د. فوزي / الشرائع المرافقة القديمة / ص ٤ .

(٢٠٦) الطوزان / صالح بن فوزان / الارشاد الى صحيح الاعتقاد / ص ٦ .

(٢٠٧) سورة البقرة / ٢٨ - ٢٩ .

الله وتقواه واطيعون ﴿٢٠٨﴾. وفي عصر إبراهيم تطورت الحياة وأشكالها وتمتعت العلاقات الاجتماعية وتبلورت علاقات ونظم احتاجت الى تحديد أوسع ومتابعة أكثر تفصيلاً من توجيه النبي وطاعته فقط كما في عصر نوح (عليه السلام) . فانزل الله صحفاً سميت في القرآن الكريم بـ (صحف إبراهيم) كما في قوله تعالى ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ﴾ والأخرة خير وأبقى ان هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى ﴿٢٠٩﴾ وما بين آدم ونوح وإبراهيم كان هناك أنبياء انزل الله عليهم شرائع ووحياً « وكانت لايريس (بعد آدم وقبل نوح عليه السلام) مواعظ وآداب . فقد دعا الى دين الله وعبادة الخالق والعمل الصالح وحث على الزهد في الدنيا الفانية الزائلة ومن حكمه (الصبر مع الايمان يورد الطفره «(٢١٠) ولإبراهيم تراث مبثوث في الانبياء الثلاثة الكبرى ففي القرآن الكريم آيات كثيرة تحدثنا عن حكمة إبراهيم وحلمه وفي التوراة والانجيل كذلك . وفي انجيل برنابا(٢١١) صورة من صور العذاب للالغنياء الذين لا يتصدقون « ومات الفني ايضاً احتملته الشياطين الى نراعي إبليس حيث عانى اشد العذاب . فرفع عينه ورأى العازر من بعيد على نراعي إبراهيم فصرخ حينئذ يا أبتاه إبراهيم ارحمني وابعت العازر ليحمل لي على اطراف بنانه قطرة ماء تبرد لسان الذي يعذب من هذا اللهييب . فاجاب إبراهيم : يا بني انكر بانك استوفيت طيباتك في حياتك وللعازر البلاء . فصرخ الفني ايضاً (يا أبتاه إن لي في بيت أبي ثلاثة اخوة فارس ازل ليخبرهم بما أعانيه لكي يتوبوا ولا يأتوا الى هنا . فاجاب إبراهيم : عدلهم موسى وإبراهيم فليسسموا منهم . اجاب الفني : كلا يا أبتاه إبراهيم

(٢٠٨) سورة نوح / ٣ .

(٢٠٩) سورة الاعلى / ١٦ - ١٩

(٢١٠) الصابوني / محمد علي / النبوة والانباء / ص ٢٢٦

(٢١١) برنابا : هو حواري من لصار المسيح الذين يلتقيهم رجال الكنيسة بالرسل صحبه بولص زنا (اي لبرنابا) بل كان هو الذي عرف التلاميذ ببولص ورجع الى اورشليم لان تلاميذ المسيح ما كانوا ليتقوا بإيمان بولص بعد ما كان من شدة عداوته لهمهم لولا برنابا الذي عرفه أولاً ثم وثقه اليهم . وانجيل برنابا لا تعترف به الكنيسة ويقولون انه من وضع بعض المسلمين ويختلون من واضمه ؟ وبعد انجيل برنابا وثيقة تاريخية مهمة لدراسة كتاب التاريخ المقدس والانجيل الاربعة انظر مقنمة محمد رشيد رضا (الناشر) على انجيل برنابا ص (٣ - ٥) وانظر الى انجيل برنابا / ص ٢٦ وما بعدها برنابا الانجيل . ترجمة من الانكليزية سقانة / د خليل .

بل إننا قام واحد من الاموات يصدقون . فاجاب إبراهيم : ان من لا يصلق موسى وإبراهيم لا يصلق الاموات ولو قاموا . - برنابا - الفصل الرابع والعشرون . وفي برنابا ايضاً : اجاب ابراهيم : انأ يا ابتي ليس للآلهة نفس فكيف يهبون الانفاس ؟ ولما لم تكن لهم حياة فكيف يعطوا إذأ الحياة ؟ فمن المؤكد يا أبتي إن هؤلاء ليسو هم الله) لقد كانت لتعاليم إبراهيم آثار عظيمة على الانسانية في تاريخها الطويل . « ان كل ما يوجد في هذا العالم من المعاني الانسانية الكريمة والاحاسيس الرقيقة اللطيفة والاخلاق العالية الفاضلة والعلوم الصحيحة النافعة ومن القوة والعزم على محاربة الباطل والفساد انما يرجع فضلُه وينتهي تاريخه الى وحي السماء وتعليمات الانبياء وتبليغهم دعوتهم وجهادهم والى أصحابهم وتابعيهم بإحسان ومازال العالم ولا يزال يمشى في ضلولهم ويميش في البناء المحكم الذي بذوه «^(٢١٢) ولعل اهم الآثار تلك الشرائع التي نظمت حياة الناس وحددت لهم الحدود وبيّنت لهم المحرمات ودعتهم الى القيم والاخلاق والمعدل ولم تنفك هذه الشرائع عن تلبسها بالدين فكل قانون وشريعة مهما كانت لا بد ان يكون روحها الدين ومن المعلوم ان مصادر كل قوانين البشر مستمدة من الدين والعرف والعادة والمبادئ العادلة وسوابق القضاء «^(٢١٣) . لقد حاول الملوك والقادة في التاريخ القديم ان يحققوا العدالة « وقد بنى ملوك العصر البابلي القديم جهداً مستمراً لتأخذ العدالة مجراها واصدروا القوانين لحماية الارامل واليتامى والضعفاء والمساكين واكفوا على ذلك في مخطوطاتهم «^(٢١٤) وكان هؤلاء الملوك يصوغون تشريعاتهم في إطار ديني لكي تكتسب هذه التشريعات اثر الالتزام وتفرض شعوراً بالخوف من مخالفتها ومثال ذلك في اقدم الشرائع (شريعة اورنمو) (٢١١١ ق . م .) استخدم النهر كوسيلة من وسائل التحقيق في إثبات الجريمة « والنهر في العراق القديم كان مقدساً حتى انه اصبح آلهة في العهد البابلي القديم كما هو واضح في شريعة حمورابي . فالمتهم الذي لا وجود لآلته واضحة تؤيد التهمة يلقى في النهر الحكم فالذا خرج سالماً فهو بريء وان غلبه النهر فهو مذنب وان النهر في الواقع لا يستطيع ان يميز بين المذنب والبريء ولكن الذي يظهر الحقيقة هو المتهم نفسه لانه ان كان بريئاً فسوف يسبح

(٢١٢) الندوي / ابو الحسن علي الحسيني / النبوة والانبياء في ضوء القرآن / ٢١ .

(٢١٣) مصطفى / د عبدالله / اصول القانون / ص ٢٢١ .

(٢١٤) كلنفل / د. هورست / حمورابي وعصره ترجمة د. غازي شريف / ص ٨٧ .

بكل ثقة ويبرهن على براعته وان كان مذنباً فرهبت اتجاه النهر المقدس تركه وتظهر اذنته . ومن أكلة تأثير هذه العقيدة على النفوس اليوم هو ما يفعله البعض عندما يستدعون من يتهمون لليمين بحضرة إمام كبير كالعباس (عليه السلام) ليقسم بحضرتة إنه بريء من التهمة الموجهة ضده وكثيراً ما يحدث ان تنهار عزيمة المذنب ولا يجرؤ على ان يقسم كذباً في حضرتة المقدسة^(٢١٥) . لقد وجدت في ارض العراق اقدم الشرائع التي عرفتھا البشرية وهذه لم تات من فراغ وانما هي اثر من آثار قدم الوجود الانساني على ارض العراق هذا الوجود الذي ارتبط بالسماء من خلال الانبياء ومع تطور الحياة تطورت هذه الشرائع لتلائم طبيعة الحياة وقد تفاعلت هذه التشريعات بين الاقتباس من القديم والبحث عن التمجيد من قبل الملوك وآثار النبوات المستمرة على المجتمع وعبرت عن السلطة السياسية والدينية وتأثير المجتمع والاقتصاد والحاجات في المجتمع فكانت صياغتها انعكاساً لهذه الآثار^(٢١٦) لقد كانت شريعة حمورابي اكثر هذه الشرائع تأثيراً ودراسة ونضوجاً وان كانت قد سبقتها شريعة اورنمو ٢١١١ ق . م . وشريعة لبت عشقار ١٩٣٤ ق . م . وشريعة اشلونا (غير محدد تاريخها ولكنها سبقت شريعة حمورابي بنحو نصف قرن او اكثر)^(٢١٧) . وهذه الشرائع تكاد تتشابه في كثير من مواهبها ومتأثرة ببعضها في بعض الجوانب وستوقف عند شريعة حمورابي وندرس تأثيرها بالنبوات وعلاقتها بالرسالات والشرائع التي سبقتها لانها في عصر قريب من عصر ابراهيم (عليه السلام) .

شريعة حمورابي :

ينتمي حمورابي الى الاموريين الذين أسسوا سلالة بابل الاولى (١٨٩٤ - ١٥٩٤ ق . م .) هذه السلالة التي استطاعت ان تغلب على منافسيها (سلالة آيسن ولارسا) وفي عهد سانس ملوكها المدعو حمورابي قضت

(٢١٥) رشيد / د . فوري / الشرائع العراقية القديمة / ص ٢٢ - ٢٣ .

(٢١٦) انظر كلنفل / د . هورست / م ص / ص ٦٨ - ٨٨ .

(٢١٧) رشيد / د . فوري / الشرائع العراقية القديمة / ص ٥٩ .

على المناهض الوحيد القوي لها سلالة لارسا واستطاع حمورابي بعدها توحيد البلاد بعد ان كانت مجزأة الى دويلات مدن وفي السنة الثلاثين من حكمه اصدر حمورابي شريعته المشهورة التي عدّها المؤرخون من اعظم اعماله فقد نونها على الحجر وارسلها الى المدن البابلية كي يطلع عليها الناس ويعملوا بها ويحكم بها القضاة لتحقيق العدل بين الناس وهذه الشريعة كما يبدو من موادها عبارة عن جمع منقح لمواد الشرائع التي سبقتها إذ أن حمورابي قد حذف من مواد الشريعة ما كان لا يتفق وطبيعة العصر وأضاف مواد اقتضتها مصلحة الدولة آنذاك وحاجة المجتمع ولا سيما القوانين الصارمة والقصاص^(٢١٨) وحمورابي الاموري يذكرنا بما رجحناه من ان ابراهيم (عليه السلام) كان امورياً كذلك وان عصر ابراهيم (عليه السلام) بموجب تقديرات المؤرخين هو عصر حمورابي وان ابراهيم (عليه السلام) بملقضى المفهوم الديني وهو النبي في عصره يعدّ صاحب شريعة وكتب انزلت عليه من السماء وبداية حياة ابراهيم ودعوته كانت في العراق وهو المكان الذي كانت له السلطة السياسية فيه بيد ملوك سلالة بابل الاولى والذي توحد سياسياً في عهد حمورابي وقد سجل القرآن الكريم حواراً بين ابراهيم (عليه السلام) والملك انتهى هذا الحوار بانتصار ابراهيم منطقياً وعقلياً وفكرياً ثم بدأت بعدها معركة عقائدية بين ابراهيم (عليه السلام) وقومه وسلطتهم السياسية والدينية . كل هذه الاحتكاك يرجح لدينا ان ثمة علاقة بين حمورابي و ابراهيم وقد ذكرت التوراة اسم لاحد الملوك الذين حاربوا ضد ابراهيم وهاجموا بلاد الكنعانيين فلسطين وحاربهم هذا الملك وتسميه التوراة (امرافيل) « وترجع تعليقات هالي الجيبية (The pocket Bible Handbook) ان امرافيل هو حمورابي اشهر ملوك البابليين ، ويرجح كلارك اعتماداً على الآراء الحديثة ان عصر حمورابي متخلف عن عصر الوقائع التي تنسب الى امرافيل بمئة سنة وان امرافيل وحمورابي لا يدلان على شخص واحد وقد وضع الاطلس التاريخي عصر ابراهيم بين ٢٠٠٠ و ١٧٠٠ ق.م . ووضع عصر حمورابي في ختام هذه المدة اما الموسوعة التي تحمل اسم وستمنستر فهي توافق المراجع الحديثة كذلك في تقريب زمان الآباء وتقرر ان وحدة اسم حمورابي واسم امرافيل محل اعتراض ومناقشة في المباحث الاخيرة . وان الحاق ايل بإسم امرافيل

(٢١٨) رهيدي / د. فوزي / الشرائع العراقية القديمة / ص ٨٠ بتصرف وكذلك كلنفل / د

هورست / حمورابي ملك بابل وعصره / ص ٨٨ .

مشكلة تستوقف انظار الباحثين المتأخرين وتقول الموسوعة ان شريعة حمورابي المشهورة مقاربة للشريعة الموسوية في سفر الخروج من التوراة وان اسلوب المواد يتشابه في ابتداء الجمل كما تتشابه المقويات ولا سيما عقوبات القصاص وقالت ، ويعيد ان تكون شريعة حمورابي أمام المشرع العبري عند تدوين أحكامه ولكن المحتمل ان الشريعتين ترجعان الى أصل واحد (سامي قديم)^(٢١٩) الذي أردنا ان نؤكده من خلال ايراد هذه المعلومات انه لا يوجد تحديد دقيق لقضايا التاريخ وتعيينها ، بناء على الاختلافات الكثيرة في تقديرها استناداً الى الحفريات . وإن امراةيل وارتباط الاسم بالآله (ايل) يدفعنا الى الاعتقاد بوجود شخصية بهذا الاسم وانه لم يات من الخيال ، وهذا ما أكدته موسوعة وست منستر^(٢٢٠) وأردنا ان نقرب بين الواقع وكشوفات الحفريات وما ذكرته التوراة من مسعيات لكي نقرب من تعزيز القناعات وتأكيد الحق الغريب الذي طال السكوت عنه وهو التصريح وتداول اسم إبراهيم وأثار دعوته في اجواء البحث التاريخي المشحون بالتحسس تجاه شخصية هذا النبي العظيم (عليه السلام) وأردنا كذلك ان نصل الى النتيجة التي ذكرناها. هي ان شريعة حمورابي ليست بدءاً او ليس لها سابقة في حياة العراقيين القدماء الذي كانوا يتوارثون الديوات لحد إبراهيم (عليه السلام) وليس غريباً ان توجد مثل هذه الشريعة في هذا البلد في ذلك العصر . وان التوراة وما فيها من شرائع لم تتأثر بشريعة حمورابي كما ان شريعة حمورابي لم تتأثر بالتوراة لانها سابقة لها كما ذكرت موسوعة (وست منستر) ولكن شريعة حمورابي والتوراة تؤكد وحدة المصدر . وان اصح ما في التوراة ذكره القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها التبويون الذين أسلموا للذين هادوا والريثيون والاحبار بما استعظفوا من كتاب الله وكتبوا عليه شهاداء فلا تغشوا الناس واحشونني ولا تشتروا بهاتي لمتنا قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ وكتبنا عليهم فيها ان اتفس بالفس والعين بالعين والاتف بالاتف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص ﴾ فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴿^(٢٢١) ومبدأ القصاص الذي جاءت به شريعة حمورابي لم يكن يمثل عن

(٢١٩) العلاء / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ٧٦ - ٨٠ بتصرف .

(٢٢٠) العلاء / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ٨٨ .

(٢٢١) سورة المائدة / ٤٤ - ٤٥ .

اتجاه جديد في التشريعات يختلف عن الاتجاه السومري الذي آمن بمبدأ التمويض والفرامة ولا علاقة للسامية بمبدأ القصاص ولا للسومرية بمبدأ التمويض والفرامة كما يذهب الى ذلك بعض المؤرخين^(٢٢٢) ان مبدأ القصاص تشريع رباني نكزه الله تعالى في القرآن الكريم حيث قال تعالى ﴿ وكنم في القصاص حياة يا اولي الابواب لعلمكم تتقون ﴾^(٢٢٣) وأكد هذا التشريع في القرآن والتوراة والكتب التي أنزلها . والقصاص كمبدأ تشريعي أثبت فاعليته على مر العصور وكلما ازداد الوعي وتطور الفكر رجح الابتعاد عن ممارسة الجريمة بسبب ابراك هذا الانسان لقوة الردع في العقوبة ومع الايمان بالآخرة الذي أكد عليه الانبياء يصل المجتمع الانساني الى حالة انضباط بمقتضى المصلحة العامة والخير العام والابتعاد عن الظلم . فإذا وجدنا في شريعة حمورابي المواد الآتية :

المادة ١٩٦ إذا فقا رجل عين ابن رجل (آخر) فعليهم ان يفقاوا عينه^(٢٢٤) .

المادة : ١٩٧ : إذا كسر رجل عظم رجل آخر فعليهم ان يكسروا عظمه . هذه المواد أكد القرآن الكريم وجوبها في التوراة ونكرتها التوراة الحالية . وهذه تؤكد ان شريعة حمورابي لا بد ان تكون مقتبسة في بعض مواها من مصدر واحد ولا يمكن ان يكون هذا المصدر الا شريعة نبي من أنبياء الله ومن المرجح ان يكون إبراهيم (عليه السلام) .

ولئن اشتمال شريعة حمورابي على عقوبة التحريق (كما ورد في المادة ١١٠ منها التي تنص على حرق الكاهنة التي تدخل الحانة لشرب الخمرة . وكذلك نصت المادة ١٥٧ من الشريعة على حرق الولد الذي يزني بزوجة أبيه وتحرق معه إذا وافقته^(٢٢٥) .

ان شعوب عقوبة التحريق وتكرارها في شريعة حمورابي يدل على تآلف

(٢٢٢) انظر رشيد / د. فويحي / الضرائع المرافقة القديمة / ص ٨١ وكذلك متي / سليم ملحم /

منهل الضرائع / ص ٥١ - ٥٢ .

(٢٢٣) سورة البقرة / ١٧٩ .

(٢٢٤) رشيد / د. فويحي / الضرائع المرافقة القديمة / ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٢٢٥) رشيد / د. فويحي / الضرائع المرافقة القديمة / ص ١٠٧ و ١١٧ .

المجتمع وتداوله لمفهوم هذه العقوبة وإنها تطبق بحق كل الذين يمارسون عملاً يستنكره المجتمع أو يُصوّر هذا العمل من البشاعة بحيث يطالب المجتمع بتطبيق هذه العقوبة بحق من صُوّر بهذه الصورة الخارجة على العرف الاجتماعي والديني . ويؤكد هذا الامر كذلك ارتباط هذه الجريمة بالعقوبة التي واجهها إبراهيم (عليه السلام) كما قال تعالى ﴿ قالوا حرلوه واتصروا الهتكم ان كنتم فاعلين ﴾ (٢٢٦) ومما يؤكد شيوع عقوبة التحريق في عصر إبراهيم لجوء المجتمع والسلطة اليها كما نكرت الآية السابقة وتكرارها في شريعة حمورابي . وقد وجد في مقدمة شريعة حمورابي نكراً لموقع ارتباط بإسم إبراهيم الخليل في التاريخ الديني وهو الموقع الذي أوقنت فيه النار لإحراق إبراهيم ، وانه تم إقامة بديان لهذا الغرض كما وضع القرآن الكريم . فقد جاء في مقدمة شريعة حمورابي وهو يمجّد نفسه :-

« الذي جعل كوشا قوية الشأن

الذي قم كل شيء لميس لام

انه الثور الهالج نطاح الاعداء

محبوب توتو مفرح مدينة بارسيا » (٢٢٧) .

وبارسيا هذه هي نفسها بيروس نمرود وقد تم الكشف عن هذه المدينة التي تبعد عدة أميال عن بابل « وتقع جنوبي بابل وتعرف خرائبها باسم برس نمرود وقد نقيت فيها بمئة المانية سنة ١٩٠٢ » (٢٢٨) وقد كتب نيكولاس بوستفيت عن بيروس نمرود : « وتميز البرج الاخر وسمي بيروس نمرود بوجود كتل غير عادية من الاجر المزجج حول اسفل البرج وكان شاهداً على استعمال حرارة هائلة القوة يصعب تفسيرها الى اليوم » (٢٢٩) وكان يعتقد بأن هذا البرج هو برج بابل الذي تعرض للانتقام إلهي وممرته ليران السماء . وقد جاء هذا الوصف لهذا الحريق من قبل المؤرخين الكلاسيكيين مثل هيرودوتس وسترابو وبعد الكشف عن برج بابل اتضح بأن ذلك كان خطأ ولكن مؤرخ

(٢٢٦) سورة الانبياء / ٦٨ .

(٢٢٧) رشيد / د . فوكي / الفرائع المرافقة القديمة / ص ٨٧ .

(٢٢٨) انظر جورج كوتيتو / الحياة النوميية في بلاد بابل وقصور ترجمة سليم طه التكريتي / ص ١٦٩ .

(٢٢٩) بوستفيت / نيكولاس / حضارة العراق واثاره تاريخ مصور . ترجمة سمير عبدالرحيم / ص ٣٦ .

انكليزي اسم ج. س. بكنفهام زار خرائب بابل عام ١٨١٦ م استطاع ان يثبت بأن بابل المدينة امتدت عدة أميال الى التلّول الكبيرة وان البرج في بيرس نمرود (العائد لمعبد نابو في بورسسيا) كان حقاً (برج بيلوس) الذي وصفه الكتاب الكلاسيكيون «^(٢٢٠)» وأنه كان من ضمن مدينة بابل القديمة . وهذه المعلومات غير دقيقة ولكنها تؤكد وجود آثار نار هائلة في بيرس نمرود في بارسيا وهذه المدينة نكرت في مقدمة شريعة حمورابي . فهل تكون آثار الحريق في بيرس نمرود هي آثار الحريق المنكور في قصة إبراهيم ؟ ولماذا سمي البرج بإسم (بيرس نمرود) ؟ هل لهذه الشخصية علاقة بالاسم الذي ترده المصادر الدينية حول الملك الذي واجه وعاقب إبراهيم (عليه السلام) ؟ والذي تطلق عليه المصادر الاسلامية اسم نمرود وقد قيل بأن النمرود هو صفة للملك الطاغية وملوك المراق القدماء يطلق عليهم النار كما يطلق على ملوك مصر الفراعنة .

ولا توجد هناك معلومات عن تحريق إبراهيم (عليه السلام) عند الآتاريين وشرح العهد القديم ، لا سيما إذا علمنا أن رواية تحريق إبراهيم لم ترد عند أهل التوراة^(٢٢١) ولذلك نجد هذا الاضطراب الحاصل عند الآتاريين الذين يحاولون ان يوظفوا الكشوفات الآتارية لخدمة العهد القديم فانهم لم يقرأوا عن تحريق إبراهيم ولا يستطيعون ان يربطوا بين ما يكتشف من حفريات وآثار ويشير الى حدوث حريق هائل وبين عصر إبراهيم وان أهم أحداث عصره هو معجزة التحريق . وما زالت نتائج الحفريات لا تتناسب مع نور إبراهيم (عليه السلام) وفقيرة بالمعلومات والبحوث التي تكشف عن حقيقة هذه الشخصية العظيمة ولكننا واثقون بأننا نقترب رويداً نحو تحقيق تطابق بين معلومات الكتب المقدسة ولا سيما القرآن الكريم ورواية الحفريات ونتائج الكشوفات المستخلصة من نتائج الحفريات والآثار . وانا مطمئنون كذلك الى انه لم ولن يستطيع المنكرون لهذه الحقيقة ان يأتوا بدليل يثبتون فيه بأن إبراهيم

(٢٢٠) پوستميت / م . س / ص ٢٦ .

(٢٢١) انظر العقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ٤٨ ؛ وفيها « ولم تذكر في التوراة ان ابراهيم الذي في النار وإنما ورد في سفر دانيال من حصار بابل ان نبوخذ نصر غضب على ثلاثة من الفتية الصالحين لانهم لم يسجدوا لصنم من ذهب » كما بينا ذلك . والقصة تشبه قصة تحريق ابراهيم ونجاة ابراهيم وكانها اخذها او سمعها دانيال في بابل ونسبت الى الثلاثة .

كان وهماً ! لانه حقيقة لا يمكن حجبيها او الغاء تأثيرها . فكما ان الشمس تأتي من
المشرق كذلك التاريخ يبدأ بإبراهيم (عليه السلام) لانه أبو الانبياء ، والانبياء هم
التاريخ وغيرهم هم السراب الذي زال تأثيره عن الوجود بعد رحيلهم حتى ولو كانوا
ملوكاً . فالذين والانبياء هم الحقيقة !!

المبحث الرابع

النبياء ارتبطوا بإبراهيم (عليه السلام) وبمصره

لوط (عليه السلام) :

لقد تحدث القرآن الكريم عن هذا النبي الكريم ونكرته آيات عديدة ، أخبرنا فيها عنه وعن سيرته في تومعه وسعوته لهم . وأكد القرآن الكريم وجود علاقة بين لوط وإبراهيم (عليهما السلام) وقد أشارت الآيات ان لوطاً من أوائل المؤمنين بدعوة إبراهيم (عليه السلام) قال تعالى ﴿ فأمن له لوط ﴾ وقال النبي مهاجر إلى ربي أنه هو العزيز الحكيم ﴿^(٢٢٢)﴾ . وهذا يدل على ان إيمان لوط (عليه السلام) قبل الهجرة من العراق وفي قوله تعالى ﴿ ونجيناه ووطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾^(٢٢٣) . ولوط على الأرجح هو ابن أخي إبراهيم وهو (لوط بن هاران بن تارح - وهو أزر - إبراهيم وهاران وناخور اخوة ويقال ان هاران هذا هو الذي بنى حران . وهذا ضعيف لمخالفته ما بأيدي أهل الكتاب^(٢٢٤)﴾ هذه الآيات التي استشهدنا بها تؤكد ان لوطاً خرج مع عمه إبراهيم (عليه السلام) من العراق مهاجرين وكان استقرارهم النهائي في فلسطين وقد هاجر لوط وإبراهيم ومن معهم إلى مصر طلباً للطعام لا على سبيل الاستقرار كما نكر ابن كثير^(٢٢٤) انه كان جوع أي

(٢٢٢) - سورة المنكيات / ٢٦ .

(٢٢٣) - سورة الانبياء / ٧١ .

(٢٢٤) ابن كثير / تفسير الانبياء / ص ١٩٢ .

قحط وشدة وغلاء فارتحلوا الى مصر» (١٢٢) وقد أكتت آيات القرآن الكريم الرابطة القوية بين إبراهيم ولوط (عليهما السلام) قال تعالى ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية ﴾ ان أهلها كانوا ظالمين • قال ان فيها لوطا • قالوا نحن أعلم بمن فيها • لتنجينه وأهله الا إمرأته كانت من الظالمين ﴿ (١٢٣) وفي آيات أخرى ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط • إن إبراهيم لأعلم لو انه منيب ﴾ (١٢٤) هذه العلاقة بين الرسول الكريم وابن أخيه تؤكد لنا ان علاقتهم دعوية رسالية وليست علاقة نديوية على عكس ما تذكره التوراة عن هذه العلاقة فقد جاء في سفر التكوين / افتراق إبراهيم ولوط : فقال ابرام للوط : لا يكن نزاع بيني وبينك ولا بين رعاتي ورعائك لاننا نحن اخوان . أليست الارض كلها أمامك ؟ فاعتزل علي . ان اتجهت شمالاً اتجه أنت يميناً وان تحولت يميناً اتحول شمالاً • تكوين / ١٣ لم ينكر القرآن الكريم سبب افتراق لوط عن إبراهيم ولا يمكن ان تكون كما تذكر التوراة ولكن الانبياء يجب ان يكون احساسهم بالمسؤولية تجاه تبليغ الدعوى أقصى ما يمكن ولا بد ان تتضائل أمامه كل مؤثرات الدنيا وخيراتها ولفلك لا بد ان يكون لوط قد استجاب الى نصيحة عمه ورسوله الذي آمن به بان يتجه الى قرية وأن يباشرها مع الدعوة الى الله فكانت عمورة وسدم وهما من القرى التي غضب الله عليها وأمطرها الله بالحجارة ورزأها . وقد نكر القرآن الكريم قصة قوم لوط في مواضع عدة منها قوله تعالى ﴿ ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين • إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء • هل أنتم قوم مسرفون • وما كان جواب لقومه الا ان قالوا اخرجوهم من قريتهم انهم قاتلون • فأنظرنا لوطا • ونجيناها وأهله الا إمرأته كانت من الظالمين • وأمطرنا عليهم مطراً • فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ (١٢٥) .

وفي آيات أخرى تؤكد طبيعة نفوس أهل هذه القرية الخبيثة والانحراف والشذوذ الذي كان قد تفشى فيهم وتؤكد الايات ان الذين آمنوا بلوط كانوا قلة ﴿ فلما

(٢٣٥) ابن كثير / م . ص / ص ١٤٦ .

(٢٣٦) سورة المائدة / ٢٢ - ٢٣ .

(٢٣٧) سورة هود / ٧٤ - ٧٥ .

(٢٣٨) سورة الاعراف / ٨٠ - ٨٤ .

وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴿٢٣٩﴾ وقد أكدت آيات القرآن الكريم غرمة لوط
العراقي في قومه وذلك عندما هجم قومه على داره يريدون الملائكة للفاحشة أخزاهم
الله قال لوط ﴿ لو أن لي بكم قوة أو لو لي ركن شديد ﴾ ﴿٢٤٠﴾ لذلك ورد في الحديث
عن أبي هريرة : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رحمة الله على لوط ان كان
ياوي الى ركن شديد . يعني الله عز وجل - فما بعث الله بعده من نبي الا في ثروة من
قومه ﴿٢٤١﴾ وهذا يؤكد ان خروج إبراهيم ولوط من العراق لم يكن بسبب فساد قومهم
في العراق وإنما لحكمة أرادها الله لان فساد أهل سدوم وعمورة وقرى صوغر التي
يقول الناس : غور زغر ﴿٢٤٢﴾ لم يكن له نظير على الارض في وقته ولكن الله أراد أن
يطهر الارض من هؤلاء ويجعلها عبرة للآخرين ولذلك قال الله تعالى ﴿ وإنكم تصرون
عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾ ﴿٢٤٣﴾ وقال تعالى ﴿ وتركتنا فيها آية للنبي
يغالبون العناب الايم ﴾ ﴿٢٤٤﴾ . وقال تعالى ﴿ ان في ذلك لايات للمتوسمين وإنها
لسبيل مقيم . ان في ذلك آية للمؤمنين ﴾ ﴿٢٤٥﴾ وهذه الايات أكدت الاعتبار بما حل
بالاقوام التي استقرت في شهوتها وانحرافاتا . ولا يعني ان أهل العراق في عصر
إبراهيم كانوا صالحين ولكنها جاهلية كانت تم الارض وإن هذا لا يعني أيضاً
الانبياء كانوا يهاجرون الى أقوام خير من أقوامهم ولكنه طريق رسمه الله واحكم
خطواته ليبتلي أقواماً ويكرم آخرين فطوبى لاتباع الانبياء اينما كانوا وحيثما وجنوا .
ولا نريد ان نتحدث عن البحوث التي تطرقت الى حفريات قوم لوط والقرى التي
عاقبها الله لاننا تحدثنا عنها فيما سبق .

(٢٣٩) سورة الذاريات / ٥ .

(٢٤٠) سورة هود / ٨٠ .

(٢٤١) ابن كثير / قصص الانبياء / ص / ص ٢٠٠

(٢٤٢) ابن كثير / قصص الانبياء / ص / ص ٢٠١ .

(٢٤٣) سورة الصافات / ١٣٧ - ١٣٨

(٢٤٤) سورة الذاريات / ٣٧ .

(٢٤٥) سورة الحجر / ٧٥ - ٧٧ .

أيوب (عليه السلام) .

تحدث القرآن عن أيوب (عليه السلام) وتحدثت عنه التوراة ووجدت رقم وأرواح طيبة تحدثت عن مأساة إنسان ربطها علماء الآثار بشخصية النبي أيوب (عليه السلام) وقصة أيوب ملفنة لنظر الباحثين وقد درست قصة أيوب في المعهد القديم والحفريات . ولم يربط بين القصتين وما نكره القرآن الكريم لان الباحثين الغربيين يمتقنون ان القرآن الكريم يأخذ من التوراة في القصص التي تتطابق او تكاد بين الروايتين وهذا أمر مألوف بالنسبة للباحثين الذين تأثروا بثقافة التوراة (المعهد القديم) ولكنه بالنسبة للمسلمين الذين قرأوا القرآن واطلموا على نكته رواياته كيف يكررون ما قاله الغربيون ؟ والعلماء مختلفون في عصر أيوب وأصله . « إن الرحالة برترام توماس صاحب كتاب (مخترعات وكشوفات في بلاد العرب (Alarms and Exploration in Arabia) يحسبه من أهل عمان وغيره يحسبه من أهل نجد وزمنه متباعد بين المؤرخين وشرح التوراة «^(١١٦) وفي القرآن الكريم ومنهجية في تجاوز الزمان والمكان وردت قصة أيوب لتمطي نمونجاً للصابرين ومثالاً للمؤمنين في كل زمان لكي يصبروا على بلاء الدنيا ومصائبها وفي سور عديدة تضمنت نكراً لأيوب (عليه السلام) ولكن في الانبياء وسورة (ص) أكثر تفصيلاً . قال تعالى في سورة الانبياء ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أني متني الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ واستجبتنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعالمين ﴿^(١١٧) . وقال تعالى في سورة (ص) ﴿ واذكر عبنا أيوب إذ نادى ربه أني متني الشيطان بنصب وعذاب ، اركض برجلك هذا مفتعل بارد وشراب ، ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب ، وخذ بيك ضخاً فأضرب به ولا تعنت إنا وجدناه صابراً نعم العبد انه أواب ﴿^(١١٨) . « ويشير القرآن الكريم الى ان أيوب إنما هو من نرية إبراهيم (عليهما السلام) قال تعالى ﴿ ومن ذريته نوح وعلوان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين ﴿^(١١٩) ومن ثم

(٢٤٦) المفسر / عباس محمود / إبراهيم ابو اللباب / ص ١٩٤

(٢٤٧) سورة الانبياء / ٨٢ - ٨٤ .

(٢٤٨) سورة ص / ٤٦ - ٤٤ .

(٢٤٩) سورة الانعام / ٨٤ .

محب جمهور العلماء الى انه من سلالة العيص (عيسو) بن إسحاق بن إبراهيم^(٢٥٠) والخلاف في شخصية أيوب وعصره ومكانه واسع بين العلماء وبين شراح التوراة وعلماء الحفريات فمن المفسرين وعلماء المسلمين من يخالف أعلاه حيث قال ابن إسحاق : انه كان رجلاً من الروم . ومنهم من أخبر أن (أبو أيوب (عليه السلام) إنما كان ممن آمن بإبراهيم (عليه السلام) وهاجر معه الى فلسطين) . ورواية تقول إن أيوب من بني إسرائيل^(٢٥١) ونكر المقاد عن هالس صلعه (بعد المقارنات عن روايات قصة أيوب تجعل تاريخ أيوب قريباً من سنة ٢٣٠٠ ق . م .)^(٢٥٢) ويميل بعض الباحثين المعاصرين ومنهم المقاد ومهران في كتابهما أعلاه الى احتمال ان يكون أيوب مصرياً حيث نكر د . مهران : « ان هناك فريقاً من العلماء يذهب الى ان أيوب (عليه السلام) كان مصرياً وذلك بدليل الاثر الثقافي المصري الذي يطل علينا من ثنايا هذا السفر في مواضع كثيرة فسفر أيوب في الواقع ما هو الا صورة صانقة لقصة المتشائم المصري القديم (اليانس من الحياة) هذا فضلاً عن نكره للاهرام والمقابر التي يبنيها الملوك لانفسهم وأخيراً نكره للثواب والمقابر والحياة بعد الموت وعدم ضياع الناس في متاهات (شمول) كما آمن بفلك الاولون والمعروف ان العبرانيين طبقاً لما جاء في كتبهم المتداولة اليوم وليس كما جاء بها أنبياء الله قد عرفوا عقيدة الحياة بعد الموت في حقبة متأخرة من تاريخهم ربما في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد الامر الذي سبقهم اليه المصريون بألاف السنين^(٢٥٣) وهذا الكلام لا يخلو من ضعف وابتعاد عن الحقائق لانه لا يشترط في تشابه مفردات القصة ان تكون القصة مقتبسة وان نكر الاهرام في قصة أيوب لا يشترط ان يكون أيوب مصرياً إذ قد يكون قد اقتبسها كنية التوراة وأخبار بني اسرائيل من البيعة المصرية ونكروها في قصة أيوب التوراتية ولا يشترط لظهور مفهوم الآخرة في قصة أيوب ان يكون اليهود اخذوها من المصريين الذين سبقوا اليهود في قضية الايمان باليوم الآخر . لان التوراة كتاب سماوي وقد

(٢٥٠) مهران / د محمد بيومي / دراسات تاريخية في القرآن الكريم / ج٣ ص ٢١٠ .

(٢٥١) المصدر السابق نفسه .

(٢٥٢) المقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ١٩٥

(٢٥٣) انظر مهران / د محمد بيومي / م . ص / ج٣ ص ٢٢٦ وكذلك المقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ١٩٦ .

حرف اليهود كثيراً من آياته وقد تكون قصة أيوب وما فيها من إيمان باليوم الآخر هو من بقايا التوراة الحقيقية وهذا هو الأرجح من فكرة اقتباس هذه العقيدة من المصريين . وقد نهب الاديب الفرنسي فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨ م) الى (ان أيوب وسفره أقيم من التوراة وان العبريين قد أخذوه عن العرب وترجموه الى لغتهم ويستدل على ذلك بألمة منها ورد نكر الشيطان وهي كلمة ليست عبرية بل كلدانية ونكر الجمال عند الحديث عن ثروة أيوب بين ثرواتهم وان لحوم الابل محرمة على اليهود^(٢٥٤) . وقد عثر على الواح طينية في وادي الرافدين تتحدث عن قصة شبيهة بقصة أيوب » وهي قصيدة بابلية معروفة بين المختصين بالمسماريات بقصيدة العدالة الالهية تتألف من سبعة وعشرين لوراً ويحتوي كل لور منها على احد عشر بيتاً ومن المحتمل ان زمن تدوين هذه القصيدة يعود الى نهاية العصر الكاشي ربما الى حدود (١٠٠٠ ق . م . وهي حوار بين المعنّب وصديقه الحكيم الذي ينصح المعنّب بعدم الياس من الحياة^(٢٥٥) وعثر على قصيدة بابلية أخرى اسمها (لامجدن رب الحكمة) » وهذه القصيدة ربما نونت بالاصل على أربعة رقم بحالة جيدة من الحفظ وتضم ما يقرب من ٤٥٠ بيتاً ضاعت منها أجزاء قليلة بسبب تهشم النص ونونت القصيدة مثل سابقتها (العدالة الالهية) في العصر الكاشي وهي تصور حول رجل اسمه شيشي - مشري - سكان ويظهر واضحاً ان هذا الرجل كان تقياً يخشى الآلهة ويؤدي الطقوس ويحسن الى الناس كما كانت له ثروة طائلة ولكنه على حين غرة لجنه وقد ساحت به الاحوال وتنكر له النهر وأصابه الياس والقنوط^(٢٥٦) وقصيدة (لامجدن رب الحكمة) اكثر وضوحاً في دلالتها على قصة أيوب التوراتية من قصيدة (العدالة الالهية) وقد جاء في هذه القصيدة :

تفككت عظامي وهي لا يكسوها سوى جلدي

التهبت انسجتي وأصابها المرض

انني الازم سرير العبيوية ، فالخروج عذاب !

لقد صار بيتي سجنلي

(٢٥٤) مهزان / د. محمد بيومي / م . م / ص / ص ٢٢٤ - ٢٢٥

(٢٥٥) علي / د . فاضل عبدالواحد / من الواح سومر الى التوراة / ص ٣٧٧ .

(٢٥٦) علي / د . فاضل عبدالواحد / من الواح سومر / ص ٢٨٠ انظر عبدالواحد / د فاضل /

سومر اسطورة وملحمة / فصل اب الحكمة ص ٢٤٦ .

شلال يدي يغفل بدني

عرج قلمي يقيدني

امتدت اطرافي وتمعرت

ابيت في مريضى مثلما يببيت الثعلب

واتمرغ في برازي مثلما تتمرغ الشاة

لا الهى يقدم العون فيأخذ بيدي

ولا ألهتي ترحمني بالسير الى جانبي

لقد انتهت المناحة علي قيل ان اموت «(٢٥٧)» .

ان وجود هذه المؤثرات والقصائد في الابن العراقي القديم تؤكد :-

١ - ان (العدالة الإلهية) مسألة أعارها السومريون والبابليون أهمية واضحة في حياتهم اليومية وناقشوها وابدوا فيها وجهات نظر وتفسيرات تبدو مختلفة بعض الشيء أحياناً .

٢ - هناك نقاط تشابه بين قصة الرجل المعنّب البابلي شبش - مشري - سكان ، وقصة أيوب التوراتية لعل أهمها وجود اشتراك في التقوى والورع والثروة الكبيرة ومفاجئة النكبات للشخصين . والمرض العضال والصبر والتأكيد عليه وان الابتلاء في القصتين لم يكن مصدره السلطة او الملك وانما القدرة الإلهية والنهائية المشتركة بانفراج الشدة وعودة الامور الى مجاريها الطبيعية «(٢٥٨)» .

ولذا نحن نرجح على غير ان أيوب الذي هو شخصية قرآنية اشتركت التوراة والرقم الطينية في نكر قصته وان هذا الاشتراك يؤكد حقيقة القصة وان عصره بعد إبراهيم (عليه السلام) وقد يكون أبوه فعلاً من أتباع إبراهيم (عليه السلام) لان القرآن الكريم نكر انه من نرية إبراهيم (عليه السلام) اي بعده . وان نكزه في الرقم الطينية والتعرض لتفاصيل بقيقة عن قصة تؤكد ان له أثراً في المجتمع العراقي اكثر من احتمال مصريته او انه في فلسطين او نجد . لان هذا الذكر في الرقم الطينية يؤكد وجود اثر للقصة في المجتمع العراقي وتأكيد التوراة لها يؤكد وقوعها ووجودها بغض النظر عن التفاصيل التوراتية التي قد تكون من التحريفات . فالتوراة اذاً لم تقتبس

(٢٥٧) من الواح سومر / ص ٢٨٤

(٢٥٨) عبد الواحد / د. فاضل / من الواح سومر / ص ٢٨٩ .

القصة من الادب المصري ولا من الادب العراقي وانما القصة الحقيقية نكروها القرآن الكريم وشخصية أيوب (عليه السلام) حقيقة وليست وهمية . ولكن تفاصيل القصة التوراتية قد اعترأها بعض التحريف والزيادة والنقصان نتيجة طبيعية لتدخل البشر في صياغة التوراة وتدوينها . وما كان اليهود ليدونوا قصة أيوب في توراتهم وهو ليس من أنبيائهم لو لم تتضمن التوراة الاصلية نكراً لقصته « ولم يكن من عادة بني إسرائيل ان يجمعوا في التوراة كتباً لغير انبيائهم المتحدثين عن ميثاقهم وميمانهم ولكنهم جمعوا هذا السفر من الاسفار المشهور . ولا تزال قصة أيوب منظومة شائعة يتغنى بها شعراء اللغة العربية الدارجة في مصر والشام - (وحتى في العراق) - وقال توماس كارليل عنه ان واحداً من اجل الاشياء التي وعنها الكتابة وانه اقم الماتورات عن تلك القضية التي لاتنتهي قضية الانسان والقدر والاساليب الإلهية معه على كل هذه الارض ولا احسب ان شيئاً كتب يضارعه في قيمته الادبية . وقال فكتور هيجو : (انه ربما كان اعظم آية أخرجتها بصيرة الانسان) وقال شاف (Sebaff : انه يرتفع كالهرم في تاريخ الادب بلا سابقة وبغير نظير «^(٢٠٩)» ولا بد ان نذكر هنا ان الادب العراقي القديم قد سبق التوراة في التصدي لهذه المأساة والمعاناة الانسانية التي تدفع البائسين نحو اليأس ولا ينقذهم الا الصبر والتأسي والايمان . وان الادب العراقي لم يقتبس القصة من تأثير خارجي وانما يعبر عن تراث حقيقي تحول الى قصيدة شعرية يرندما الشعراء ويتسلى مع معانيها المعذبون وهذه القصائد التي كتبها العراقيون القماء على ألواح الطين تحكي لنا بتفاصيل دقيقة للاعتبار والصبر على البلاء تماما كما هو هدف القصة في التوراة التي مجدت أول مرة وصايا ومواقف إنسان ليس من بني إسرائيل . وتقترب القصيدة في بعض ملامحها والصورة التي تعرضها من القصة القرآنية من حيث اعتبار الواقعة وعلى أساس ابتعاد القرآن الكريم عن المستوى البشري الذي لا يخلو من الضعف والخطأ في احسن أحواله وييقى النص القرآني خالياً من الاضطراب والانكاسات المشوشة في مسار القصة ومنحنياتها . ان وجود القصة في التراث العراقي القديم يدفعنا الى القول باحتمال ان يكون أيوب (عليه السلام) عراقياً وان أحداث قصته كانت على ارض الرافدين .



خريطة ٣ ابراهيم واسحاق ويعقوب

وقد أخذ ابراهيم معه أسرته وأغننامه ومواشيه ... وراح ينتقل من مكان الى آخر ،
في ربيع كنعان بسهولها وجبالها ، الى ان انتهى به المطاف قرب حبرون . لما
حفيده يعقوب فقد عاش آخر ايامه في مصر ، مع يوسف ابنة المفضل .

(تكوين ٢٧ - ٤٦)

كانت رحلة بطولية ، لك التي قام بها ابراهيم حين خرج من مدينة أور في بابل ،
لتصداً حاران ، ومن حاران بعد ذلك ذهب الى كنعان كما انه في ايام الجوع ذهب
الى مصر .

(تكوين ١١ ، ٣٦ - ١٣ ، ١٨)



٢ - بېرس نمرود ، كما تصورها سير رويرت كيريوتر وزُست في العقد الرابع من
القرن التاسع عشر عندما كان يعتقد على نطاق واسع انه برج بابل (المكتبة
البريطانية)

عن بوستفيت / نيكولاس حضارة المراق وأثاره / تاريخ مصور
ترجمة سمير عبدالرحيم الجليبي / ص ٣٥



أسرة سامية عربية مهاجرة الى وادي النيل على نقش مصري قديم يرجع الى
 نحو ٢٠٠٠ ق.م .
 عن سوسة / د. احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ١٩٤
 و ص ١٩٨



التصوير رقم (٤٢)
الملك حمورابي صاحب الشريعة البابلية الشهيرة
واشهر ملوك الامبراطورية البابلية القديمة
(١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق. م.)

الفصل الرابع

النبي يونس (عليه السلام)

المبحث الاول

يونس (عليه السلام) في الرواية الاسلامية

تبدو شخصية نبي الله يونس (عليه السلام) واضحة المعالم بين الانبياء الذين ذكرهم القرآن الكريم . وان كانت المواقف التي عرضها القرآن الكريم لجوانب دعوته ومعالم شخصيته قليلة ومقتضبة موازنةً مع بعض الانبياء ولكنها تضع في نهن القارىء صورة تستوفي العبرة وتعمق الايمان بقدرة الخالق العظيم . في أربع سور من القرآن الكريم تحدثت عن يونس (عليه السلام) وهي سورة يونس والانبياء والصفات والقلم . في هذه السور وقفات واضاءات عن الشخصية والدعوة والقوم والقرية يرسمها القرآن الكريم من خلال آيات معدودات تختزل الزمان والحدث والمكان لتقدمه الى الانسان وهو يطالع القرآن الكتاب الخالد الى آخر الزمان . ومز ذكره سريماً في معرض الكلام عن الانبياء في سور أخرى ولقد ارتبط اسمه بالحادثة المعجزة التي امتازت بها قصته وهي ابتلاع الحوت له ويقاءه في بطن الحوت مدة من الزمن . ولذلك جاءت تسميته في القرآن الكريم في بعض المواضع بـ (صاحب الحوت) و (ذا النون) في مواضع أخرى . قال تعالى ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضياً فظن ان لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ فاستجبنا له ونجيناه من الغم • وكذلك نجى المؤمنين ﴿^(١) وقال تعالى

(١) سورة الانبياء / ٧٨ - ٨٨ .

﴿ فاصبر لعكم ربك ولا تكن كصاحب العوت إذ نادى ربه وهو مكظوم • لولا أن تشاركه نعمة من ربه لنيل بالعراء وهو مطموم • فاجتياه ربه فجعله من الصالحين ﴾^(١) وتبقى منهجية القرآن مطردة في الاعتماد عن ملاسبات الحدث الزمانية والمكانية المرتبطة بالحدث ارتباطاً دينوياً ولم ترتبط ارتباطاً دينياً . فلم تصرح آيات القرآن عن الزمان ومتى وبعد كم من الانبياء كان يونس (عليه السلام) ؟ ولم تذكر أين كانت أحداث القصة ومسرحها المكاني ؟ والحقيقة إن قصص الانبياء سيقت في القرآن الكريم في الدرجة الأولى لرسول الله (ﷺ) وجاءت قصصهم لتعبر لصاحب الرسالة عن عمق الارتباط بين الانبياء وعن كرامة هذه القافلة المؤمنة التي اصطفها الله تعالى من خلقه وأكرمها بالرسالات والنبوات . فكانت هذه القصص تثبت فوائده وتقول له إنك لست وحيداً ولست غريباً بل أنت الكريم من نرية كريمة من هؤلاء الكرام الذين كانوا يقفون على صعيد واحد تتلأل جباههم نوراً وهم يقولون البشرية نحو الدور ونحو الحقيقة . فلذلك لم يكن رسول الله (ﷺ) يحتاج الى تفاصيل أكثر مما نكر القرآن الكريم ولم يكن المؤمنون بالنبي محمد (ﷺ) بحاجة الى أكثر مما نكر القرآن الكريم . كان الله يخاطب نبيه ويقول له • ﴿ فاصبر لعكم ربك ولا تكن كصاحب العوت ﴾ . وكان يخاطب المؤمنين فيقول : ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك تنجي المؤمنين ﴾ . وكان يخاطب الانسانية لكي تمتعير بالامم السابقة فيقول لهم ﴿ فلولا كنتم قرية آمنتم فنحنها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الغفزي في الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين ﴾^(٢) . وقد رسم القرآن الكريم صورة واضحة المعالم للامة التي تستجيب لنداء ربه وحذر من مخالفة تَماليم الله وأعطى القرآن انكريم جانياً آخر من جوانب النبوات وآيات الانبياء فتحدث عن معجزة وقعت للنبي الله يونس (عليه السلام) فقال : ﴿ وإن يونس لمن المرسلين • إذ أبق الى الفلك المشحون • فساهم فكان من المدحضين • فاتممه العوت وهو مليم • فلولا أنه كان من السبعين لبث في بطنه الى يوم يبعثون • فنبئناه بالعراء وهو سقيم • وانبثا عليه شجرة من يقطين • وأرسلناه الى مائة الف او يزيدون • فآمنوا فمتعناهم الى حين ﴾^(٣) . هذه الايات العظيمة القدر القليلة العدد وضحت مساحات هائلة وعبرت

(٢) سورة القم / ٤٨ - ٥٠ .

(٣) سورة يونس / ٩٨ .

(٤) سورة الصافات / ١٣٩ - ١٤٨ .

عن جوهر القصة فتحدثت عن أعظم حادثة في حياة النبي يونس (عليه السلام) وهي التقام الحوت له . وتحدثت عن قريته وعندهم . فكانت معلومات وافية تفني عن الحاجة الى المصادر الاخرى غير القرآن الكريم والتي تحدثت عن هذا النبي الكريم .

تحدث القرآن الكريم عن يونس (عليه السلام) ولم ينسبه الى أب وسماه (صاحب الحوت) و (ذا النون) والنون تعني السمكة في اللفظة و « يقول الرازي في التفسير الكبير : انه لا خلاف في أن ذا النون هو يونس (عليه السلام) لأن النون هو السمكة وان الاسم اذا دار بين أن يكون لقباً محضاً وبين أن يكون مفيداً ، فحمله على المفيد أولى خصوصاً إذا علمت الفائدة التي يصلح لها ذلك الوصف »^(٥) . ولكن هل القرية التي تحدثت عنها القرآن هي نينوى ؟ أكثر المفسرين يعتقدون انها نينوى وفي التفسير الكبير للفخر الرازي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) « أنه قال : كان يونس (عليه السلام) وقومه يسكنون فلسطين »^(٦) لكن هنالك شبه إجماع بين المؤرخين القدماء والمحدثين على أنه كان في نينوى . وهذه المدينة القديمة « اتخذها الآشوريون عاصمة لهم سنة ١٠٨٠ ق . م وحضنوها فاقاموا حولها القلاع »^(٧) و نينوى تشمل الجانب الشرقي على دجلة على قبالة الموصل المدينة القديمة وقد وصفت « بانها مدينة أرزية قبالة الموصل وبينهما دجلة »^(٨) وقد وصفها المقدسي : إقليم الجزيرة الذي يشمل نينوى والموصل وجزيرة ابن عمر التي سميت جزيرة الموصل وكذلك الجزيرة الفراتية : « بانها إقليم نفيس ثم له فضل ، لان به مشاهد الانبياء ومنزل الاولياء به استقرت سفينة نوح على الجودي وبه سكن أهلها وبنوا مدينة ثمانين وبه تاب الله على قوم يونس وأخرج منه العيين ومنه دخل الظلمات ذو القرنين . وبه كانت عجائب جرجيس دانايانه وفيه أدبت الله تعالى ليونس اليقطينة ومنه خرج نهر العلة المباركة دجلة ، أليس به مسجد يونس بتل

(٥) مهراڤ / د . محمد بيومي / دراسات تاريخية / ج ٤ ص ١٦٧ عن تفسير الطبر الرازي / ٢٢٢ ٢٢٢ .

(٦) مهراڤ / د . محمد بيومي / م . ص . ج ٤ ص ١٧٨ عن الطبر الرازي في تفسيره / ٢٢ / ٢١٢ وعن روح المعاني للآلوسي ٨٢/١٧ .

(٧) السلطان / عبدالموجود احمد / الموصل في المهدين / ص ٢٤ عن البيهقي - الموصل في احمد الاتاكي / ص ٤ .

(٨) السلطان / عبدالموجود احمد / م . ص / ص ١٤١ عن مجهول / عجائب البلاد والجبال والاحجار / ص ٨١ .

التوبة ؟ يقولون سبع زورات له يعدلن حجة ، مع مشاهد كثيرة وفصائل جمعة ^(٩) هذه المعلومات التي لا تخلو من المبالغة في تعظيم المدينة ولكنها تبين لنا بما لا يقبل الشك بان نينوى بالذات أقدم مدينة في الجزيرة بل إنها من القمم مما يصعب تحديد بدايات تكونها وظهورها عاصمة للأشوريين وقد أجريت تنقيبات عديدة من أجل البحث عن المدينة التاريخية نينوى وكان من أوائل المنقبين وكيل القنصل الفرنسي في الموصل (المسيو بوتا) « وشجعه على ان ينقب في مواقع عدة للوصول الى المدينة المسيو (موهل) سكرتير الجمعية الفرنسية الاسيوية . وبدأ بوتا بالتنقيب في آذار ١٨٤٢ م . وبعد عدة محاولات سبقت هذا التاريخ كان بوتا محظوظاً هذه المرة في اختياره نقطة البداية لانه في اليوم الاول من أعمال الحفر وصل الى السور الخارجي للقصر وبذلك ولد علم الاشوريات وقد كان بوتا يمتدق بانه قد عثر على موقع مدينة نينوى التاريخية ولكنه في الواقع قد عثر على موقع قصر نينوى . ولكن بوتا كان متمجلاً فتحلى عن العمل في الموقع وسرعان ما تقدمت بريطانيا بطلب للسماح بالتنقيبات وحصلت على الاذن واستلمت الموقع وحالما شرع البريطانيون بالتنقيب حتى كشفوا عن قصر نينوى الذي كان يقع على عمق بوصات قليلة تحت المستوى الذي توقف عنده بوتا . وعندما كان بوتا وولنسون - الخبير البريطاني الذي نقل الكتابات المسمارية على حجر بهستون - خارج المنطقة قام هرمز رسام (مسيحي من الموصل له علاقة مع القنصلية البريطانية في الموصل في مجال التنقيبات - بأعمال حفر في إحدى الليالي في الجزء المخصص من المنطقة لفرنسا ووصل مباشرة الى أغنى قسم من الخرائب وهو قصر آشور بانيبال ومكتبته التي يدها المتحف البريطاني بحق واحدة من كنوزه الرئيسية . وعالج وولنسون الموقف بان قدم الى فرنسا جملة من نماذج ثانية جميلة لقطع تم اكتشافها في التنقيبات البريطانية . وبعد الفرنسيين والبريطانيين قامت البعثة الامريكية بفتح الاماكن التي نقب فيها بوتا قبلاً ، واستعملت مخططاته وعثرت على المنحوتات التي أعاد بنائها بوتا غير ان معظمها كان قد تعرض للتلف نتيجة تعرضها للهواء لفترة وجيزة عام ١٨٤٢ م ^(١٠) .

(٩) السلطان / عبدالموجود احمد / م . ص / ص ٢٠ عن المقدسي / احسن التقاسيم في

معرفة الاقاليم / لندن سنة ١٩٠٩ ص ١٣٦

(١٠) كوتنيلو / جورج / الحياة البوسية في بلاد بال وآشور ترجمة سليم طه التكريتي ويرهان عبد

نيوى المدينة التاريخية هي مدينة يونس بن متى (عليه السلام) وقد وريت
رواية في السيرة عن النبي (ﷺ) تؤكد ارتباط نيوى بيونس (عليه السلام) .
وكان نك عندما نهب النبي (ﷺ) الى الطائف يدعوهم الى الاسلام . فرفضوا
بعوته ووقفوا موقفاً خسيماً « وقالوا له : اخرج من بلدنا وحرشوا عليه الصبيان
والرعاع يرمونه بالحجارة مما اضطره الى دخول بستان لعتبة وشيبة ابنا ربيعة ثم
بعا بدعائه المشهور . وتأثرت قلوب ابني ربيعة فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يدعى
(عداسا) وقالوا له : خذ قطعاً من العنب وانهب به الى الرجل . فلما وضعه بين يدي
رسول الله (ﷺ) مد يده اليه قائلاً : باسم الله . ثم أكل . فقال (عداس) ان هذا
الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة ا فقال له النبي : من أي البلاد أنت ؟ قال : أنا
نصراني من (نيوى) فقال الرسول (ﷺ) : أمن قرية الرجل الصالح يونس بن
متي ؟ قال له : وما يدريك ما يونس ؟ قال الرسول (ﷺ) : ذلك أخي كان نبياً وأنا
نبي . فاكب عداس على يدي رسول الله (ﷺ) ورجليه يقبلها «^(١١) إن هذه الرواية
تؤكد ارتباط نيوى بيونس (عليه السلام) ولكن رواية السهيلي في الهامش أدناه
توضح لنا ان نيوى في عصر البعثة النبوية الشريفة لم يكن نكر يونس (عليه السلام)
مشهوراً فيها . كما اخبر بذلك عداس واستدل على نبوة محمد (ﷺ) بأنه قد اخبره
بأمر كان قد اندرس أثره واخفتت معالمه في نيوى قرية يونس (عليه السلام) .
فكان إخباره (ﷺ) دليلاً على انه كان يأتيه الخبر من السماء . ولذلك ذكرت كتب
السيرة ان عداسا آمن برسول الله (ﷺ) ورفض ان يحارب في بدر مع قريش عندما
طلب من سيده ان يخرج معها الى بدر « فقال لهما : أقتال ذلك الرجل الذي رأيته
بحانطلكما تريدان ، والله ما تقوم له الجبال . فقالا له : ويحك يا عداس قد سحرك
بلسانه «^(١٢) ولقد نكر القرآن الكريم حقيقة تشيير التساؤلات عن قرية يونس (عليه

→ التكرمي / بتصرف ص ١٨٩ - ١٩٢

(١١) القصة مروية في كتب السيرة . انظر سيرة ابن هشام ج ٢ / والروض الاثني للسهيلي شرح
سيرة ابن هشام ج ٢ / ص ١٧٩ وفي الروض الاثني : ان (عداسا) حين سمعه ينكر
يونس بن متى قال له : والله لقد خرجت منها يعني (نيوى) وما فيها عشرة يعرفون ما
متي ؟ فمن اين عرفت انت متي ؟ وانت امي ومن امة امية فقال (ﷺ) : هو اخي كان نبياً
وانا نبي .

(١٢) السهيلي / ابو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن احمد بن ابي الحسن الخثمي
ت ٥٨١ هـ / الروض الاثني في تفسير السيرة النبوية لابن هشام / ج ٢ ص ١٧٩

(السلام) وعدد أهل هذه القرية فقد ذكرت سورة الصافات ﴿ وأرسلناه الى مئة الف او يزيون ﴾ وقد جاء في التفسير عن ابن عباس عن هذا الرقم : « قال ابن عباس : بل يزيون وكانوا مائة الف وثلاثين الف وعنه مائة الف ويضمة وثلاثين الف وعنه مائة الف ويضمة وأربعين الفا . والله اعلم اي المراد ليس انقص من ذلك بل ازيد »^(١٣) المهم ان نكر هذا الرقم وضع لنا حقيقة مهمة وهي ان قرية يونس كانت قرية عظيمة او مدينة كبيرة وان القرآن الكريم يطلق القرية على المدينة او الدولة عندما كانت تولى المدن (City State) إحدى معالم الحضارات والمدن القديمة . اذ ان تعداد مائة الف يعبر عن تجمع سكاني عظيم ويؤشر لنا علامة على ملامح العصر الذي وجد فيه يونس (عليه السلام) . ولقد كانت تعبيرات القرآن الكريم لحد عصر ابراهيم ويقيم ويوسف (عليهم السلام) تدل على ملامح أطوار انتقالية بين الريف والمدينة وبين البداوة والمدنية كما عبّر يوسف (عليه السلام) ﴿ إذ جاء بك من هن البلوى ﴾ . لذلك يستفاد من دلالة الرقم على ما يأتي :

١ - ان القرية كانت مدينة كبيرة والنص يدل على عراقا المدينة وقدمها مما يرجح انها نينوى .

٢ - ان عصر النبي يونس (عليه السلام) كان في زمن نشوء المدينة الكبيرة . وقد نكر الطبري ان « يونس بن متي من أهل قرية من قرى الموصل يقال لها نينوى وكان قومه يعبدون الاصنام فبعث الله اليهم يونس بالهي عن عبادتها »^(١٤) ويتفق ابن كثير مع الطبري بأن يونس بن متي كان في عصر ملوك الطوائف مع أصحاب الكهف والرسل الثلاثة في سورة (يس) الذين أرسلوا الى انطاكية وهو عصر متأخر يبدو من سياق الاحداث ان احداثه كانت في القرن الاول للميلاد^(١٥) .

وهذا التقدير لا يتناسب مع طبيعة رسالة يونس (عليه السلام) واللامح التي

(١٣) ابن كثير/ تفسير القرآن العظيم / ج ٣ ص ٢٢ . ويبدو ان هذه الرواية متأثرة بالاسرائيليات لان التوراة تذكر العدد مائة وعشرين الفا وهذا الرقم ليس بمئة المائة الف كما سنعلم .

(١٤) الطبري / ابو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠ هـ تاريخ الطبري / ج ٢ ص ١١ .
(١٥) انظر ابن كثير / محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبد الواحد الضبياني ت ٦٣٠ هـ /

الكامل في التاريخ - ج ١ ص ٢٠٨ وما بعدها حول يونس (عليه السلام) .

عرضتها آيات القرآن الكريم وبينها المفسرون . وقد وضعت آيات سورة الصافات
يونس (عليه السلام) بعد إلياس ولوط . وان لوطاً (عليه السلام) عاصر ابراهيم
فذكره لا يدل على ترتيب زمني لان القرآن الكريم قد فصل معاصرته لإبراهيم في سورة
اخرى ولكن ترتيب ذكر الانبياء في الصافات يشعر بترتيب زمني باستثناء لوط
(عليه السلام) . تبدأ السورة بلوح ثم إبراهيم ثم قصة اسماعيل الذبيح ثم اسحاق
ثم موسى وهارون ثم إلياس وإن إلياس نُكر مع الصلم الذي كان يعبده قومه وهو
(بعل) وهو الإله الذي كشفت حفريات رأس الشمرأ أوغاريت بأنه كان أحد آلهة هذه
المدينة التي تشمل حالياً لبنان وأجزاء من سوريا وان بعلبك لا تزال تشير الى الإله
(بعل) من اسمها وإلياس عند أهل الكتاب ايلياء^(١٦) . والبعل إله قديم عبده
الكنعانيون والفينيقيون « وهو بعل بن داجون وداجون إله الحبوب وشطيح القوت وله
اي (لبعل) كرس الاوغاريتيون هيكلهم العظيم وكان له هيكل في اشدود احدى
المنن الفلسطينية الخمس^(١٧) » ويبدو البعل من خلال ملحمة شابا وسيما
شجاعاً مقداماً يحب النظام ويكره الفوضى يعمل للحياة ويكره الموت يحمل بيده
عصا ترمز الى الخضرة وبيده صاعقة ترمز الى أنه ربّ البرق والرعد وبالتالي المطر
ولا يزال اسمه حياً في لبنان وذلك بتسمية الخضراوات والفاكهة التي لا تروى صيفاً
(بملية) والارض التي لا تسقى تسمى ايضاً (ارض بعل)^(١٨) . وهكذا كان بعل
احد الالهة المهمة في أوغاريت التي أفل نجمها بعد حريق التهمها في القرن الثالث
عشر قبل الميلاد « وأعيد بناءها بعدها ثم أصيبت برززال عقبته موجة بحر عارمة
خربت المدينة وطمس نكرها . وقد كان على موقعها في المهد الآشوري نحو
٧٠٠ ق م . بلدة صغيرة ظلت مأهولة بالسكان حتى المهد الاغريقي . فقد وجد في
خرابها نقود مقلونية^(١٩) » والذي نريد ان نصل اليه من خلال متابعة عبادة بعل
أنها كانت منتشرة في أوغاريت بحدود القرن الثالث عشر الى القرن الثامن قبل
الميلاد ثم تعرضت بعدها الى زلزال وغرق ويبدو أنها عقوبة لان القرآن الكريم ذكر عدم
استجابة قوم الياس لدعوته وانهم كذبوه وقال تعالي ﴿ فكلبوه فانهم

(١٦) انظر قطب / سيد / في ظلال القرآن / ج ٤ ص ٧٩٢ .

(١٧) فريجه / انيس / ملاحم واساطير اوغاريت رأس الحمرا / ص ٤٣ .

(١٨) فريجه / انيس / م . س . / ص ٢٢ وما بعدها .

(١٩) فريجه / انيس / م . س . / ص ٣٢ وما بعدها .

لمحظرون»^(٢٠). وتذكر سورة الصافات لوطاً (عليه السلام) وبعده يونس (عليه السلام). وهذا يعني ان التابع الزمني ليونس بعد إلياس إذا اعتبرنا الزئزال الذي ضرب أوغاريت عقوبة ربابية وقد كانت سنة ٧٠٠ ق.م.^(٢١) قد طمست معالم أوغاريت وأقيمت على أنقاضها بلدة صغيرة هذا يعني ان الزئزال قد ضربها قبل هذا التاريخ بأكثر من قرن او قرنين على الاقل . وبذلك نستطيع ان نقدر عصر يونس (عليه السلام) بين القرن التاسع والثامن قبل الميلاد .

القرن الثامن قبل الميلاد كان عصراً آشورياً وإن مملكة آشور ظهرت قوة عالمية امتد نفونها من العراق حتى شمل فلسطين والشام وسيطرت على اجزاء من مصر حيث بدأ نجم آشور بالظهور منذ اعتلاء « تجلات فيلاسر الثالث الحكم (٧٤٥ - ٧٢٧ ق.م.) الذي وطّد سيطرة بولته على بلاد الشام ومن جملتها بولتي اليهود على ما تفيد المآثورات التي تؤيدها نصوص سفر الملوك الثاني . وقد قرء في نقش له أنه أخضع لسلطانه اثنتين وأربعين شعباً ومن جملتهم فلسطين وسوريا وفينيقيا وبلاد العرب وخلف هذا على عرش آشور شلمنصر الثالث (٧٢٧ - ٧٢٢ ق.م.) وحدنت معارك بينه وبين إسرائيل وبقيت المعارك حتى جاء خليفته سرجون (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م.) الذي قضى على دولة اسرائيل وسبى من أهلها (٢٧٢٨٠) الى بلاده وأرسل مكانهم خلقاً من مملكته وأقام على البلاد واليا آشورياً وقد نكر هذا في أحد نقوشه وبعد سرجون جاء سنحاريب ابن سرجون (٧٠٥ - ٦٨٥ ق.م.) ثم خلفه ابنه اسرحدون (٦٨٠ - ٦٦٧ ق.م.) ثم خلف أسرحدون ابنه آشور بانينسال (٦٦٧ - ٦٢٧ ق.م.) الذي تمكن من توطيد سيطرته على بلاد الشام ومن جملتها نولة يهوذا ثم على مصر ايضاً مع بقاء نولة اسرائيل الزائلة تحت حكم والي آشوري وبعد هذا ألم بالدولة الاشورية ارتباك ثم تحالف عليها البابليون والماديون فنسفوها وتقاسموها وقامت على أنقاضها في بابل نولة جديدة (٦٠٨ - ٥٢٨ ق.م.) كان نجمها اللمع نبوخذ نصر»^(٢٢) « ويذهب بعض الباحثين ان يونان (يونس) إنما كان يعيش في المدة (٧٨٥ - ٧٤٥ ق.م.)

(٢٠) سورة الصافات / ١٢٧ .

(٢١) فريجه / النيس / أوغاريت / ص ٢٢ .

(٢٢) نبوة / محمد عزة / تاريخ بني اسرائيل من اسفارهم / ص ٢٠٦ - ٢٠٩ بتصرف .

وانه كان نبياً قومياً من أبناء بني اسرائيل على أيام ملك إسرائيل يريعام الثاني (٧٨٦ - ق . م .)) وانه أرسل الى اهل نينوى في المدة (٧٦٥ - ٧٥٩ ق . م .) في أخريات الماهل الاشوري (آشور دان الثالث) (٧٧١ - ٧٥٤ ق . م .) وقد جاء في سفر يونان بانه كان نبياً قومياً وعبرانياً^(٢٣) وهذه المعلومات غير دقيقة يقدمها شراح أسفار العهد القديم الذين جعلوا يونس (عليه السلام) من بني اسرائيل ولا يوجد دليل على ذلك سوى ما ذكره العهد القديم والاسرائيليات ولكننا نستطيع ان نفهم من النص القرآني حول طبيعة الحياة السياسية في قرية يونس أنها لم تكن محكومة بسلطة قوية تواجهه او تقف أمام دعوة النبي (عليه السلام) لان القرآن الكريم تحدث عن المجتمع وموقفه وأعطى صورة طيبة عن قوم يونس تحكي أنهم كان عندهم حكماء ومجتمع متوازن رجع الى الله تعالى وتاب ونبىه غالب عنه . ولم يُبرز لنا القرآن الكريم أنه كانت هناك سلطة سياسية كانت تحول بون التزام المجتمع وتسلط عليه او كانت هناك سلطة كهنوتية تحاول ان تقف امام دعوة النبي وقد جعل موقف أهل نينوى مثلاً للمجتمع التائب الذي صرف عنه العذاب بتوبة الجميع وقبول الله تعالى توبتهم ، فقد قال الله تعالى ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها ، إلا قوم يونس لما آمنوا كضلنا عنهم غلب الغزي في الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين ﴾^(٢٤) . وقوله تعالى ﴿ فآمنوا لمتعناهم الى حين ﴾^(٢٥) . وهذا يرجح ان يونس (عليه السلام) لم يكن من بني اسرائيل وقد مال الاستاذ محمد عزة دروزه الى ان « سفر يونان هو رسالة نبوية خاصة لأهل نينوى ولا يبدو ان له صلة بتاريخ بني اسرائيل »^(٢٦) ويرجح لنا كذلك ان عصر يونس (عليه السلام) كان أقدم من ظهور قوة الدولة الاشورية ولا علاقة لرسالة يونس (عليه السلام) بالحروب التي كانت بين آشور وبولتي إسرائيل ويهوذا في فلسطين ولكن شراح العهد القديم الذين تعرضوا لدراسة عصر يونس (عليه السلام) ربطوا بين قرية يونس نينوى وأشور الدولة وعلاقتها ببولتي اليهود في فلسطين وتأثروا بما حواه سفر يونان في العهد القديم من معلومات فحصل خلط بين المعلومات وتداخلت الاحداث والسنين . ولكن

(٢٣) مهراڤ / د . محمد بيومي / دراسات تاريخية في القرآن الكريم / ج ٤ ص ١٨٩

(٢٤) سورة يونس / ٩٨ .

(٢٥) سورة الصافات / ١٤٨ .

(٢٦) نبوة / محمد عزة / م . م / ص ٢٤٧ .

القرآن الكريم يخلصنا من هذا الاريك من خلال نص واضح له دلالة غير معقدة كل ذلك يرجع لدينا أن عصر يونس (عليه السلام) كان حوالي القرن التاسع قبل الميلاد ومكانه كان مدينة نينوى القديمة ولا علاقة له ببني اسرائيل ولكن بني اسرائيل لما رأوا تسلط الاشوريين عليهم أراسوا ان يجعلوا لهم فضلاً عليهم بان نسبوا يونس (عليه السلام) اليهم وان الله اختار نبياً الى - قرية لا علاقة لها ببني اسرائيل - من بني اسرائيل . وهذا إقحام واضح ومتمصف لا دلالة له سوى إحساس اليهود بالحق على الاشوريين وعلى نينوى حيث جاء في سفر ناحوم « خطايا نينوى : ويل للمدينة سافكة الدماء الممتلئة كذباً . المكتظة بالفنالم التي لا تخلو أبداً من الضحايا - يقول الرب القدير فاكشف عارك لأطلع الامم على عورتك والممالك على خزيك والوثك بالاوساخ وأحقرك وأجملك عبدة وكل من يراك يُعرض عنك قائلاً : قد خربت نينوى فمن ينوح عليها ؟ أين أجد لها معزين »^(٢٧) وهكذا يُفسر لنا نوافع كاتب سفر يونان في المهد القديم الذي « لم يعرف حتى الان من الذي كتبه في روايته الحالية . كما جاءت في المهد القديم وان كان العلماء يذهبون الى أنه كُتب ربما نحو (٣٥٠ ق . م .) وليس هناك أي دليل يثبت ان يونان هو كاتب هذا السفر الذي يحمل اسمه من بين أسفار المهد القديم »^(٢٨) وثمة قضية أود الوقوف عندها وأجدها تحملي على التأمل فيها وهي غريبة فعلاً حيث وجدت في منكرات مالوان عندما تعرض لتتقيبات نمرود في الموصل يذكر بعض التفاصيل عن التصورات الموجودة عند علماء الآثار للكثافة السكانية في المدينة وعدد نفوسها وقد وجدت توافقاً عجيباً وغريباً بين تخمينات علماء الآثار ودارسي خطط المدينة القديمة وبين ما نكره القرآن الكريم من عدد لسكان قرية النبي يونس (عليه السلام) وقومه حيث قال تعالى ﴿ وأرسلناه الى مائة الف او يزيدون ﴾^(٢٩) . وقد تقدم نكر آراء المفسرين لهذا النص القرآني .

وقد نكر مالوان حول هذه القضية بأنه كان في بعته للتتقيب في آثار نمرود عام ١٩٤٩ وقد اكتشف مسلة من الحجر بهيئة نصب يزيد ارتفاعه على اربعة اقدام أقامها المؤسس آشور ناصريال ونقش من الامام والخلف بمائة واربعة وخمسين

(٢٧) سفر ناحوم / ٣٠٧ .

(٢٨) مهراڤ / د . محمد بيومي / دراسات تاريخية / م . س . ج / ٤ ص ١٨٩ .

(٢٩) سورة الصافات / ١٤٧ .

سجلاً تسجل إكمال تشييد المدينة في السنة الخامسة من حكمه أي في عام (٨٩٧ ق. م .) وكانت في هذا النص معلومات إحصائية حول سكان المدينة وقد حاول ديفيد أوتس الذي كان مع البعثة تقدير عدد السكان الذي يتوقع ان تضمهم منطقة كالح - نمرود اعتماداً على مواردها . وقد توصل الى الاستنتاج المنهش والمقبول ان عدد السكان المحليين الذين كان بالامكان اطعامهم من موارد كالح نفسها لا يزيد عن ٢٥ الف شخص (وينبغي ايضاً ان نستنتج من مخطط المباني من المساحة المتيسرة بين الاسوار التي ضمت الحصن والمدينة الخارجية ومن حوليات الملوك الاشوريين الذين حكموا فيما بعد ومن التقارير عن جيوشهم ان عدد السكان المدنيين والعسكريين في نمرود كان أحياناً أعلى بكثير من ٢٥ ألف ونستطيع في رأيي ان نستنتج أن عدد السكان وصل أحياناً الى ما لا يقل عن ١٠٠ ألف نسمة) وفي الواقع عثرنا في قلعة شملنصر على لوح ورد فيه فحس ٣٦٢٤٢ رسماً ويعني ذلك ان قوة الجيش كانت ضعف ذلك العدد على الأقل ، إن مثل هذه الحسابات تتسم بأهمية جوهرية لفهم تطور التاريخ الاشوري (٢٠) لقد اقتبسنا مادة كثيرة من مذكرات مالوان لاهمية هذه الحقائق التي نكرها بصفته عالم آثار متمرس وقام بالتنقيب في المواقع العراقية مع اشهر عالم آثار بريطاني نقب في اور الكلدانيين وكتب اعماله في تسع مجلدات بالانكليزية سماها تنقيبات اور (Ure excavation) وله مؤلفات وبحوث حول آثار ومدن العراق القديمة ذلك هو المستر ليونارو وولي . وعمل مالوان في التنقيبات في بداية القرن العشرين ولحد منتصفه في مواقع عديدة في جنوب العراق وشماله ومواقع في بلاد الشام . لقب في (اور ونيوى والارجية وفي وادي الخابور وشكر بازار وفي تل براق وفي وادي بليخ ونمرود(٢١) ان أهم حقيقة نكرها مالوان هي تطابق رقم عدد سكان نمرود الذي توقع انها كانت متصلة بنيوى في فترة ما مع الرقم الذي نكره القرآن الكريم لعدد سكان قرية يونس (عليه السلام) . انه شيء مثير حقاً ان تتطابق ارقام دراسة لطلماء الآثار غربيين لم يسموا بما نكره القرآن الكريم وتأتي النتائج والحقائق متطابقة الى هذا الحد وهذا اعجاز قرآني جديد ان يتعرض القرآن الكريم لنكروهم إحصائية سكان قرية يونس (عليه السلام) وأعطى ملامح طبيعة الحياة والعصر التي يعتمد عليها

(٢٠) مالوان / ماكس مالوان / ص ٢٧٠ - ٢٨٢ .

(٢١) انظر مذكرات مالوان ترجمة سمير عبدالرحيم الجليبي / بتصرف .

علماء الآثار اليوم لمعرفة تطور المدينة وتاريخ الآشوريين . ومن القضايا المهمة التي طرحها القرآن الكريم حول قصة النبي يونس (عليه السلام) هي قصة ابتلاع الحوت للنبي يونس (عليه السلام) وهي قضية تستوجب التوقف عندها أيضاً وهي قصة تطابقت في نكر جوهرها الرواية القرآنية مع رواية العهد القديم في سفر يونان . واختلفت الروايتان فيما بعض النقاط أيضاً وسنأتي على مقارنة بين الروايتين فيما بعد . إلا أننا نريد أن نمالج القضية من خلال مفهوم إسلامي لكي نتفهم طبيعة وحقيقة القصة فأثرت أن نتكلم بإيجاز عن معجزات الأنبياء وموقفها في العقيدة الإسلامية والفكر الإسلامي المستمد من المصادر الإسلامية والسنة .

المبحث الثاني

المعجزات التي أجزاها الله تعالى لأبيه

ان المعجزة تمنى اعجاز المقابل من ان يقوم بعمل ما يجريه الله لأبيه ويفير الله بمقتضاه سذن التخليق المطربة في الحياة ويحدث التفسير حقيقة لا خيالاً وحساً لا معنى ويتوقف العقل الذي ألف عمل النواميس والسنن عندما ينظر الى هذه السنن وقد تعطلت وقد عرف العلماء المعجزة « بأنها الامر الخارق للعادة الذي يجريه الله على يدي نبي مرسل ليقيم به الليل القاطع على صدق نبوته »^(٢٢) وما من نبي الا واتاه الله من المعجزات او معجزة بحسب طبيعة العصر والناس وحكمه يعلمها الله وفي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن ابي هريرة (رضي الله عنه) ان النبي (ﷺ) قال : ما من الانبياء نبي الا أعطي ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله الي فارجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة « ان المعجزات التي أجزاها الله لأبيه كانت مرتبطة بحياتهم وأشخاصهم وعصرهم والزمن الذي حدثت فيه المعجزة ولذلك بعد موت الانبياء تنتهي معجزاتهم ويتوقف تأثيرها على البشرية . ولذلك لم نثر على عصا موسى . وحتى لو وجدت فانها لم تعد تمثل شيئاً بالنسبة للدين لان زمنها انقضى وان الله تعالى لا يبقى الاشياء المادية التي أجرى معجزاته بها كالعصا او الحصى الذي سبج بين يدي رسول الله (ﷺ) او ناقة صالح . لان المعجزة يجريها الله تعالى فهي مرتبطة بقدرة الله وليس بالنبي او بالعصا او بالناقة او الحصى فان هذه الاشياء لا تملك التأثير ولا القوة ولكن امر الله

(٢٢) سابق / سيد / المفاهيم الاسلامية / ص ٨٠ ف بار الكتاب العزيز بيروت - د . ت .

هو النافذ ولذلك كانت منهجية الدين عدم تقديس الاشياء المادية مهما كان مصدرها ولا حتى الانبياء الذين اصطفاهم الله تعالى وفضلهم على خلقه ولكن ينبغي الا يتجاوز المسلم في نظرتة اليهم أكثر من بشريتهم وتبليغهم الرسالة وأداء الامانة التي حملهم الله والمحبة والايامن بهم ونبواتهم وعندما أراد الله تعالى لرسالة محمد (ﷺ) البقاء اختار لها آية ومعجزة باقية وهي الوحي كتاب الله تعالى وهنا يجب ان نعلم انه لا يمكن ان تخلد معجزة على الارض الا اذا كانت على هيئة كتاب يتلى لا يقف اعجازه عند عصر معين ولا يحد من ثقافته بالذات (٣٣) ولذلك ابتمد القرآن الكريم عن الاساطير والخرافات ووضع قواعد الايمان بالعقل ومقدرته وقيمته التي أراها الله تعالى من خلال اكرام العلماء والعقل الذي يحمله العقلاء . وحث الانسان في آيات عديدة على أعمال العقل واستخدام التفكير لتعميق الايمان بالله وحقائق الدين عندما كانت البشرية في مراحلها الاولى وعندما كان الله تعالى يرسل الانبياء كان لابد ان يتحفز العقل بمحفزات تحدث على أثرها صدمة شعورية في داخل الانا (Ego) ونتيجة الاستجابة بتأثير استرجاع الصدمة (Feed back) يحدث شعور بالمعجز ويؤول الكبر والفرور ويكتشف الانسان ضعفه وبذلك يحدث انحياز الى جانب الانبياء ممن يتفاعل مع المعجزة وهي احدى الوسائل التي يلجا اليها الانبياء لتجميع الاتباع في أثناء عملية التغيير وهي ما يعبر عنه بالمعجزات ولكن البشرية لم تكن تستجيب لهذه الصدمة والخرق للاسياب كما ينبغي لها . لان تأثير هذه الصدمة مؤقت وقصير ومد زواله ينسى الانسان الحدث لشدة تداخل الاسباب ومسبباتها في حياة الانسان ولذلك لم يكن اتباع الانبياء بالكثره مقارنة مع الذين يقفون على الجانب الآخر في الصراع . وان القرآن الكريم نكر هذه الحقيقة وهي تكرار التكنيب بالآيات (المعجزات) من قبل أقوام الانبياء وان الاستجابة عادة لا تكون كما يتوقع العقلاء الذين ينظرون الى إصرار أكثر الناس على الموقف الخاطيء مع ظهور المعجزات على ايدي الانبياء الذين ارسلهم الله . ولذلك قال تعالى ﴿ وما صنعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الاولون ﴾ وآتيناهم الناقلة مبصرة فظلموا بها وما نرسل الآيات الا تهويلها ﴿ (٣٤) ولذلك عندما كانت معجزة محمد (ﷺ) وحياً يرجو ان

(٣٣) الفندي . د. محمد جمال الدين / الله والكون / ص ٤٥٢ / الهيئة المصرية للكتاب سنة

يكون اكثر الانبياء تابعا . اي ان اتباعه سيفوق عندهم عدد اتباع الانبياء الآخرين يوم القيامة . وعن هذا المعنى يذكر عالم الاجتماع تيريز : « ويُضَوِّرُ الله في الاسلام على أساس انه على مسافة بعيدة وانه المطلق الذي يتكلم مع الناس عن طريق وسطاء مثل الانبياء والملائكة وقد امكن تصور علاقة السيطرة مع فاعل إلهي بعيد على أساس مصطلحات السيد والعبد . وكلام الله تحقق (objectified) في القرآن ذاته وطالما كان الاسلام يرفض توسط رجال الدين فقد اصبح حديثه متاحاً مباشرة لكل البشر وعلى اساس متساوٍ والاسلام في التطبيق يختلف نوعا ما في الواقع عن هذه الصورة المتألية في عدد من النقاط الهامة . فكما يقول لنا القرآن ان الله هو السيد ﴿ الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ﴾ ولكن معظم عبيد هذا الرب المعلم كانوا من غير المتعلمين وعليه فالاسلام على الرغم من انه نظريا دين المساواة الا انه كان يقوم على تدرج اجتماعي في ضوء صفة اقلية حضرية متملمة واكثرية قبلية غير متملمة وكما لاحظ ارنست جيلندر فان النخبة الحضرية لا تحتاج الى وسطاء حيث بإمكانها ان تقرأ النص مباشرة الا ان القبليين العامة (الاميين) يحتاجون الى خدمات وسطاء بشر يقدمون لهم الوحي في صورة غير لفظية وفي المناطق القبلية البعيدة عن المدن يجد المرء الدين الشعبي حيث تتجسد في الولي علامات الله وتظهر قواهم الدينية في الاعمال السحرية وأعمال (المعجزات والتنبؤ) وبذلك فقد تطور داخل الاسلام تناقض حاد ومستمر بين طرازين من السلوك الديني يحوي انماطاً مختلفة من النشاطات الدينية . فالمتملم الحضري من العرب يقابل الله على اساس انه إله بعيد ذا قوة مطلعة ويتصل به من خلال القرآن والشريعة اما في التراث الديني الشعبي فان الفاعلين البشر يحتاجون خدمات اشخاص مقدين يحاولون ان يحولوا حقيقة الله الاجتماعية غير المباشرة الى تجربة مباشرة^(٣٥) هذا الكلام يؤكد ان البشرية في بداليتها تحتاج الى المعجزات والى كثرة في الانبياء وبما ان دعوة النبي محمد (ﷺ) هي خاتمة الدعوات وانها جاءت والبشرية في مرحلة لضوجها ولذلك توقفت النبوءات عند محمد (ﷺ) واكتفت الرسالة بمعجزة واحدة باقية وهي

(٣٥) تيريز / براين / علم الاجتماع والاسلام دراسة لندية ماكس فيبر ترجمة ابو بكر احمد باقادر / ص ٨٤ / دار العلم بيروت ط ١ سنة ١٩٨٧ . ان هذا الكلام يعبر عن فهم غربي للاسلام غير متحفظ ولكنه لا يخلو بعض جوانبه من الحقيقة . وقد استشهدنا به لاتبات حاجة المجتمعات البدائية الحارقة التي تحاكي العطلة اكثر من العمل .

القرآن . ان النبوة بحد ذاتها هي معجزة وهي خرق للمألوف من حياة البشر وان الانبياء كانوا في ارقى المستويات الاخلاقية في مجتمعاتهم وكانوا يحظون بالقبول في مجتمعاتهم قبل النبوة ﴿ قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ﴾^(٢٦) وكانت قريش تدعو النبي محمداً ﴿ ﷺ ﴾ بالصالح الامين قبل البعثة . لذلك عندما يعلن هؤلاء الانبياء نبوتهم على المجتمع فان هذا الحدث اعظم من أي معجزة أخرى تحصل لديهم ولهذا السبب كان القرآن اعظم من أية معجزة لانه بقي دائما يقول للناس ان محمداً ﴿ ﷺ ﴾ رسول الله . وقد اعلن هذه الحقيقة وهي ان الوحي اعظم معجزة صاحب محمد ﴿ ﷺ ﴾ ابو بكر عندما قالت له قريش : ان صاحبك يزعم انه أسري به ليلة أمس الى المسجد الاقصى . قال لهم ابو بكر : إن قالها صئق . فإني أصدقه باعظم من ذلك أصدقه بخبر السماء^(٢٧) . لذلك فإن المعجزة خروج عن المسببات المادية ومألوف الحياة من حركة وانتقال واعراض الوجود الأخرى « وان النبي يجب قبول كل ما يقول لكونه نبياً اتى النبوة وبلت المعجزة على صدقه ، فأيات الانبياء وبراهينهم لا توجد الا مع النبوة ولا توجد مع ما يناقض النبوة ومدعي النبوة اما صالح واما كاذب ، والكذب يناقض النبوة فلا يجوز مع المناقض لها مثل ما يوجد معها فالكفر والسحر والكهانة كل هذا يناقض النبوة لا يجتمع هو والنبوة . فالمعجزة تغيير جنس الى جنس ومما يختص الرب بالقدرة عليه وملائكته لذلك كان الانتقال من مكان الى آخر ليس معجزة لان هذا تفعله الطيور والانس والجن بخلاف كون الماء القليل نفسه يفيض حتى يصير كثيراً بأن ينبع من بين الاصابع من حجر ان يزداد فهذا لا يقدر عليه انسي ولا جني »^(٢٨) وقد كان الوحي عند جميع الانبياء اعظم المعجزات والايات الدالة على النبوة قال تعالى ﴿ وما أرسلنا قبلك الا رجالاً يوحي اليهم فاسألوا اهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾^(٢٩) وكان الناس يقلون امام النبوة بين المصلح والمكذب والمهزيب الذي لا يدري حقيقة الامر وقد نهل ، وعبر القرآن الكريم عن هذه الحالة وهي التمجيب من اعلان النبوة ﴿ اكان للناس عجباً أن اوحينا الي رجل

(٢٦) سورة هود / ٦٢ .

(٢٧) انظر لمجيب / د . محمد رواس / قراءة جديدة للصورة النبوية / ص ١١١ وكتب السيرة

كذلك ، ابن هشام / ج ١ ص ٢٩٨ .

(٢٨) ابن تيمية / شيخ الاسلام تقي الدين ابو العباس احمد ت ٧٢٨هـ / النبوات / ص ١٠ .

(٢٩) سورة الزخرف / ١٦ .

منهم أن انذر الناس ﴿٤٠﴾ . وقد أثار القرآن الكريم ظاهرة النبوات لكي يقنع الناس بنبوة محمد (ﷺ) فقال تعالى : ﴿ لعل ما كنت بعداً من الرسل ﴾ ﴿٤١﴾ وقوله تعالى ﴿ وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ ﴿٤٢﴾ « بين ان هذا الجنس من الناس معروف وقد تقدم له نظراء وامثال وهو سبحانه امر ان يُسأل أهل الكتاب وأهل الذكر عما عندهم من العلم من امور الانبياء هل هو من جنس ما جاء به محمد او هو مخالف له ليتين باخبار أهل الكتاب المتواترة جنس ما جاءت به الانبياء » ﴿٤٣﴾ ولهذا كان الناس اذا طعنوا في نبوة النبي واعتقدوا علمه قالوا هو ساحر كما قال فرعون لموسى : ﴿ إن هنا لساحر علم يريد أن يخرجكم من أرضكم يسحره فلما تأهرون ﴾ ﴿٤٤﴾ . واذا نسبوه الى عدم العلم قالوا مجنون كما قالوا عن نوح : ﴿ مجنون وانزجر ﴾ ﴿٤٥﴾ . فاذا اتى مدعي النبوة بالامر الخارق للمادة الذي لا يكون الانبي لا يحصل منه لساحر ولا كاهن ولا غيرهما كان دليلاً على نبوته ﴿٤٦﴾ وان وجود الجن والملائكة معروف في الامم السابقة مما يؤكد ارتباط الانسان بالقضايا الروحية وعمق الدين في حياة البشر وان هذا الدين يؤشر ارتباط الانسان روحياً بالقضايا الغيبية التي لا سبيل الى ابرائها وقد فشل الفريسيون في محاولاتهم لتحديد الدين والتعرف على حقيقته بسبب خضوعهم لمحدودية العقل وانكار الغيب والميتافيزيك « فقد فشل فيبر في تزويدنا بتعريف للدين فهو يدعي انه : ليس من الممكن في مستهل الدراسة ان نعرف ما هو الدين » وجاء بوركايم بمحاولة لتعريف الدين فقال عنه : « نسق موحد من المعتقدات والممارسات المرتبط بالاشياء والمعتقدات والممارسات التي تتحد في تجمع اخلاقي واحد يسمى الكنيسة (المعبد) وكل اولئك الذين يؤمنون بها . وتايلور في كتابه (الثقافة الابتدائية يقترح ان الحد الاثني لتعريف

(٤٠) سورة يونس / ٢ .

(٤١) سورة الاحقاف / ٩ .

(٤٢) سورة ال عمران / ١٤٤ .

(٤٣) ابن تيمية / شيخ الاسلام / النبوات / ص ٢٥ .

(٤٤) سورة الصمراء / ٣٥ .

(٤٥) سورة القمر / ٩ .

(٤٦) انظر ابن تيمية / م . م . ص ٢٦ - ٢٣ .

الدين يجب ان يشمل على اشارة رئيسة الى الاعتقاد (في الكائنات الروحية)^(٤٧)، وهكذا نجد ان الانسان يتناسق مع الدين والحياة ويفترب في التنكر للدين وكل انسان مقترن اقترانا فطرياً بالروح والايمان وان « فرعون وان كان مظهراً لجحد الصانع فانه ما قال : ﴿ هلولا القى عليه أسورة من ذهب او جاء معه الملائكة مقترنين ﴾^(٤٨) الا وقد سمع بنكر الملائكة اما معترفا بهم واما منكراً لهم فنكر الملائكة والجن عام في الامم وليس في الامم أمة تنكر لك انكاراً عاماً . وانما يوجد انكار ذلك في بعضهم مثل من قد يتفلسف فينكرهم لعلم العلم لا العلم بالعلم^(٤٩) . لقد جاء الانبياء بالحق وجاءوا ليهدوا البشرية الضالة . فكانوا باعلانهم انهم يتلقون الوحي من السماء يربطون الانسان ربطاً مباشراً بالخالق على ان في الكون آيات ودلالات اذا تأمل فيها الانسان توصل الى الايمان بالله فالكون والنجوم والحياة والماء وكل شيء في الوجود يربط الانسان بالله . فالانبياء جاوا لتوثيق العلاقة وتجديد الدين الكامن في الفطرة والنبي باعلائه الذبوة يملن ان الله معه والتاريخ الذي يعلمه معاصروه من ممن سبقهم ﴿ ويقول الذين كفروا لست مرسلأ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾^(٥٠) . لقد جاء الانبياء ليربطوا الناس بالإله الواحد وكانت معجزاتهم تؤثر على الناس لتحملهم على الايمان بهذا الإله ويقدرته واذا أمنا بالله فإننا نتجاوز كل الاشكاليات التي تعترض طريق الايمان والتي ترد على العقل فلا حيرة ولا ضياع وانما اطمئنان وايمان . « وفي احدى ندوات (الهلال) عند يوليو ١٩٦٠ - وجه الى ثلاثة من رجال العلم والادب هذا السؤال . لماذا يؤمن بالله ؟ قال الاستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله : نحن نستطيع ان نرى بأعيننا ان الايمان ظاهرة طبيعية في هذه الحياة لان الانسان غير المؤمن انسان (غير طبيعي) فيما نحسه من حيرته واضطرابه وبأسه وانعزاله عن الكون الذي يعيش فيه . وفي رأينا ان مسألة الايمان بوجود الله مسألة وعي قبل كل شيء . فالانسان له وعي يقين بالموجود الاعظم وقال الدكتور جمال الدين اللخدي : اننا اثناء دراسة الاشياء لنلمس من الابداع والاتقان ما يجعلنا نجزم بان وراء ذلك خالقاً مديراً . وقال الدكتور محمد

(٤٧) تيندا / برلين / علم الاجتماع والاسلام ص ٧٢ .

(٤٨) سورة الزخرف / ٥٣ .

(٤٩) ابن تيمية / شرح الاسلام / النبوات ص ٣٥ .

(٥٠) سورة الرعد / ٤٣ .

شكري عباد ، كنت طفلاً في السابعة وكان معلم الديانة يعزفنا بالله فقال انه هو الذي خلقنا وخلق كل شيء ولمله أطال في تلك شيئاً ما فقد تلجلج في خاطري سؤال همست به لجاري ، ومن الذي خلق الله ؟ وسارع جاري من نون تبصر يسأل الاستاذ وكان يريد ان يثبت حسن اصفاله للدرس : ومن الذي خلق الله ؟ هاج استاذ الديانة هياجاً شديداً حتى اني حمدت لنفسي حسن تبديري حين كتمت السؤال ؟ كان عقلي الصغير يجاهد ليفهم المطلق ولكن استاذ الديانة لم يقرب الي هذه الفكرة بل ضاق بالسؤال . وأنا بقيت كأنما اغرم عقلي بالعناد . فرحت اسأل نفسي اسئلة تشابه سداحتها لك السؤال الاول سألت نفسي ان كان الله موجوداً وقد حدثونا انه عادل رحيم فلماذا يوجد الخير والشر ؟ ولماذا يشقى الاخيار ؟ وينعم الاشرار ؟ ولم أجد لهذا السؤال جواباً يطمئن اليه عقلي ولم استطع ان افهم . ولكني لم استطع قط ان استلني عن فكرة الله . كنت كلما حزني امر فزعت الي الصلاة او القرآن . فتهدأ احزالي وتسكن مخاوفي الذي انسان ضعيف وساطل ضعيفاً . ساطل ضعيفاً ما دامت حياتي لمحاولة بالشور والاثم . وما دام الموت يترصدي في نهاية الطريق ولن يستطيع العلم مهما بلغ ان يتغلب على الموت ولن يستطيع المجتمع مهما بلغ ان يقتلع من نفس الانسان كل بنور الشر . الله وحده يجعل حياتي على الرغم من الشور والموت نعمة اتقبلها من يديه سبحانه وتعالى ويوم اقررت بضعفي شعرت اني قوي وملحني الله قوة ويوم رضيت بشقائي شعرت اني سعيد وملحني الله بركة ^(١) . هذه هي الهداية التي لقمها الانبياء للانسانية نعمة الايمان بالله . ومع الايمان بالانبياء تتجاوز كل الشبهات فاذا آمننا بدعوة محمد (ﷺ) آمننا بأنه نبي ورسول ارسله الله تعالى الي الناس كافة وانزل عليه قرآناً وفي هذا القرآن إخبار عن الغيب وعن الانبياء السابقين فلا نجد في انفسنا حرج من تصديق ما نطق به القرآن الكريم من آيات وعند ذلك عندما تقرأ في هذا القرآن ان الله تعالى قد وضع نبيه يونس (عليه السلام) في بطن الحوت وامر الحوت ان لا يؤذي النبي الذي في بطنه وهيا الله لهذا النبي في بطن هذا الحوت اسباب الحياة لمدة معينة فاننا لا نجد ان في هذا الامر غرابة او ان ذلك مما يعجز الله عن فطه حاشاه وهكذا مع كل معجزة او امر خارق للعامة حصل للانبياء فان صح النقل فهو حقيقة وليست خرافة او خيال او وهم او

(٥١) القددي / د. محمد جمال الدين / الله والكون / ص ٢٩-٣٢ .

سحر او ما شابه لان الله بقادر على ان يهييء اسباب الحياة لنبيه في بطن الحوت في البحر لحكمة اراها تماما كما يهييء اسباب الحياة للجنين في رحم امه .

يونس (عليه السلام) هل كانت دعوته قبل الحوت او بعد ؟ :

قال ابن كثير : « اختلفوا هل كان ارساله اليهم قبل الحوت او بعده ؟ او هما امتان ؟ على ثلاثة اقوال »^(٥٢) . وقد تمدت آراء العلماء استنادا الى تأثرها بروايات اهل الكتاب وفي رواية « ان الله اوحى اليه بعد ان انجاه من الحوت ان ينهب الى ملك من ارسل اليهم وان يطلب اليه ان يرسل معه بني اسرائيل . فقالوا : ما نعرف ما تقول ولو علمنا انك صادق لفلعلنا ولقد اتيناك من دياركم وسبيناكم فلو كان ما تقول لمنمنا الله عنكم غطاف ثلاثة ايام يدعوهم الى نلك فابوا عليه . فاوحى الله تعالى اليه قل لهم : ان لم تؤمنوا بآياتي فاعلموا اني انا ربهم فابوا . فخرج من عندهم فلما فقهوه نموا على فعلهم فانطلقوا يطلبونه فلم يقدروا عليه ثم نكروا امرهم وامر يونس للعلماء الذين كانوا في دينهم . فقالوا : انظروا واطلبوه في المدينة فان كان فيها فليس مما نكر من نزول العذاب شيء وان كان قد خرج فهو كما قال فطلبوه فقبيل انه خرج المشي ، فلما آيسوا اغلقوا ابواب مدينتهم فلم يدخلها بقرهم ولا غنمهم وعزلوا الوالدة عن ولدها وكذا الصبيان والامهات ثم قاموا ينتظرون الصبح فلما انشق الصبح رأوا العذاب ينزل من السماء فشقوا جيوبهم ووضعوا الحوامل ما في بطونها وصاح الصبيان وغتت الاغنام والبقر فرجع الله تعالى عنهم العذاب . فبعثوا الى يونس (عليه السلام) فأمنوا به . وبعثوا معه بني اسرائيل فعلى هذا القول كما يقول الامام الرازي كانت رسالة يونس (عليه السلام) بعدما نبذ الحوت ولبيل هذا القول قوله تعالى ﴿ فنزلناه بالعراء وهو سقيم ﴾ واثبتنا عليه شجرة من قططين وارسلناه الى صالة الف او يزيهون^(٥٣) وفي رواية اخرى ان جبريل (عليه السلام) بلغه الرسالة قبل الحوت وامره بان يعجل بالذهاب الى اهل نينوى فاراد ان يلتمس دابة قال له

(٥٢) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ٢٨٧ .

(٥٣) مهراڤ / د . محمد بهيوي / دراسات تاريخية في القرآن الكريم / ج ٤ ص ١٨٠ ياخذ عن

الرازي / التفسير / ج ٢ ص ٢١٢ - ٢١٣ .

جبريل (عليه السلام) الامر اعجل من تلك فغضب يونس (عليه السلام) وانطلق الى السفينة والراي الثالث وهو ما يفهم من النص مباشرة لكون البحث عن خلفية القصة في المصادر الاسرائيلية وهي ان دعوة يونس كانت الى اهل نينوى وعندما دعاهم لم يستجيبوا ولما لم يصبر عليهم خرج غضبا بسبب عنادهم واصرارهم على عبادة الاصنام . وعندما خرج اعتقد ان البقاء معهم لا ينفع وطن ان الارض واسعة فليبحث عن قوم آخرين افضل استجابة منهم . وذلك في قوله تعالى ﴿ فلئن ان لن نقدر عليه ﴾ اي لن نضيق عليه وسع الارض فحبس في بطن الحوت خلافاً لظنه الذي ظنه ان الارض واسعة . وانه خرج غضبانا على قومه لربه ولم يخرج مفاضباً لربه فهذا لا يليق بالانبياء (عليهم السلام) «^(٥٤) . ويقبل الرازي : « من ظن عجز الله تعالى فهو كافر ولا خلاف في انه لا يجوز نسبة ذلك لاحاد المؤمنين فكيف الى الانبياء (عليهم السلام) »^(٥٥) . وعلى أية حال فان النص القرآني واضح في دلالة على جوهر قصة يونس (عليه السلام) . فان الله تعالى ارسله ويلغه الرسالة قبل الحوت وهذا ما يرجحه النص اذ كيف يغضب ؟ وعلى اي شيء ؟ اذا لم يكن قد ارسل وغضب بسبب موقف قومه من رسالته وبعودته . وعندما خرج اتجه نحو بلاد الشام لان ارتباط نينوى عن طريق الجزيرة باتجاه الاردن وفلسطين معروف وطريق مطروق واذا علمنا بانه طريق شهد حملات الاشوريين على فلسطين ادركنا قوة نهاب يونس (عليه السلام) ورجاحته باتجاه فلسطين ولكن لا يوجد لدينا دليل على المكان الذي ركب منه السفينة قد يكون بحر الروم (البحر المتوسط) وقد يكون ايلات . على خليج العقبة . والارجح انه ركب السفينة وابحر من ايلات وقد يكون قصد مصر او قصد مدن جنوب ايلات . ولا يوجد دليل على ان الحوت التقمه من « خليج العقبة ثم دار به حول شبه جزيرة العرب فالبحر الاحمر فخليج عدن . ثم بحر العرب فخليج عمان ثم الخليج العربي فنهر دجلة ثم نينوى »^(٥٦) وهذا بتأثير المصادر الاسرائيلية ولا يوجد نص اسلامي يؤكد بل ان المنطق يستبده لانه من غير المعقول ان يقطع آلاف

(٥٤) انظر الاوسي / روح المعاني / ج ٣ : ٨٧ - ٨٤ عن مهرازي / د . محمد بهوسي / م . م / ص ١٨١ .

(٥٥) القطر الرازي / التصدير للكميل / ج ٢٢ ص ٢١٥ عن مهرازي / د . محمد بهوسي / م . م / ص ١٨٢ .

(٥٦) مهرازي / د . محمد بهوسي / م . م / ص ١٧٩ .

الكيلومترات وقد يستغرق مدة طويلة قد تصل الى شهر او اكثر وحتى ان النص القرآني يفيد بان الحوت القاه على ساحل لا نبات فيه ولا شجر كما قال تعالى ﴿ فنبهناه بالبراء وهو سقيم وانبأنا عليه شجرة من يقطين وارسناه الي مائة الف او يزيهون ﴾ ولم يذكر النص القرآني المدة التي بقي فيها في بطن الحوت وقوله تعالى ﴿ فنبهناه بالبراء ﴾ يدل على انه مكان اجرد لا شجر فيه وهذا خلاف ضفاف الانهار وان نيلوى على حجلة وضفاف حجلة ليست عراء اذ غالباً ما تكون مزروعة بالاشجار وهذا يرجح انه القى على ساحل البحر او ساحل الخليج (خروج الصبغة) وقد اختلف المفسرون في المدة التي لبث فيها يونس في بطن الحوت « يقال قتاة : ثلاثة ايام وقال الامام جعفر الصادق رضوان الله عليه : سبعة ايام ، وروى ابن ابي حاتم عن ابي مالك انه بقي اربعين يوماً وعن الضحاك عشرون يوماً وقيل شهراً وروى مجاهد عن الشعبي قال : التمه حشى ولفظه عشية وقال الحسن : لم يلبث الا قليلاً واخرج من بطنه بعد الوقت الذي التمه »^(٥٧) ولا يمكن ان نرجح رأياً على آخر ولكن اجواء النص تلمح الى ان الفترة لم تكن طويلة وانها لم تكن قصيرة جداً لانه اذا كانت قصيرة جداً لا يمكن ان يكون سقيماً على إثرها وحاجته الى انبات اليقطين تكون ضعيفة وكذلك الدعاء الذي دعاه في بطن الحوت وهو في قوله تعالى ﴿ فتادى في الظلمات ان لا اله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين » فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك نجى المؤمنين ﴿^(٥٨) وفي الحديث « ان يونس (عليه السلام) حين بدا له ان يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت فقال اللهم لا اله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين . فاقبلت الدعوى تحن بالعرش قالت الملائكة : يا رب هذا صوت ضمير معروف من بلاد بمبيدة غريبة . فقال الله تعالى : أما تعرفون ذلك ؟ قالوا : يا رب ومن هو ؟ قال عز وجل : عبدي يونس ، قالوا عبيدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة ؟ ثم قالوا ؟ يا رب أو لا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه من البلاء : قال : بلى فامر الحوت فطرحة بالبراء) . رواه ابن جرير عن يونس عن ابن وهب »^(٥٩) وهذا يرجح انه بقي مدة قد تكون بين ثلاثة ايام الى اسبوع ثم القاه الحوت على الساحل وانبأ اليقطين عليه مسالة بحاجة الى زيادة نظر

(٥٧) مهراڤ / د . محمد بويصي / م س . / ج ٤ ص ١٨٢ . عن تفسير الطبري ٧٩ / ١٧ .

(٥٨) سورة الانبياء / ٨٧ - ٨٨ .

(٥٩) ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / ج ٤ ص ٢١ .

وتأمل لان القرآن نكر اليقطين وتوقف المفسرون عند نكر اليقطين ودرسوا مواصفات هذا النبات وملامته لطبيعة حالة النبي يونس بعد خروجه من بطن الحوت وفي الاثر عن ابي هريرة (رضي الله عنه) انه سأل ما اليقطينة ؟ قال شجرة الدباء قال ابو هريرة (رضي الله عنه) وهيا الله له اروية وحشية (اي طيبة) تاكل من حشاش الارض قال فتتفصخ عليه فترويه من لبنها . وقوله تعالى (بالعراء) قال ابن عباس (رضي الله عنهما) وغيره هي الارض التي ليس فيها بيت ولا بناء ^(٦٠) وعندما ألقى على الساحل وهو سقيم وقد ضعفت قوته عار . « قال ابن مسعود : كهيفة الفرخ ليس له ريش وقال ابن عباس والسدي كهيفة الصبي حين يولد . وقال ابن زيد : ما لفظه الحوت حتى صار مثل الصبي المنفوس قد نشر اللحم والمظم فصار مثل الصبي المنفوس » ^(٦١) واختلفوا في اليقطين « فابن مسعود وابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد ابن جبير ووهب بن منبه وهلال بن يساف والسدي وقتادة والضحاك وعطاء وغير واحد قالوا كلهم : اليقطين هو القرع وقال هيثم عن القاسم بن ابي ايوب عن سميد بن جبير كل شجرة لا ساق لها فهي من اليقطين وفي رواية كل شجرة تهلك من عامها فهي من اليقطين . ونكر بعضهم في القرع فوائد منها سرعة نباته ، وتظليل ورقه لكبره ونموته ، وأنه لا يقرها الذباب ، وجودة تغذية ثمره ، وأنه يلاكل نيئاً ومطبوخاً ، وقشره ايضاً ، وقد ثبت ان الرسول (ﷺ) « كان يحب الدباء ويتبعه من نواحي الصحفة » ^(٦٢) .

بعد هذه التجربة وبعد ان استعاد عافيته وعندما أمره تعالى بالعودة الى قومه كان قد استفاد من الدرس الذي رياه عليه رؤه سبحانه وتعالى . عاد يونس (عليه السلام) وهو أقوى عزيمة وأوسع حلماً مما كان عليه قبل ابتلائه في جوف الحوت . ولهذا اراد الله سبحانه وتعالى أن يقول للنبي محمد (ﷺ) آخر أنبيائه ورسله الى الارض ومن خلال الدرس الذي تلقاه يونس ان طريق الدعوة لايد له من الصبر فقال تعالى ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم . لو لا ان تكلمه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم . فاجتبه ربه فعطه من الصالحين ﴾ ^(٦٣)

(٦٠) ابن كثير / م / ص / ج / ٤ ص ٢٦ .

(٦١) مهراڤ / د . محمد بيوسي / م . م / ص / ج / ٤ ص ١٨٦ محمد الطبري / ٢٣ / ١٠٢

(٦٢) ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / ج ٤ ص ٢٢ .

(٦٣) سورة القلم / ٤٨ - ٥٠ .

ومحمد (ﷺ) الرسول العظيم الذي ارتبط مع الانبياء برياط الاخوة والمحبة لم يكن ينظر الى يونس على انه ضعف او تهاون وحذر المسلمين ان يسيطر عليهم هذا التصور عن هذا النبي الكريم يونس (عليه السلام) فأراد رسول الله (ﷺ) تادباً ومحبة لآخيه يونس فقال (ﷺ) : لا ينبغي لعبد ان يقول أنا خير من يونس بن متي « رواه الامام احمد وروى البخاري عن النبي (ﷺ) قال : ما ينبغي لعبد أن يقول أنني خير من يونس بن متي ، ونسبه الى أبيه وهذا من باب الهضم والتواضع منه صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الانبياء والمرسلين »^(٦٤) وفي حديث البخاري تأكيد على ان يونس (عليه السلام) كان اسم ابيه متي وقد خالف ابن الاثير هذا الحديث ونهب الى ان اسم امه متي وقال : قيل لم ينسب احد من الانبياء الى امه الا عيسى بن مريم ويونس ابن متي وهي امه »^(٦٥) .

(٦٤) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ٢٩٣ - ٢٩٥ .

(٦٥) ابن الاثير / الكامل في التاريخ / ج ١ ص ٢٠٨ .

المبحث الثالث

يونس (عليه السلام) في المصادر فهر الإسلامية والحرفيات

أكثر المصادر غير الإسلامية أشارت بوضوح إلى حياة يونس (عليه السلام) وسيرته هو العهد القديم حيث وضع سفر كامل له يحتوي على أربعة فصول تلك سفر يونان أو (كتاب يونان) كما هو مسمى في العهد القديم وقد وضع كتاب يونان قبل ميخا وناحوم وبعد عويديا وبعد سفر يونان من الاسفار الصغرية ولا يخلو وجوده بين اسفار العهد القديم من الغرابة إذا انه لا يتحدث عن الشعب اليهودي . وقد استدل مترجمو الكتاب المقدس من خلال هذا السفر على محبة الله لكل البشر « حيث عبر الله عن صحته لكل الجنس البشري سواء أكانوا من بني إسرائيل أو من الأمم لم يكن في وسع يونان ان يخلص الحب لشعب آشور غير ان الله لم يشأ لها سوى كل خير وخلص لهذا أرسل لهم نبياً يمرض عليهم التوبة فيحيون ، كذلك يجسد هذا الكتاب قوة الله وتحكمه بقوى الطبيعة »^(٦٦) وقد جاء في هذه المقدمة « يونان من مواليد إسرائيل وقد دعاه الله ليحمل رسالة التوبة إلى مملكة آشور التي كانت عاصمتها نينوى وهي المملكة التي قامت بتدمير مملكة إسرائيل في سنة ٧٢٢ ق . م . عندما

(٦٦) الكتاب المقدس / مقدمة كتاب يونان في العهد القديم كتب التوضعات على العهد القديم

لغيف من علماء اللاهوت / ص ١٠٨٨

تسلم يونان الرسالة من الله أبت عليه روح الوطنية ان يبشر بالخلاص أمة وثنية فحاول الهرب من الله على ظهر سفينة ولكن بعد سلسلة احوادث طرح يونان الى اعماق البحر فابتلعه الحوت ثم ما لبث الحوت ان لفظه عند شاطئ البحر وأخيراً أنعن يونان الى أمر الرب فانطلق الى نينوى ليبشر أهلها بالخلاص» (١٧) .
 « ولا يقدم لنا العهد القديم معلومات وافية عن شخصية يونان صاحب السفر فكلمنا جاء في سفر الملوك الثاني (١٤ / ٢٥) انه النبي (يونان بن امثاي) من (جت حافر) على مقربة من الناصرة بارض الجليل» (١٨) . وسنقتطع مقاطعاً من سفر يونان لمقارنتها بالرواية القرآنية :

يونان يهرب الى ترشيش : ١ : وأمر الرب يونان بن امثاي (هيا امضي الى نينوى المدينة العظيمة وبلغ أهلها قضائي لان اثمهم قد صعد اليّ . غير ان يونان تاهب ليهرب من الرب الى ترشيش فانحدر الى مدينة يافا حيث عثر على سفينة مبحرة الى ترشيش فذفع أجرتها وصعد اليها ليتوجه مع بحارتها الى ترشيش هرباً من الرب . [ثم تحدث ربح ويتحدث الكتاب عن ابتلاع الحوت له] . وأمر الرب فاعد حوتاً عظيماً ابتلع يونان فمكث يونان في جوف الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال [ويذكر الكتاب صلاة يونان وفيها تسبيح وبعاء] . استفتت بالرب في ضيقي فاستجاب لي ومن جوف الهاوية ابتلعتُ فسمعت صوتي لانك طرحتني الى اللجج العميقة في قلب البحار فقلت قد طردت من حضرتك ولن اعود اتفرس في هيكلك المقدس
 عندما وهنت نفسي في داخلي تذكرت الهي فحلقت في صلاتي اليك ... فأمر الرب الحوت فكنف بيونان الى الشاطيء [بعدها يبعثه الله الى نينوى] فهب يونان وتوجه الى نينوى بموجب امر الرب وكانت نينوى مدينة بالغة العظمة يستغرق اجتيازها ثلاثة أيام ويبدأ ينادي قائلاً : (بعد اربعين يوماً تدمر المدينة) فأمن شعب نينوى بالرب واعلنوا الصيام وارتدوا المسوح ... فلما رأى الله أعمالهم وتوبتهم عن طرقهم الائمة عدل عن العقاب الذي كان مزمعاً ان يوقعه بهم وعفا عنهم فاتار ذلك غيظ يونان وغضبه الشديدين وصلى الى الرب قائلاً : « ايها الرب اليس هذا ما قلته عندما كنت في بلادي ؟ لهذا أسرعت الى الهرب الى ترشيش لاني عرفت انك إله

(٦٧) الكتاب المقدس / العهد القديم / توضيحات ومقدمة على كتاب يونان .

(٦٨) مهراڤ / د. محمد بهومي / دراسات تاريخية في القرن الكريم / ج ٤ ص ١٨٨ ويذكر خطأ

سفر الملوك الاول والحقيقة الملوك الثاني . انظر العهد القديم / ٢ مل / ١٤ : ٢٥

رحيم رؤوف بطيء الغضب كثير الاحسان ترجع عن العقاب والان دعني ايها الرب
الفظ انفاصي لانه خير لي ان اموت من ان احيا . فقال الرب : أنت محق في
غضبك ٩ . [وبعدها يذكر الكتاب كيف ابه ربه بانبات اليقطين] ولكن في فجر اليوم
التالي اعد الله بودة قرصت اليقطينة فجفت فلما أشرقت الشمس أرسل الله ريحاً
شرقية حارة لفحت رأس يونان فاصابه الاعياء وتمنى لنفسه الموت قائلاً : خير لي ان
اموت من ان أظل حيا [فقال الله ليونان أنت محق في غضبك من اجل اليقطينة ؟
فاجاب انا محق في غضبي حتى الموت . فقال الرب : لقد أسفقت أنت على اليقطينة
التي لم تتعب في تنميتها وتربيتها هذه اليقطينة التي ترعرعت في ليلة ونوت في
ليلة . أفلا أسفقت أنا على نيدوى المدينة العظيمة التي يقيم فيها اكثر من مئة
وعشرين الف شخص ممن لا يفرقون بين يمينهم وشمالهم فضلا عما فيها من بهائم
كثيرة^(١١١) . نجد ان الرواية التوراتية تقترب من الرواية الاسلامية (النص القرآني
مع تفسيراته مع الاحاديث النبوية الشريفة) ولكن لا بد ان نحدد ان التقاء النص
القرآني مع الرواية التوراتية في نقطتين مهمتين فقط هما :

— ان الشخصية المتحدت عنها واحدة وهي شخصية النبي يونس (عليه
السلام) .

— أهم حدث وقع لهذا النبي هو ابتلاع الحوت له مع تقارب في ملابسات هذا
الحدث وفيما عدا هاتين النقطتين تختلف الرواية التوراتية عن القرآنية وفيما
يلي ايجاز لاهم الفروقات مع المقارنة :-

١ نسبت التوراة يونس الى بني اسرائيل ولم يذكر القرآن هذه المعلومة بل على
العكس من ذلك جعل القرآن يونس نبي قومها حددت الرواية التوراتية ان
يونان هرب الى ترشيش اين تقع ترشيش ؟ لا أحد يعرف ولا احد يعرف اسم
هذه المدينة الحالي^(١١٢) . والقرآن الكريم لم يحدد الجهة التي قصدها يونس
(عليه السلام) ولم يذكر انه هرب من الرب كما تذكر التوراة بالنص ولكن
القرآن الكريم يذكر انه نهب مفاضياً لقومه بسبب موقفهم فهو اعلان عداء

(٦٩) العهد القديم / يونان : ١ - ٤ .

(٧٠) يلعب على القهقري الى ان تجهيز (من لصالح اسبانيا على لفظ الفن) انظر القهقري /
على الاساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة / ص ٣٠٩ انظر التوضيح في الهامش

بينه وبين القوم وأيضاً يبدو ان بعض التفسيرات لقوله تعالى ﴿ لظن ان لن نقدر عليه ﴾ التي فسرتها بأنه اعتقد انه يستطيع الهرب من الله هذه التفسيرات متأثرة بمعلومات أهل الكتاب ولكن المفسرين أكتوا ان هذا لا يجوز في حق الانبياء وفسروها بأنه اعتقد سعة الارض وذهب يبحث عن قوم آخرين اي ظن ان الله لن يضيق عليه . وفي التوراة تفاصيل انه انحدر الى مدينة يافا وصعد الى السفينة ولم يتطرق القرآن الى هذه التفاصيل وانما ركز النص القرآني على الحدث من نون ملبسته وهي منهجية القرآن في رواية الواقعة التاريخية .

٢ - حددت الرواية التوراتية المدة التي مكث فيها يونس في بطن الحوت بـ (ثلاثة ايام وثلاث ليال) ولم يحدد النص القرآني هذه المدة وهذا التحديد يعكس لنا تطلعات بشرية لسياق القصة .

٣ - في التوراة تسبيحات وترتيلات يونس (عليه السلام) فيها ممان طيبة هذه الترتيلات تقابل في القرآن الكريم دعاء يونس (عليه السلام) في بطن الحوت في قوله تعالى ﴿ فنادى في الظلمات ان لا اله الا انت سبحاتك اني كنت من الظالمين ﴾ فاستجبت له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴿ ولا يمكن مقارنة ترانيل يونس (عليه السلام) التي اوردتها التوراة وهو يصلي في بطن الحوت وبين هذه الدعوة العظيمة التي نكرها النص القرآني . ففي هذه الدعوة توحيد الالهية التي هي غاية الانبياء والرسالات والاقرار بالمعبودية والاستغفار من الذنب وقد روي عن الحسن البصري : « ما نجاه الله تعالى الا باقراره عن نفسه بالظلم »^(٧١) ومن خلال هذه الدعوة يرتبط المسلم بربه ويتعلم حقيقة نكرها القرآن الكريم فقد « روى ابن جرير عن ميمون بن مهران قال : سمعت الضحاک بن قيس يقول على منبره : اذكروا الله في الرخاء ينكرکم في الشدة ان يونس كان عبداً لله ذاكراً . فلما أصابته الشدة دعا الله فقال : ﴿ لولا انه كان من الصبحين لبث في بطنه الى يوم يبعثون ﴾ . فنكره الله بما كان منه »^(٧٢) وقد وردت روايات وأحاديث نبوية عن هذه الدعوة العظيمة التي أوحاها الله تعالى الى نبيه وفي الحديث « دعوة

(٧١) مهران / د. محمد بيومي / دراسات تاريخية م . م / ج ٤ ١٨٤ عن الرازي / التفسير .

(٧٢) مهران / د. محمد بيومي / م . م / ص ١٨٦ عن تفسیر الطبري / ٢٢ / ١٠٠

ذي اللون اذ هو في بطن الحوت ﴿ لا اله الا انت سبحاتك اني كنت من الظالمين ﴾ فانه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط الا استجاب له (٣٣) .
 وفي صلاة يونان في التوراة مع لطافتها وحسنها فإنها لا تخلو من شوائب التصورات اليهودية كما في قوله (ولن اعود اتفرس في هيكلك المقدس)
 وتامل هذه العبارة (ان الذين يبجلون الاصنام الباطلة يتخلون عن مصدر نعمتهم أما انا فيبهتاف الحمد اذبح لك وما نذرته اوفي به لان للرب الخلاص) . وتامل صفاء التوحيد مع الاقرار بضعف الانسان في قوله تعالى ﴿ لا اله الا انت سبحاتك اني كنت من الظالمين ﴾ .

٤ - في الرواية التوراتية معلومة تسلط الضوء على نينوى وإنها مدينة كبيرة (بالغة العظمة يستغرق اجتيازها ثلاثة ايام) وهذه المعلومات التي لم يتطرق لها النص القرآني ولا تتعارض مع هدف القصة القرآنية ومحورها فإنها تسلط الضوء على بعض النقاط وتوضح بعض الغموض وتعين على إكمال الصورة وزيادة فهم النص القرآني وبذلك تتأكد لدينا الحاجة الى دراسة التوراة وتمحيصها والاستفادة مما فيها كمصدر من مصادر تفسير النص القرآني . ولا سيما ان التوراة تمتاز بانها اقدم النصوص المكتوبة والمحفوطة^(٣٤) . وكذلك خلفيات القصة وقوم يونس وكل القضايا التي لم يتطرق لها النص القرآني نستطيع ان نستأنس بها عند دراسة النص القرآني ولا بد ان نشير هنا الى معظم ما ذهب اليه المفسرون عندما تناولوا هذه الموضوعات المشتركة بين القرآن والتوراة فانهم اقتبسوا وتأثروا فيها فيما تعرضوا له من تفسير من نصوص القرآن الكريم بالتوراة .

٥ - وعكس الحوار بين يونس والرب جلّت قدرته سلوكا لا يليق بالذي الكريم وهو يعترض على توبة الرب عن أهل نينوى وفيما تبقى من الرواية التوراتية مما تقربت به التوراة ولم يعترض له النص القرآني وقد صيغ بأسلوب قصصي وعظمي والحوار الذي سجلته التوراة بين الرب ويونس لا يخلو من معاني

(٧٣) الترمذي والنسائي وفي مستدرك احمد ١ / ١٧٠ . اظهر مهرازي / محمد بيومي / م . ص / ١٨٦

(٧٤) لا نعني بها محلوطة من التعريف والتبديل كما نعني بحفظ القرآن الكريم ولكن نعني انها محالفة عليها المراد الان اي بالقبلة حتى الان .

الحكمة والتربية والتوجيهات العملية عن شجرة اليقطين وموتها وحزن يونس عليها وما ذكره الرب ليونس من الحكمة في موت الشجرة كل هذا لا يتعارض مع القرآن ولكنه اسلوب مبسط تبدو عليه تأثيرات بشرية فهو نص يفتر الى الاعجاز على عكس القرآن الكريم المعجز . ولا بد من الاشارة هنا ان التوراة نكرت قصة اليقطين من نون ان تربط بينها وبين خروجه من بطن الحوت على عكس القرآن الكريم فقد ربط بين حاله بعد خروجه من بطن الحوت وانبات اليقطين عليه لذلك تؤكد على ضرورة دراسة نبات اليقطين من قبل علماء متخصصين لمعرفة ارتباطه بعلاج حالات مرضية كحالة النبي يونس (عليه السلام) . ونريد ان نؤكد هنا على حقيقة وثابت من الثوابت التي لا بد من توضيحها ونحن نوازن بين القرآن الكريم والتوراة وهي ان هذا التقارب الذي قد يصل في بعض الاحيان الى التطابق يؤكد حقيقة القصة وان احداثها قد وقعت فعلاً وليست حادثة الحوت رمزية كما يذهب الى ذلك بعض شراح التوراة الذين قالوا بانها « قصة رمزية او رواية تمثيلية في قالب تاريخي »^(٧٥) وفي هذه التفسيرات تأثر بالمناهج التي تنكر القدرة الالهية والمعجزات التي اجراها الله تعالى لانبيائه ولكننا نزداد يقيناً في كل يوم فتأمل في كتاب الله تعالى وما يطابقه فيما ورد فيه مع الكتب الاخرى وكلمات تطابقت مع الرواية القرآنية رواية الكتب الاخرى كلما نزداد ايماناً ويقيناً بأن هذا القرآن من عند الله وليس من عند محمد (ﷺ) .

يونس (عليه السلام) في الانجيل :

وردت اشارات عن قصة يونس (عليه السلام) ذكرها المسيح (عليه السلام) لقومه يذكرهم بآيات الله ومعجزاته ويتوبه قوم يونس (شعب نينوى) فقد جاء في إنجيل متي : عندئذ اجابه بعض الكتبة والفريسيين قائلين : يا معلم نرغب في ان نشاهد آية تجريها فاجابهم (جيل شريو خائن يطلب آية ولن يعطى آية الا آية يونان النبي . فكما بقي يونان في جوف الحوت ثلاثة ايام وثلاث ليال هكذا سيبقى

(٧٥) مهراڤ / د. محمد بيومي / م . س . ج ٤ ص ١٩١ عن قاموس الكتاب المقدس / ٢

ابن الانسان في جوف الارض ثلاثة ايام وثلاث ليال سيقف أهل نينوى يوم الدينونة مع هذا الجيل ويدينونه لانهم تابوا لما انزهرهم يونان وها هنا اعظم من يونان (٧٦) وفي هذه المقاطع التي نكرها المسيح (عليه السلام) عن يونان تطابقت أحداث الحوت ونكر مدينة نينوى وتوبة قوم يونس وهذا يؤكد أصالة الحدث وترابطه الواضح في المصادر المختلفة وقد جاء في إنجيل برنابا نكر يونس (عليه السلام) على لسان السيد المسيح (عليه السلام) . فقد جاء الفصل الثالث والستون : « وبعد ايام مر يسوع بجانب مدينة للسامريين فلم يأذنوا أن يدخل المدينة ولم يبيعوا خبزاً لتلاميذه فقال يعقوب ويوحنا عندئذ : « يا معلم ألا تريد ان تضرع الى الله ليرسل نارا من السماء على هؤلاء الناس ؟ » اجاب يسوع : انكم لا تعلمون اي روح يدفعكم لتتكلموا هكذا . انكروا ان الله عزم على اهلك نينوى لانه لم يجد احدا يخاف الله في تلك المدينة التي بلغ من شرها ان دعا الله يونان النبي ليرسله الى تلك المدينة فحاول الهرب الى طرسوس (٧٧) خوفا من الشعب فطرحه الله في البحر فابتلمته سمكة وقذفته على مقربة من نينوى . فلما بشر هناك تحول الشعب الى التوبة . فرأف الله بهم » (٧٨) وهذه الحادثة التي وقعت الى السيد المسيح مذكورة في انجيل لوقا ولكن من لوقا نكر يونس وقصة الحوت « فلما رأى نلك تلميذاه يعقوب ويوحنا قالا : يا رب اتريد ان نأمر بان تنزل النار من السماء وتلتهمه ؟ فالتفت اليهما وويخهما ثم نهبوا الى قرية اخرى » (٧٩) .

ان اختلاف الاسلوب وسياق الاحداث بين الاناجيل والتوراة مع انها تتكلم عن حدث واحد وقصة واحدة يؤكد التأثيرات البشرية عليها ولكن الحقيقة تبقى ثابتة وهي شخصية يونس (عليه السلام) وحادثة الحوت وهذا لا يمكن انكاره كتواتر على نقل جوهر القصة وحقيقة الحدث .

(٧٦) متى / ٢٨ : ١٢ - ٤٢ .

(٧٧) هنا ينكر اسم المدينة وهي العهد ترشيح . وقد تكون كركميش المنكورة في العهد القديم وهي مدينة قريبة من حران شمال بلاد الشام في آسيا الصغرى .

(٧٨) سفر برنابا ، ١٦٢ : ١ - ٩ .

(٧٩) سفر لوقا ، ١٠ : ١٥٤ : ٥٦ .

يونس (عليه السلام) في الحفريات :

اجمعت الكتب التي بحثت ودرست نتائج الحفريات والرقم الطينية على استبعاد نكر الانبياء ولا ندري هل هذا التوافق بين عدم العثور على اسماء الانبياء . هل جاء عفواً وغير مقصود او هناك اخفاء في المعلومات ولكننا وجدنا احياناً جاء نكرها في الرقم الطينية وهذه الاحداث مرتبطة بالانبياء وشخصياتهم فواضح لنا هذا النكر والحدث المنكور في الرقم الطينية بان هذا الحدث قد وقع وان هذه الظاهرة ربط هذه الاحداث بشخصيات غير الانبياء جاء نتيجة لاختلاف الاسماء وبسبب التضخيم الاسطوري والبعد الزمني والتاريخي في الحدث والتغيرات التي طرأت على البيئة الاجتماعية والعقلية والثقافية والتبدلات اللغوية واللفظية في طبيعة النطق مما ادى الى اختلاف في نطق الاصوات للاسماء او ان هذه الاسماء نقلت معانيها كما نكرت شخصية نوح (عليه السلام) بالرجل الذي طال عمره او صاحب الحس المرهف وكما حدث بالنسبة الى ابي (ابراهيم - عليه السلام) من تبديل من أتور وأشور الى أزر وتارح في التوراة وكذلك اسم ابراهيم حدثت عليه تغييرات من ابرام وابراهام وابراهيم وما يقال عن خل ايل وما ذهب اليه « نويرتي ان ترجم اسم (بمقي اليسو) بحبيب الله من المقه بمعنى الحب والايل بمعنى الله وضمير الاضافة ، وجاء قلبى فظن ان هذا الاسم يطابق في الزمن والصفة اسم الخليل ابراهيم وان الخليل كان ملكاً من الملوك الذين حكموا جنوب العراق عند الخليج العربي لان الاقوال متواترة بمقام الخليل هناك في أور الكلدانيين ولان اسم (بمقي اليسو) ورد في الآثار البابلية بين ملوك عدة يُسمون بملوك الشاطيء او ملوك الارض البحرية وهو اصطلاح لهم يطلقونه على العرب من سكان تلك الجهات «^(٨٠) وما ساعد على حفظ المعلومات عن الاحداث التي وقعت للانبياء او عاصرتهم او جرت لهم مع اقوامهم انها كانت احياناً لها وقعها التاريخي وان الاثر الذي احدثته على الواقع لم يكن لينسى بسرعة بل طُبعت نكراه في المشاعر والفكريات التي تناقلتها الشعوب

(٨٠) المقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ١٦٥ عن كتاب ١

كما حدث لنكرى الطوفان وحادثة تحريق ابراهيم (عليه السلام) ايضاً انعكس في اعمال بابلية لاحقة بسبب تأثيرها الدرامي واخذ اليهود هذه القصة في اثناء السبي البابلي ووضعوها في سفر دانيال « وسماع دانيال بها في بابل له دلالة في هذا الصد »^(٨١) .

وقد وقع الامر نفسه بالنسبة لقصة يونس (عليه السلام) حيث جعل اليهود يونس (عليه السلام) نبياً قومياً من بني إسرائيل وربطوا احداث القصة ومآثرها ببني إسرائيل . ولكننا وجدنا في بعض المدونات البابلية القصة ذات طابع اسطوري ترتبط بصيرة وشخصية يونس (عليه السلام) فقد (حفظ لنا المؤرخ البابلي - بيروسس في بقايا تاريخه التي حصلنا عليها بعد ان ضاع معظمه احاديث قديمة جداً عن بداية الحضارة في بلاد ما بين النهرين . وفقاً لهذه الاحاديث رأى السكان البدائيون . وهم في مستوطناتهم الكائنة في المستنقعات الواقعة حول الخليج العربي مخلوقاً خرافياً عرف باسم اونيس (oannes) وكان نصف انسان ونصف سمكة ويخرج هذا المخلوق من الماء فيمضي النهار بين السكان مرشداً اياهم الى كل فرع من فروع المعرفة ثم يرجع كل ليلة الى الاعماق . وقد استمر ظهور مثل هذا المخلوق اربع مرات ، وكان كل مخلوق يكمل العمل الذي بدأه سابقه . ونتيجة لهذا المفهوم بالذات عن المعرفة الموحى بها صارت هذه المعرفة ليست محترمة وحسب بل ومقنعة ايضاً »^(٨٢) ان الاسم اونيس لا شك قريب جداً من يونس وارتباط الشخصية بالسمكة يقرب عناصر القصة وقد حاول علي الشوك ان يربط بين الشخصيتين وقال : « ولا ادري ان كان هناك صلة بين اسم (يونان) او (يونس) و (اونس) (Oannes) الكائن الاسطوري السومري ويحدثنا هارولد بيك (Harold peak) في كتاب الطوفان عن (اونس) هذا قائلاً : (ويحكى لنا بيروسس عن اسطورة عن كائن (هو له) غريب يُدعى أونس نصفه سمكة ونصفه الآخر انسان خرج من البحر وجاء بالمعرفة لسكان ما بين النهرين »^(٨٣) ويذكر كذلك : « ويعتقد ان مؤلف هذه الحكاية كان احد المنفيين في بابل وقد استعاد نكرى الآشوريين

(٨١) المقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ٤٩ .

(٨٢) كونتهلو / جورج / الحياة اليومية في بلاد بابل وتشور ترجمة سليم طه التكريتي وبرهان

عبد التكريتي / ص ٣٦٢ .

(٨٣) الشوك / علي / الاساطير / ص ٣١١ .

المكروهين ليبيشرهم النبي برسالة إسرائيل^(٨١) ويخلص الى القول : فهل يحق لنا ان نذهب الى القول بأن يونس او يونان ما هو الا اونس السومري^(٨٢) وقد عثر على ثلاثة الواح في مكتبة آشور بانيبال في مدينة نينوى تحكي قصة ادبا (Adapa) « وتمطي المعاجم اللغوية البابلية مرانفات لاسم ادبا (Adapa) تمل على انه يعني الحكيم . العاقل ، العارف ، كما عرف ادبا أيضاً باسم (Uan) الذي نكره المؤرخ بيروسوس (Berosus) بصيغة (Oannes) للدلالة على اول حكيم من اصل سبعة حكماء . من العصر الذي سبق الطوفان^(٨٣) وفي جزء من رقيم الطين يتحدث عن ادبا نكر انه تعرض للفرق وعندما ساله الاله انو عن سبب كسره جناح ربيع الجنوب فاجاب ادبا قائلاً : « كنت اصطاد السمك وسط البحر لعائلة سيدي (أيا) وكان البحر صافياً كالمرآة . لكن ربيع الجنوب هبت واغرقتني — وفي سورة الغضب انزلت بها اللعنة^(٨٤) وعلى اية حال فان هذه الرقيم تعكس لنا طبيعة ثقافة المصور القديمة التي تشبثت بالاساطير ولكننا نستطيع ان نفرز من بين هذه الاساطير بعض خيوط الحقيقة التي تربطنا بيونس (عليه السلام) وقصته فالاسم والسمكة والبحر والفرق والوحي والحكمة والمعرفة كلها حقائق مشتركة بين الحقيقة والاسطورة .

(٨٤) الضوك / علي / الاساطير / ص ٣١١ .

(٨٥) الضوك / علي / الاساطير / ص ٣١٢ .

(٨٦) علي / د. فاضل عبدالواحد / سومر اسطورة وملحمة / ص ٢٤١ . (ان ارتباط القصة بعصر قبل الطوفان قد يكون منتحلاً وقد صاغه بيروسوس ويضعه في عصر موغل في القدم والحقيقة ان قد يكون القتيبة من عصر قريب لمصره او قبله بقرون قليلة ، وعملية التنوير في الرقيم الطينية غير مستبعدة كما نكرنا سابقاً ما نكره المرحوم المكتنوب طه باقر عن قضية التنوير التي اكتشفت في احدى نسخ ملحمة كلكامش . راجع فصل ابراهيم) عليه السلام (حيث نكرنا هذه القصة .

(٨٧) علي / د. فاضل عبدالواحد / م . م / ص ٢٤٢

المبحث الرابع

انجباء مزوا بالمران (انجباء الامر البابلي)

ان المتأمل في حضارة وادي الرافدين تأسره الملاحظات المدينة عن طبيعة هذه الحضارة من حيث قدمها وتميزها عن الحضارات الاخرى والتاريخ يبدأ قبل الكتابة كما يقول فرنكونوت : انه لامر بسيط جداً ان نقول ان التاريخ يبدأ ببده الكتابة كما يفعل المؤرخون . إن قولاً كهذا يصلح بالنسبة لمصر حيث ان اقدم النقوش تشير الى اولى الحوادث والشخصيات المعروفة وهكذا فانها كسجلات للمعارك والاسماء الملكية تكون اقدم مادة للتاريخ المصري . لكن الامر ليس كذلك في بلاد ما بين النهرين حيث اتخذت المدينة شكلها وحيث ظهرت الكتابة قبل ان وجدت الوثائق التاريخية بمعناها المحدود بزمان طويل . وسنرى ان هذا الفرق بين مصر وما بين النهرين يعود الى تباين الغايات التي كان على الكتابة والفن ان يخدمها ^(٨٨) .

وهذه الحضارة كان الدين يؤثر فيها تأثيراً واضحاً يختلف عن تأثيرات الدين في حضارة وادي النيل فان الدين في وادي الرافدين استغرق حياة الانسان واستوعب معاناته ووصل الى الملوكية . ولم يكن العراقيون القنماء ينظرون الى الملك كإله على عكس المصريين . ولكنهم فصلوا بين الالهة والملوك واذا ارادوا رفع الملوكية جعلوا جزءاً منها آلهة والجزء الاخر بشر ولهذا قد تكون احدى الملاحظات المبنية على نصوص القرآن الكريم التي اكدت على النظرة القديمة للمصريين القنماء بان فراعنتهم كانوا آلهة مرتبطة بهذه النظرة ، وقد كانت محاولاتهم لتحنيط الفراعنة تجسدياً

(٨٨) فرانكونوت / هنري / فجر الحضارة في الشرق الابن / ص ٣٦ الهامش .

لتلك العقيدة في حين لم ينكر القرآن الكريم هذه الصورة عن ملوك العراق سوى اشارة الى الملك الذي حاج ابراهيم (عليه السلام) وادعى بأنه يحيي ويميت وهي اشارة مقتضبة تتناسب مع حقيقة نور الملوك في وادي الرافدين في حين ان القرآن الكريم سلط الضوء على الفراعنة وجعلهم نمونجا-للطفيان والتاله كما في قوله تعالى ﴿ فقال اناربكم الاعلى ؕ فآخذ الله نكال الآخرة والاولى ﴾ بينما نجد ان معظم الصور التي عرضها القرآن الكريم التي كان يتصدى لها ابراهيم: (عليه السلام) او نوح (عليه السلام) كانت تركز على الحوار بين النبي والكهنة او بين النبي والطبقة المتروفة . وقد حدد هنري فرانكفورت الفروقات بين حضارتي مصر والعراق يمكن ايجازها بما يأتي : « ان اقدم الوثائق المكتوبة في بلاد ما بين النهرين كانت تخدم غاية عملية محضة كانت تسهل ادارة الوحدات الاقتصادية الكبيرة اي مجتمعات الهيكل بينما كانت النقوش المصرية الاولى اساطير عن ابنة ملكية او اختاما محفورة تميز شخصيات موظفي الملك واقدم الشخصيات الفنية في بلاد ما بين النهرين كانت دينية بالدرجة الاولى في حين انها كانت في الفن المصري تخليداً للاعمال الملكية وكانت تدور حول شخصيات تاريخية . ان الابنية الضخمة تتكون من المعابد في بلاد ما بين النهرين اما في مصر فانها كانت المدافن الملكية . اقدم مجتمع متحضر في بلاد ما بين النهرين يتبلور في خلايا منفصلة في عدد من المدن المتميزة المتمتعة باستقلال ذاتي وحدات سياسية مستقلة اما المجتمع المصري فاتخذ شكل مملكة منفردة موحدة لكنها زراعية تحت سلطة حاكم مطلق . ان الابداعات التي لدينا عن مصر تدل على ان الانتقال لم يكن بطيئاً ولا تدريجياً بل كان هناك عصر ابداع اول . وقليلة في مصر الفرعونية هي الاشياء المهمة التي لم تكن لها اصول في عصر الابداع العظيم: الاول هذا . في حين تاريخ ما بين النهرين يبين سلسلة من الانتفاضات المتتامة على فترات من قرون قليلة حققت اكثر من تعديل واحد في تركيبه السياسي فاللغة السومرية - مثلاً - كانت مسيطرة خلال مرحلة تكوين حضارة ما بين النهرين حلت محلها اللغات الاكدية اثناء النصف الثاني من الالف الثالث وانتقال مركز السلطة في الالف الثالث من سومر في اقصى الجنوب الى بابل في الوسط وفي الالف الثاني اُسور في اقصى الشمال جلب معه تغيرات ثقافية مهمة . فان حضارة ما بين النهرين لم تفقد شخصيتها اطلاقاً . ان شكلها اصيب

بالتصديق خلال تاريخها المضطرب لكنه لم يتحطم ابداً^(٨٩). إن نشوء المدن في بلاد ما بين النهرين يمسك لنا قدم هذه الحضارة حيث صورت لنا متابعة نشوء هذه المدن زمنياً موعداً في القدم يؤكد بان البدايات الاولى للمجتمع المدني والقرى كانت على ارض الرافدين « ولعل من اهم الشواهد الدالة على قدم وأصالة حضارة وادي الرافدين ان باستطاعة الباحث تتبع مراحل تطورها مرحلة بعد اخرى خلال المصور الزمنية المتعاقبة ولعل ابرز مقال يمكن نكوه في تلك الصدد هو تعاقب مراحل الاستيطان في الفطر بشكل مستمر ومتسلسل ابتداء من استيطان الكهوف وانتهاء بظهور المدينة في بداية فجر التاريخ^(٩٠). ولعل اهم مدينة بقيت شاصفة عبر التاريخ هي بابل « خلال السنة الاولى من عهد حكم ملك لارسا (سمو - بيل) عام ١٨٩٤ ق م . اتخذ احد الشيوخ الاموريون واسمه سورمو - ابوم . مدينة لا تبعد عن كيش غير اميال قليلة باتجاه الغرب على الضفة اليسرى للفرات عاصمة له . كان اسم هذه المدينة باللغة السومرية كا - نكرو - را) واسمها الاكدي (باب - ايليم) وكلاهما يعني باب - الإله) اما نحن فنسميها (بابلون) (بالمرية بابل) نقلاً عن اليونانيين وكان واضحاً منذ البداية ان حكام بابل الانكباء المتحمسين مصمون بقوة على جعلها ليست مجرد مدينة كبيرة غنية فحسب بل وعاصمة للبلد بكامله^(٩١) . لقد كانت بابل تحكي لنا قصة طويلة من خلال ابديتها وأمتداداتها عبر القرون الطويلة بقيت بابل شاصفة وقد يدرك المتأمل في بابل وعظمتها انها لم تظهر فجأة ولكنها سلسلة طويلة من الخطوات والمحاولات من اجل بناء تلك الملك الشامخ كيف استطاع حكام بابل ان يحققوا حلمهم ؟ لا يمكن ان يكون هذا البناء بلا اثر ديني او نبوة فقد قال ابن خلدون : « ان الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك اصلها الدين ، اما من نبوة او دعوة حق . وذلك لان الملك انما يحصل بالتقلب ، والتقلب انما يكون بالمعصية وانفاق الاهواء على المطالبة ، وجمع القلوب وتأييدها انما يكون بمعونة من الله في اقامة دينه قال تعالى ﴿ لو اتفقت ما في الارض جميعا ما اتت بين قلوبهم ﴾^(٩٢) . وسره ان القلوب اذا تداعت الى الدنيا حصل التنافس

(٨٩) فرانكفورت / هنري / فجر الحضارة في الشرق الاقصى / ص ٦٠ - ٦٢ بتصرف

(٩٠) علي / د . فاضل عبدالواحد / من الواح سومر الى التوراة / ص ٦٦ .

(٩١) دو / جورج / العراق القديم ترجمة وتحليل حسين علوان حسين / ص ٢٥٢ .

(٩٢) سورة الانفال / ٦٣ .

ولها الخلاف وانا انصرفت الى الحق ورفضت الدنيا والباطل واقبلت على الله اتحدت وجهتها . فذهب التنافس وقل الخلاف وحسن التعاون والتماض واتسع نطاق الكلمة لذلك . فعظمت الدولة «^(٩٣)» هذا الدين الذي تكلم عنه ابن خلدون ليس الذي يتكلم عنه تولبي وبيورات وديركايم فهؤلاء يسقطون الواقع الفرسي على الحضارات القديمة الى حد نهب تولبي الى انه « كان لمصر (كنيسة اوزيرية)^(٩٤) كنيسة عالمية خلقتها طبقة شعبية داخلية . ان الكنيسة كهيلة منظمة من جماعة من المؤمنين لم تكن تعرف في مصر في اي زمن (ولا في بلاد ما بين النهرين ايضا » وعبادة اوزيريس التي كانت دائما شغل الملك الشاغل انتشرت بين صفوف الشعب جميعاً لكنها كانت كإحدى العبادات الاخرى التي كانت تملأ حياة كل مصري ويعزو تولبي في مكان آخر طرد الغزاة الهكسوس من مصر الى (اتحاد مقدس بين الاقلية الحاكمة في المجتمع المصري والبروليتاريا الداخلية ضد البروليتاريا الخارجية كما يمثلها الهكسوس ، فانه لا يسع المرء الا ان يقول ان هذه الكلمات منفردة وصجتمة لا تنطبق على الواقع »^(٩٥)» ولكن فرانكلورت الذي يدحض تحليلات تولبي وشبلنجر في كتابه نجده يعاني من نفس التأثيرات الفرسية في تحليلاته في مواضع اخرى من الكتاب فهو يقول بان نظرية التحدي والاستجابة غير واقعية ويمكن ان يوهم القارئ في تكوين صورة خاطئة عن التاريخ فيقول « لا الاغنياء ولا الفقراء نظروا الى دولتهم هذه النظرة ، فان استنتاج تولبي لا صلة له بالموضوع صحيح انه يستشهد بقصص رواها التراجمة الى سواح يونانيين في المصور المتأخرة عن الحكم الظالم لبناة الاهرام لكن الاخبار الحقيقية لمصر الفرعونية تبين لنا ان الناس كانوا يبتهجون بقصص الملوك بمقدار ما كان اهل (الف ليلة وليلة) يبتهجون باعمال الطاغية هارون الرشيد »^(٩٦)» وهكذا نجد انه اسقط المثل الفرسي ويربط بين الفراعنة وهارون الرشيد . اننا نريد ان نؤكد انه لا بد من دراسة تاريخنا اسلامياً بأيدي باحثين مسلمين ينتمون الى هذا التاريخ بكل ابعاده

(٩٣) ابن خلدون / عبدالرحمن بن محمد / المقدمة تحقيق د. علي عبدالواحد والمي / ج ٢

ص ٤٤٦ / مصر - ط ١ - لسنة ١٩٨٥

(٩٤) نسبة الى عبادة اوزيريس .

(٩٥) فرانكلورت / هنري / فجر الحضارة م . ص . / ص ٢٩ .

(٩٦) فرانكلورت / هنري / م . ص . / ص ٣٣٠ .

وانعكاساته وسلبياته وإيجابياته ، اننا نعلم ان العراق والنظام السياسي فيه ارتبطت بالنبوات والانبياء ارتباطاً قوياً والملاحظ على تاريخ العراق لم يتعرض لمعوقات تدميرية جراء فساد او طغيان او قتل للانبياء او اى سبب من اسباب هلاك المجتمعات فلم يحدث ان سجل لنا التاريخ الديني عقوبة تعرضت لها المدن العراقية القديمة عدا الطوفان الذي شكل بداية تاريخية للنبوات والرسالات فكان معلماً قياسياً وحدتاً تقويمياً للبشرية جمعاء . على اننا لو قارنا التاريخ الديني لشبه جزيرة العرب نجد ان هلاكاً وتدميراً قد عم اقواماً اكثر من مدن العراق فقوم هود (عليه السلام) وهم قبيلة عاد ارسل الله عليهم ريحاً ندمت مساكنهم واهلكتهم وقوم صالح (عليه السلام) وهم ثمود ارسل عليهم صيحة فدمرتهم . وكذلك قري في بلاد الشام قري سدوم وعمورة قري لوط (عليه السلام) الذين تعرضوا للزلزال مندمر والنقبت مساكنهم فكان عاليها سافلها وامطر الله عليهم حجارة . وفي مصر تعرض المصريون الى عقوبات ريانية جراء موقفهم من دعوة موسى (عليه السلام) آخرها اغراق فرعون وجنوده في البحر . وهكذا نجد ان المدن العراقية القديمة بقيت تحت التراب بكتابتها وينالها لكي نستطيع من خلال هذه الاثار التي حفظها التراب ان نتعرف على التاريخ القديم^(٩٧) اذف الى تلك ارتباط العراق القديم في التاريخ مع تاريخ بني إسرائيل أكثر من مصر لان مصر ارتبطت مع بني إسرائيل ارتباطاً مرحلياً في عصر يوسف (عليه السلام) ومن خلال موسى (عليه السلام) ولكننا نجد ان العراق القديم قد اثر في تكوين تاريخ بني إسرائيل وتعرض اليهود الى الصبي

(٩٧) يحدد الاستاذ عباس محمود العقاد مدن القوافل وهي المدن التي كانت على طريق القوافل.

في العالم القديم هي التي كانت مراكز النبوات وسهد الدعوات (فهناك حالة مشتركة في جميع الرسالات وهي الحالة الفلسفية التي تكون عليها الامم في طور واحد وذلك هو طورها . حيث تتصل البهاوة والحضارة . فلم يعرف التاريخ رسالة نبوية في الحضارة دون غيرها . او في الصحراء المعزولة دون غيرها . ولهذا كانت مدن القوافل وما في حكمها احق الاماكن بالفراصة من جانبها هذا الذي يوضحها لقيام الدعوات الدينية « انظر العقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ١٦٩ وهذا يفسر لنا عدم استقرار النبوات في مدن العالم القديمة في بابل وغيرها من مدن بين النهرين . وفي وادي الرافدين كما يؤمن توينبي « بالانسحاب والصوت » القلية تنسحب لتعزل عن مؤثرات البيئة الفاسدة ثم تعود بعد ان تكون مزوجة بطاقات وقوة قادرة على التغيير وهذا هو مبدأ الهجرة في المفهوم الاسلامي اظهر كذلك ولمسون / كولن / سقوط الحضارة / ص ١٥٠

والنصارى / الشامل على ايدي العراقيين مرتين مرة على ايدي الاشوريين والآخرى على ايدي البابليين وهي المرة المعروفة بالسبي البابلي في عصر نبوخذ نصر .
ولذلك كان العهد القديم او التوراة سجل حافل ، حافظ لنا على صفحات طويلة من تاريخ العراق القديم على ما فيه من تحريف وتبديل ولكن يمكن للباحث ان يتعرف على طبيعة تاريخ العراق القديم ومدته وملوكه ومعلومات كثيرة يمكن اخذها من التوراة للتعرف على تاريخ العراق القديم ولا سيما اذا قارنا هذه المعلومات مع نتائج الحفريات والمكتشفات الآثرية التي توصل اليها العلماء في العصر الحديث . لقد كانت بابل تشكل هاجساً للخوف بالنسبة لليهود ولكنها تفرض نفسها على العالم « ولم يتوان النبي (ارميا) في الوقت الذي تنبأ بسقوطها عن وصلها بكونها (كاس لذهبية بيد الرب اسكرت كل الارض) كما ان هيرودوت الذي يعتقد بأنه قد قام بزيارتها فعلاً نحو عام ٤٦٠ ق . م . يعلن باعجاب ظاهر بانها « تتجاوز في عظمتها اي مدينة اخرى في العالم المعروف »^(١٨) لقد ذكر القرآن الكريم اسم بابل بصراحة وكل المدن الاخرى التي ذكرت في القرآن الكريم ولم يرتبط ذكرها بالرسالة الاخيرة لمحمد (ﷺ) مثل بابل ، سبا ، مدائن فقد ذكرت هذه المدن لأهمية الدور الذي كانت تلعبه في تاريخ قبل الاسلام ولم يذكر القرآن الكريم مدنا اخرى كانت قائمة مع هذه المدن لانها لم تكن قوية من مساحة الضوء الذي كان يسلطه القرآن الكريم وهو يتابع الدبوات ومصيرة الدين في الحياة . وقد جاء ذكر بابل في القرآن الكريم مرتبطاً بعصر سليمان النبي الملك (عليه السلام) وهو احد الانبياء بني اسرائيل الذين جمعوا بين النبوة والملك وقد ذكرت بابل مرتبطة بالسحر وهو الامر الذي شاع التعامل به في عصر سليمان (عليه السلام) لان حضارة سليمان (عليه السلام) حضارة روحية غير مادية كانت الجن تلعب دوراً مهماً فيها ولذلك شاع السحر تقليداً لحضارة سليمان وتوهمها بانها قائمة على السحر وقد كانت بابل حتى عصر سليمان تمثل مركزاً عالمياً لا توجد مدينة اخرى تنافسها قوة وحضارة من حيث الاعتبارات المادية وان ذكر بابل في معرض الحديث عن نم السحر ، وانها كانت مركزاً للنشاط السحرة وفي النص ايضاً اشعار بان هذه المدينة على عظمتها لا تحمل قنصية ولكن نكرها في القرآن الكريم يوضح اهمية هذه المدينة في ذلك العصر وقد جاء ذكر بابل في سورة

(٩٨) رو / جورج / العراق القديم / ص ٥٢٢ يأخذ كلام هيرودوت عن هرميا / لي / هيرودوت /

البقرة في قوله تعالى ﴿ وَتَقْبَعُوا مَا تَتَكَلَّمُ الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكِينَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾^(١٠١) لقد انقسمت الحياة في بني إسرائيل وتاريخهم الى متنين بعد الخروج من مصر ودخولهم الى فلسطين المدة الاولى حكم بني إسرائيل فيها القضاة وقد جاء في التوراة « وحين اقام لهم الرب قضاء كان الرب مع القاضي وخلصهم من يد اعدائهم كل ايام القاضي) والمدة الثانية تسمى مدة الملوك وقد استمرت المدة الاولى مدة القضاء من التيه حتى مدة الملوك ١٢٠ سنة بدأت في سنة ١١٨٠ ق . م . وانتهت في سنة ١٠٦٠ ق . م . »^(١٠٢) وفي مدة الملوك انقسم اليهود في فلسطين على مملكتين مملكة يهوذا وكان عليها رحبعام بن سليمان ومملكة إسرائيل وكان عليها يريعام بن ناباط « وجمع رحبعام مئة وثمانين الف محارب من بيت يهوذا في اورشليم وسبط بنيامين لمحاربة إسرائيل ورث المملكة الى رحبعام ولكن شمعيا رجل الله كلم رحبعام وكلم يهوذا وبنيامين ان لا يحاربوا اخوتهم بني إسرائيل لان هذا الامر (انقسام المملكة) من عند الرب »^(١٠٣) وكان عهد سليمان اكثر استقرارا حيث صاهر فرعون مصر وقد كان ارتباك حالة مصر وأشور في نور حكمه الاول مما ساعده على الاستمرار على ذلك الاستمتاع «^(١٠٤) والاستقرار بالحكم وكان عهده عهد ثروة ومبعت صيت وخيال واطناب في سيرته ، مع ما كان واضحا من فضل الصناعات والفنيين غير الاسرائيليين في ذلك وان ما نكرته اسفار بني إسرائيل من هذا الصيت والحكمة والثروة والرخاء والسلم النسبي شيء من الصحة كثير او قليل^(١٠٥) وقد استمرت مدة الملوك بحسب اسفار اليهود (٤٧٥ سنة) وهي

(٩٩) سورة البقرة / ١٠٢

(١٠٠) محمد / محمد قاسم / التناقض في تواريخ واحداث التوراة من آدم حتى سبي بابل / ص ٣١٥ - ٣٥٣ .

(١٠١) محمد / محمد قاسم / م . س / ص ٤٢٦ .

(١٠٢) بريزه / محمد عزة / تاريخي بني اسرائيل من اسفارهم / ص ١٧٢

(١٠٣) بريزه / محمد عزة / م . س / ص ١٧٢

العدة التي تلت مدة القضاة والتي ابتدأت بمسح (شاول) وانتهت بالسبي البابلي سنة ٥٨٦ ق. م . « (١٠٤) وشاول هو طالوت في القرآن الكريم وقد حدد القرآن الكريم طريقة الحكم في بني إسرائيل بعد موسى (عليه السلام) وذلك عندما طلبوا من نبيهم ان يسأل الله ليعت لهم ملكاً يقومهم في محاربة اعدائهم الذين كانوا يسمونهم العذاب وهم الفلسطينيون والقبائل العربية التي كانت في فلسطين فاختر الله لهم طالوت ملكا . وقد جاء في القرآن الكريم عن هذه العلاقة التي كانت تحكم بني إسرائيل وهي وجود نبي ومعه ملك يقوم باعمال الحرب وادارة الدولة في قوله تعالى ﴿ ثم تر الى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى اذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال الا تقاتلوا قالوا وما لنا الا نقاتل في سبيل الله وقد اخرجنا من ديارنا وابنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا الا قليلا منهم والله عليم بالظالمين ﴾ (١٠٥) ويحدثنا القرآن الكريم ان نبيهم اخبرهم ان الله اختار لهم طالوت وهو (شاول) ملكا . ثم بعدها يجتاز بنو إسرائيل امتحانات متعاقبة مع طالوت يتساقط فيها ضعفاء الايمان الى ان وقعت المعركة مع جالوت المعروف في اسفار يهود بـ (جليات) « المحارب الذي طوله ستة اذرع وشبر وعلى راسه من نحاس وعلى جسمه درع خرشفي وزنه خمسة آلاف شاقل وجرموق نحاسي في حلية » (١٠٦) ويمد هذه المعركة صعد نجم داود في حياة بني إسرائيل ونكر القرآن الكريم هذه الحقيقة ﴿ فهزموهم ياذن الله وقتل داود جالوت واتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ (١٠٧) . اجتمعت الذبوة والملك في بني إسرائيل عند داود وسليمان وكان ملك سليمان في فلسطين « واذا اردنا ان نجعل عهد سليمان بكلمة فمن الحق ان نقول ان سلطانه لم يتجاوز ارض - كنعان - غرب الاردن - » (١٠٨) ويمد سليمان انقسمت الدولة اليهودية على قسمين شمالي وتسمى دولة إسرائيل وعاصمتها شكيم وقوامها الاسباط الذين لم يندمجوا الى الدولة الجنوبية التي كان اسمها يهوذا

(١٠٤) محمد / محمد قاسم / م . م . / ص ٤٩٠ .

(١٠٥) سورة البقرة / ٢٤٦

(١٠٦) نريزه / محمد عزة / تاريخ بني اسرائيل من اسفارهم / ص ١٤٢

(١٠٧) سورة البقرة / ٢٥١

(١٠٨) نريزه / محمد عزة / م . م . / ص ١٧٢

وعاصمتها اورشليم وقومها سبطا يهوذا وبنيامين وهي التي كان عليها رحبعام بن سليمان وقد كانت يهوذا اكثر استقرارا من إسرائيل . وقد استمرت نوبة يهوذا حتى سقطت على يد نبوخذ نصر سنة ٥٨٦ ق . م . وقد قتل نبوخذ نصر ملكها صديقا (وهو آخر ملوك يهوذا حكم ثلاثة اشهر) ونهب اورشليم ودمرها وسبى اهلها الى بابل واقام على اورشليم والياً من قبله . اما نوبة إسرائيل فقد تقلب على عرش هذه المملكة ثماني عشر اسرة وافنيت ثلاث اسر من ملوكها افناءً تاماً وعمرت الى سنة ٧٢٠ ق . م . وسقطت على يد سرجون الثاني ملك آشور وقد اعتقل سرجون آخر ملوكها هوشع بن ايله ونفاه مع عدد كبير من اهل مملكته وجعل المملكة ولاية آشورية وقد ارسل سرجون ثم حفيده اسرحدون بعده جماعات من العراق فسكنوا مكان المنفيين وهم الذين عرفوا بالسامريين على الارجح نسبة للسامرة التي كانت اسم عاصمة الدولة التي سكنوا في ارضها والغالب انها تسمية اسرائيلية للتمييز بينهم وبين بني إسرائيل لانهم هم الآخرون اعتنقوا الشريعة الموسوية ولكنهم كانوا على خلاف وتزاج مع بني إسرائيل^(١٠٩) ونريد ان نؤكد من خلال متابعة هذه الاحداث وجود علاقة بين العراق وما كان يحدث في فلسطين ولذلك نكر القرآن الكريم سليمان ثم عرض ما كان يحدث في بابل وما انزل على الملكين حيث كان السحر هو السمة الغالبة وحالة شائعة في عصر سليمان العصر الذي سخر الله فيه طاقات روحية وجان وعلوم انسية لخدمة هذا النبي الكريم فكانت حضارة سليمان حضارة مسخرة بقدرة الله فهي حضارة غير مادية تغلب الجانب الفيزيقي والروحي فيها على الجانب المادي وشاع السحر ونشطت الجن في الممالك الاخرى فعرض لنا القرآن الكريم ان العراق وبابل ارسل اليهم ملكان يعلمان السحر ويحفران من شره « وتعليمهما الناس له تعليم انذار اي يقولان لمن جاء يطلب تعلمه لا تفعلوا كذا فانه يفرق بين المرء وزوجه ولا تتخيلوا كذا فانه سحر فلا تكفروا فعلى هذا فيقول الملكين طاعة وتصرفهما فيما امر به ليس بمعصية وهي لغيرها فتنة . وروى ابن وهب عن خالد بن ابي عمران انه نكر عنده هاروت وماروت وانهما يعلمان السحر فقال نحن لنزفهما عن هذا فقرأ بعضهم ﴿ وما انزل على الملكين ﴾ فقال خالد لم ينزل عليهما . وقول خالد لم ينزل يرد (ما) نافية وهو قول ابن عباس قال مكي وتقدير الكلام وما كفر سليمان يريد بالسحر الذي افتلمته عليه الشياطين واتبعهم في تلك اليهود وما

(١٠٩) (ترويه / محمد عزة / م . س . ج / ص ١٧٩ - ١٨٠ بتصرف .

انزل على الملكين^(١١٠) لقد وضحت الآية ان الشياطين كفروا عندما ادعوا بان سليمان ساحر وانه يملك اسرار السحر ونشطت الشياطين في بث هذه الاكثوية التي روجها اليهود عن سليمان (عليه السلام) فنفى القرآن الكريم ان يكون سليمان ساحراً وانزل الله تعالى مَلَكَيْنِ او مَلَكَيْنِ (بكسر اللام) يعني بشريين ارسلهما الله لاهل بابل يحذرونهم من السحر الذي تقشى وان اشاعة هذه الظاهرة من بابل يعني اشاعة الكفر بين الناس فكما ان الاطباء يحذرون الناس من الامراض والجراثيم بعث الله هذين الملكين لتحذير الناس من السحر وقتنة الناس وتمطل سنن الحياة التي جعلها الله سبباً من اسباب تطور الحياة واستمرارها فاذا خضعت الحياة الاجتماعية للسحر والجل والشعوذة فان سنة الحياة ستتوقف ويلجأ الناس الى الكفر والسحر والجل . وقد ربط القرآن الكريم بين ملك سليمان وحضارته الروحية وبين بابل التي كانت تخضع لحضارة مادية وهذا يؤكد وجود علاقة بين مملكة بابل ومملكة اليهود في فلسطين وقد اثبت هذا الشعب انه عريق في الفتن لم يستقر له حال مع انبيائه وملوكه فسلط الله عليهم في لحظات وحالات ابتعادهم عن تعاليم السماء واستبدالهم الشرائع والقيم التي جاء بها انبيائهم بالاصنام والمعتقد الكفرية التي كان يدين بها من حولهم من الامم والذين كانوا يتعاضون معهم على ارض فلسطين . تسلط عليهم المراقبيون وكانوا معهم كالقوة التي اخبرها الله لتأديب هؤلاء اليهود اذا انحرفوا فسيبهم الاشوريون وساموهم سوء العذاب ودمر ملكهم وحطم وجوبهم السياسي بمد الاشوريين البابليين فسيبهم نبوخذ نصر واخذهم اسرى الى بابل . لذلك نجد ان كتب اليهود واخبارهم عن بابل وتوراتهم مشحونة بالكلام على بابل وبنيدوى . ونقتطع بعض المقاطع من العهد القديم سفر ارميا الاصحاح (٥٠) وما بعدها حول بابل . « النبوة التي قضى بها الرب على بابل وعلى بلاد الكلدانيين على لسان ارميا النبي : انيموا بين الامم وعلنوا انصبوا الراية وخبروا ولا تكتنموا قولوا : قد تم الاستيلاء على بابل ولحق ببيل المار وتحطم مبروخ خريت اصنامها والسحقت اوتانها لان امة من الشمال قد زحفت عليها لتجعل ارضها مهجورة شرد منها الناس والبهائم جميعاً ... إسرائيل قطع غنم متشنتت طربته الاسود كان ملك آشور اول من افترسه ونبوخذ نصر آخر من هشم عظامه لذلك ما يعلنه الرب القدير اله إسرائيل ها

(١١٠) اليحمبي / القاضي ابو الطلل عياض ت ٥٤٤ هـ / الهـا بتعريف حموق

انا اعاقب ملك بابل وارضه كما عاقبت ملك آشور من قبل وارد إسرائيل الى مرتمة
هيري على الكرمل — ها سيف على الكلدانيين يقول اهل الرب وعلى اهل بابل وعلى
اشرافها وعلى حكائها) وفي الاصحاح (٥١) عقاب بابل : وهذا ما يعلنه الرب :
ها انا اتير على بابل وعلى المقيمين في نيار الكلدانيين ريحا مهلكة وابعت الى بابل
مترين وينرونها ويجملون ارضها قفراً — انصبوا الراية على اسوار بابل شنحوا
الحراسة اقيموا الارصاد اعدوا الكمان لان الرب قد خطط وانجز ما قضى به على
اهل بابل ايتهن الساكنة الى جوار المياه الفزيرة ذات الكنوز الوفيرة ان نهايتك قد
ازفت وحان موعد اقتلاكك قد اقسم الرب القدير بذاته قائلاً : لاملئك اناساً كالفوغاه
فتملو جلبتهم عليك) . ويمضي سفر ارميا يتحدث عن بابل : تصبح قفراً — بابل
تصبح كوماً من الركام — سقوط بابل — هرب الناس — جلبة الدمار « (١١١) وفي
الاصحاح ٢٥ نبوءة ارميا « وفي ختام الصبميين سنة اعاقب ملك بابل وامته وارض
الكلدانيين على اثمهم واحولها الى خراب ابدى » . ويتحدث العهد القديم عن فساد
بني إسرائيل ويمدحهم عن الرب ويصف كتاب مرثي ارميا ارتكبت اورشليم خطيئة
لكراء فاصبحت نجسة وكيف خيم الرب في غضبه بالظلام على ابنة صهيون — زالت
الشريعة ولم يمد الانبياءها وحصلون على رؤيا من عند الرب — لنفحص طرقنا
ونختبرها ونرجع الى الرب للرفع قلوبنا وايدينا الى الله في السماوات قد تعطينا
وتمرنا وانت لم تغفر — قد جعلتنا اوساخا واقذارا بين الشعوب —) ويقتى يطلب
الرحمة والغفران — وفي الصبي في بابل كانوا انبياء وهم الذين اوحى الله اليهم في
بابل وجاءت اسفارهم في العهد القديم تمثل مرحلة من مراحل حياة الشعب
اليهودي .

النبي حزقيال :

جاء في الملاحظات على العهد القديم وترجمته الى العربية في بداية كتاب
حزقيال : « انتظم حزقيال في سلك الكهوت وكان احد الذين سبوا الى بابل مع بقية
اليهود الذين اجلوا عن المدينة المجيدة في سنة ٥٩٧ ق . م . وهناك اختاره الله

(١١١) كتاب ارميا ٥١ - ٥٢ .

ليكون له نبياً أوحى اليه الروح القدس بهذه الرسالة لتكون تحذيراً من الدينونة القادمة على البقية الباقية في اورشليم . بيد ان انذاراته لم تلق أذانا صاغية من اليهود المأسورين معه وعندما تحققت نبوءاته المحزنة بدمار اورشليم في عام ٥٨٦ ق . م . اقبل عليه الناس ليستمعوا الى اقواله «^(١١٣) . لقد عاش اليهود بعد الصبي في وضع نفسي فرض عليهم نوعا من العزلة الاجتماعية والخوف من المستقبل والياس القاتل فكان ارسال الانبياء لهم رحمة بهم وفرصة منحها الله لهم ليتوبوا ويصححوا من اخطائهم ومسيرتهم وایمانهم بقدرة الرب لكن لم تكن هذه الذبوات تمثل شيئاً الى بني إسرائيل اكثر من تعميق احساسهم بالاستعلاء وتضخيم المقد التي تكونت في داخل نفوسهم عبر تاريخ طويل من الشك والخوف والمادية السوداء ومحاربة طريق الحق والانبياء . ويحدثنا حزقيال عن بداية نبوته في كتابه « وحدث في اليوم الخامس من الشهر الرابع العبري (اي حزيران) في سنة الثلاثين من عمري فيما كنت بين المسبيين بجوار نهر خابور ان انفتحت السماوات فشهدت رؤى من عند الله . في اليوم الخامس من الشهر في السنة الخامسة لسبي الملك يوياكين أوحى الرب الى حزقيال الكاهن ابن بوزي عند جوار نهر خابور . في نهار الكلدانيين «^(١١٣) ويمضي حزقيال يحدثنا عن هذه النبوة حيث يحدثه الرب قائلاً له : « يا ابن آدم ها انا باعثك الى بني إسرائيل الى امة متمردة عصتني ، انا باعثك الى الابناء المتصلبين القساة — فان سمعوا او ابوا — لانهم شعب عاص — فانهم يعلمون على الاقل ان نبياً بينهم «^(١١٤) . وهكذا نجد في كتاب حزقيال تشخيصاً لامراض بني إسرائيل ومتابعة لتاريخهم وتذكيرهم بنعم الله عليه وينكرهم الرب كيف امتن عليهم عندما اخرجهم من النذل الذي كانوا يمانونه في مصر « ولكنهم تمرنوا علي ولم يسمعوا لي ولم يتركوا الارجاس التي تنجس عيونهم ولم يهجروا اصنام مصر فقلت : ساسكب عليهم غضبي «^(١١٥) . وجعل الرب باهل سيفاً قد تم سنه وصفاً

(١١٢) العهد القديم / مقدمة على كتاب حزقيال .

(١١٣) حزقيال / ١ - ٢ « ونهر خابور هنا غير الخابور في شمال الفرات ولا خابور شمال دجلة وانما هو منطقة تدعى (نهر خابور قرب نينوى) نذر (انظر سوسة / د . احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٦٠٥ .

(١١٤) حزقيال / ١ - ٢ .

(١١٥) حزقيال / ٢٠ : ٩

لمعاقبة بني إسرائيل»^(١١٦) ونبوءة اخرى لحزقيال تحدث عن بابل السيف الذي يجرد على مصر وتنقض اسمها»^(١١٧) لقد كان حزقيال يحاول ان يبعث الامل في بني إسرائيل ولكن نبوءاته كلها منصبة على الحرافات بني إسرائيل وكيف انصب عليهم غضب الرب وفي كتاب حزقيال مواعظ ونصائح تحاول ان ترشد بني إسرائيل الى طريق الخلاص وفي نهاية الكتاب اصحاحات تناقض الاصحاحات الاولى ويبدو انها كتبت لتبعث روح الامل في الجسد المنخور ونبوءات الامل التي نونت في كتاب حزقيال عن الهيكل والطقوس وتوزيع البلاد على الاسباط « مما فيه تناقض عجيب مع ما سبقهما من الاصحاحات التي تستبعد ان يرثوا الارض مع ما كان منهم من الحرافات شديدة خلقية ودينية ومما نرى انه هو الآخر نتيجة لما بعثته عودة بني إسرائيل (اي من السبي) فيهم من آمال»^(١١٨).

النبى دانيال :

وهو من انبياء السبي البابلي ولقد حدثنا التاريخ ان اليهود تعرضوا الى السبي على يد العراقيين ثلاث مرات الاولى على يد الاشوريين فقد تمكن شلمنصر الثالث (٨٥٩ - ٨٢٤ ق م .) من اخضاع إسرائيل لسلطة الاشوريين وقد نونت هذه المعلومات على مسلة الملك شلمنصر الثالث التي عثر عليها بين انقاض كالح (نمرود) واستمرت محاولات اخضاع إسرائيل من قبل الاشوريين حتى وقع السبي الاول على اليهود على يد سرجون الثاني والذي نفذ خطة اجلاء اليهود وقد وضع هذه الخطة ويدها سلفه تجلات بلاسر حيث اجلى سرجون (٢٧٢٨٠) شخصاً من اليهود الى ناحية حران والى ضفة الخابور وميديا واحل محلهم الاراميين من اقليم حماة ثم لحق بهم العرب هناك في عام ٧١٥ ق م . وقد عثر الخبير الاتاري بوتنا سنة ١٨٤٣ م بين اطلال مدينة شمال (زنجري) عاصمة الاراميين غربي سورية على مسلة سرجون الثاني نقشت عليها باللغة الاشورية وبالخط المسماري تفاصيل

(١١٦) حزقيال / ٢١ .

(١١٧) حزقيال / ٣٠ .

(١١٨) ريفزة / محمد عزة / تاريخ بني اسرائيل من اسفارهم / ص ٢٦٨ .

الحملة الآشورية على إسرائيل التي انتهت بالقضاء على اليهود وحمل اليهود الى
الاسر^(١١٩) اما السبي الثاني لليهود فكان على يد الكلدانيين الذين اسسوا الدولة
الكلدانية بعد سقوط الدولة الآشورية سنة ٦١٢ ق . م . وقد تم القضاء على مملكة
يهونا وسبي اليهود الى بابل في عهد نبوخذ نصر الثاني اعظم ملوك هذه الدولة وكان
لذلك سنة ٥٩٧ ق . م . والسبي الثالث على يد نبوخذ نصر كذلك سنة ٥٨٩ ق . م .
بعد ان نقض (صدقيا) عهد بالولاء لنبوخذ نصر ودخلت جيوش البابليين اورشليم
بعد حصار ومعركة ضد المصريين الذين حرضوا صدقيا على نقض العهد فانصر
عليهم نبوخذ نصر ودخل اورشليم في اليوم الرابع من شهر تموز ٥٨٦ ق . م . اما
صدقيا فهرب هو والفراد عائلته ولكن البابليين لحقوا به في سهول آري وحملوه الى
ريلة حيث كان مقر معسكر الملك نبوخذ نصر وهناك نهب اولاده امام عينيه ثم فقنته
عيناه واخذ مكبلا مع الاسرى الى بابل وكان النبي دانيال بين المسبيين^(١٢٠) وهكذا
تم القضاء على مملكة يهوذا وقد استطاع دانيال ان يتكيف مع الاسر وان يحظى
بقبول الملك « فقد تم اختياره مع رفاقه لخدمة الملك^(١٢١) » وقد حوى سفر دانيال
سيرة هذا النبي وما جرى له من امتحانات امام نبوخذ نصر « ويستفاد من الصفران
صاحبه من انبياء بني إسرائيل وانه كان في قافلة المسبيين التي سبهاها نبوخذ نصر
الى بابل مع الملك يوياقيم او يوياقيم اي قبل تدمير اورشليم النهائي وانه ظل في
المنفى الى عهد كورش وداريوس بن احشو يريش على ما جاء في اصحاحه
الاول^(١٢٢) » وفي سفر دانيال اعانه لاسباب زوال ملك بني إسرائيل وتعرضهم للسبي
بسبب معاصيهم وذنوبهم وفيه خيال ومفارقات وخلط تاريخي وقد سبق ان اشرنا الى
حادثه التحريق التي نكرها سفر دانيال والتي تبدو انها منتحلة فهناك تشابه بين
القصة وقصة تحريق ابراهيم (عليه السلام) . وفي سفر دانيال كذلك معلومات عن
علاقة المسبيين مع المجتمع الجديد وكيف حاز ورفاقه احترام الملك وعاقب اعداء
لدانيال « ثم اصدر الملك امره فاحضروا المتأمرين الذين اتهموا دانيال وطرحوهم في
جب الاسود مع اولادهم ونسائهم وما كانوا يصلون الى اسفل الجب حتى بطشت بهم

(١١٩) سوسة / د . احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ ٩ ج ٥٨٧ .

(١٢٠) سوسة / د . احمد / م . س / ص ٦٠٦ .

(١٢١) العهد القديم / كتاب دانيال ١ .

(١٢٢) نبوة / محمد عزة / تاريخ بني اسرائيل من اسطوخودوس / ص ٢٦٠ .

الاسود وهشمت عظامهم» (١٣٣) وهناك معلومات مضطربة حول ملوك فارس وصراع داريوس مع الملوك الكلدانيين « وجعل كورش يأتي بعد داريوس ونمته بالمادي حيث يصوغ نك كله ان يكون الصفر مما كتب مؤخراً من منكرات او نكريات وقصص معزوة الى دانيال وليس فيها مع نك شيء نو بال مما يتصل بتاريخ اليهود وحالتهم» (١٣٤) ان وجود الانبياء في بني إسرائيل في اثناء السبي قد اعانهم على اعادة الضمور بالتوازن وتحمل قسوة الاحداث وكذلك ساعدهم على استماتة اجزاء من توراتهم وان كان احبارهم قد كيفوا وصاغوا توراتهم ضمن اهدافهم التي تبلورت لديهم من خلال «تد التاريخ الطويل من الكبت والقهر والاستضعاف ، التاريخ الذي وسم الشخصية اليهودية بالخيانة والجبن والتمسك بالحياة والحرص عليها مهما كانت هذه الحياة حتى نكر القرآن الكريم هذه الحقيقة التي تبلورت في العقل الباطن لليهود ﴿ وتجنبنهم احرص الناس على حياة ﴾» (١٣٥) وان السبي الذي تعرض له اليهود قد احدث تفاعلاً بين الثقافة اليهودية والثقافة الراقية القديمة (العراقية القديمة) بحيث تأثر اليهود بالثقافة العراقية القديمة واثروا فيها وبذلك حافظت احدهما على ثقافة الاخرى الى حد ما . وكان من القدر ورعايته للتاريخ بان جعل طرق الكتابة العراقية على الطين الذي يقاوم الظروف الطبيعية ولذلك نجد ان معظم المدونات المصرية والكنعانية قد تعرضت للتلف الكلي بسبب استخدام الاقوام الاخرى في العصور المتأخرة قبل الميلاد مادة الحبر وما يسمى (سلسلة اوستراسا (Ostraca) (١٣٦) وتطورت هذه الطريقة الى استخدام رقائق البردي وبذلك حافظت حضارة وادي الرافدين على معلومات عظيمة وخطيرة عن تاريخ الانبياء واحوال العالم القديم من خلال الرقم الطينية . وقد نكر د . سوسة حقيقة فقدان المدونات القديمة في فلسطين بقوله : « ولما كان مناخ فلسطين رطباً لكثرة سقوط الامطار في الشتاء فما اسرع ما يمصح الحبر من سطح الألواح الطينية الصلبة اما ورق البردي فهو اسرع ترمضاً للتلف . وما ييمت الاسى في نفوس الآثاريين والعلماء المؤرخين جميعاً وهم متعجبون الى هذه المدونات ان يكون مصير جميع الوثائق والمدونات الكنعانية

(١٣٣) (طليلال / ٦ - ٢٤ - ٢٥ -

(١٣٤) (سوسة / مصدر . ع / القيق بيني اسرائيل عن اسلاريم / ص ٢٦٦ -

(١٣٥) (سوسة البنية / ٩٦ .

(١٣٦) (سوسة / د . مصدر / فصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٥٧٩ .

الفقدان الكلي لهذا السبب»^(١٢٧) وقد شاعت ارادة انه ان تحوي ارض العراق كنوز الدنيا كلها المادية والثقافية والعلمية وكانت الكنوز الثقافية اغلى واعز من كنوز المادة كما يقول معظم الاثاريين اننا بدأنا نبحت تحت ركام الارض والتراب عن كنوز الذهب والجواهر فاكشفنا ما هو اهم من هذه الكنوز انه التاريخ الذي يقص علينا اخبار الامم الماضية والحضارات البائدة انها قصة الانسان قد حفظت تحت ترى وادي الرافدين . ومن الملفت للنظر ما يؤكد رو « اننا لا نمتلك شريعة حمورابي وحسب بل وكذلك رسائله والاراشيف الملكية اضافة الى العديد من النصوص القانونية والاقتصادية ، الادارية ، الدينية ، والعلمية من ماري ولارسا وسبار ونفرواود وتل حرمل ومن مواقع اخرى يتراوح عددها بين (٣٠ - ٤٠) الف رقيم وفي الواقع فان بوسعنا القول من بون مبالفة بأن معرفتنا لوادي الرافدين خلال عام (١٨٠٠ ق . م .) تتجاوز معلوماتنا عن اي قطر اوروبي قبل الف سنة فقط . ومن الناحية النظرية بإمكان المؤرخين رسم صورة شبه متكاملة ومفصلة لمجتمع وادي الرافدين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قبل الميلاد»^(١٢٨) .

عزرا الكاتب :

استطاع اليهود اثناء السبي البابلي ان يجمعوا ما لديهم من اخبار وتراث . وفي مدينة بابل بالعراق اتفق علماء بني اسرائيل على جمع مآثورات التاريخ القديم خاصة فيما يتعلق بنسب اسحاق (عليه السلام) ووضع توراة موسى بين المآثورات وقد تم ذلك على يد عزرا في بابل ثم ان عزرا بعد ما فرغ من المآثورات ووضع فيها احكام موسى وضع مختصراً لاحكام موسى واظهر فيه الامور الجديدة التي اتفق العلماء على اضافتها الى توراة موسى وهذا المختصر اسمه (سطر التثنية خامس الاسفار الخمسة ثم بعد ذلك كتب اسفار الانبياء »^(١٢٩) وقد اكد رحمة الله الهندي : ان جمهور اهل الكتاب متفقون ان عزرا هو الذي صنف التوراة الحالية فقد جاء في تواريزهم ما نصه : احرقت التوراة وما كان احد يملها وقيل ان عزرا جمع ما فيها

(١٢٧) سورة / د. احمد / فصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٥٧٩ .

(١٢٨) د/ جورج / العراق القديم ترجمة حسين علوان حسين / ص ٢٨٦ .

(١٢٩) محمد / محمد قاسم / التناقض في تواريخ واحداث التوراة / ص ٥٥٤ .

مرة أخرى باعانة روح القدس « (١٢٠) وقال تهيوفلكت : ان الاسفار المقدسة انعدمت رأساً فأوجدتها عزرا مرة أخرى بالهام « (١٢١) وعزرا هذا الذي جمع التوراة ليس العزير المنكور في القرآن فقد كان العزير رجلاً صالحاً ونبياً وهذا ليس بنبي « وقال السماول بن يحيى المغربي في كتابه الاحام اليهود ص ١٥٢ - ١٥٣ ان عزرا هذا ليس هو العزير كما يظن لان العزير هو تعريب العازار . فاما عزرا فانه اذا عُرِب لم يتغير عن حاله لانه اسم خفيف الحركات والحروف ولان عزرا عند اليهود ليس بنبي وانما يسمونه (عزرا هوفير وتفسيره عزرا الناسخ . ويعلق د. محمد عبد الشراوي على ذلك بان كلام السماول مقبول لانه متضلع في اللغتين العبرية والعربية ومتبحر في علوم التوراة والقرآن الكريم وكلامه فصل في هذه النقطة ويجب عدم الخلط بين العزير الصالح وعزرا الفاسق . وعزرا لم يكن نبيا بل كان من العلماء الهارونيين الذين حرفوا التوراة عمدا فقال اليهود انه ابن الله لانه كتبها على وفق اهلانهم « (١٢٢) وقد ذكر ابن كثير في تفسير قوله تعالى ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله ﴾ (١٢٣) ان عزيرا كتب التوراة بعد ان ألقى في جوفه شمع كهنة الجمره العظيمة ثلاث مرات فرجع الى بني إسرائيل فقال لقد جئكم بالتوراة فقلوا يا عزير ما كنت كذابا فعمد فربط على اصبع من اصابعه قلما وكتب التوراة باصبعه كلها فلما تراجع الناس من عدوهم ورجع العلماء ، اخبروا بشأن عزير فاستخرجوا النسخ التي كانوا اودعوها في الجبال وقابلوه بها فوجدوا ما جاء به صحيحاً فقال بعض جهلتهم انما صنع هذا لانه ابن الله « (١٢٤) وهذه الرواية من نون سند وفيها اضطراب في المتن وجهل بتاريخ بني إسرائيل . ومن المحتمل ان يكون عزير هذا هو الذي كتب التوراة وجمع بني إسرائيل عليها فضلت اليهود فيه بقائلوا عنه انه ابن الله . او ان بني اسرائيل قالوا عنه انه ابن الله بعد حادثة الامانة والاحياء بعد مائة عام القصة المذكورة في سورة البقرة وهو الراجح وان فتنة بني إسرائيل في العزير بسبب احبائه بعد موته وهذا ادعى للقبول

(١٢٠) محمد / محمد قاسم / م . س . م / ص ٥٥٢ ياخذ عن الهندي / رحمه الله / اطار

الحق / ج ١ ص ٢٧٢ .

(١٢١) محمد / محمد قاسم / م . س . م / ص ٥٥٣ رحمه الله / اطار الحق / ج ١ ص ٢٧٢ .

(١٢٢) محمد / محمد قاسم / التناقض في تاريخ التوراة / ص ٥٥٤ - ٥٥٥ مع الهامش .

(١٢٣) سورة التوبة / ٣٠ .

(١٢٤) ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / ج ٢ ص ٣٤٨ .

من رواية كتابة التوراة . وبسبب رواية كتابة التوراة التبس الامر وحصل خلط بين عزرا وعزرا . وقد نكر ابن كثير في تفسير قوله تعالى ﴿ او كالتلي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال اتى يحيى هذه الله بعد موتها فامته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً او بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر الى حمالك وتجملك أية لتاس وانظر الى العظيم كيف ننشزها لم تكسوها لحما فلما تبين له قال له اعلم ان الله على كل شيء قدير ﴾ (١٢٤) . قال اختلفوا في هذا المار من هو ؟ في رواية كعب عن علي بن ابي طالب (رضي الله عنه) انه قال : هو عزير يرواه ابن جبريد عن ابن عباس والحسن وقتادة والمُذني وسليمان بن بريدة وهذا القول هو المشهور (١٢٥) .

وبذلك اتضح لدينا الصورة وهي ان الذي كتب التوراة في بابل هو عزرا وهو رجال من كذايي اليهود ادعى بانه الهم التوراة وقد تواطا مع احبار اليهود المسيبيين في بابل وكتبوا التوراة التي حرفوا وزادوا وحذفوا فيها وصاغوها بما يلائم اليهود ويبرر لهم كل جرائمهم عبر التاريخ ويمنحهم الحق في الاستعلاء على شعوب العالم بموجب فكرة العهد وعقيدة شمع الله المختار . اما العزير فهو الرجل الصالح الذي مر على قرية للذي نكر ابن كثير بان المشهور « ان هذه القرية هي بيت المقدس مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل اهلها (وهي خاوية) اى ليس فيها احد وقوله ﴿ على عروشها ﴾ اى ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها فوق متفكراً فيما آل امرها اليه بعد الممارة العظيمة وقال ﴿ اتى يحيى هذه الله بعد موتها ﴾ . وذلك لما رأى من نورها وشدة خرابها وبعدها عن العولة الى ما كانت عليه قال تعالى : ﴿ فامته الله مئة عام لم بعثه ﴾ قال وعمرت البلدة بعد مضي سبعين سنة من موته وتكامل ساكنوها وتراجع بنو إسرائيل اليها فلما بعثه الله عز وجل بعد موته كان اول شيء احيا الله فيه عينيه لينظر بهما الى صنع الله فيه كيف يحيى بنده فلما استقل سوياً قال الله له اى بوساطة الضك ﴿ كم لبثت ﴾ قال لبثت يوماً او بعض يوم ﴿ وذلك انه مات اول النهار ثم بعثه الله في آخر نهار فلما رأى الشمس باقية هن انها شمس نلك اليوم ﴾ (١٢٧) . وفي التفسير اكمال لمعاني الاية ولكننا نريد ان نصل

(١٢٥) سحيا البقرة / ٢٥٩ .

(١٢٦) ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / ج ١ ص ٢١٤ .

(١٢٧) ابن كثير / ص ٠ م / ج ١ ص ٣١٤ .

الى ان عزيز الرجل الصالح وانه كان نبياً وجعله الله تعالى آية للناس فضل اليهود فيه لما علموا ان الله اماته مائة عام ثم احياء فقالوا انه ابن الله . وهذه القصة اكثر دلالة على فتنة بني إسرائيل بان جعلوا عزيزاً ابن الله من قصة كتابة التوراة . وبذلك يتضح لدينا بان عزيزاً الذي عُرف على ارض العراق لم يكن عزيزاً بل كان عزراً وهو عزراً الكاتب وليس عزيز النبي .

وبعد السبي البابلي لم تقم لليهود قائمة وتشتتوا في الارض والذين بقوا منهم في فلسطين بقوا مهتضعفين تابعين الى البابليين او الفرس او المصريين او الرومانيين وبعد تدمير اورشليم وخرابها « بقي في فلسطين شرانم من اليهود على الرغم من جلاء كثير منهم عن فلسطين وتشتتهم في كل قطر وبخاصة في الاقطار المجاورة مثل مصر وقبرص وتدمر وليبية وبين النهرين »^(١٣٨) .

وقد لعب اليهود لورا خطيراً في تقويض دعائم النظام في بلاد الرافدين واستطاعوا تحريض الفرس واستمدائهم على تحطيم العراق وفي العهد القديم سفر استير « المرأة اليهودية التي تزوجت من الملك الفارسي احشويريش بتخطيط من ابن عمها وقد كانت عنده واسمه مردخاي واستطاعت استير ان تحصل على الامان لشعبها من الملك وتمت تصفية هامان وزير الملك احشويريش واستطاعت استير ومن معها بعد ان اصبحت زوجة الملك احشويريش ان تساعد شعبها وتنتقم من اعدائهم وتهود عدد كبير من سكان مملكة احشويريش . وان بني إسرائيل ظلوا موالين للفرس وحيابيين فيما كان ينشب في سوريا وفينيقية ومصر من ثورات ضد الحكم الفارسي وفيما نشب كذلك بين الفرس واليونان من حروب »^(١٣٩) .

سقوط بابل :

لقد عبر سقوط بابل عن موت حضارة وان هذا السقوط لم يات فجأة بل مر بسلسلة عمليات تداعي ثم الاحتضار فالموت . وموت بابل انتهى الدور السياسي والحضاري لبلاد الرافدين حتى مجيء الاسلام الذي استعاد فيه العراقيون دورهم

(١٣٨) نريزة / محمد عزة / تاريخ بني اسرائيل من اسفارهم / ص ٣٨٥ .

(١٣٩) نريزة / م . م / ص ٢٩٢

في الامتداد نحو رقعة العالم الاسلامي وينكر جورج رو : بان حضارة وادي الرافدين بقيت حية حتى القرن الاول قبل الميلاد فكيف اضمحلت تدريجيا لتفرض تماما في النهاية ؟ ويوجب : يبدو ان هناك سببين ولم يحظ سؤال مهم كهذا بالاهتمام اللائق به حتى هذا التاريخ . فمن جهة يغطي هذا السؤال ثلاثة حقول منفصلة من البحث العلمي التاريخي المرهق . (تاريخ الشرق الانسى السامي وتاريخ المبرانيين والاشوريين والتاريخ الاغريقي والايرواني » ومن جهة اخرى فان اضمحلال وسقوط حضارة ما في اي مكان من العالم هي على النوام مسألة معقدة تعتمد على عوامل سياسية ، عرقية ولفوية ودينية واقتصادية وجغرافية متشابكة والتي هي - في حالتنا هذه - خارج نطاق دائرة معرفتنا في اغلب الاحيان «^(١٠٠) وفي اعتقادنا ان بابل لم تتراجع وحدها من بين مدن العالم القديم فقد تراجعت قبلها مدن مصر ومدن اليمن ومدن الشام ولكن بابل قاومت التداعي اكثر من غيرها وبقيت مؤثرة في العالم لحد قرن قبل الميلاد . وان تداول الحضارات امر ليس غريبا بل هو سنة من سنن الوجود نكرها القرآن الكريم «^(١٠١) وتلك الالهم نداولها بين الناس » المدن التي ارتبطت بينيا استطاعت ان تستعيد دورها حتى بعد التدمير والتداعي مثل القمم ولكن المدن التي تطورت عبر سلسلة التطور الحضاري فانها عندما تموت تضحل وتتلاشى وقد تتقزم لتتحول الى قرية هامشية لا تعبر عن شيء . يلفت الانتباه او يثير الاهتمام كما نكرنا عن اوغاريت . بابل بقيت قوية لانها تملك جنورا عميقة في التاريخ ولولم تكن بابل لما بقي لها اثر . ولكن عندما يتوقف الابداع وتستهلك التربة حضاريا لا بد من مواجهة المصير المحتوم وهو الموت ويضع جورج رو ثلاثة اسباب لاضمحلال حضارة وادي الرافدين الاول : غياب الحكومة الوطنية وثانيا تأسيس الاسكندر الكبير وخلفائه المدن الجديدة التي نافست المستوطنات القديمة وتفوقت عليها في النهاية . ثم اخيرا : السبب الالم المتمثل في مجموعة التفسيرات العرقية واللفوية والدينية والحضارية العميقة التي نجمت عن موجات متتالية من المحتلين الفرس ، الاغارقة ، الاراميين ، عرب قبل الاسلام ، كان وادي الرافدين قد اجتتحت مرات عديدة خلال تاريخه العريض ولكن الغزاة من الكوتيين والاموريين والحوريين والكاشيين والاراميين من بعدهم كانوا يجدون انفسهم على النوام بمواجهة حضارة فنية قوية اعلى بمراحل عديدة من حضارتهم لذلك فقد عملوا الى تبنيها باستمرار ولكن الوضع قد تبطل مع

غزو الاغارقة للعراق في القرن الثالث قبل الميلاد اذ كان هؤلاء اصحاب حضارة راقية انجبت شخصيات افلاطون وارسطو وغيرهما لذلك فلم يكن لدى البابليين سوى القليل مما يمكن ان يفخروا بالتفوق به على غزاتهم الجدد مثل الاعمال العويصة لغلكبيهم كما لم يمد - الخط المسماري المعقد - الذي نبهه البابليون انفسهم ليلانم المتطلبات الجديدة لمجتمع متعدد القوميات . واذا كان من الجائز ان تحتوي ظاهرة شديدة التعميد كهذه في عبارة مفردة وغير بديقة بالضرورة فيمكن للمرء ان يقول ان هذه الحضارة قد ماتت بسبب شوخوتها «^(١١١) . ولكن هذه الحضارة لم تمت حتى تركت آثارا لا يمكن ان تحصى على العالم الذي جاء بعدها » لذلك يجب الان ننهش اذاً خلصنا الى حقيقة مفادها ان الحضارة الاغريقية قد بنيت على قواعد شرق متوسطية تشتمل معظمها على مواد اساسية تمود الى بلاد ما بين النهرين «^(١١٢) . ان الحضارة التي قامت في وادي الرافدين اكثر اقترابا من الواقعية لو قارناها بالحضارة المصرية او الحضارة الهلينية . فالحضارة المصرية كانت تنكر الفناء ولذلك « حنط المصريون حتى تاريخهم في تواريخ وارقام متسلسلة . اما الاغريق فكانوا يذكون الفناء ولذلك لم يزودونا بأي خبر او تحديد عام او اسم حقيقي او حائقة ملموسة «^(١١٣) بينما نجد ان العراقيين القدماء قد تعاملوا مع الموت بواقعية وما ملحمة لكلامش الا تأكيدا للواقعية ورفض لفكرة الخلود وتكيف مع الموت . ولكن عندما يتوقف نبض الفكر في الحضارة تتشكل هذه الحضارة في محددات المدنية فتتحول من حضارة الى مدنية وهذا الذي يعبر عنه شبلنجر بقوله : « ان المدنية هي المصير المحتوم للحضارة - والمدنيات هي نتائج الشيء يصير (Thing become) يخلف الشيء في حالة الصيرورة (Thing becoming) أنها الموت يتبع الحياة ، انها الصلابة تعقب المرونة . ان المدنيات تشكل نهاية لا تستطيع ان تقف امام تحقيقها ارادة او عقل ومع ذلك تبلغها الحضارات مرة بعد اخرى مدفوعة بضرورة باطنية «^(١١٤) لقد حاول الفرييون المعاصرون من مؤرخين وفلاسفة ان يضيفوا تفسيرات لزوال وموت الحضارات وكانت آراؤهم تعبر عن ابداعات العقل البشري في

(١٤١) د / جورج / العراق القديم / ص ٥٦٦ - ٥٦٩ .

(١٤٢) د / جورج / العراق القديم / ص ٥٥٦ - ٥٩٦ .

(١٤٣) شبلنجر / اسوالد / تدهور الحضارة الغربية / ج ١ ص ٥٥ .

(١٤٤) شبلنجر / اسوالد / م . ص . / ج ١ ص ٨٧ .

متابعة وتشخيص عوامل التداعي والانهيار وقد شخص توينبي احد الاسباب الفعالة التي تؤدي الى انهيار الحضارات عندما تحدث عن « اصابة الحضارة بمرض سماه بمصطلح اغريقي (Hybrits) ويعني الزهو والغرور والتكبر والانانية ويكون هذا الـ (Hybrits) سبباً في سقوط الحضارات »^(١١٤) ولكن مشكلة هؤلاء انهم جميعاً يقفون خارج المشكلة لان قضية الانسان على الارض هي قضيته الاولى مرتبطة بالدين وبخالق وكل هؤلاء يحاول ان يمطي شيئاً للحقيقة من خلال التأمل من الخارج . ولكن الحقيقة تنبع من الداخل من الذات واكتشافها وان اعظم عمل يؤديه الانسان هو اكتشاف ذاته وحقيقة وجوده عندها ستكون كل المشاكل لا قيمة لها . « يقول بوهمه (فيلسوف الماني) : ما هي السعادة ؟ ويجيب : الشعور بان القوة تنمو وان المقاومة تندحر »^(١١٥) . وهذا هو معنى زيادة الايمان في المفهوم الاسلامي عندما تحس ان شعوراً في داخلك ينمو ويكبر ويتنازع امامه كل عائق وهاجس ضاغط على النفس فهذا يكون مقياساً لقوة الايمان ﴿ بل الانسان على نفسه بصيرة ﴾^(١١٦) .

ولكن نحن نتابع اسباب سقوط الحضارات الذي فصله الفريسيون اجد مناسباً ان نذكر بصورة مركزة آراء عالم من علماء الاسلام سبق الفريسيين بمئات السنين وشخص احوال الدول في قيامها وانهيارها . نلك هو العالم الاجتماعي الاول ابن خلدون اذ يقول في مقدمته : « اعلم ان الدولة تنتقل في اطوار مختلفة وحالات متجددة ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقاً من احوال نلك الطور . وهذه الاطوار :

- ١ - طور الظفر بالبغيبة وغلب المدافع والمعانق والاستيلاء على الملك وانقزاعه من ايدي الدولة السالفة قبلها فيكون صاحب الدولة في هذا الطور اسوة قومه في اكتساب المجد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة والحماية .
- ٢ - طور الاستبداد على قومه والانفراد بونهم بالملك وكبحهم عن التناول للمساهمة والمشاركة .
- ٣ - طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك مما تنزع طباع البشر اليه من تحصيل المال وتخليد الآثار وبعد الصيت .

(١٤٥) (ولسن / كولن / سقوط الحضارات / ص ١٥١ .

(١٤٦) (ولسن / كولن / م . م / ص ٢١٨ .

(١٤٧) (سورة الفاتحة / ١٤)

٤ - طور القنوع والمعاملة ويكون صاحب الدولة في هذا قائماً بما يلي اولوه .
سلماً لانظاره من الملوك واقتاله مقلداً للماضين من سلفه ، فيتبع آثارهم حذو
الذئب بالنعل .

٥ - طور الاسفاف والقبلاير ويكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفاً لما جمع
اوطوه في مئبل الههوات واصطناع اخوان السوء وخضراء الدمن وتقليبهم
عظيمات الامور التي لا يستقلون بحملها مستفسداً لكبار الاولياء من قومه
وصنائع سلفه حتى يضطفونوا عليه ويتخانلوا عن نصرته وفي هذا الطور
تحصل في الدولة طبيعة الهوم ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا تكاد
تخلص منه ولا يكون لها معه برء الي ان تنقرض والله خير الوارثين « (١١٨) »
وفي هذا التفصيل غناء عن تحليلات الفريبيين المعاصرين ان اذ تحليل ابن
خلدون تضمن ما نعب اليه الفريبيون وهذا يؤكد كذلك سبق العلماء المسلمين
في هذا الميدان .

وفي القرآن الكريم آيات وضعت الاسس والقواعد التي يمكن من خلال تحليلها
وبراستها ان نفهم اسباب انهيار الحضارات وقد ركزت الآيات على الجانب الاخلاقي
والديني ورسدت حالات انهيار الحضارات والدول ومن هذه الآيات :-

- ١ - ﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية اكبر مجرميها ليصكروا فيها وما يصكرون الا
بأنفسهم وما يشعرون ﴾ الانعام / ١٢٣
- ٢ - ﴿ وما اهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم ﴾ الحجر / ٤ .
- ٣ - ﴿ ولذا لرجنا ان نهلك قرية امرنا مترجيا ففسقوا فيها فحق عليها القول
فدمرناها تدميراً ﴾ الاسراء / ١٦
- ٤ - ﴿ وما آمنت قبلهم من قرية اهلكناها اظهم يؤمنون ﴾ الانبياء / ٦ .
- ٥ - ﴿ وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً
آخرين ﴾ الانبياء / ١١
- ٦ - ﴿ ونجيناها من القرية التي كانت تعمل الغيبات اثم كانوا قوم سوء
فاسقين ﴾ الانبياء / ٧٤ .

(١٤٨) ابن خلدون / عبدالرحمن بن محمد / المقدمة تحقيق وضبط وشرح وتعليق د. علي
عبدالواحد والي / ج ٢ ص ٤٩٥ .

- ٧ - ﴿ فكأين من قرية اهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها ويدر معطلة
ولقصر مشيد ﴾ الحج / ٤٥
- ٨ - ﴿ وكأين من قرية امليت لها وهي ظالمة ثم اخسنتها والتي
الصير ﴾ الحج / ٤٨ .
- ٩ - ﴿ وما اهلكنا من قرية الا لها منذرون ﴾ الشعراء / ٢٠٨ .
- ١٠ - ﴿ وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا
ليللا وكنا نحن الوارثين ﴾ القصص / ٨٥ .
- ١١ - ﴿ وما ارسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما ارستم به
كالهرون ﴾ سبأ / ٣٤ .
- ١٢ - ﴿ واضرب لهم مثلا اصحاب القرية اذ جاءها المرسلون فكلبوها فلعزنا
بتأث فقلوا انا اليكم مرسلون ﴾ يس / ١٣
- ١٣ - ﴿ وكأين من قرية هي اشد قوة من فريقك التي اخرجتك اهلكناهم فلا ناصر
لهم ﴾ محمد / ١٣
- ١٤ - ﴿ وكأين من قرية عنت عن امر ربها ورسله فعاسبنا حساباً شديداً وعلبناها
عذاباً تكرأ ﴾ الطلاق / ٨ .
- هذه الايات وآيات اخرى ركزت عوامل تراجع الدول والقرى وانهيائها وقتلنا بانها
حصرت اسباب الانهيار بالجانب الديني والاخلاقي وقد حددت الامراض الاخلاقية
التي تصيب المجتمع الذي تقوم به القرى (اي الدول) بالكبر والظلم والترف
والاستكبار . والامراض التي ترتبط بالجانب الديني حددت بتكذيب الانبياء والكفر
الذي هو رفض الايمان والحقيقة وان ما يحل بالقرى من هلاك ودمار قد يكون نتيجة
للعوامل مجتمعة ونستطيع تحديد طبيعة المرض الذي حددته كل آية من الايات
المذكورة كما يأتي :-

- ١ - حددت الآية (١) وجود اكابر من مجموعة المجرمين يخططون لحرب ضد
الرسالة والنبى فتكون عاقبة مكروهم وبالاً عليه وهلاكاً لهم .
- ٢ - وفي الآية (٢) حددت هلاك الامم بموجب تقدير الله الذي حدده وهذا ليس
جبراً تاريخياً الذي تحدث عنه طه حسين في معرض حديثه عن ابن خلدون
فهو ينقل عن المقدمة « متى بدأ اضحلال الدولة . فلا يقفه شيء ومهما

اتخذ الملك من تحوطات واجتهد في اصلاح الخلل فلا يستطيع ان يغير ما اراد الله لان الداء الذي يصيب الدولة قاتل ولا يقف ابن خلدون عند شرح الجبر التاريخي بتلك الصفة ودفعه الى الحد الاقصى . فهو يزعم انه يستطيع ان يعين عمر الدولة الطبيعي «(١١١)» . الحقيقة هذه المشكلة تعيد الينا مشكلة القدر والجبر في علم الكلام حاول طه حسين ان يربطه بالتاريخ . القرآن الكريم حدد أجلاً وهذا لا علاقة له بالجبر ولكنه يدخل في علم الله الذي يعلم الماضي والمستقبل ولا يجد علمه شيء ولكننا نستطيع ان نتصور استنادا الى الحقيقة المذكورة في القرآن الكريم بان التاريخ ليس ثابتاً بل هو متغير وان نواام الحال من المحال وبذلك يفتح القرآن ابواب التعبير للمستضعفين .

- ٣ - في الآية (٣) حددت الترف احد الاسباب المهمة لتجميع الطاقات للوقوف ضد الرسالة وضد القيم والاخلاق فمعدما يتجاوز المترفون ويميلوا فسوتهم وعصيانهم تضطرب القيم والاخلاق وتنهار مرتكزات البناء الحضاري في الدولة فيحق عليها قانون الله فتتأمر تسمى .
- ٤ - في الآية (٤) حددت كفر القرية ورفضها للايمان كان من الاسباب المطردة في هلاك الامم .
- ٥ - في الآية (٥) الظلم الذي يؤدي الى انسحاب الضمفاء والمظلومين وتوقف حركة الابداع والعمل فيختل الميزان ويحل الهلاك .
- ٦ - في الآية (٦) الانحرافات والخبائث والشذوذ الجنسي من الامراض التي تدخر البناء الاجتماعي وتحطم القيم وتهدم مرتكزات الفضيلة وتحل غضب الرب فيمحل في تدمير القرية من خلال تمريرها الى الكوارث والزلازل فيعم الهلاك وتمحق القرية .
- ٧ - ٨ - في الايتين (٧ و ٨) حددت الظلم من اسباب انهيار الدولة وتعميل مظاهر الحياة والحركة فيها فهذه القصور المشيدة والبئر معطلة من اعظم الشواهد على توقف الحياة في المجتمع الظالم الذي تنفسي الظلم فيه ولا ناصر للمظلوم عندهم الا الله .

- ٩ - حدثت الآية (٩) اسباب الهلاك اعراض القرية وعدم اكرامها بالانذار الذي يطلقه المرسلون .
- ١٠ - حدثت الآية (١٠) البطر من الامراض التي تصيب المجتمعات المترفة الغافلة التي لا تشكر الله على نعمه فهذه مساكنهم لم تسكن من بعدهم ولكنها بقيت اطلاقاً تحكي نهاية البطر والترف .
- ١١ - الآية (١١) ايضاً حدثت الترف من اسباب اهلاك القرى .
- ١٢ - الآية (١٢) حدثت تكذيب المرسلين من اسباب اهلاك القرى .
- ١٣ - الآية (١٣) حدثت الفرور والكبرياء والصلف من اسباب الهلاك .
- ١٤ - الآية (١٤) ايضاً حدثت العتو وهو الاستكبار والاستعلاء والصلف من اسباب الهلاك .

وهكذا نجد في القرآن الكريم آيات كثيرة وضحت نهاية القرى والمجتمعات والدول بموجب سذن ونواميس وضماها الله تحكم الحياة فكما ان الشمس والقمر تجريان بموجب ناموس وضما الله كذلك حياة البشر واحوال الامم ونهايات النول والحضارات كلها محكومة بنواميس اودعها الله . وان الحضارة تموت والدول تنهار عندما يتوقف الابداع ويموت الدافع للحركة كما حذر المنهج الاسلامي من الزيادة واتباع انداب البقر « يقول ابن خلدون ان النبي (ﷺ) دعا الله ان يبعد قومه عن الحرث وليس ذلك لان ابن خلدون يحتكر فلاحه الارض او يزعم ان النبي والطفاء كانوا يحتقرونها فهو يكتفي ان يقرر بانها تضعف المعصية والبأس الحرابي الذي يقول انه اساس الدولة المتينة»^(١٠٠) وبالجملة متى ما توقف الاستمداد للتضحية وفقد الامل وتمطلت الهمم بدأت الحضارة بالتراجع والاحتضار ثم الموت . وهكذا ماتت بابل ونيوى وسبأ وتتمر وغيرها من المدن التي كانت تشمل العالم بالحركة والحياة والضحيج والامر لله بيورته من يشاء وهو خير الوارثين .

٤ - سور باهل بطرس بروجيل الاكبر (القرن السادس عشر للميلاد).

بوستليت / نيكولاس / حضارة المراق وآثاره / ص ٣٧

خريطة ١١

المملكة المنقسمة

بعد موت سليمان انفصل عشرة من
اسباط إسرائيل واقاموا مملكة
إسرائيل، تحت حكم يرمام
وعاصمتها شكيم، الذي اقام
مراكز للعبادة في دان وبيت ايل
بدلاً من اورشليم. اما احفاد داود
فظلوا يحكمون المملكة الجنوبية
التي اصبحت تعرف باسم مملكة
يهودا، وعاصمتها اورشليم. وقد
ظلت المملكتان منفصلتين.
(١ ملوك ١١ - ١٢)

البحر المتوسط



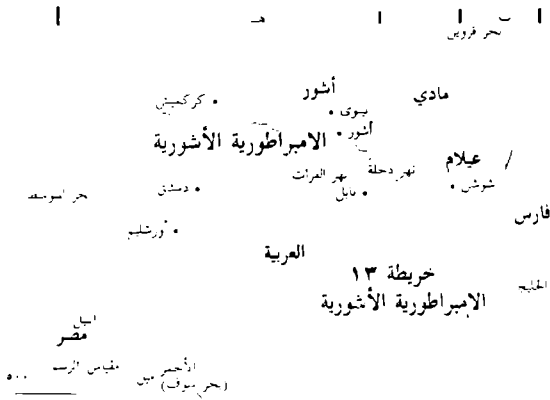
المملكة الجنوبية
(يهودا)

الكنعانيون



خريطة ١١ المملكة المنقسمة

بعد موت سليمان انفصل عشرة من اسباط اسرائيل واقاموا مملكة اسرائيل تحت حكم يرمام وعاصمتها شكيم الذي اقام مراكز للعبادة في دان وبيت ايل بدلاً من اورشليم، اما احفاد داود فظلوا يحكمون المملكة الجنوبية التي اصبحت تعرف باسم مملكة يهودا وعاصمتها اورشليم وقد ظلت المملكتان منفصلتين.
(١ ملوك ١١ - ١٢)



خريطة ١٣

الامبراطورية الآشورية

(نحو عام ٦٥٠ ق. م.)

بللت هذه الامبراطورية قوتها ومجدها ، في خلال الفترة بين عامي ٨٨٠ - ٦١٢ ق. م. وفي عام ٧٢٢ ق. م. دمرت المملكة الشمالية (إسرائيل) وقامت بترحيل سكانها ، كما اخضعت مملكة يهوذا في الجنوب .



اطلس دارسي الكتاب المقدس

خريطة ١٤

امبراطورية بابل

(حوالي عام ٥٥٠ ق. م.)

في عام ٦١٢ ق. م. استولى البابليون على نينوى العاصمة الآشورية

كما انتصروا على

في موقعة كركميش عام ٦٠٥ ق. م. وفي عام ٨٦ ق. م. دمر نبوخذ نصر -

اورشليم ونفى معظم سكان يهوذا وانتهت بذلك مملكة يهوذا (٢ ملوك

الخاتمة نتائج الدراسة

لقد تابعنا خلال دراستنا موضوعاً شائكاً وواسعاً ولكنه كان ممتعاً ويمكن ايج
اهم نتائج هذه الدراسة بما يأتي :

١ - اضطرنا البحت عن جنور حضارة وادي الرافدين الى الخوض في متعلقات،
الجنور والبحت عن اصل الحياة ونشوتها وعن اصل الانسان وهذا الذي قم

به لم يكن بدعاً من البحوث ولكن سبقنا الى ذلك كل من تصدى لبحث موضوعات التاريخ القديم وما قبل التاريخ . وقد وجدنا من خلال اطلاعنا على ما كتبه السابقون في هذا الموضوع ان القضية الاساس لاتزال خارج حدود المعرفة البشرية وان ما كتبه الباحثون من نظريات عن اصل الحياة وتطورها لا يمد ان يكون فرضاً قابلاً للمحض والالغاء والتغيير كما وان البحث فيه لا بد ان يستند الى خلفية علمية وتخصصية وعملية تستوعب جوهر القضية المبحوثة **بما** ان المبحوث عن حقيقته يمثل الحياة وان الحياة ما فتىء العلماء يصرحون بانها لغز لا سبيل الى ادراكه كما جاء في القرآن الكريم ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلاً ﴾^(*) . ما الروح ؟ وما السبيل الى ادراكها ؟ هذا السؤال لا يجد جواباً عند علماء المادة وما زالوا يخبطون في متاهات الاستنتاجات ودوامة التفكير « فالمادية العلمية تنتهي بالقول بانه لا عقل هناك وانما هناك مادة فقط والروح هي حصيلة المادة وقد ذهب بيركلي الى الناحية الاخرى فقال لا مادة هناك وانما هناك عقل فقط وحال بيركلي الاسقف ان يحطم المادية والفكرة المادية عن الكون ولكن وايتهيد قال ان الحقيقة تكمن بينهما ^(**) » ويقول توينبي : « اذا فقد الكائن البشرى روحه فانه يفقد انسانيته وذلك بسبب جوهر الكيان البشري هو ادراك لوجود روحي خلف المظاهر الطبيعية والكائن الحي انما يتصل بهذا الوجود الروحي بوصفه روحاً لا بوصفه حياً مضطرباً نفسياً ^(***) » وقد عبّر كير كفارد الدانماكي عن اساس المشكلة حين قال : ان كل وجود انساني لا يعرف ذاته او روحه هو بانس واهم من ذلك ان الانسان البائس لا يحتاج الى ان يعرف انه بانس بل قد

(*) سورة الامراء / ٨٥ .

(**) ولسن / كولن / سقوط الحضارة / ص ٢٨٤ .

(***) نوبلي / ارنولد / تاريخ البشرية / ج ١ ص ٢٦ .

يظهر نفسه منتهى السعادة» (١١١) وهكذا نجد انه كلما تعمق الانسان وتعمقت مصادر استهلاك طاقته وحيويته فانه سيزداد عذاباً ومهما حاول الفلاسفة واصحاب العقول المبدئية في وصف معاناة الإنسان فان محاولاتهم هذه سوف لن تفني فتيلاً ويتمنى الانسان انه لو لم يستمر في المسيرة عبر هذا الطريق كما يستشهد تينبي بقصيدة لـ (تاوته تشنغ) (Taote Ching) التي يقول فيها معبراً عن الديانة التاوية التي سبقت المسيح (عليه السلام) :

« كلما ازدادت الاسلحة الحادة
تزداد الارض انقماشاً في الظلام
كلما ازدادت القوانين التي تشرع يزداد عدد
اللصوص وقطاع الطرق
شد القوس الى النهاية
وستتمنى لو انك توقفت في الوقت المناسب » (١١٢) .

ولكننا نريد ان نتوقف في الوقت المناسب ونؤمن بان الحياة والروح سر اودعه الله في الكائنات فهي غيب يؤمن به المتقون ﴿ الم ﴾ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ (١١٣) .

٢ - تضمنت الدراسة أمم (عليه السلام) وملامح وطبيعة حياته وقارنت بين الرواية الاسلامية والرواية التوراتية ورواية الرقم الطينية وتوصل الباحث الى ان أمم (عليه السلام) من المرجح ان يكون مكانه وجنته المذكورة في القرآن الكريم في العراق وتابعت الدراسة المراحل المباشرة لعصر أمم وقد تحدثت النصوص القرآنية عن ابني أمم وقد كشفت هذه النصوص بدائية الحياة حتى ان الانسان كان يقلد ما يراه في بيئته وتعملت في عملية نغن (هابيل) على حد تسمية التوراة الذي قتل اخوه قابيل اذ قلد الغراب

(١٥١) ولسن / هولن / سقوط الحضارة / ص ٢٩٨

(١٥٢) تولبي / ارولد / تاريخ البشرية / ج ١ ص ٣٦ .

(١٥٣) سورة البقرة / ١ - ٣

عندما رأه يحث التراب على غراب ميت . وكذلك اشارت الايات القرآنية الى بداية علاقة تم تنظيمها مع السماء لتعبر عن عبادة مخصصة يتقرب بها الانسان الى الخالق وهي القرابين وقد كانت القرابين بموجب الدراسات الاثارية اقدم انواع العبادات التي ارتبطت بالانسان وترتبت بين افراد الله بهذه القرابين وبين إشتراك آلهة اخرى معه في مفهوم عقيدة الشرك . تعرضت الدراسة للانبياء الذين كان العراق يمثل نشأتهم وكانت بدايتهم على ارضه . وقد تم التركيز على الانبياء الذين تضافرت واجتمعت الآراء على ارجاعهم الى العراق وقد اختير أشهر الانبياء العراقيين الذين اشتهروا في كتب التاريخ والتفسير وتحدث القرآن الكريم عن دعواتهم وسيرهم . فكان اولهم نوحاً (عليه السلام) وقد درست حياته من خلال نصوص القرآن الكريم ومقارنة النص القرآني مع التوراة وتحليل عصر نوح مع الدراسات الاثارية حيث تطابقت تحليلات النص مع التقدير الزمني لعصر نوح (عليه السلام) الذي وضع عصره مع العصر الزراعي وبداية اكتشاف الفخار الذي يحصره علماء الآثار في الالف السابع قبل الميلاد او (الالف السادس الى الالف السابع) قبل الميلاد . وقد تمثل هذا العصر في اعظم الكشوفات الاثرية وهي قرية جرمو في شمال العراق قرب مدينة جمجمال الحالية . حيث كشفت قرية يقدر عدد بيوت السكن فيها بـ (خمسة وعشرين بيتاً) وقدر عدد سكانها بحوالي ١٥٠ نسمة ويرجع تاريخها الى عصر اقدم من سنة ٦٧٠٠ ق م . وقد ربطنا في الدراسة بين عصر نوح (عليه السلام) وبين عصر جرمو بسبب نكر القرآن الكريم للتطور وهو محل النار الذي يشكل دلالة على اكتشاف الفخار وصناعته المرتبطة بالنار » وقد اكتشفت في جرمو مجموعة من المجارح لطحين الحبوب وتنانير لمعل الخبز ومجموعة من الاقراص الطينية المتقوية والتي يمكن ان تكون مستخدمة في عملية الفزل^(١١) وقد عبر استخدام الفخار في عصر جرمو عن وعي وتطور في مستوى الحياة البشرية » وان صناعة الفخار والمثور عليه في موقع جرمو وفي الطبقة الخامسة تنير تساؤلات عديدة ومهمة . فالمعروف ان صناعة الفخار تعد واحدة من الصناعات الرئيسية المكملة لطبيعة المجتمع الزراعي

(١٥٤) الدباغ / د . تكي مع د . وليد الجادر / عصر قبل التاريخ / ص ١٢٧

وبخاصة في مراحل ممارسة الزراعة المبكرة ولا يحتمل امكان العثور على صناعة الفخار في مدة اقدم من مدة صناعته في جرمو . وكذلك فان اهداء الافراد من الممارسين للزراعة المبكرة في الاقسام الشمالية في وادي الرافدين لصناعة الفخار كان بعد انتقال الجماعات من الكهوف الى بيوت بسيطة من مواد غير طينية . فصناعة الفخار قد تم التوصل اليها بعد استقرار هذه التجمعات السكانية في بيوت مستقرة وعلى شكل مستوطنات ثابتة نوعا ما . وصناعة الفخار بالنتيجة تعد واحدة من الخطوات المهمة التي تحدد طبيعة تعامل الافراد مع البيئة الجديدة وفي سبيل توافر الضروريات من الصناعات المكملة لهذا المجتمع القروي الزراعي الجديد . وان صناعة الفخار قد سبقتها صناعة الاواني من الحجر اصبحت عملياً بصورة كبيرة ويعد هذا التطور على وعي جيد^(١٠٠) . وهذه الاستنتاجات تتطابق مع الاستنتاجات التي توضحها النصوص القرآنية عن طبيعة عصر نوح (عليه السلام) وتكامل النضج الانساني والتفكير التي طرأت على طبيعة الحياة في هذا العصر . من اقتناء الاموال والبساتين والفخار والعلاقة الطبقة وطبيعة مستوى الانراك والتفكير التي يمكن استنتاجها من خلال الحوار الذي سجله القرآن الكريم بين نوح (عليه السلام) وقومه .

٤ - تعرضت الدراسة لاهم حادث في عصر نوح (عليه السلام) وهو الطوفان وافردت له مبحثاً خاصاً وقد قارنت الدراسة بين الرواية القرآنية للطوفان والرواية التوراتية وحددت اوجه الشبه والاختلاف بين الروايتين وقد تم نقد الرواية التوراتية استنادا الى الممطيات العلمية للعصر الحديث وكذلك اشرنا الى الاوهام والاحشاء التي احاطت بالرواية الاسلامية نتيجة تلقي هذه الاخبار من اهل الكتاب وتم تحديد قاعدة أساسية هي لا بد من اسقاط هذه الروايات من المصادر الاسلامية وتنقيتها من الخيال والخرافة بسبب الاعتماد على الرواية الاسرائيلية وان القرآن الكريم يخلو من أية شائبة من هذه الشوائب وان الاكتفاء باللص القرآني يوفر حصانة من الخطأ بالنسبة لدارس التاريخ والتفسير . وكذلك تضمنت الدراسة البحث عن الطوفان في

الرقم الطينية وقد ربطت الدراسة بين الرواية القرآنية والتوراتية ورواية الرقم الطينية وتم تحليل خبر الطوفان الذي تضمنته ملحمة كلكامش والرواية البابلية للطوفان والرواية السومرية وتوضح من خلال هذا الربط بان الطوفان الذي تحدثت عنه الرقم الطينية هو طوفان نوح (عليه السلام) تحديداً . وكذلك الشخصية الرئيسية في الطوفان هي شخصية واحدة وهي التي تتحدث عنها الرواية القرآنية والتوراتية والرقمية وهي شخصية النبي نوح (عليه السلام) مع ملاحظة تلبس الاساطير والخرافة التي تعلقت عبر العصور بهذه الشخصية . وكذلك اثبتت الدراسة ان المعلومة التي اوردها القرآن الكريم عن طبيعة عمر نوح (عليه السلام) التي اكدتها التوراة والرقم الطينية فقد وجد علماء الآثار في قائمة سلسلة اثبات الملوك ان العراقيين القدماء كانوا يعتقدون ويتداولون فيما بينهم مسألة طول اعمار الملوك والحكام القدماء .

5 - من الانبياء الذين تضمنتهم الدراسة إبراهيم (عليه السلام) (ابو الانبياء) وتعرضنا الى دراسة حياته (عليه السلام) مع مرور سريع على حياة الانبياء اولاده المباشرين (اسماعيل واسحاق) عليهم السلام . وكذلك تطرقت الدراسة لمعاصره ابن اخيه لوط (عليه السلام) . وكذلك تضمنت الدراسة التعرض الى النبي ايوب (عليه السلام) والآراء المختلفة عن عصره ونبوته ومكانها . وتابعتنا دراسة حياة وسيرة الخليل (عليه السلام) من موطنه الاول في العراق وانتقاله الى حران ثم الى فلسطين موطن استقراره النهائي وعلاقته بمكة (بيت الله الحرام) وهاجر واسماعيل وعلاقتهم بالقبائل العربية التي سكنت عندهم عن زمزم وتعرضت الدراسة لاحدى المعالم التي يمكن ان ترتبط بين عصر ابراهيم (عليه السلام) والوضع الاجتماعي وطبيعة هذا العصر . هذه الصفة والميزة التي ميزت عصره عن عصر نوح هي ان الله تعالى ذكر في القرآن الكريم انه انزل صحفاً على ابراهيم وهذا يدل على وجود معالم شريفة وتعاليم تضمنتها هذه الصحف وكذلك يدل على شيوع الكتابة في عصره (عليه السلام) ولم يذكر القرآن الكريم ان هناك صحفاً قبل ابراهيم (عليه السلام) وانما اطلق عليها الصحف الاولى بينما تحدث عن عصر نوح (عليه السلام) بانه كان يعمل ارتباطاً بالنبي (عليه السلام) من خلال الطاعة ﴿ ان اعبدوا الله

وتقومه وأطعمون ﴿١١١﴾ بينما مثل عصر ابراهيم (عليه السلام) تغييراً في طبيعة العلاقة بين الارض والسماء . وان كتابة التعاليم والشرعية يؤدي الى انتقالها وتداولها ضمن بيئة جغرافية واسعة . لذلك قمنا بدراسة شريعة حمورابي ، لان المؤرخين الآتاريين وضعوا حمورابي في عصر مقارب ومواز للتكديرات التي وضع فيها عصر ابراهيم (عليه السلام) وتوضح لدينا من خلال الدراسة ان شريعة حمورابي متطابقة في بعض مواضعها مع ما موجود في التوراة من احكام وعقوبات وقد ثبتنا هذه الاحكام لان القرآن الكريم يثبت هذه الحقيقة وبذلك ترجح لدينا ان شريعة حمورابي والتوراة مصدرها واحد وذلك بموجب الدراسات الغربية وموسوعة وست منستر والدراسات التي قام بها شراح المعهد القديم . وهذا يميز القناعات بان شريعة حمورابي لم تأت من ابداع المشرع في عصره وانما جاءت نتيجة ارتباط الحياة العراقية القديمة بتراث الانبياء لا سيما ان شريعة حمورابي سبقتها شرائع اقدم منها مما يشير الى عدم قدرة العقل البشري ومستوى الوراثة في تلك العصور على ابداع هذه الشرائع لو لم تكن هناك ارشادات وتعاليم لانبياء كانوا يتلقون هذه التعاليم من السماء . وكذلك نهونا من خلال دراستنا لعصر ابراهيم (عليه السلام) الى استبدال مصطلح السامية بالابراهيمية لعدم وجود دليل علمي يستند عليه دعاة السامية واكراما لفكرى خليل الرحمن ابراهيم ابي الانبياء (عليه السلام) .

٦ - تضمنت الدراسة في فصلها الاخير النبي يونس (عليه السلام) مع موازنة بين الرواية القرآنية والرواية التوراتية ودراسة عصر النبي يونس (عليه السلام) والقرية التي بعث فيها . مع موازنة للدراسات الآتارية عن نينوى ووصفها ودراسة طبيعة العصر من خلال نصوص القرآن الكريم ونتائج الدراسات الآتارية وافريت الدراسة مبحثاً عن المعجزة في حياة الانبياء وعن مفهوم المعجزة عقائدياً وفكرياً . وقارنت الدراسة بين قصة يونس (عليه السلام) في الرواية القرآنية والتوراتية وراقم طيني حوى معلومات عن اول الحكماء الذين يتلقون الوحي او الالهام وتمثل في شكل اسطوري لانسان نصفه بشر ونصفه الاخر سمكة اسمه اونس . وكذلك تضمنت الدراسة في

فضلها للرباع والآخر دراسة عن الانبياء الذين مروا بالعراق ولم يكن اصلهم عراقياً ومثل هؤلاء الانبياء السبي البابلي واستمرضت الدراسة من خلال تصديها لانبياء السبي البابلي نشوء بابل اول مدينة عظيمة في العالم . وعلاقة بابل ونيوى المحيبتان التاريخيتان باليهود والحروب بين العراقيين واليهود وكيف تم سبي اليهود على ايدي العراقيين مرتين في عشرين مختلفين العصر الاشوري والعصر البابلي الحديث .

- ٧ -

تضمنت الدراسة في فصولها متابعة منهجية القرآن في الرواية التاريخية وكيف تعامل القرآن الكريم منذ بداية خلق السماوات والارض في ستة ايام تعامل مع السنن والدواميس التي اودعها الله تعالى الوجود من النرة ومكوناتها التي اكتشفت في العصر الحديث انها خاضعة لناموس تخلق يعبر عنه دوران الالكترونات حول الذواة ومن قوانين لا تتخلف او تضطرب . والحياة وتنوعها وتطورها على وفق قوانين محكمة بها وتغير اشكال الحياة وتنوعها نحو الاحسن ثم ارتباط الحياة بالماء وانسجام الوجود والتكامل والتوازن ثم السماوات والنجوم والافلاك كل هذا يحكي قصة العظمة التي تتجلى في مخلوقات هذا الخالق العظيم كما يقول غوتيه في مقطوعة رائعة من قصيدته : « عندما يتدفق في الابدي الشيء نفسه مكررا ذاته ابدا ، وتماسك آلاف القناطر جبارة بعضها بيمض ، تفيض الرغبة في الحياة من كل الاشياء من اضخم النجوم واتفه المر وكل أجهاد وجهاد هو هدوء سرمدى في الله »^(١١٧) وما اعظم من القرآن الذي يعتمد عن اهواء وشطحات الشعراء ويضريتهم الناقصة ان يستلم الكمال المطلق ويبين الخالق عن خلقه في آيات تتدفق في اعماق الانسان الشعور بالايمان الحقيقي بقوله تعالى ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن انفسهم وما لا تعلمون ﴾^(١١٨) وفي قوله تعالى ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها ان تكرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾^(١١٩) .

(١٥٧) هيلدجر / اسوالد / تطور الحضارة الغربية / ج ١ ص ٦ .

(١٥٨) سورة يس / ٣٦ .

(١٥٩) سورة يس / ٣٨ - ٤٠ .

٨ - تبينت من خلال الدراسة أهمية العراق تاريخياً ودينياً حيث ارتبط تاريخ العراق القديم منذ بداياته و فجر حضارته مع الايمان والانبياء . وقد ربطنا من خلال دراسات الآثار والتاريخ القديم بين الانبياء وتاريخهم وما حوته الرقم الطينية التي حوت معلومات قيمة ولها اثر فعال في بلورة فهم منطقي يربط بين القرآن الكريم والتاريخ القديم وتاريخ الانبياء وهي دراسة اول مرة فهما بحسب ربطت بين الآثار والحفريات والنص القرآني وتاريخ الانبياء وهي خطوة اولى على الطريق ، نامل ان يتابع المشروع من خلال باحثين آخرين يغلون هذا الميدان بحثاً وتقصياً للوصول الى الحقيقة التي تعرضت عبر مسلسل معقد من التشويش والتشويه وطمس المعالم لمسيرة الانبياء . وهي محاولة لتقريب الفجوة بين دراسات التاريخ القديم ونتائج الحفريات والدراسات التاريخية الدينية ومقارنة الايمان .

بلقد امتازت ارض الرافدين بميزات جعلتها اهلاً لان تكون بداية تجمع البشرية الاولى بتأسيس المجتمعات السكانية وقبيلها سكانها انسان الكهوف بسبب توافر مصادر الامن الحياتية من ماء وطعام واعتدال في المناخ مما رشحها لان تكون نقطة البداية للتاريخ البشري ثم احتضنت بلاد الرافدين المجتمعات البشرية الاولى واختير الانبياء من هذه المجتمعات الاولى . وان طبينة الدهرين والفيضانات التي كانت تجتاح المنطقة كل نك وند وعباً وحماً وحفز العراقيين القماء على الابداع نتيجة لتحدي الظروف الطبيعية على رأي تويلبي . لذلك نكر شراح العهد القديم ومتتبعو التاريخ الديني بان جنة آدم كانت على ارض الرافدين حيث الروافد النهرية المهمة وكذلك بداية المجتمع بعد آدم كانت على ارض الرافدين وهكذا تتابعت الاجيال والقرون والانبياء من بعد آدم حتى عصر نوح الذي تضافرت الالة على انه كان على ارض الرافدين وحدث الطوفان الذي يعد من اهم الاحداث في تاريخ البشرية بعد بعث آدم واختياره للنبوة ، وبعد الطوفان لم تنته البشرية وانما نمرت قرية النبي نوح (عليه السلام) وبقيت القرى التي لم تتاثر بالطوفان قائمة والدليل على ذلك بقاء اصنام قوم نوح في التراث الديني لمناطق عديدة في الشرق الاقصى وشبه جزير العرب . اذ لو كان الطوفان قد دمر العالم القديم فكيف نفسر بقاء الاصنام التي عكز عليها قوم نوح في قبائل العرب الى حد قبيل الاسلام ؟ وكيف يفسر وجود كتابات على رقم طينية تذكر آلهة قوم نوح ؟ لو لم تكن هذه المخلوقات من بقايا ثقافة قوم

نوح الذين هلكوا وبقيت اثار ثقافتهم علي المجتمعات الاخري لانها لم تتعرض للظوفان ... وبعد نوح (عليه السلام) وبعد الطوفان الذي حصل في عصره حيث مضت آلاف السنين على ارض الرافدين سكنت القران عنها ولكن الآثار والقرى التي كانت تحت تراب بلاد النهرين تؤكد ان الحياة كانت مستمرة وتتعاقد بوتائر مطربة . ثم جاء عصر ابراهيم (عليه السلام) وكان ابتداء دعوته من ارض العراق وقد توضحت لدينا من خلال متابعة الانبياء على ارض الرافدين قضية مهمة وهي ان اصل الايمان والقبائل السابقة للمروية للصريحة قد بدأ من العراق وان جميع الانبياء الذين ارسلهم الله سبحانه وتعالى في هذه المنطقة والمناطق التي تجاورها كانوا يمهنون لظهور النبي العظيم محمد (ﷺ) . وقد اشار الامام محمد عبده الي هذه الحقيقة في كتابه (رسالة التوحيد) فذكر ان الايمان الاولي خاطبت الحس يوم كانت الانسانية في طور الطفولة لا يعرف الانسان فيها الا ما يقع تحت حسه ولا يتناول بذهنه من المعاني ما لا يقرب من لمسه فلما سار ركب الانسانية وجررت وكسبت وتخالفت واتفتقت وتكلمت في السعادة والشقاء اياما واياما وغالبها الوجدان وبدت العواطف جاء دين يتحدث عن الزهانة وعن الصفاء وملكوت الله ، ولكن الانسانية في صراعها لم تستطع ان تعيش على الايتار ولم يطل مقامها في الصفاء فراحت تتعارك وحلت القطيعة محل التراحم وحل التخاصم مكان المسالمة فجااء دين ينظم الشؤون كلها ويرعى الحس والعاطفة ويدرس العقل والقلب وينظم للناس شؤون دنياهم وأخرتهم ويقول الاستاذ سيد قطب في تفسير قوله تعالى : ﴿ مصفياً لما بين يديه ﴾ ، ان هذا الكتاب (القرآن) الذي نزل بالحق يصلق ما بين يديه من الديانات التي سبقته وامتدت الي زمانه يصدقها في اصولها في صورة من صور الحق التي جاء بها الرسل مناسبة لزمانهم محققة لاغراضها في تلك الزمان وكلما تغيرت الحاجة جاء طور من الديانة جديد ، يتفق في اصله ويختلف في فروعه تدريجاً مع الحاجات مع تصديق اللاحق للسابق في اصل الوحدانية الكبير (١١٠) .

لقد كان دور وادي الرافدين عظيماً عبر التاريخ فان اول النبوات والرسالات كانت على ارضه وان اول الحضارات قامت على ارضه ولا بد لهذا التاريخ الذي شغل الناس والمكرين والفلاسفة من ان يكون ارضاً من ارضات الدور القائم لهذا المكان من العالم . في المستقبل القائم الذي لن يكون بعيداً بإنه تعالى .

المصادر ا

- (١) القرآن الكريم .
- (٢) الكتاب المقتبس :- (ترجمة تفسيرية - الطبعة الثالثة) .
المعهد القديم .
- المعهد الجديد (الاناجيل الاربعة) (متى ، لوقا يوحنا ، مرقس) .
- (٣) انجيل برنابا - ترجمة د. خليل سماعة / مطبعة محمد علي صبيح
واولاده - طبع على نفقة محمد رشيد رضا .
- (٤) ابن ابي العز / ابو عبدالله محمد بن ابي بكر المشقي ٧٩٢ هـ / شرح العقيدة
الطحاوية / تحقيق شعيب الارناؤوط وعبدالله بن عبدالمحسن التركي /
مؤسسة الرسالة .
- (٥) ابن الاثير / محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني
ت ٦٣٠ هـ / الكامل في التاريخ .
- (٦) ابن تيمية / شيخ الاسلام تقي الدين ابو العباس احمد ت ٧٢٨ هـ /
النبوات .
- (٧) ابن جنبي / ابو الفتح عثمان / الخصائص / تحقيق محمد علي النجار ،
دار الشؤون الثقافية بفداد ١٩٩٠
- (٨) ابن الجوزي / ابو الفرج جمال الدين بن علي بن محمد ت ٥٩٧ هـ /
المدحش ، تحقيق د. مروان قباني / دار الكتب العلمية / بيروت / د. ت .

- (٩) ابن حجر / ابو العباس احمد بن محمد الهيتمي ت ٩٧٤ هـ / الزواجر عن اقتراف الكبائر / دار الكتب العلمية / بيروت ١٩٨٧
- (١٠) ابن خلدون / عبدالرحمن بن محمد ت ٨٠٨ هـ / المقدمة / تحقيق علي عبدالواحد وافي / لجنة البيان العربي / مصر / ط ١ سنة ١٩٥٧
- (١١) ابن الفقيه / ابو بكر احمد بن ابراهيم الهمداني / مختصر تاريخ البلدان / ١٣٠ هـ .
- (١٢) ابن القيم / ابو عبدالله محمد بن ابي بكر الدمشقي ت ٧٥١ هـ / مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والارادة / دار الكتب العلمية / بيروت / د . ت .
- (١٣) ابن كثير / ابو الفداء اسماعيل ت ٧٧٤ هـ / قصص الانبياء .
- (١٤) ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / دار المعرفة / بيروت - ١٩٦٩
- (١٥) ابن هشام / عبدالملك ت ٢١٨ هـ / السيرة النبوية / تحقيق مصطفى السقا وجماعة / دار الفكر / د . ت .
- (١٦) .الازرقبي / ابو الوليد محمد عبدالله بن احمد ت ٢٤٤ هـ / اخبار مكة وما جاء فيها من الآثار / تحقيق رشدي الصالح ملحس / مطابع دار الثقافة / مكة المكرمة / ط ٢ / ١٩٦٥
- (١٧) الحنبلي / ابن رجب زين الدين ابو الفرج عبدالرحمن شهاب الدين بن احمد / جامع العلوم والحكم / دار العلوم الحديثة بيروت / د . ت .
- (١٨) الرازي / محمد بن ابي بكر بن عبدالقادر / مختار الصحاح / المكتبة الاموية / ١٩٧١
- (١٩) الزبيدي / التجريد الصريح لاحاديث الجامع الصحيح .
- (٢٠) الزبيدي / محمد مرتضى ت ١٢٠٥ هـ / تاج المروس من جواهر القاموس .
- (٢١) السهيلي / ابو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن احمد ابن ابي الحسن الخنمسي ت ٥٨١ هـ / الروض الانف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام / دار المعرفة ١٩٧٨
- (٢٢) السيوطي / الاتقان في علوم القرآن / دار الكتب العلمية / بيروت ١٩٨٧

- (٢٣) السيوطي / الاكليل في استنباط التنزيل / تحقيق / سيف الدين عبدالقادر الكاتب / دار الكتب العلمية / ط ٢ / بيروت / ١٩٨٥
- (٢٤) السيوطي / جلال الدين ت ٩١١ هـ / الدر المنثور في التفسير بالمأثور / دار الفكر / بيروت / ١٩٨٣
- (٢٥) الطبري / ابن جرير ابو جعفر محمد ت ٣١٠ هـ / تاريخ الرسل والملوك / تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم / طه / دار المعارف / القاهرة / د. ت .
- (٢٦) المسقلاني / ابن حجر احمد بن علي ت ٨٥٢ هـ / فتح الباري بشرح صحيح البخاري / دار المعرفة / بيروت / تحقيق محيي الدين عبدالحميد .
- (٢٧) القرطبي / ابو عبدالله محمد بن احمد الانصاري ت ٦٧١ هـ / الجامع لاحكام القرآن / دار الكتب المصرية / ط ٣ / ١٩٦٧
- (٢٨) المسعودي / ابو الحصن علي بن الحسين ت ٢٤٦ هـ / مروج الذهب وممانن الجوهر / تحقيق محيي الدين عبدالحميد .
- (٢٩) النووي / محيي الدين يحيى بن شرف بن مري / صحيح مسلم بشرح النووي / دار احياء التراث العربي / بيروت / ١٩٨٤
- (٣٠) اليحصبي / القاضي ابو الفضل عياض ت ٥٤٤ هـ / الشفا بتمريف حقوق المصطفى / دار الفكر / بيروت / د. ت .

- (٣١) ابو مفلي / د. سميح / في فقه اللغة وقضايا العربية / دار مجدلاوي / عمان / الاردن / ط ١ / ١٩٨٧
- (٣٢) المغروس / روبرت . م مع جورج ستاينسو / العلم في منظوره انجديد / ترجمة د. كمال الخلايلي / سلسلة عالم المعرفة / الكويت / ١٩٨٩
- (٣٣) ابن نبي / مالك / الظاهرة القرآنية / دار الفكر / طرابلس / لبنان / د. ت .
- (٣٤) الاحمد / د. سامي سميد / تاريخ فلسطين / القديم مركز الدراسات الفلسطينية / بغداد / ١٩٧٩
- (٣٥) الاحمد / د. سامي سميد / ملحمة كلكامش / دار التربية / بغداد / ١٩٨٤
- (٣٦) يارو / الدرهب / سومر فنونها وحضارتها / ترجمة د. عيسى سلمان / طه التكريتي / بغداد / ١٩٨٧
- (٣٧) باقر / د. طه / مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة القسم الاول - تاريخ العراق القديم / بغداد / ط ٢ / ١٩٥٥ -
- (٣٨) باقر / د. طه / ملحمة كلكامش / منشورات وزارة الاعلام / بغداد / سنة ١٩٧٥ .

- (٣٩) برستد / د. جوهاميس هنري / العصور القديمة / ترجمة داود قريان /
المطبعة الامريكانية / بيروت / ١٩٢٦
- (٤٠) بويز / كارل / يؤس التاريخية / ترجمة سامر المطلبي / بغداد .
- (٤١) بوكاي / موريس / القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم دراسة للكتب المتقدمة
في ضوء المعارف الحديثة / دار المعارف / لبنان / ط ٤ / ١٩٧٧ .
- (٤٢) بوكاي / موريس / اصل الانسان / ترجمة مكتب التربية العربي لنول
الخليج / الرياض / ١٩٨٥
- (٤٣) توليدي / ارنولد / تاريخ البشرية / ترجمة نقولا زيادة / المكتبة الاهلية /
بيروت / ١٩٨٨ .
- (٤٤) تيريز / براين / علم الاجتماع والاسلام - دراسة نقدية لفكر ماكس فيبر /
ترجمة احمد باقابر / دار العلم / بيروت / ١٩٨٧
- (٤٥) جعفر / د. نوري / الفكر طبيعته وتطوره / بغداد / ط ٢ / ١٩٧٧ .
- (٤٦) جمال / د. سمير يحيى / الانسان ذلك المخلوق المجيب / مكتبة
منبلي / القاهرة / د. ت .
- (٤٧) الجلدي / نور تصحيح اكبر خطأ في تاريخ الاسلام الحديث / السلطان
عبدالحميد والخلافة الاسلامية / دار ابن زيد / بيروت / ١٩٨٧
- (٤٨) جورج / دولي / عمارة الالف السادس قبل الميلاد في تل الصوان .
- (٤٩) حاطوم / د. نورالدين مع مجموعة اساتذة / التدخل الى التاريخ / مطبعة
الانشاء / دمشق / ١٩٦٥ .
- (٥٠) حتي / سليم ملحم / منهل الضرائح / دار الفارس / بيروت د. ت .
- (٥١) حصين / د. طه / فلسفة ابن خلدون الاجتماعية .
- (٥٢) الحوت / محمود سليم / في طريق الميتولوجيا عند العرب / دار للنهار
بيروت / ١٩٧٩ .
- (٥٣) خليل / د. عمادالدين / التفسير الاسلامي للتاريخ / دار العلم للملايين /
بيروت / ١٩٧٥ .
- (٥٤) خليل / د. عمادالدين / حول اعادة تشكيل العقل المصمم / بغداد /
مطبعة منير / ١٩٨٥ .
- (٥٥) الدباغ / د. تقي / الوطن العربي في العصور الحجرية / هيئة كتابة

التاريخ / بغداد / ١٩٨٨

(٥٦) الدباغ / د. تقي مع د. وليد الجابر / عصور ما قبل التاريخ / جامعة بغداد / ١٩٨٣ .

(٥٧) لوزة / د. محمد عزة / تاريخ بني اسرائيل من اسفارهم / المكتبة المصرية / بيروت / بيروت / ١٩٦٩

(٥٨) لوزة / د. محمد عزة / تاريخ موجات الجنس العربي ودولها ومآثرها في العراق قبل العروبة الصريحة / المكتبة المصرية / بيروت .

(٥٩) الدوري / د. عبدالعزيز / مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي / دار الطليعة / بيروت .

(٦٠) بويرانت / ول / قصة الحضارة / مطابع الدجوي / القاهرة / ط ٤ / ١٩٧٣

(٦١) الذهبية / د. محمد حسين / التفسير والمفسرون / دار الكتب الحديثة / بيروت / ط ٢ / ١٩٧٦

(٦٢) رشيد / د. فوزي / الشرائع العراقية القديمة / دار الحرية للطباعة / بغداد / ١٩٧٣

(٦٣) رشيد / د. فوزي / الملك حمورابي مجدد وحدة البلاد / الموسوعة الذهبية / بغداد / ١٩٩١ .

(٦٤) رشيد / د. فوزي / الملك نبوخذ نصر الثاني / الموسوعة الذهبية / بغداد

(٦٥) رشيد / د. فوزي / سرجون الاكدي اول امبراطور في العالم / الموسوعة الذهبية / بغداد / ١٩٩٠

(٦٦) رو / جورج / العراق القديم / ترجمة حسين علوان / وزارة الثقافة والاعلام / بغداد / ١٩٨٤

(٦٧) روز / ستيلين وآخرون / علم الاحياء والايديولوجيا والطبيمة البشرية / سلسلة عالم المعرفة / الكويت / ترجمة د. مصطفى ابراهيم فهمي .

(٦٨) الزبيدي / د. كاسد ياسر / الطبيمة في القرآن الكريم / بغداد .

(٦٩) سابق / سيد / العقائد الاسلامية / دار الكتاب العربي / بيروت / د. ت .

(٧٠) سعد الدين / د. ليلي حسن / مثل النين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا / دار الفكر / عمان / ١٩٨٤

- (٧١) سفج / جي ام / التطور ترجمة د. ساهي جواد ضاحي / جامعة الموصل / ١٩٨٥
- (٧٢) السلطان / عبدالمجود / الموصل في المهدين الراشدين والاموي / الموصل / مطابع جامعة الموصل / ١٩٨٥
- (٧٣) سوسة / د. احمد / تاريخ حضارة وادي الرافدين في ضوء مشاريع الري والمكتشفات الآتارية والمصادر التاريخية .
- (٧٤) سوسة / د. احمد / حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين .
- (٧٥) سوسة / د. احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / دار الرشيد / بغداد / ١٩٨١
- (٧٦) السيد / د. رضوان / الامة والجماعة والسلطة / دار اقرأ / بيروت / ١٩٨٤
- (٧٧) شبلنجر / اسوالد / تدهور الحضارة الفسرية / ترجمة احمد الشيباني / مكتبة الحياة / بيروت / د. ت .
- (٧٨) شلبي / د. احمد / مقارنة الاديان (الاسلام) مكتبة النهضة المصرية / ط ٥ / ١٩٧٧
- (٧٩) الشوك / علي / الاساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة / دار لام / لندن / ١٩٨٧
- (٨٠) الصابوني / محمد علي / النبوة والانبياء .
- (٨١) صبحي / محمد الدين / ملامح الشخصية العربية في التيار الفكري المعادي للامة العربية / دار العربية للكتاب / انترنيت / ليبيا / صرابلس .
- (٨٢) عبدالقواب / د. رمضان / فصول في فقه العربية .
- (٨٣) عبدالرحمن / د. نصرت / الواقع والاسطورة في سفر نثيب الهنلي الجاهلي / عمان .
- (٨٤) عبدالمنم / هـ ا . نبيلة / محاضرات في تكوين التاريخ .
- (٨٥) العزاوي / د. عبدالرحمن حسين / الطبري السيرة والتاريخ / دار الشؤون الثقافية / بغداد ١٩٨٩
- (٨٦) المقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / دار اخبار اليوم / سلسلة

- كتاب اليوم / مصر / ١٩٥٣
- (٨٧) علي / د. جواد / المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام / دار العلم
للملايين / بيروت / ١٩٨٦
- (٨٨) علي / د. فاضل عبدالواحد / الطوفان / مطبعة اوقسيت الاخلاص /
جامعة بغداد ١٩٧٥
- (٨٩) علي / د. فاضل عبدالواحد / سومر اسطورة وملحمة / دار الشؤون
الثقافية العامة / بغداد / ١٩٩٧
- (٩٠) علي / د. فاضل عبدالواحد / من الواح سومر الى التوراة / دار الشؤون
الثقافية / بغداد / ١٩٨٩
- (٩١) العمري / د. اكرم ضياء / السيرة النبوية الصحيحة / مكتبة العلوم
والحكم / المدينة المنورة ١٩٩٢
- (٩٢) غلاب / د. محمد السيد / تطور الجنس البشري / القاهرة .
- (٩٣) فرانكفورت / هنري / فجر الحضارة في الشرق الاوسط / ترجمة ميخائيل
خوري .
- (٩٤) فرويد / سيجموند / موسى والتوحيد / ترجمه جورج طرابيشي / دار
الطلیعة / بيروت / ط ٣ / ١٩٧٩
- (٩٥) فريحة / انيس / ملاحم واساطير من اوغاريت رأس الشمر / دار النهار /
بيروت / ١٩٨٠
- (٩٦) الفندي / محمد جمال الدين / الله والكون / الهيئة المصرية للكتاب /
١٩٧٦
- (٩٧) الفوزان / صالح بن فوزان / الارشاد الى صحيح الاعتقاد / الرياض
- (٩٨) القرضاوي / د. يوسف الخصائص العامة للاسلام .
- (٩٩) قطب / سيد / في ظلال القرآن / دار الشرق / بيروت / ١٩٨٥ .
- (١٠٠) قطب / محمد / كيف نكتب التاريخ الاسلامي / دار الكتاب الاسلامي /
ط ١ / ١٩٩٢
- (١٠١) قلعجي / د. محمد رواس / قراءة جديدة لمسيرة النبوية / دار البحوث
العلمية / الكويت / ط ٢ / ١٩٨٤

(١٠٢) الكبيسي / عبدالسلام / البناء الحضاري في القرآن الكريم / رسالة ماجستير .

(١٠٣) كريم / صموئيل نوح / الواح سومر / ترجمة د. طه باقر .

(١٠٤) كلنفل / هورست / حمورابي ملك بابل وعصره / ترجمة د. غازي شريف / دار الشؤون الثقافية / بغداد / ١٩٨٧

(١٠٥) كونتينو / جورج / الحياة اليومية في بلاد بابل وأشور / ترجمة سليم طه التكريتي / دار الشؤون الثقافية / بغداد / ط ٢ / ١٩٨٦

(١٠٦) لابات / رينيه / المعتقدات في بلاد وادي الرافدين مختارات من النصوص البابلية / ترجمة الاب البيير ابونا مع د. وليد الجادر / جامعة بغداد / ١٩٨٨

(١٠٧) لنتون / رالف / شجرة الحضارة قصة الانسان منذ فجر ما قبل التاريخ حتى بداية العصر الحديث / ترجمة د. احمد فخري / مكتبة الانجلو مصرية / د. ت .

فهرس الموضوعات ا

٥	المقدمة
	الفصل الاول
٩	ظهور الانبياء واثره في حضارات وادي الرافدين
	الفصل الثاني
٧٥	النبي نوح (عليه السلام) ابو البشرية الثاني
	الفصل الثالث
١٧٧	ابراهيم الخليل (عليه السلام) ابو الانبياء
	الفصل الرابع
٢٨٢	النبي يونس (عليه السلام)
٣٤٩	الخاتمة
٣٥٩	المصادر
٣٦٣	المراجع